١٩٢٩

مكتبة نوبل

توماس مان

دكتور فاوستوس

٢



ترجمة

محمد جديد


محمد خطاب


دكتور فاوستوس
(جزء ثاني)
محمد خطاب



مكتبة نوبل

Author :Thomas Mann	اسم المؤلف : توماس مان
Title : Dr. Faostos/2	عنوان الكتاب : دكتور فاوستوس/ ٢
Translator: Mouhamed Jadeed	ترجمة : محمد جديد
Al- Mada P. C.	الناشر : المدى
First Edition 2000	الطبعة الأولى : عام ٢٠٠٠
Copyright © Al-Mada	الحقوق محفوظة

The publication of this work was subsidized by a grant from INTER NATIONES. Bonn.

دار المدى للثقافة والنشر

سوريا - دمشق صندوق بريد : ٨٢٧٢ أو ٧٣٦٦

تلفون : ٢٧٧٦٨٦٤ - ٢٣٢٢٢٧٥ - ٢٣٢٢٢٧٦ - فاكس : ٢٣٢٢٢٨٩

Al Mada Publishing Company F.K.A. Cyprus

Damascus - Syria , P.O.Box . : 8272 or 7366 .

Tel: 2776864 - 2322275 - 2322276 , Fax: 2322289

E - mail : al - madahouse @ net.sy : البريد الالكتروني

١٩١١

مكتبة نوبل

توماس مان

دكتور فاوستوس

(جزء ثاني)

ترجمة

محمد جديد




محمد خطاب

(٢٦)

إنه لما يعزيّ النفس أنني أستطيع أن أقول لنفسي إن القارىء لن يكون من حقه أن يحمِّلني عبء الحجم الفائق للفقرة السابقة الذي يفوق عدد الصفحات الباعث للإزعاج في الفصل الذي يتناول محاضرات كريتشمار الى حد بعيد، وذلك أن التخمين المرتبط بهذا يخرج عن إطار مسؤوليتي الخاصة بالتأليف، ولاينبغي لي أن أحفل به. ولأن إخضاع توقيع أدريان لأي تحرير يسهِّل المسألة، وتقسيم هذا «الحوار» (وليلاحظ المرء المعقوفتين الاحتجاجيَّتين اللتين أُرْفق بهما هذه الكلمة، من دون أن أخفي عن نفسي بالطبع أنهما لاتقدران على تخليصها إلاّ من جزء من الفزع الذي يلازمها) - الى فقرات تحمل كلٌّ منهنَّ رقماً على حدة، ماكانت لتحملني عليه مراعاةٌ لمقدرة الجمهور على التلقيّ يمكن أن ينتابها الإرهاق. لقد كان عليّ أن أروي، بروح من التقوى مفعمة بالألم والمعاناة، بعض المعطيات، فأنقلها من أوراق مذكرات أدريان الى مخطوطتي، ولقد نقلت هذا، لا كلمة فكلمة فحسب، بل حرفاً فحرفاً، كما يحق لي أن أقول - وكنت كثيراً ما أضع ريشتي، إذا كان من بواعث راحتي واستجمامي أن أمسك عن ذلك، لكي أذرع حجرة عملي بخطوات مثقلة بالأفكار، أو لألقي بنفسي على الأريكة ويداي معقودتان على جبيني، حتى لقد كان الفصل الواحد، الذي لم يكن عليّ

سوى أن أنسخه، لايخرج من بين يديّ، اللتين كانتا ترتعدان في بعض الأحيان، في وقت أسرع مما يقتضيه أي فصل سبقه، من تأليفي الخاص.

والنسخ الحافل بالدلالة والأفكار يعدّ في الواقع (بالقياس إليّ على الأقل، وإن كان يوافقني على هذا أيضاً المونسينور هِنْتَربفورتْنَر) عملاً لايقلّ على تدوين المرء أفكاره الخاصة من حيث شدّة وطأته واستهلاكه للوقت، ومثلما أرى أن القارئ، ربّما قدّر فيما سبق من النقاط، عدد الأيام والأسابيع التي كرَّسْتُها لقصة حياة صديقي الخالد الذكر، دون قدره، سيكون الآن أيضاً قد قصَّر به تصوُّره عن الموعد الذي أكتب فيه سطوري الراهنة، وقد يضحك من تحذلقي هذا، غير أني أرى أن من الحق أن أدعه يعرف أنني منذ شرعت في هذه التدوينات قد ذهبت الى الريف، منذ عام مضى على كتابة أحدث الفصول في نيسان ١٩٤٤.

ومن البدهي أنني أقصد بهذا التاريخ ذلك الذي أمارس عملي بالانطلاق منه - لاذلك الذي وصلت قصتي إليه، والذي يرجع الى خريف عام ١٩١٢، أي قبل اثنين وعشرين شهراً من نشوب الحرب الماضية، حين عاد أدريان أدراجه، مع روديجر شيلدكناب، من بالسترينا الى مونيخ، واتخذ، من جانبه، مسكناً له، أولْ الأمر، في نُزُل عائلي للغرباء في شفابينج (بنسيون جيزيللا). ولست أدري لماذا يستحوذ على اهتمامي هذا التأريخ المزدوج، ولماذا تلحّ على خاطري الإشارة إليه: إنه الزمن الشخصي والموضوعي الذي يواصل فيه القاصّ تحركُّه، والذي ينعكس فيه المَرْوِيّ. إنه هذا التشابك الخصوصي تماماً بين مساريْ الزمن، والمخصص بالمناسبة، لكي يرتبط بثالث أيضاً: ألا وهو الزمن الذي سوف يأخذه القارىء ذات يوم من أجل التلقّي المقترن بالقَبول الحسن لما يتم

الإفضاء به، بحيث يترتَّب على هذا أن يتعامل مع زمن ثلاثيّ التضاعيف: زمنه الخاص، وزمن المؤرخ، والزمن التاريخيّ.

ولا أريد أن أتيهَ مِنْ بعدُ في هذه التأملات التي تحمل، في نظري، طابع العبث الذي لاغَناء فيه، وإنما أريد أن أضيف الى ذلك فحسب، أن كلمة «تاريخي» تنطبق بعنفوان أكثر تَجَهُّماً الى حد بعيد، على الزمن الذي أكتب فيه مما تنطبق به على ذلك الزمن الذي أكتب عنه. وفي الأيام الأخيرة احتدم القتال حول أوديسّا، وهي معركة حافلة بالخسائر انتهت بسقوط المدينة الشهيرة على البحر الأسود في أيدي الروس، من دون أن يتمكن الخصم بالطبع من إفساد عمليات تبديل القوات. ولن يكون، فوق ذلك أيضاً، بلاريب، على استعداد لانتزاع رهينةٌ أخرى من رهائننا في سيباستوبول التي يبدو أنه يريدها من باب أولى، وهو المتفوِّق على مايبدو. وفي هذه الأثناء يتنامى الفزع من الهجمات الجوية اليومية تقريباً، على أوروبا، معقلنا الحَسَن التحصين عند حزامه، الى الحد الذي يتجاوز الأبعاد العادية. وماذا يجدي أن يسقط الكثير من الأشياء المَهولة التي تُنْزِل الدمار المصحوب بقوى ناسفة مطردة الزيادة أبداً، ضحية لدفاعنا البطولي؟ فالآلاف منها تَغْشى بظلمتها سماء القارة المتحدة بجرأة، وما تفتأ مدن أخرى من مدننا، الواحدة بعد الأخرى، يغرقن أبداً في الأنقاض، ولقد أصاب هذا مؤخراً لايبتسج التي تلعب دوراً له أهميته البالغة في نشأة ليڤركون ومأساة حياته، بعنفوانه الكامل. وبات حيُّ الناشرين المشهور فيها، كما لم يكن لي بدٌّ أن أسمع، مجرد كومة من الأنقاض، وأصبح تراث أدبيّ للتعليم والاستغلال، نهباً للدمار - خسارة فادحة الى أقصى الحدود لم تنزل بنا نحن الألمان

فحسب، بل بالعالم الذي يحرص على الثقافة ويهتمّ بها، والذي يبدو أنه يريد أن يتحمَّل مَغَبّتها عَمْيانَ أو مصيباً - فأنا لاأجرؤ على الفصل في هذا.

أجل، إني لأخشى أن يكون مما يفضي بنا الى الدمار أن تجر الى ميدان الصراع سياسة تحدوها نوايا خطيرة مصحوبة في الوقت ذاته، بقوة عالمية من أغنى القوى بالطاقة البشرية، وهي فوق ذلك يرتفع بها المدّ الثوري، وتتمتع بطاقة إنتاجية هائلة الى الحد الأقصى، - كما يبدو أيضاً كأن هذه الآلة الإنتاجية الأمريكية لم تكن في حاجة حتى الى أن تجري بأقصى سرعتها لتقذف بفيضٍ من آلة الحرب يسحق كل شيء. أما أن الديمقراطيات المحطمة الأعصاب تعرف، حتى كيف تستخدم هذه الوسائل الرهيبة، فتلك تجربةٌ مذهلة، تُخرج المرء من سكرِه، ونحن نعوّد أنفسنا في كل يوم، وعلى نحوٍ مطّرد الزيادة، على كيفيةَ التخلص من خطأ النظر الى الحرب على أنها امتياز ألماني، وأن الآخرين لابدّ أن يثبتوا أنهم أغرارٌ عاجزون في فن القوة. لقد شرعنا (وما عُدْنا، أنا والمونسنيور هنتر بفورتنر نشكل استثناء في هذا) نتزوُّد بكل الأشياء على الإطلاق، من تقنية الحرب الأنكلوسكسونية، وها هو ذا التوتر الناجم عن الغزو يتصاعد: الهجوم من كل الجهات، بالمادة المتفوقة، وبملايين الجنود، على قلعتنا الأوروبية - أم هل ينبغي لي أن أقول: على سجننا، أم أقول على نُزل مجانيننا؟ - يُتوقَّع ولايقدر على الوقوف في وجه الفزع العام مما هو قادم إلاَّ موازنته بوزن مقابل روحي يتمثل في الأوصاف المؤثرة الى أقصى الحدود، التي توصف بها الإجراءات الوقائية المتخذة ضد الإنزال المعادي الذي يبدو أنه عظيم حقاً - وهي إجراءات وقائية مكرسة لحمايتنا وحماية القارة من خسارة زعيمنا الحالي.

وما من شك في أن الزمن الذي أكتب فيه يتمتع بزخم تاريخيّ أشد الى حد بعيد من ذلك الذي أكتب عنه، زمن أدريان الذي لم يتجاوز به عتبة حقبتنا التي لاتصدق، ويخيل إليّ أن من الواجب على المرء أن يهتف له، أو يهتف لكل أولئك الذين ماعادوا معنا، والذين لم يكونوا معنا، حين بدأ هذا، قائلاً لهم «سُقياً لكم!»، وأن يهتف من أعماق القلب قائلاً: «سلامٌ عليكم في مرقدكم!» وإنَّ تَواريَ أدريان عن أيام حياتنا لهو أغلى عندي، وإني لأُقدِّرهُ وأضعهُ نُصب عينيّ ويسرُّني أن أتحمل من أجله، لكي يتاح لي أن أظل واعياً له، أهوال العصر الذي أُواصل حياتي فيه. ويخيل إليّ أني أقوم مقامه وأعيش من أجله، بدلاً منه، وكأني أنهض بالعبء الذي أُزيح عن كاهله، وبمختصر القول، كأني أُوليه جميلاً حين أرفعه عنه، لأعيش بدلاً منه، وهذا التصور يبعث على ارتياحي مهما يكن قائماً على الوهم، بل جنونياً، وهو يدغدغ على الدوام ما أُعلقه من رغبة في خدمته، ومعونته، وحمايته، هذه الحاجة التي لم يتهيَّأ لها الإشباع في حياة الصديق إلا بقدرٍ ضئيل للغاية.

*

ويبقى لديّ مما هو جدير بالذكر أن إقامة أدريان في نُزُل شفابنج العائلي لم تَدُمْ إلاّ بضعة أيام، وأنه لم يقم بمحاولة على الإطلاق للعثور على مسكن دائم ملائم في المدينة. وكان شيلدكناب قد كتب، وهو بعدُ في إيطاليا، الى مؤجِّريه السابقين في شارع أماليا وأمَّنَ لنفسه المأوى المعتاد من جديد. ولم يكن أدريان يفكر في اتخاذ مسكن من جديد لدى زوجة الشيخ رودّه، مثلاً، ولا أن يظل في مونيخ على الإطلاق، وبدا أن

قراراته قد ثبتت بصمت منذ عهد بعيد - وذلك في الحقيقة بحيث لم يقم أيضاً، قبل ذلك، برحلة عابرة الى بفايفرنج، عند ڤالدسْهوت، للتعرُّف والاتفاق، بل استعاض عن ذلك بمجرد حديث هاتفيّ كان فوق ذلك مقتضباً تماماً. وهتف، من نزل جيزيللا العائلي، لآل شفايجشْتِل - وكانت المتحدثة هي الأم إلزا ذاتها التي أجابته على الهاتف، - وقدم نفسه على أنه أحدَ الرحّالَيْن على الدراجة اللذين أتيح لهما فيما مضى أن يتفقّدا المنزل والمزرعة، وسأل هل يزمع القوم أن يَدَعوا له حجرة نَوم في الطابق العلوي، وحجرة رئيس الدير في الطابق الأرضي للإقامة في النهار، وبأي سعر يفعلون هذا. أما السعر الذي تبين بعد ذلك أنه جِدُ معتدل، وكان يشمل تقديم الطعام والخدمة، فقد أجلته السيدة شفايجشْتل أول الأمر هنيهة، واستفسرت أول الأمر عمَّن يكون هو من بين كلا الزائرين اللذين جاءا في تلك الأيام، أتراه الكاتب أم الموسيقي، وأحاطت علِماً، بمراجعةٍ ملموسةٍ لانطباعها عن تلك الأيام، أنه الموسيقي، وأعربت عن هواجسها بسبب التماسه، ثم في اهتمام بمصلحته الخاصة وحدها، ومن زاوية وجهة نظره الخاصة، - وكان هذا بالمناسبة أيضاً في مجرد صيغة تفيد أنها تحسب أن من الأفضل له أن يعرف ماينفعه. وقالت إن آل شفايجشْتل ليسوا ممن يؤجرون في العادة، من أجل الكسب، بل يقبلون المستأجرين والنزلاء الطاعمين من حينٍ الى آخر، أو من حالةٍ الى أخرى إن صح التعبير، وقالت إنه كان في وسع السادة في تلك الأيام أن يستقوا ذلك من أخبارهم وأنها تترك له مسألة هل يرى، هو المتحدث، أنه يمثل الآن مثل هذه المناسبة أو مثل هذه الحالة. وقالت إنه سوف يجد الجو عندهم هادئاً، وعلى وتيرة واحدة، وهو بالمناسبة جوٌ

بدائي أيضاً، فيما يتعلق بأسباب الراحة: فليس هناك حمام، ولا دورة مياه، بل يوجد مايَحل محل ذلك من أشياء الفلاحين، خارج المنزل، وأبدت تعجبها من أن سيداً لما يبلغ الثلاثين، إذا كانت قد فهمت حق الفهم، وهو يمارس أحد الفنون الجميلة، يريد أن يتخذ مسكناً له في الريف، في مثل هذا الموقع النائي عن المرابع التي تنعكس فيها آثار الحضارة، وقالت إن «التعجب» ليس هو الكلمة الصحيحة، إذ ليس من شأنها ولا من شأن زوجها أن يتعجبا، وإنه إذا كان هذا هو مايلتمسه، على وجه الخصوص، لأن معظم الناس يتعجبون فيفرطون في التعجب بالفعل، فعليه المجيء فحسب. وقالت، ولكن من الواجب التفكير، ولاسيما ماداما، هي وزوجها ماكس يعلقان أهمية على أن لاتكون مثل هذه العلاقة ناجمةً عن مجرد مزاح، وممكنة الانقطاع بعد تجربةٍ قصيرة، بل يحب أن يكون هناك تفكير بمدةٍ معينة، بصورة مسبقة، وقالت أليس كذلك، أموافق أنت، ونحو ذلك.

وأجاب أدريان قائلاً إنه آتٍ لمدى طويل، وأن المسألة قد تم التفكير فيها منذ أيام وسنين، وأن نمط الحياة الذي ينتظره قد تم التدقيق فيه من الداخل، ووجده مستحسناً ومقبولاً. وقال إنه يوافق على السعر البالغ مئة وعشرين ماركاً أما اختيار حجرة النوم عندها، فيدعه لها وأنه يَسرُهُ أن تكون له حجرة رئيس الدير، وهو يعتزم الانتقال خلال ثلاثة أيام وهذا ماحدث، واستغل أدريان إقامته القصيرة في المدينة لعقد اتفاقات مع ناسخٍ أُوصي به (وأعتقد أنه أوصيَ به من قبل كريتشمار) وهو عازف الفاغوت الأول في أوركسترا تسابفنشتوسَّر، ويدعى جريبنكيرل، وكان يكسب بعض المال عن طريق هذه المهنة الإضافية، وترك جزءاً من النوطة

الموسيقية الخاصة بمسرحية (خاب سعي العشاق) في يده ولم يكن قد فرغ تماماً في بالسترينا، من عمله، وكان مازال يعمل في التوزيع الأوركسترالي للفصلين الأخيرين، كما أن الأمور لم تكن قد استقامت معه فيما يتعلق بالافتتاحية ذات الشكل السوناتي التي كان تصورها الأصلي قد تغير عليه من جراء مدخل ذلك الموضوع الجانبي المدهش والغريب كل الغرابة عن الأوپرا، والذي يلعب في التكرار وفي حركة الختام السريعة دوراً بالغ الطرافة، وكان يعاني فوق هذا كثيراً من العناء في تدوين التعليمات الخاصة بالإنشاد وسرعة الوقع، التي كان قد فاتته الإشارة إليها أثناء التأليف الموسيقي، على مسافاتٍ بعيدةٍ. وكان من الواضح عندي بالمناسبة أن إنهاء إقامته الإيطالية لم يتوافق عن طريق المصادفة مع اختتام عمله، وحتى لو أنه كان يطمح، عن قصدٍ، الى هذا التوافق لما تحقق ذلك بناءً على نيةٍ خفية، وكان أكثر اتساماً الى حدٍ بعيد بسمة الرجل الذي يحافظ على المستوى الجيد أبداً، وعلى إثبات ذاته حيال الظروف، من أن يرى أن من المرغوب فيه أن يصل في صدد المسألة التي بولغ فيها في حالة سابقة، الى حافتها وصولاً نقياً خالصاً في حالة تبدُّل في مشاهد الحياة، وأن الأفضل، من أجل الاستمرارية الداخلية، كما قال هو نفسه، أن يورد في الأحوال الجديدة، بقيةً من المشاغل القديمة العائدة إليها، وأن لايحيط ببصره بشيء جديد من الوجهة الداخلية إلا عندما يكون هذا قد تحول، في ظاهره، الى روتينٍ جديد.

وانطلق الى هدفه بمتاعه الذي لم يكن قطُّ ثقيلاً، وكان منه حقيبة ملفات تضمّ النوطة الموسيقية وحوض المطاط الذي كان يعوِّضه عن

الحمام منذ أن كان في إيطاليا، مُرْتَحِلاً من محطة شتارنبرج في أحد قطارات الركاب، التي لم تكن تتوقف في ڤالدسهوت فحسب، بل كانت تتوقف أيضاً، بعد عشر دقائق في بفايفَرِنج، وترك للشحن صندوقين فيهما كتب وأدوات ولوازم. ووصل تشرين الأول الى نهايته وكان الطقس الذي مازال جافاً، قد غدا قاسياً، مكفهراً، وكانت الأوراق تتساقط. وكان ابن آل شفايجشْتِلْ، جيريون، وهو ذاته الذي كان قد أدخل آلة نثر السماد الجديدة، وهو مواطن شاب من أهل الزراعة، أقرب الى أن يكون قليل الحظ من التمدُّن، قليل الكلام، غير أنه واثق من نفسه، فيما يتصل بشؤونه، ينتظر الضيف، قبالة المحطة الصغيرة، على مقعد طويل في عربة نقل ذات هيكل مرتفع ونوابض شديدة المقاومة، وترك حبل السوط، يمارس لعبته على ظهر الجوادين البنيَّيْن المشدودين الى العربة، والمتميِّزين ببروز عضلاتهما. ولم يجر تبادل الكثير من الكلمات في الرحلة، وكان أدريان قد رأى الرومبوهِل مع إكليله من الأشجار، وصفحة الماء الرمادية في بركة ملامَرْ، مرة أخرى، وهو بعدُ في القطار، ثم استقرت عينه الآن، عن كثب، على هذه الظاهرات. وسرعان ما لاح له منزل آل شفايجشْتِل الذي يتخذ شكل دير من عصر الباروك. وكانت العربة ترسم، في فناء البيت الريفي المربَع المكشوف، قوساً حول شجرة الدردار القديمة القائمة في الطريق التي كان جزء كبير من أوراقها يرقد على المقعد الطويل الدائري.

وكانت السيدة شفايجشْتِل تقف، مع كليمنتينا، ابنتها، وهي فتاة ريفية بنيّة العينين، في زي فلاحيّ لائق، أمام باب المنزل الذي يعلوه الشعار الكهنوتي. وغابت كلماتها الترحيبيّة في غمرة نباح الكلب المقيَّد

بالسلاسل، الذي داس بقدميه، في الأطباق من فرط الانفعال وكاد يقتلع كوخه المكسوَّ بالقش، من مكانه، ولم يكن يخشى شيئاً من أن تصيح به الأم، أو ابنتها أو فتاة الحظيرة ذات القدمين الملوَّثتين بالروث، التي كانت تساعد في إنزال المتاع (ڤالتبورجيس) قائلات: «أُغْرِبْ، ياكاشبرل، والزم الهدوء!» (إذ كانت كلمة "stati" الألمانية القديمة التي ظلت على حالها في اللهجة المحلية، قد أصبحت في الألمانية الوسيطة "staete" ثم "stet"، بمعنى «هادئ» و «غير متحرك») وواصل الكلب هديره، وتقدَّم منه أدريان بعد أن لبث هنيهة يرمقه ببصره وهو يبتسم، وقال: «سوسو»، من دون أن يرفع صوته، بتوكيد تحذيري ينطوي على الدهشة، وإذا الحيوان يُخْلِد الى الهدوء تحت تأثير الصوت المُدَنْدِن الذي كان يهدِّئ من روعه، من دون مرحلة انتقالية تقريباً، ويسمح لُمناشِده أن يمدّ إليه يده، ويداعب برقةٍ قحفَ رأسه الحافل بالنُّدوب من جراء المُهارَشات القديمة، إذ كان يرفع عينيه الصفراوين إليه في جدٍّ عميق.

وقالت السيدة إلزاحين عاد أدريان أدراجه الى الباب: إنك لجريء، ياسيدي المحترم! فمعظم الناس يهابون هذا الحيوان، وعندما يقوم هذا بعمله كما يفعل ذلك الآن، لايستطيع أحد أن يؤاخذ أحداً في ذلك، معلم القرية الشاب، الذي كان عند الأطفال من قبل - ياإلهي - لم يكن سوى كاشبرل، هذا - وكان مايفتأ يقول: «الكلب، يا سيدة شفايجشْتِل، أنا أخشاه!».

وقال أدريان وهو يومئ برأسه، ضاحكاً: «أجل، أجل، ودخلا المنزل، في جَوِّ التبغ، ثم صعدا الى الطابق العلوي، حيث أدخلته السيدة حجرة النوم المخصصة له من الممر الأبيض الذي تفوح منه رائحة العفن، مع

الخزانة الملوَّنة، والسرير ذي البهرجة الكثيرة، وكان القوم قد قاموا بشيء أخير، وأضافوا كرسياً أخضر بمسند، له غطاء مرتوق، على الأرض المكسوَّة بأرضية من خشب الشربين، ووضع جيريون وڤالتبورجيس حقائب اليد هناك.

وهنا، على الطريق، وهم ينزلون على السلم من جديد، بدأت الترتيبات من أجل خدمة النزيل ونظام حياته، واستؤنفت بعد ذلك وتم تحديدها في حجرة رئيس الدير في الأسفل، في هذه الحجرة الأبويّة القديمة التي كان أدريان قد استحوذ عليها منذ عهد بعيد في سريرته: الإبريق الكبير من الماء الساخن في الصباح، والقهوة الثقيلة في حجرة النوم، وموعد الوجبات، - وكان المفروض ألاّ يتناولها أدريان مع العائلة، إذ لم يكن القوم ينتظرون هذا، كما أن المواعيد جاءت مبكرة أكثر مما ينبغي بالقياس إليه، إذ كان ينبغي أن تُجَهَّز المائدة له، وحده، في الثامنة والنصف، وأفضل مايكون ذلك في الحجرة الكبيرة، في الأمام (في قاعة الفلاحين التي تنتصب فيها إلهة النصر وبيانو المائدة)، كما قالت السيدة شفايجشْتِل التي يفترض، على أية حال، أن تكون تحت تصرُّفه حسب الحاجة. ووعدت بطعام خفيف، من لبن، وبيض، وخبز محمَّر، وأنواع من حساء الخضار، وشرائح من لحم البقر الجيد النيئ، مع السبانخ، للغداء، وبعد ذلك عجة سهلة الإعداد وفيها مُرَبَّى التفاح، وجملة القول: وعدت بأشياء تغذي وتكون مع ذلك مستعذبة بالقياس الى معدة حسّاسة مُحَيِّرة، مثل معدته.

«المعدة، ياعزيزي، لاتكون في الغالب، أبداً هي المعدة، بل هو الدماغ، الحسّاس، المُجْهَد، حيث يكون له تأثير كبير على المعدة، حتى

عندما لاينقص هذا شيء على الإطلاق» مثلما يعرف المرء ذلك من خلال دوار البحر، وعن طريق الشقيقة... أجل، إنه يعاني من الشقيقة في بعض الأحيان، وهي في الحقيقة معاناة ثقيلة حقاً؟ وقد تصوَّرت ذلك بلاريب! تصوَّرت ذلك بالفعل، من قبل، حين كان يبحث، وهو في حجرة النوم، في الأدراج، وفي إمكانية حلول الظلام، بحثاً بالغ الدقة، إذ كان يرى أن الظلمة، والرقاد في الظلام، والليل، والظلام، وعلى وجه الإطلاق: حين لايكون ثمة نور في العينين، هذا هو الصحيح مادامت البلوى مستمرة، وفوق ذلك شاي ثقيل حقاً، حامض حقاً، باستعمال الكثير من الليمون، ولم تكن السيدة شفايجشْتِل تجهل الشقيقة - وأقصد بذلك أنها لم تعرفها هي ذاتها أبداً، غير أن زوجها، ماكس كان يعاني منها معاناة دورية في السنين الأولى، غير أن هذه الآفة تلاشت مع الزمن، ولم تكن تريد أن تسمع اعتذارات النزيل عن عاهته، وأنَّه هرَّب الى المنزل نزيلاً مريضاً فَصْليّاً، إن صح التعبير، بل كانت لاتزيد على أن تقول في ذلك: «دَعْ عنك هذا، بربِّك!» وكانت ترى أنه لابدّ للمرء أن يتصوَّر شيئاً ما، من هذا القبيل، ذلك لأنه عندما ينسحب المرء من هناك، حيث تدور عجلة الحضارة، الى بفايفرينج، فستكون لديه أسبابه، وأن المسألة تتعلّق، على مايبدو، بلاريب، بحالة تقتضي التفهُّم»، أليس كذلك، ياسيد ليفركون؟» وكانت تقول إن هذا مكان للتفهُّم، وإن لم يكن من مواطن الحضارة، كما كانت السيدة الطيبة تقول أشياء أخرى سواها.

وكانت تنعقد بينها وبين أدريان في تلك الأيام، وهي واقفة، أو رائحةٌ غادية، اتفاقات يفترض، على نحو ربما كان غير متوقع بالقياس

الى كليهما، أن تنظم لكلّ حياته الظاهرية، ثم استدعي نجار القرية لكي يقيس أبعاد المكان في حجرة رئيس الدير على جانبي الباب من أجل رفّ لاستقبال كتب أدريان، على أنه لم يكن، مع ذلك، أعلى من الكساء الخشبي القديم تحت البساط الجلدي، كما تمّ الاتفاق في الوقت ذاته أيضاً على وصل التيار الكهربائي بالثريّا التي كانت قد تخلّفت عليها أعقاب الشموع، كما شهدت الحجرة أيضاً مع الزمن هذا التغيير أو ذاك، وهي الحجرة التي كان مقدّراً لها أن تشهد ميلاد العدد الجمّ من روائع الأعمال الفنية التي مازالت يُضَنُّ عليها بالمعرفة والإعجاب حتى اليوم، بدرجة تقل أو تكثر. وسرعان ماكان بساط يكاد يملأ المساحة، يغطي ألواح خشب الأرضية التي أصابها الأذى، وكان ضرورياً للغاية في الشتاء، وأضيف الى هذا، فضلاً عن المقعد الكبير من طراز سافونارولا، أمام منضدة العمل، المقعد الطويل عند الركن، الذي كان يشكل إمكانية القعود الوحيدة، ومن دون التزويق الأسلوبي الذي لم يكن من شأن أدريان، مقعد للمطالعة والاستراحة، بعد بضعة أيام، وكان بالغ الانخفاض مكسواً بالمخمل الرماديّ جيء به من محلات برنهايمر في مونيخ، وكان قطعة مستحسنة، كانت، مع الجزء الخاص بالقدمين الذي يمكن جَرُّه إليها، وهو مقعد صغير كالوسادة، أقرب الى أن تستحق اسم المقعد الطويل (الشيزلونج) من الأريكة المألوفة، وكانت قد أسدت الى مالكها خدمات جُلىّ على مدى عقدين من الزمان.

وإنما أذكر المشتريات (من بساط ومقعد) من قصر التجهيز في ميدان مكسيميليان، بصورة جزئية، بغية إيضاح أن التردد على المدينة كان يلقى التشجيع المريح عن طريق وسائل الاتصال الكثيرة بها،

بالقطارات، التي كان منها العديد من القطارات السريعة التي كانت تحتاج الى أقل من ساعة، وأن أدريان لم يقطع الجسور تماماً بينه وبين الحياة الثقافية، ولم يدفن نفسه باستقراره في بفايفرينج، في العزلة الكاملة، كما يمكن أن يحمل على أن نظن هذا أسلوب السيدة شفايجشْتِل، وحتى حين كان يرتاد حفلاً مسائياً، أو حفلة موسيقية، أو شيئاً كهذا لفرقة تسابفنشتوسر، أو عرضاً لأوپرا، أو سهرة – وكان هذا يحدث أيضاً – كان يوجد تحت تصرفه قطار من قطارات الساعة الحادية عشرة للعودة في الليل. ولم يكن يحق له بالطبع أن يُدْخِل في حسبانه أن تأتي به الى المنزل من المحطة عربة آل شفايجشْتِل، إذ كانت تتولى مثل هذه الحالات اتفاقات مع محل للعربات في ڤالدسهوت – بل كان، بالمناسبة، يحب أن يجتاز الطريق على قدميه في أجواء ليالي الشتاء الصافية بحذاء حوض الماء، الى بيت آل شفايجشتل الريفي، حيث يعرف، في هذه الساعة، كيف يعطي كاشْبِرْل الطليق من الأغلال، أو سوسو، على البُعد، إشارة لكيلا يُحْدِث جلبة، وكان يفعل ذلك بصفّارة معدنية صغيرة يمكن تعديل صوتها ببزال صغير، وكان لأصواتها العليا عدد من الذبذبات يبلغ من ارتفاعه أن الأذن البشرية لاتكاد تلتقطه، حتى على القرب. وكانت هذه الأصوات، في مقابل ذلك، تحدث أثراً بالغ الشدة، وعلى مسافة شاسعة الى حد مدهش، في غشاء طبل الكلب ذي النوعية المختلفة كل الاختلاف، وكان كاشبرل يتصرّف تصرف الهادىء الوديع حين يتغلغل في أذنه الصوت الخفيّ الذي لم يكن يسمعه أحد سواه، عبر أجواء الليل.

وكان الفضول، ومعه الجاذبية، هما اللذان كانت شخصية صديقي

المنغلقة ببرود، بل الوَجِلة في كبرياء، تمارس بهما جاذبيّتها على فريق من الناس، حتى لقد بات يوجد، في أجل قريب، على نحو معكوس، هذا الزائر أو ذاك من المدينة في مَلاذهِ. وأريد أن أدع الأولوية لشيلدكناب، الذي كان يتمتع بها في الواقع، إذ كان، بالطبع، أول من أقبل الى هنا ليرى كيف كان أدريان يعيش في المَرْبَع الذي كانا قد عثرا عليه معاً. وكان، بعد ذلك، يقضي عطلة نهاية الأسبوع، ولاسيما في أيام الصيف، عنده في بفايفرينج. وكان تْسنك وشبنجلر يزورانه على الدراجة، لأن أدريان قد سلّم من جديد، على آل رودّه في شَارع رامبيرج بينما كان يتبضّع، وعلم المصوِّران الصديقان، من بناتِهما، بعودته، وإقامته هناك. وكانت المبادرة الى الزيارة في بفايفرينج من قبل شبنجلر كما أشارت الى ذلك كل التقديرات، لأن تْسنك، الذي كان، في عمله مصوِّراً، أكثر موهبة وأحْفَل بالدوافع من ذاك، غير أنه أبْعَدُ كثيراً عن الرقة والتهذيب، لم يكن يميل على الإطلاق، الى روح أدريان، وكان معادياً في الأساس، بلاريب، لكل ما كان يُعْرَض عليه، من باب التزلُّف الى النمسا، مع تقبيل الأيدي، والإعجاب الكاذب، بحكم كونه الطرف المتماسك. وكانت أفانين تهريجه، والآثار الناجمة عن المقالب، والتي كان يستمدها من أنفه الطويل وعينيه المتقاربتين إحداهما من الأخرى، واللتين كانتا تنوِّمان النساء تنويماً مغناطيسياً على نحو مضحك، لاتنطلي، الآن مرة أخرى، على أدريان، على الرغم مما كان يتسم به من تقبله المتن، للهزليّ، في العادة، غير أن هذا يعاني من الغرور، ثم إن تْسنْك الشهواني كان له أسلوب مملّ يتمثل في الانتباه الى كل كلمة ليرى لعلَّ معنى إضافياً، جنسياً أُرْفِق بها، ليضع عينيه عليه، – وهو

جنون لم يكن بفتن أدريان كما لاحظ تْسِنك.

وكان شبنجلر يضحك مُشَنِّعاً، من أعماق قلبه، لهذه الأحوال العارضة، وقد برقت عيناه وارتسمت نُقرةُ صغيرة في وجنته، وكان الجانب الجنسي يُمْتِعه إمتاعاً أدبياً، إذ كان الجنس والظرف يرتبطان عنده برباط وثيق، - الأمر الذي لايعد خطأ قي حد ذاته. وكانت ثقافته (كما نعلم ذلك بالطبع)، وحب الرقَّة والتهذيب، وخفة الروح، يَرْجِعْن في الأساس الى علاقته العارضة وغير الموَفَّقة، بأجواء الجنس، والالتزام الجسدي به، وهو الالتزام الذي كان يمثل سوء الحظ الصرف، ولم يكن على الإطلاق مميِّزاً لطبعه وهواه في هذا الصدد، بعد ذلك، وكان يثرثر، مبتسماً، بأسلوب تلك الحقبة الثقافية الجمالية الذي يبدو اليوم متسماً بسمة الاستغراق العميق، متحدثاً عن الأحداث الفنية، وعمّا ظهر من الأعمال الأدبية والطرائف التي تهمّ هواة الكتب، ويتحدَّث عن الشائعات التي تدور في مدينة مونيخ، ويطول حديثه بطريقة مضحكة جداً عن حكاية تروي كيف تعرض الدوق الأكبر في ڤايمار، والكاتب المسرحي ريتشاردفوس، اللذان كانا معاً في رحلة الى أبروزين(*)، لغارة من قبل عصابة حقيقية من اللصوص، - الأمر الذي لاريب في أنه كان مدبَّراً من قبل فوس، وكان يروي لأدريان أفانين من الظُرف البارع عن أغانيّ برينتانو التي كان هو قد اشتراها ودرسها على البيانو، وكان قد صرَّح في تلك الأيام بأن الاشتغال بهذه الأغاني يعني إفساداً تربوياً حاسماً، ويكاد يكون خَطِراً: فليس من السهل أن يتهيّأ للمرء شيء مختلف من هذا النوع الأدبي، ولا أن يروق له، ثم إنه كان يتحدث بعد ذلك بأشياء

(*) منطقة جبلية في الآبينين، شمال شرقي روما «المترجم».

مستحسنة تماماً عن الإفساد، - من حيث أن هذا كان يمسّ أول الأمر الفنان الذي يعاني من الفاقة الشديدة، ذاته، ويمكن أن يتحول الى خطر عليه. ذلك لأنه كان يزيد في صعوبة الحياة عليه مع كل عمل فني يخلّفه وراءه، على أنه يجعلها بعدُ مستحيلة في النهاية، إذ لابدّ أن يفضي به تدليل الفنان لنفسه عن طريق مايخرج عن المألوف، ويفسد الذوق في كل شيء آخر، الى التفكُّك، والى ما لايمكن إنجازه ولايعود من الممكن العمل من أجله. ويقول إن المشكلة بالنسبة الى صاحب الموهبة العالية، مثله، هي أنه يظل، على الرغم من الإفساد المطرد الزيادة والاشمئزاز المستفحِل، متوقِّفاً في إطار ما يمكن عمله.

وكان شبنجلر فائق البراعة - على أساس التزامه النوعيّ، مثلما كان يشير الى ذلك التماع عينيه وتبرُّمه، وكان يأتي بعد هذا جانيت شورْل، ورودي شفيرتفيجر، الى الشاي، لرؤية مكان سُكنى أدريان.

وكانت جانيت، وشفيرتفيجر يعزفان الموسيقا معاً أحياناً، سواء أكان ذلك أمام ضيوف السيدة شورل العجوز، أم في جوّ خاص، وهكذا اتفقا على الرحلة الى بفايفرينج، حيث تولى رودولف الإبلاغ الهاتفي. أمّا مسألة هل كان الحافز قد صدر عنه أم عن جانيت، فقد ظل البحث في ذلك متروكاً، بل كانا يتجادلان في ذلك بحضور أدريان، وكان كل منهما يعزو الى صاحبه المأثرة المتمثلة في الاهتمام الذي أولياه إياه. على أن اندفاع جانيت المضحك يشهد على مقدرتها على الكتابة، ولكن هذه الخاطرة كانت تتوافق أيّما توافق مع الألفة المدهشة من جانب رودي، مرة أخرى أيضاً، وكان يبدو أنه يرى أنه كان قد خاطب أدريان بلهجة رفع الكلفة قبل عامين، على حين لم تنته المسألة الى هذه المخاطبة إلاّ

في مناسبات معينة تماماً، في الكرنفال، وكان ذلك عندئذ أيضاً من جانب واحد على الإطلاق، أي من جانب رودي، ثم استأنفها الآن من جديد بقلب طيب، ولم يمسك عن ذلك، - وكان ذلك، بالمناسبة، من دون أية حساسية - إلاّ حين رفض أدريان في المرة الثانية أو الثالثة أن يمضي على ذلك.

على أن استبشار شورل الذي لم تُخْفِه، بهزيمة روح المساعدة عنده لم يؤثِّر فيه على الإطلاق ولم يتجَلَّ في عينيه الزرقاوين أثر من الحيرة والبلبلة اللذين كان في وسعهما أن يعتملا بسذاجة، وإلحاح في عينَيْ من كان يقول شيئاً ينم عن البراعة والذكاء أو العلم والثقافة. ومازلت أتفكَّرُ حتى اليوم في شْفيرتْفيجر، وأسائل نفسي، الى أي مدى كان يتفهَّم في الحقيقة عزلة أدريان، ويتفهَّم بذلك أيضاً ماتنطوي عليه هذه العزلة من الفاقة، وقابلية الإغواء، والى أي مدى كان يرغب في الحفاظ، من جرّاء ذلك، على مواهبه الجذّابة، أو، إذا شئت أن أعبِّر عما في نفسي باللغة الفجّة، على مواهبه التي تجتذب الناس من كل جانب. وما من شك في أنه ولد للظَّفَر والغزو، ولكن لم يكن لي بدٌّ أن أخشى أن أقترف بحقه ظلماً إذا نظرت إليه من هذا الجانب فحسب، وكان أيضاً فتى طيِّباً وفناناً. أمّا أنه وأدريان، كانا يخاطب كلٌّ منهما الآخر بلهجة رفع الكلفة، بالفعل، فيما بعد، ويسمي كلٌّ منهما صاحبه باسمه الأوَّل، فذلك ما لاأودّ أن أنظر إليه على أنه نجاح مُزْرٍ لإعجاب شفيرتفيجر بنفسه، بل أريد أن أعزوه الى أنه كان يحس بقيمة الإنسان غير العاديّ إحساساً صادقاً، وكان متعاطفاً معه حقاً وصدقاً، وكان يستمدّ من ذلك الإصرار والعزم المذهلين اللذين أحرزا النصر آخر الأمر على برودة المزاج

السوداوي، وكان بالمناسبة نصراً تخشى عواقبه، غير أني أبادر بموجب عادة خاطئة قديمة.

وكانت جانيت شورل تعزف لموتسارت على بيانو المائدة في الصالون الفلاحي عند آل شفايجشْتل وعلى رأسها قبعة كان يمتدّ من حافتها نقاب رقيق، مشدوداً، الى أَرنبة أنفها، وكان رودي شفيرتفيجر، يُصَفِّر معها ببراعة فنية ممتعة الى حد الإضحاك: ولقد سمعت هذا، فيما بعد، أيضاً، عند آل روده وشلاجنهاوفن، وتركته يحدثني كيف شرع في التدرُّب على هذه التقنية وهو بعدُ غلام صغير للغاية، قبل أن يتلقى تعليمه على الكمان، وكان يتمرَّن، كلَّما غدا أو راح على متابعة اللحن بمجرد الصفير، لمقطوعات موسيقية سبق له أن سمعها، وأنه تابع تطوُّره بعد ذلك على نحو مطرد، من خلال ماتم اكتسابه. وكان هذا متألقاً - في براعة تتسم بالنضج، شأن أهل الملاهي، وتؤثِّر وتُعجِب على نحو يكاد يربو على العزف المقابل له، ولم يكن ثمة بدٌّ أَن يكون لديه استعداد فطري لها من الوجهة العضوية، بوجه خاص. وكانت الأغنية مستعذبة الى أقصى الحدود من جراء خاصة الكمان أكثر مما هي من جراء خاصة الناي، وكان التقطيع ينمّ عن براعة أستاذ كبير، وكانت العلامات الموسيقية الصغيرة تخرج منفردة أو مترابطة، فلا تخيب أبداً، أو لاتكاد تخيب، في دقة تشجي وتطرب. وجملة القول أن هذا كان ممتازاً. وكان اقتران الجانب السوقيّ الذي يَعْلَقُ الآن بهذه التقنية، بالجانب الذي لابدّ أن يُنْظَر إليه نظرة الجد، يثير مرحاً خصوصياً، وكان القوم يصفقون استحساناً وهم يضحكون، على غير إرادة منهم، وكان شفيرتفيجر أيضاً يضحك ضحكة الأولاد، وهو يشدّ كتفه داخل ثيابه، ويرسم بزاوية فمه تلك التقطيبة القصيرة.

كان هؤلاء إذاً أوائل ضيوف أدريان في بفايفرينج، وسرعان ما أتيت أنا أيضاً، وأخذت في المسير الى جانبه في يوم الأحد، حول بِركته، صاعداً حول الرومبوهِل. ولم أقضِ من الوقت بعيداً عنه سوى الشتاء، بعد عودته من إيطاليا. وفي عيد الفصح من عام ١٩١٣ كنت قد حصَلتُ على تعييني في ثانوية فرايزنج، حيث أجدى عليَّ مذهبي الكاثوليكي العائد الى أسرتي. وغادرت كايسرزآشرن وانتقلت، مع زوجتي وأولادي الى شاطئ الإيزار، في هذا المَرْبَع المهيب، وعند مقر الأسقفية الذي يرجع الى كثير من القرون، حيث قضيت حياتي مع الاتصال المريح بالعاصمة، وبصديقي أيضاً، باستثناء بضعة شهور من الحرب، وشهدت مأساة حياته وقد اعترتني هزّة تنطوي على المحبة.



(٢٧)

كان جريبنكيرل، العازف على الفاغوت قد أنجز نسخ النوطة الموسيقية لمسرحية «خاب سعي العشاق» على نحو يستحق التقدير البالغ. ودارت الكلمات الأولى التي قالها أدريان لي عند اللقاء، الى حد بعيد، حول الخُلُوّ الكامل تقريباً من الأخطاء في النسخ، وسروره بذلك. كما أظهر لي رسالة كتبها له هذا الرجل في غمرة عمله الدقيق، وعبَّر فيها بطريقة تنمّ عن الذكاء، عن نوع من الحماسة المشوبة بالقلق، حيال الموضوع الذي بذل فيه جهده، وأبلغ المؤلف قائلاً إنه لايستطيع أن يعبّر عن الكيفية التي حبس بها هذا العمل الفني أنفاسه، بجرأته وجدة أفكاره، وأنه لايستطيع أن يُوَفِّي دقة ترتيب الحساب وتَنَوُّع الإيقاعات، حقَّها من الإعجاب. وقال إن تقنية التوزيع التي يتمّ بها الحفاظ بوضوح كامل على نسيج من الأصوات معقد في كثير من الأحيان، ولاسيما في الخيال التأليفي الذي يتجلى في تبدُّل شيء مفترض وتعرُّضه لتنويعات متعددة الجوانب: ومثال ذلك استخدام الموسيقا الجميلة والمتسمة مع ذلك بالسمة نصف الهزلية، والعائدة الى شخصية روزالينا، أو يتم فيها، بالأحرى، التعبير عن شعور بيرون اليائس تجاهها، في المقطوعة الوسطى، من موسيقا البورّية(*)، ذات الأقسام الثلاثة، في الفصل

(*) Bruneé رقصة فرنسية قديمة «المترجم».

الختامي، هذا التجديد الفكاهي لقالب الرقصة الفرنسية القديمة مستظَرفٌ الى حد فائق، ويجب أن يُعَدَّ متسماً بسهولة الحركة وسلاستها، بأقصى مافي الكلمة من المعاني. وأضاف قائلاً: هذه الرقصة، أي البوريّة مميِّزة الى حد غير قليل، فيما يتعلق بالعنصر التاريخي القديم الذي يتم تمثيله، ويعبِّر عن الالتزام الاجتماعي، والذي يتحقَّق به التضادّ على نحو جذاب للغاية، مع انطوائه أيضاً على التحدي، التضادّ مع «العصري» والحرّ، والمفرط في التحرُّر، والمتمرِّد، كما يتحقق التضادّ أيضاً مع الارتباط اللَّحْني بالأطراف الرافضة في العمل الفني. وقال إنه لابد له الآن أن يخشى أن تغدو هذه المواضع من النوطة الموسيقية، بكل مافيها من الغرابة والبعد عن المألوف، وما فيها من هرطقة التَّلَقّي المعارضة، أبعد منالاً تقريباً من تلك المتسمة بالورع والصرامة. وقال إن المسألة تنتهي هنا في كثير من الأحيان الى تأمّل متجمِّد، فكري أكثر مما هو فني، في العلامات الموسيقية، والى موزاييك من الألحان لايكاد يتسم بعدُ بالفعالية من الوجهة الموسيقية، ويبدو أنه مخصَّص للقراءة أكثر مما هو مخصص للسماع، - الخ ... وضحكنا.

وقال أدريان «ليتني سمعت عن الغناء!»، فأنا أرى أنه يكفينا تماماً أن يكون الشيء قد سُمِعَ مرة واحدة، أي عندما ابتدعه المؤلف الموسيقي.

وبعد هنيهة أضاف قائلاً: «كأنّ الناس سمعوا، في أي يوم من الأيام ماسُمع هنا. التأليف الموسيقي يعني: تكليف جوقة من الملائكة بالتنفيذ لأوركسترا تسابفنشتوسَّر. وبالمناسبة أنا أعدُّ جوقات الملائكة شيئاً تأمُّلياً، نظرياً الى أقصى الحدود».

أمّا أنا فلم استصوب قول جريبنكيرل في تمييزه القاطع بين عناصر العمل الفني «التاريخية القديمة» و «الحديثة»، وقلت إن هذه العناصر يتداخل بعضها في بعض، ويتغلغل بعضها في بعض، وأقرّ ذلك، غير أنه لم يظهر كثيراً من الميل الى مناقشة ماتم الفراغ منه، بل بدا كأنه يخلّفه وراءه على أنه مسألة منتهية، ماعادت تعنيه. أما التقديرات المتعلقة بما يجب عمله فيها، والى أين يجب أن تُرسَل، وعلى من تُعَرض، فقد تركها لي. وكان مايهمه أن تصل النوتة الموسيقية الى ڤيندل كريتشمار ليقرأها، وأرسلها إليه، في لوبيك، حيث كان الرجل ذو اللَّعْثَمة مازال يمارس وظيفته الرسمية، وانتهى هذا بهذه الأوپرا هناك، بالفعل، بعد ذلك، أي بعد نشوب الحرب، في معالجة ألمانية، لم أكن بعيداً عن الإسهام فيها، الى العرض - المقترن بنجاح بلغ من ضآلته أن ثلثي الجمهور غادروا المسرح أثناء العرض - على نحو مماثل تماماً لما حدث في مونيخ قبل ست سنوات، لدى العرض الأول لمسرحية ديبوسّي «بيلياس وميليساند»، ولم تنته المسألة إلاّ الى مرتين من التكرار، ولم يكن مقدَّراً لهذا العمل أن يتجاوز في الوقت الحاضر حدود المدينة الهانزية على نهر الترافه. وانضمّ النقد المحليّ بالإجماع تقريباً الى حكم المستمعين غير أولي الاختصاص، وتهكَّموا على «الموسيقا التخريبيّة» التي تولّى أمرها هنا السيد كريتشمار. ولم يتحدث إلاّ أستاذ موسيقا طاعن في السن، كان القوم يحسبون أنه مات منذ عهد بعيد، منذ ذلك الوقت، بلاريب، يدعى ييمرْتال، عن خطأ في حكم العدالة سوف يصححه الزمن، وأعلن بكلمات صاغها باللهجة الفرنكية القديمة الغريبة، أن هذه الأوپرا عمل فني له مستقبله، حافل بالموسيقا العميقة،

التي ألفها ساخر بلاريب، وهو مع ذلك «مفعم بالفكر الربانيّ». على أن هذه اللفتة المؤثِّرة التي لم أسمعها قبل ذلك أبداً أو أقرأها، والتي لم تحدث لي قطُّ مرة أخرى فيما بعد، أحدثت لديّ الانطباع الأكثر خصوصية على الإطلاق، وكما لم أنسَ ذلك أبداً للرجل العالم الغريب الأطوار الذي استخدمها، فأنا أحسَبُ أن الأجيال التالية ستحسبها له فيما يُحسَب له مما يشرِّفه، وهي الأجيال التي استحضرها شهوداً ضد زملائه في الكتابة، المتخاذلين والمتبلِّدين في مضمار النقد.

وكان أدريان حين أتيت الى فرايزنج، يقوم بتلحين بعض الأغاني والأناشيد، من ألمانية وأجنبية اللغة، أي انكليزية. وكان قد عاد أوَّل الأمر الى وليام بليك، وقد لَحَّن قصيدة بالغة الغرابة لهذا الكاتب الذي كان محبَّباً إليه جداً، عنوانها «الليل الساكن، الأخرس»، وهي تلك القصيدة ذات الفقرات الأربع التي تحتوي كل منها على ثلاثة من الأبيات المقفَّاة المتناظرة، وتبدو فقرتها الأخيرة باعثة للوحشة بما فيه الكفاية:

ولكن اللهجة الحقيقية
تدمِّر نفسها، بالفعل
من أجل بغيّ تتظاهر بالخجل.

وقد أضفى المؤلف الموسيقيّ على هذه الأبيات التي تصدم المشاعر بما فيها من الالتباس والغموض، ألواناً من التناغم بالغة البساطة، كانت تحدث، بالقياس الى اللغة الموسيقية للمجموع، أثراً يوحي بالزيف، والتمزُّق، والوحشة بدرجة تربو على مايمكن أن يطلعنا عليه أشدُّ ألوان التوتر جرأة، وهو تحوُّل النغمة الثلاثية الى المَهول، بالفعل: لقد وضعت

قصيدة «الليل الساكن، الأخرس» للبيانو وصوت الغناء. وفي مقابل ذلك كان أدريان قد زوّد ترنيمتين لِكيتس، وهما: «قصيدة غنائية الى عندليب» الثمانية المقاطع والقصيدة الأقصر «الى الكآبة»، بموسيقا مصاحبة من الرباعي الوتريّ خلّفت الآن وراءها، أو دونها بمدى بعيد، مفهوم المصاحبة بتقليديته. ذلك لأن المسألة كانت تتعلّق في الحقيقة بقالب للتغيير فنيّ الى أقصى الحدود، لم تكن فيه أية نغمة من النغمات في الصوت الغنائي، وفي الآلات الأربعة، غير ذات موضوع. وتسود هنا، بين الأصوات من دون انقطاع، أوثق العلاقات، بحيث لاتكون العلاقة علاقة بين اللحن والمصاحبة، بل علاقة بين الأصوات الرئيسية والأصوات الفرعية المتناوبة على الدوام، بكل صرامتها.

إنها مقطوعات رائعة - وقد ظلت خرساً تقريباً حتى اليوم بجريرة اللغة. وكان يلفت النظر عندي الى حد مضحك في هذا الصدد، التعبير العميق الذي استفاض به المؤلف الموسيقي في «العندليب» في الحديث عن الرغبة في حلاوة الحياة في الجنوب، تلك الرغبة التي تبعثها في نفس الشاعر أغنية «الطائر الخالد» - حيث لم يظهر أدريان في إيطاليا الكثير من الامتنان الحماسيّ مقابل التعزيات في عالم مُشْمِس، يحمل على النسيان - «الإرهاق، والحمى، والقلق - هنا، حيث يقعد الرجال ويسمع كلٌّ منهم أنين الآخر». وما من شك في أن الأنفَس، والأكثر فنية على الإطلاق من الوجهة الموسيقية، هو انحلال الحلم وتلاشيه مع الريح، في نهاية هذه القصيدة:

وداعاً! فإن الهوى والخيال لايستطيع أن يخدع فيُحْسِن الخداع
وهي مشهورة بأنها تفعل هذا، الجنيّة المخادعة

وداعــاً، وداعــاً، فـإن ترنيمتك الحزينــة تتلاشى-
لقد هربت هذه الموسيقا: أتراني أستيقظ أم أنام؟

ولاريب أنني أستطيع أن أفهم التحدّي الذي انطلق من جمال هذه القصائد الغنائية الذي يحاكي جمال المزهريات، ليتوجها بإكليل: لاليجعلها أكثر كمالاً - لأنها كاملة - بل ليعبِّر عن سحرها المزهوِّ بنفسه، والمفعم بالكآبة، بمزيد من القوة، ويدفع به ليتجسَّد في نقش بارز، وليضفي على اللحظة النفسية من لحظات تفاصيله ديمومة أكمل مما يتاح للكلمة التي تنبعث مع الأنفاس: لأمثال هذه اللحظات الخاصة بالتجسيد المكثَّف، كما تنطق بها، في الفقرة الثالثة من «الكآبة»، الأقوال عن «المكان المقدس المستقل» الذي تمتلكه الكآبة ذات النقاب، في معبد الافتتان ذاته، غير مرئية بالطبع إلاّ من قبل هذا الذي يعرف لسانه الجريء كيف يفجِّر حبة عنب المتعة في الحلق الرقيق، مما يعد متألقاً ببساطة، ويصعب أن يدع للموسيقا شيئاً تقوله. وقد لاتستطيع إلاّ أن تتفادى إلحاق الأذى به، بأن تشارك في التفوُّه به فتُبَطِّئه. لقد طالما سمعت من يقول إن القصيدة ليس من الضروري أن تكون جيدة فوق ماينبغي لكي تنجم عنها أغنية جيدة، وأن الموسيقا أفضل كثيراً في هذه الناحية، فيما يتعلق بمهمة إضفاء البريق الذهبي على ماهو عاديٍّ أو متوسط. وهكذا يتألَّق فن المسرح الرائع تألُّقاً أكثر مايكون وضوحاً وجلاءً في المسرحيات الرديئة. غير أن علاقة أدريان بالفن كانت أكثر كبرياء، وحرجاً من أن يجد متعة في أن يدع ضوءها يضيء في الظلام. ولم يكن له بدٌّ أن يُحلَّ حقاً المكان الذي يفترض أن يشعر فيه أنّ الموسيقا تدعوه، وهكذا كان أيضاً شأن القصيدة الألمانية التي كان قد

تفانى فيها تفاني المنتج، من أعلى المراتب، وإن كان ذلك من دون التمييز الذهنيّ للقصيدة الكيتْسيّة. وقد حلّ محل الاصطفاء الأدبي هنا أثر أكثر شموخاً، ألا وهو اللهجة الخطابية الرهيبة، ذات المستوى الرفيع، والصاخبة في الثناء على الترنيمة الدينية الذي كان يعطي، حتى المزيد، بنداءاته وضروب وصفه لجلال الموسيقا ورقتها، وكان يقبل عليها بقلب مخلص أكثر مما كان يفعل ذلك نبلاء اليونان في تلك التشكيلات البريطانية.

وكانت قصيدة كلوبشتوك الغنائية «عيد الربيع»، الأغنية الشهيرة عن «القطرة على الدلو» هي التي لحّنَها ليفركون مع اختصارات قليلة في النص، للبارتيون، والأرغن، والأوركسترا الوترية، وكانت عملاً فنياً يبعث الهزّة في النفوس حظي بالعرض أثناء الحرب العالمية الألمانية الأولى وبعدها ببضع سنوات في عدد من مراكز الموسيقا الألمانية، وفي سويسرا أيضاً في ظل الموافقة الحماسية لإحدى الأقليات، ومع اقتران ذلك، بالطبع أيضاً. بمعارضة لاتتذوّق الفن وتنطوي على الضغينة، وكان ذلك بفعل قادة للأوركسترا يتحلَّوْن بالجرأة والتعاطف مع الموسيقا الجديدة، وأسهمت هذه إسهاماً كبيراً في بدء انتشار هالة من الشهرة المحدودة حول اسم صديقي، وذلك، على أبعد تقدير، في العشرينات. غير أني أريد أن أقول مايلي: لقد تأثرت تأثُّراً بالغ العمق - وإن لم أُفاجَأ في الحقيقة - بهذا الانبثاق للشعور الديني الذي زاد في نقاء تأثيره وانطوائه على روح الورع، الامتناعُ عن استعمال وسائل التأثير الرخيصة (لم يكن هناك صوت متواصل للجُنُك كان يقتضيه النص على وجه التحديد، بلاريب، ولا طبل كبير للتعبير عن رعد الرب)، ولامَسَت

شغاف قلبي ألوان من الجمال معينة لم تتهيأً، بحال من الأحوال، عن طريق التصوير الصوتيّ المستهلك، أو الحقائق الكبرى في أغنية الشتاء، كالتبدُّل البطيء، المؤثر، في السحابة السوداء، وصيحة الرعد مرتين باسم الله، عندما «يتصاعد البخار من الغابة الهشيمة (وهذا موضع يتميز بالعنفوان)، والانسجام الجديد المتسم بالتجليّ والإشراق في القدرة الصوتية العالية للأرغن، مع عازفي الكمان في الختام، عندما لاتعود الذات الإلهية تأتي في غمرة العاصفة، بل وسط الحَفيف والهَفيف الهادئَينْ، وينثني تحتها قوس السلام. هكذا فهمت هذا العمل الفني، بلاريب، في تلك الأيام، بموجب دلالته الروحية الأصيلة، لابموجب ماينطوي عليه من المحنة والمقصد اللذين يتسمان بأقصى درجات الخفاء، ولا بما ينطوي عليه من الخوف الذي يلتمس الرحمة في الشتاء. أتراني كنت أعرف الوثيقة التي يعرفها الآن قرائي أيضاً، وهي مَحْضر «الحوار الثنائي» في القاعة الحجرية. وماكان لي أن أعُدَّ نفسي، بين يديه، «شريكاً في أسرارك الحزينة» كما ورد ذات مرة في «قصيدة الى الكآبة»: بل كان ذلك بمجرد الحق المكتسب، الناشئ عن قلق غامض يرجع الى أيام الصبا، على خلاص روحه، لابسبب معرفة فعلية بما كان عليه واقع حاله. ولم أتعلّم إلاّ فيما بعد، كيف أفهم تلحين «عيد الربيع» على أنه قربان تكفيري يهدف الى التقُّرب من الله، كما كان في الواقع، عملاً ينطوي على توبة وندامة صادرة عن القلب، أنشئ، كما أحسَبُ وأنا أرتعد، تحت وطأة تهديدات ذلك الزائر المتمسِّك بمظهره.

غير أنني لم أفهم بعدُ، في تلك الأيام، بمعنى آخر، الخلفيات الشخصية والفكرية لهذا الانتاج الذي يرتكز على قصيدة كلوبشتوك،

وقد كان ينبغي لي أن أربط بينها وبين الأحاديث التي كنت أجريها في ذلك الوقت معه أو كان، بالأحرى، يجريها هو معي، إذ كان يحدثني، بأقصى قدر من الحيوية، وبأقصى قدر من الجد والاجتهاد، عن الدراسات والأبحاث، التي كانت تظل على الدوام بعيدة كل البعد عن مجال فضولي، وعن ذلك اللون من الاهتمام العلمي الذي يوجد عندي، إنها أشكال مثيرة من إغناء معرفته بالطبيعة والكون كان يذكِّرني بها تذكيراً شديداً بأبيه وجنونه العقلاني المبنيُّ على «النظر والتأمل في العناصر الأولية للطبيعة».

وذلك أن مُلحِّن «عيد الربيع» لم ينطبق عليه قول الشاعر: إنه «يُحجِم عن القذف بنفسه في محيط كل العوالم» وأنه لايريد إلاّ أن يحوم «حول القطرة على الدلو» ويصلي لها. وما من شك في أنه كان يقذف بنفسه فيما لاسبيل الى سَبْرغوره، في ذلك الذي يعمل علم الطبيعة والفلك على قياسه، لمجرد أن يصل الى قياسات وأرقام، ونُظُم للأحجام لاتعود للعقل البشري علاقة بها البتّة، وتتلاشى في النظري والمجرَّد، في العبثيّ المطلق، إذا لم نقل في التافه والسخيف. ولا أريد، آخر الأمر، أن أنسى أن المسألة لم تبدأ بحَوَمانٍ حول «القطرة» التي لاتستحق هذا الاسم من دون تكلُّف، مادامت تتألّف على الأغلب من الماء، من مياه البحار، وهي التي انسابت، في مناسبة القذف الإجمالي العام، «من يد العليّ القدير» - وأن المسألة، فيما أقول، اتخذت بدايتها باستفسارات حول القطرة وأشكال استخفائها الغامضة، ذلك لأن عجائب أعماق البحر، وأشكال اندفاع الحياة الجنوني هناك، حيث لاينفذ شعاع من الشمس، كانت أول ما حدثني عنه أدريان، وكان ذلك في

الحقيقة بطريقة خصوصية تبعث على الاستغراب، كانت تمتعني وتشوِّش ذهني في الوقت ذاته، أي بأسلوب نظرة الماء الخاصة به، نظرةِ مَنْ كان حاضراً هناك بشخصه.

ومن البدهي أنه كان قد قرأ عن هذه الأشياء مجرد قراءة، وأمَّن كتباً عنها، وكان يغذي خياله بها. ولكن سواء أكان ذلك الآن لأنّ هذه المسألة كانت حاضرة في ذهنه أيّما حضور، وكانت هذه الصور تستحوذ عليه بهذا القدر من الوضوح، أو عن مزاحٍ ما، كائناً ما كان، كان يفترض أنه ارتحل بنفسه وهبط الى هناك، أي في منطقة جزربرمودا، على مسافة بضعة أميال بحرية الى الشرق من سان جورج، وترك مرافقاً له يعرض عليه أشكال الطبيعة الخيالية في قاع البحر، وميَّزه بأنه يدعى كابِركُلْزي، وقال إنه سجَّل معه رقماً قياسياً جديداً في العمق.

ومازلت أذكر هذا الحديث ذكراً بالغ الحيوية، وقد استمتعت به في نهاية عطلة أسبوع قضيتها في بفايفرينج، بعد وجبة العشاء البسيطة التي أعدتها لنا كليمنتين شفايجشْتِل في حجرة البيانو الكبيرة. ثم جاءت تلك التي كانت في ثياب صارمة الاحتشام، كلاً منا بإبريق من الفخار يتسع لنصف لتر من البيرة، الى حجرة رئيس الدير، وهناك قعدنا، ندخن سيجار الفلاحين الذي يؤخذ مع الشراب، وكان سيجاراً خفيفاً جيداً، وكان ذلك في الساعة التي بات فيها سوسو، أي الكلب كاشْبِرْل، متحرراً من السلسلة، وكان يحوم حول البيت الريفيّ حراً طليقاً.

وهناك طاب لأدريان أن يمازحني بأن يسرد عليّ، بأسلوب تصويريّ يجسِّد الأشياء الى أقصى الحدود، كيف ركب، مع السيد كابِركِلْزي

جندول غَوْص كروي الشكل لايتجاوز قطره من الداخل ٢٠ .١م، مجهَّزاً، على نحو تقريبي، مثل منطاد للفضاء الخارجي، وتركهم يُنْزِلونه معه عن طريق رافعة السفينة المرافِقة، في البحر الذي يتسم هنا بالعمق الهائل، وكانت المسألة أكثر من مثيرة، - بالقياس إليه على الأقل، إن لم تكن كذلك بالقياس الى مرشده أو دليله الذي كان قد طلب إليه هذه التجربة، وقابلها ببرود، إذ لم تكن هذه رحلته الأولى الى الأعماق، ولم يكن وضعها في الحيِّز الداخلي الضيق، للكرة الجوفاء التي يبلغ وزنها طنَّيْن أقلَّ من مُريح، وقد عوَّضهما عن ذلك الشعورُ بإمكانية الاطمئنان المطلق الى مسكنهما: إذ كان مبنيّاً بسماكة تقاوم ضغط الماء مقاومة مطلقة، وإن بلغ الضغط مستوى هائلاً، ومزوَّداً بمخزون مُجْدٍ من مولِّد الحموضة (الأوكسجين) وهاتف، وأضواء كشّافة تعتمد على تيار كهربائي قوي، ونوافذ من صفائح المَرْو (الكوارتز) للنظر في كل الاتجاهات. ولبثوا فيها، على الإجمال، تحت سطح البحر، أكثر من ثلاث ساعات مرت بهم مرور الطائر، بسبب النظرات والإطلالات التي اتيحت لهم في عالم كانت غرابته الهادئة، الجنونية تبرِّر نفسها بالإنعدام الفطري للاحتكاك بعالمنا، وتفسِّر نفسها بالاستناد الى ذاتها، الى حد ما.

وعلى كل حال فقد كانت لحظة غريبة تكاد تتوقف فيها نبضات القلب، حين كان باب الدبَّابة التي يبلغ وزنها أربعمائة رطل قد أغلق وراءهما، وكانوا قد نزلوا حائمين من السفينة، ثم غابوا في ذلك الجزء من المركبة، وفي البداية كان الماء الصافي كالبلُّور، والذي يتخلّله شعاع الشمس، يحيط بهم. ولكن هذا الإضاءة للجزء الداخلي من مركبتنا «القطرة على الدَّلْو» عن طريق الضوء القادم من الأعلى لايبلغ مداها

الى أكثر من ٥٧ متراً في اتجاه الأسفل، ثم يتوقف كل شيء - بل يبدأ، بالأحرى، عالم جديد، منقطع الصلة بعالمنا، ولايعود شيئاً له علاقة بموطننا، تغلغل فيه أدريان مع رائده الى أن بلغ مايقارب أربعة عشر ضعفاً من هذا العمق، أي حوالي ٢٥٠٠ قدم، ولبث هناك نصف ساعة بلاريب، وهو يذكر في كل لحظة تقريباً أن ثمة ضغطاً يجثم على مسكنهما يبلغ قدره ٥٠٠،٠٠٠ طن.

وكان الماء قد اتخذ، على نحو تدريجيّ، وهما في الطريق الى هناك، لوناً رمادياً، - أي لون ظلمة كانت مايزال يخالطها بعض الضوء الذي لم يَيْأس بعد، ولم يكن من السهل أن يحجم هذا الضوء غير اليائس عن أي مزيد من التغلغل، لقد كان من طبعه وإرادته، أن يضيء، ولقد فعل هذا الى أقصى الحدود، إذ كان يصوغ الطور التالي من أطوار التعب والتخلُّف صياغة أكثر تلويناً مما سبقها: وكان الرحالة ينظرون الآن من خلال نوافذهم المصنوعة من صفائح المَرْو الى سواد ضارب الى زرقة يصعب وصفه، أقرب مايكون شبهاً بالجوِّ المكفهّر في أفق سماء صافية أيام رياح الفونة الجافة الدافئة، ثم أخذ السواد الكامل، بالطبع، يسود كل ماحولهم، وذلك في الحقيقة، قبل وقت طويل من إشارة مؤشِّر العمق الى ٧٥٠، فإلى ٧٦٥ متراً. إنها الظلمة التي لم يصل إليها أوْهن شعاع من الشمس منذ أبد الآبدين، في الفضاء الممتد بين النجوم، والليلة الساكنة أبداً، والعذراء أبداً، والتي لم يكن لها الآن بدٌّ أن ترتضي أن يخترقها، ويستشفَّها ضوء صناعيّ جبار جيء به من العالم العلوي، ولم يصدر عن الفضاء الكوني.

وكان أدريان يتحدث عن حرقة الظمأ الى المعرفة التي كان يسبِّبُها

تعريضُ غير المرئي والذي لاسبيل الى رؤيته، والذي لايمكن أن يخطئ بتعريض نفسه لأن يُرى، للنظر. ولم يكن يهدئ مايرتبط بذلك من ثائرة الشعور بالحماقة والتهوُّر، بل بالإثم، أو يعوِّض عنه، بصورة كاملة العاطفة القوية تجاه العلم الذي لابدَّ أن يسمح له أن يتغلغل ويتقدم على قدر ما أوتي من الذكاء. وكان من الواضح الجليّ الى حد مفرط، أن الغرائب التي لاتُصَدَّق، والقاسية في جزء منها، والمضحكة في جزء آخر، والتي جاءت بها الطبيعة والحياة هنا، والأشكال والمظاهر الخارجية في الخلق التي لاتكاد توجد لها بعدُ صلة قربى بالعالم فوق الأرضي، وتبدو كأنها تعود الى كوكب آخر، إنما هي نتاج الاستخفاء، ودَقٍّ باب الاستكْنان في الظلمة الأبدية. وماكان وصول مركبة فضاء بشرية الى المريخ، أو، لِنَقُلْ، بدلاً من ذلك، الى نصف عطارد المُعرِض أبداً عن الشمس، ليثير ضجة في أوساط السكان المحتملين لهذه الأجرام «القريبة»، أكبر مما يثيره ظهور جرس غَوْص كابَركِلْزي هنا، أسْفَلَ مِنّا. لقد كان الفضول الشعبي الذي أحدَقَت به مخلوقات القاع العميقة بمنزل الأضياف متزاحمة عليه، شيئاً لايوصف. - وكان مما لايوصف ما هُرِع الى نوافذ الجندول هنا، ماراً بها في عَدْوٍ مختلط يتّسم بالبلبلة، من أشكال مخيفة خَفِيّة، من العضويات، ومن أشداق مفترسة، وأسنان لا حياء فيها، وعيونٍ تلِسْكوبية، وأسماكٍ كأنهن قوارب من الورق، وبَلْطاتٍ فضية، وعيونٍ جواحظ موجهة نحو الأعلى، وذوات قوائم كالريشة، وقوائم زعنقيّة يبلغ طولها المترين، وحتى الأغوال السابحة في الطوفان، بلا إرادة منها، من ذوات الأذرع القانصة، من المخاط، ورئات البحر الضخمة، والأخطبوطات، والميدوسات، بدت كأنما اعتراها التشنّج

حتى جعلها تتقلّب من فرط الانفعال.

وكان من الممكن، بالمناسبة، أن يكون كل هؤلاء «السكان الأصليون» في الأعماق، كانوا ينظرون الى الضيف ذي الأضواء الكشّافة، الذي هبط إليهم، نظرتهم الى نوع من فصيلتهم ذاتها ذي أبعاد فائقة الضخامة، لأن معظمهم كان يستطيع مايستطيع هو أيضاً، وهو الإضاءة بالاعتماد على طاقاته الخاصة. وما كان للزائرين. كما روى أدريان، أن يطفئوا ضوء المولد الكهربائي إلاّ لتنكشف لهم مسرحية من نوع آخر غريبة شاذة، ذلك لأن ظلمة البحر كانت تضيئها الى المدى البعيد أضواء كالسراب تدور في دوائر وتنطلق بعيداً، وكانت هذه هي الإضاءة الزيتيّة عند الأسماك، وهي موهبة أوتيها عدد جد كبير منها، وذلك في الحقيقة من جرّاء أن بعضاً منها يتكوَّن الفوسفور على كل جسمه، ولكن هناك أسماك أخرى مزوَّدة بعضوٍ للإضاءة واحد على الأقل، هو مصباح كهربائي، يُظَنّ أنها لاتضيء به طريقها في الليل الأبدي فحسب، بل تغري به الفريسة أيضاً، أو تُلَوِّح به في دعوة الى الحب. وقال إن بعض السمكات الأكبر كانت ترسل بين يديها بالفعل شعاع ضوء أبيض يبلغ من تركيزه أن عيني الملاحظ كانتا تنبهران من جرائه. غير أن العيون الجواحظ على شكل الأنابيب لبعضٍ منهن، كما قال، مصمَّمتان، على الأرجح لكي تُحسّا، على أبعد مسافة ممكنة، بأيْسَر بصيص من ضوء، على أنه تحذير لها أو إغراء.

وكان الراوي يأسف على أنه ليس من الممكن التفكير في اقتناص بعض رقصات الأعماق هذه، وعلى الأقل تلك المجهولة منها الى أقصى الحدود، والمجيء بها الى الأعلى، وفي هذه الحالة سيكون من الضروري،

قبل كل شيء إعداد تجهيزة تحفظ على أجسادها عند رحلة الصعود، الضغط الجوي الهائل الذي اعتادت عليه وتكيَّفت معه - وهو الضغط ذاته الذي يجثم بعنفوانه على جدران الجندول فيبعث في النفس الشعور بالضيق والانقباض، وكانت تُوازنَه بتوتُّر داخلي في نسيجها وتجاويف جسمها يبلغ من ارتفاعه أنها لابدّ أن تنفجر بالضرورة إذا ما وَهَن الضغط عليها. وقال إن بعضهن حدث لهن هذا منذ اللقاء الأول مع المركبة، من الأعلى، إذ تطايرت، في ألف مِزْقة، عروسُ بحرٍ كبيرة على وجه الخصوص، أبصروها بلون اللحم، ذات تكوين يكاد يكون نبيلاً، لدى اصطدامها بالجندول اصطداماً يسيراً فحسب.

وبهذه الطريقة كان أدريان يتحدث وهو يدخن السيجار، وقد استغرقه كل الاستغراق روح كما لو كان قد نزل بنفسه الى هناك، واستعرض هذا كله، - وكانت صيغة هزلية كان ينفذها بنصف ابتسامة في تسَاوُقٍ منطقي لم أكن أجد معه مناصاً من أن أنظر إليه نظرة تتراوح بين الضحك والعَجَب، وأنا مندهش أيضاً الى حد ما. وكانت ابتسامته تمثل، أيضاً، بلاريب، التعبير عن ألوان من المتعة الناجمة عن المعابَثة، حيال مقاومة معينة من جانبي لم يكن لها بدٌّ أن تكون ملموسة، بالقياس إليه، في صدد ما كان يفضي به إليّ، لأنه كان يعرف بلاريب قلة اكتراثي التي تصل الى درجة النفور، بألوان العبث الصبياني والأسرار في العالم الطبيعي، وبالطبيعة على وجه الإطلاق، وتعلُّقي بالجوّ اللغويّ الإنسانيّ. ويبدو أنه لم يكن آخر ذلكَ معرفتي أنه كان مما يثيره أن يُثْقِل عليَّ، المرة بعد الأخرى، بتحرِّياته، أو، كما كان يفعل، بتجاريبه في ميادين العالم الهائل الموجود خارج الإطار البشري، ويَزُجَّ

بي، إذ يجرفني معه، «في محيط كل العوالم».

وكانت تُسَهِّل عليه الانتقال الى ذلك أفانين وصفه المتقدمة. وكان الغريب النوع على نحو شائهٍ في علم نفس الأعماق، الذي كان يبدو كأنه ما عاد ينتمي الى كوكبنا، يمثل نقطة اتصال ومتابعة، وكانت النقطة الثانية عبارة كلويشتوك عن «القطرة على الدلو» التي لم يكن تواضعها الباعث للتعجُّب إلاّ ليزيدها تبريراً، من جراء حسن أحوالها في الجانب الآخر، الثانوي تماماً، وهو حُسْنُ الأحوال الذي يتعذَّر الكشف عنه تقريباً بسبب ضآلة أهمية الموضوع بالنسبة للنظرة الواسعة النطاق، ولايشمل الأرض وحدها، بل يشمل نظامنا الشمسي بأسره، أي الشمس مع توابعها السبعة داخل دوّامة درب التبّانة، الذي تنتمي إليه، أي «درب تبّانتنا» فضلاً عن الملايين الأخرى غيرها بعدُ، هنا. على أن ضمير الملكية «نا» يضفي على المَهولِيّة التي يعود عليها، حميميّةً معينة، إنه يُضَخِّم، بطريقة تكاد تكون مضحكة، مفهوم الوطني، أو المحلي الى المتوسِّع الى الحد الذي يفسد المعنى الذي يترتب علينا أن نشعر به على أنه ضامنه المتواضع المُبَيَّت. وفي هذا الخفاء، وهو خفاء باطنيّ عميق، يبدو أن ميل الطبيعة الى الكروي يفرض نفسه، - وكانت هذه نقطة ثالثة ربط بها أدريان مناقشاته الكونية: فقد انتهى إليها، جزئياً، عن طريق التجربة الغريبة، المتمثلة في الإقامة في كرة جوفاء، وهي جندول أعماق البحر الذي صنعه كابَرْكِلْزي الذي يزعم أنه شارك في سُكناه بضع ساعات، لقد تعلّم أننا كنا، جميعاً، نعيش كل أيامنا في كرة جوفاء، لأن الأحوال حول مجال الفضاء في المجرة الذي قُسِمَ لنا فيه مكان ضئيل للغاية، في ناحية ما، متطرِّفة هي على النحو التالي:

لقد صيغ هذا المجال على شكل ساعة جيب مسطَّحة الوجهين، أي أنها مستديرة وأقل سماكة بكثير من محيطها - وهي قُرْصُ دوّامةٍ ليس بالذي لايقاس ولكنه هائل بالطبع، من الكمّيات المركَّزة، من النجوم، ومجموعات النجوم، وأكداس النجوم، والنجوم المزدوجة، التي يدور بعضها حول بعض في مدارات إهليلجية، من بقع ضبابية، وضباب مضيء، وضباب حَلَقِيَ، ونجوم من الضباب. وهكذا دواليك، ولكن هذا القرص، فيما يقال، لايكون إلاّ مشابهاً للتصميم الدائري المسطّح الذي ينشأ عندما يحتزُّ المرء برتقالة في منتصفها، إذ يُحْدِق به من حوله غلاف من بخار نجوم أخرى لابدّ للمرء أن يميزها بأنها ليست بالتي لاتقاس، ولكنها هائلة بقدرتها العالية، وتكون الأشياء المفترضة موزَّعة في فضاءاتها التي هي فضاءات خاوية على الأرجح، بحيث تشكل البنية الإجمالية كرة، وفي مستوى عميق من باطن هذه الكرة الجوفاء، الرَّحْبة الفسيحة على نحو يتجاوز حدود المعقول، والتي تعود الى الزحام الكوني، يوجد بطريقة جانبية تماماً، يصعب العثور عليها، ولاتكاد تستحق الذكر، النجم الثابت الذي تدور حوله الأرض، وقُمَيْرُها، الى جانب رفيقاتها الكُبْرَيات والصُّغْرَيات. ويقال إن الشمس، التي قلّما كانت تستحق المقالة المخصصَّة لها، وهي التي توجد على سطحها كرة من الغاز تبلغ حرارتها ستة آلاف درجة، ويبلغ قطرها مسافة معقولة هي مليون ونصف المليون من الكيلومترات، وتبعد عن مركز التصميم الداخلي للمجرة مسافة تعادل سماكة هذه المجرة، أي ثلاثين ألف سنة ضوئية.

وكانت ثقافتي العامة تسمح لي أن أربط بكلمة «السنة الضوئية»

مفهوماً تقريبياً، وكان، كما هو، مفهوماً مكانيّاً، وكانت الكلمة تشير الى المسافة التي يقطعها الضوء على مدى سنة كاملة من سنوات أرضنا - بسرعة خاصة به لم يكن لديَّ سوى تصوُّر غامض عنها، غير أن أدريان كان يحملها في ذهنه، على وجه الدقة مائتين وسبعة وتسعين كيلو متراً في الثانية، وبذلك تصل السنة الضوئية الى رقم مدوِّر صافٍ يبلغ ٥ . ٩ بليون كيلو متر. وعلى هذا يبلغ نظامنا الشمسي ثلاثين ألف ضعف هذا، على حين يبلغ القطر الإجمالي لكرة المجرة الجوفاء ٢٠٠,٠٠٠ سنة ضوئية.

كلاّ، لم يكن غير قابل للقياس، ولكن الى هذا المدى كان من الممكن قياسه. وماذا ينبغي للمرء أن يقول في مثل هذا العدوان على العقل البشري؟ أنا أعترف بأنني مادُمت مجبولاً على هذا فلا يبقى أمامي سوى هزة كتف تعبِّر عن التخلّي، ومعه عن شيء من الازدراء، حيال البديع المهيب الذي لاسبيل الى تحقيقه. فالإعجاب بالعظمة، والحماسة لها، بل الوقوع في أسرها، وهو متعة نفسية بلاريب، لايكون ممكناً إلاّ في العلاقات الأرضية الممكنة الإدراك والعلاقات البشرية. فالأهرام عظيمة، وجبل مون بلان، وداخل كاتدرائية القديس بطرس عظيمان، إذا لم يشأ المرء أن يحتفظ بهذه الصفة، على وجه الإطلاق، لعالم الأخلاق والفكر. وليست تواريخ خلق الكون شيئاً سوى قصفٍ يُصِمُّ الآذان، لذكائنا، بالأرقام، مزوَّد بمذنَّب يتألف من اثنتَيْ عشرية من الأصفار التي تتظاهر بأنها مازال لديها شيء ما تؤديه باعتدال وفهم. وليس في باعث الإزعاج هذا شيء يمكنه أن يخاطب من كان مثلي، في صورة الفضيلة، والجمال والعظمة. ولن أفهم أبداً مزاج صيحة التهليل

الذي سمحت فيه لنفسها نفوس معينة أن توضع فيه من جراء مايسمى «أعمال الله» مادامت من الفيزياء الكونية. وهل يمكن، على وجه الإطلاق أن نخاطب حَفْلاً بأنه من صنع الله، وهو مما يمكن أن يقول المرء فيه، «حتى ولَوْ»، مثلما يقول فيه »المجدُ لله»؟ إنه ليبدو لي أن القول الأول هو الأحرى من الثاني، بأن يكون الجواب الصحيح على اثنتَيْ عشرية من الأصفار وراء الرقم واحد، أو وراء السبعة أيضاً، الأمر الذي لايعود يشكل شيئاً، ولا أستطيع أن أرى سبباً لكي أُمرّغ نفسي في التراب مصلياً أمام رقم الكوينكليون.

كما كان من الأمور المميَّزة أيضاً أن الشاعر الحسن المزاج، كلوبشتوك كان يقتصر، من أجل التعبير ومن أجل استثارة الخشوع الحماسيّ، على الأرضي، على «القطرة على الدلو» ويدع الكوينكليون جانباً، وقد مضى مُلَحِّن ترنيمته، صديقي أدريان، على هذا النهج، كما قلنا، غير أني سأكون ظالماً إذا أحدثت انطباعاً مؤداه أنه فعل ذلك متأثِّراً بأي شيء كان، أو بأي توكيد. لقد كان أسلوبه في معالجة هذه الألوان من الاندفاع، بارداً، يتسم بالاسترخاء ويتلوَّن بالتندُّر على نفوري الذي لا أخفيه، كما يتّسم أيضاً بألفة معينة مُستهلّة مع هذه العلاقات، وأقصد، بالخيال المتواصل، وكأنما لم يكتسب معارفه خفية، بالمطالعة، بل عن طريق الرواية الشخصية والتعليم، والبرهنة، والتجربة، كأن يكون ذلك، مثلاً، بمعونة مرشده المذكور آنفاً، الأستاذ كابركلِزي، الذي تبين أنه لم يرتحل معه الى أعماق البحر فحسب، بل عرج معه الى الأفلاك والأجرام ... وكان يفعل ذلك بأسلوب بين بين، وكأنما أخذ عنه في الحقيقة، بطريقة، تقوم على التأمل، بدرجة تقل أو تكثر، أن الكون

الطبيعي - هذه الكلمة بدلالتها الشاملة - التي لايمكن أن تُعَدَّ نهائية ولا نهائية، لأن كلا التعبيرين يشيران بلاريب الى شيء سكوني على أيّ نحو من الأنحاء، بينما تعد الحالة الحقيقية ذات طبيعة دينامية من كل جوانبها، والكون في حالة توسُّع جنوني جامح منذ عهد بعيد، وعلى الأقل، إذا شئنا أن نتحدث بمزيد من الدقة، منذ ألف وتسعمائة مليون سنة، وهذا يعني أنه في حالة انفجار. ولايدع تحوُّل الحمرة في الضوء مجالاً للشك في هذا، وهو التحوُّل الذي يصلنا من نظمٍ من درب التبانة كثيرة العدد، ويعد بُعْدُها عنّا معروفاً على كل حال، - التغيُّر الذي يزداد شدة، في لون الضوء كلما اتسعت المسافة بيننا وبين هذه البقعة الضبابية. والظاهر أنها كانت تنزع الى الابتعاد عنا. وقال إنه في حالة المُركَّبات التي تبعد بمقدار ١٥٠ مليون سنة ضوئية تأتي السرعة التي تبتعد بها عنها، مشابهة لتلك التي تنتج بها جزئيات ألفا موادٌ مشعة، وتبلغ ٢٥ ألف كم في الثانية، وهي طاقة وَثْب يغدو طيران الشظايا الناتجة عن قنبلة يدوية تنفجر، في مقابلها، في مثل سرعة السلحفاة، وعلى هذا فلو أن كل النظم الموجودة في درب التبّانة تباعد بعضها عن بعض خلال مقياس زمني في منتهى المبالغة لما كانت كلمة «الانفجار» كافية بعدُ على وجه الخصوص، أو ماعادت تكفي أيضاً، لتمثيل حالة النموذج الكوني وأسلوبه في التوسع. وربما كانت هذه فيما مضى ساكنة، متوازنة، ذات مرة، وبلغت، ببساطة، ملياراً من السنين الضوئية في قطرها. أما مايصل بالكيفية التي تتخذها مواقع الأشياء الآن فمن الممكن الحديث عن التوسَّع، ولكن لايمكن الحديث عن اتساع ثابت، كائناً ما كان، «نهائياً» أو «غير نهائي. وكل ما استطاع كابركلزي، كما كان

يبدو، أن يؤكده للسائل، هو أن مبلغ مجموع التشكيلات الموجودة على وجه الإطلاق في درب التبانة يقع من حيث نسبة الكِبَر ضمن حدود المائة مليار لايوصل بمناظيرنا المقرِّبة المعاصرة إلاّ الى مليون واحد منها فحسب.

وكذلك كان أدريان، يدخن، ويبتسم. وكنتُ أعظه، وأطالبه بالاعتراف بأن شبح الأرقام هذا كله، الذي يتلاشى مُنْسَرِباً، ليفضي الى اللاشيء، لايمكن أن يثير الشعور بروعة الرب، أو يَهَب أي سمّو أخلاقي، بل هذا كله أحرى كثيراً أن يبدو مماثلاً لدعابة شيطانية.

وقلت له: «فَلْتُسَلِّم بأن الجوانب المُرَوِّعة في الخَلْق الطبيعي لايمكنها، بحال من الأحوال، أن تكون مثمرة في المجال الديني. وأي خشوع، وأي تهذيب للنفس يرجع الى الخوف والتهيُّب، يمكن أن يكون مُنطَلَقُه من تصوُّر عبث لايمكن قياسه، مثل الكون المتفجِّر؟ ما من خشوع، ولا تهذيب، على الإطلاق، فالتقوى، والتهيُّب والوجل، واللياقة النفسية، والتديُّن، كل هذه لاتكون ممكنة إلاّ عن طريق الإنسان وحده، ومن خلال الإنسان، وفي الاقتصار على البشري الأرضي، وينبغي أن تكون ثمرتها نزعة إنسانية ملوَّنة باللون الديني، وفي وسعها أن تكون كذلك وسوف تكونه، وأن يتحكّم فيها الشعور بالسرّ المتعالي عند الإنسان، وبالوعي الفخور، بأنه ليس مجرد مخلوق بيولوجي، بل ينتمي بجزء حاسم من كيانه، الى عالم فكري أوتِيَ المطلق، وأفكار الحقيقة، والحرية، والعدالة، وفُرِضَ عليه الالتزام بالتقارب مع الكامل. وفي هذا الروح العاطف للقلب، في هذا الالتزام، وفي وَجَل الإنسان، هذا، من نفسه، يتجلى الرب، على أنني لاأستطيع أن أجده في مائة مليار من دروب التبّانة».

وأجاب قائلاً: «فأنت إذاً ضد الأعمال، وضد الفطرة الطبيعية التي ينتسب إليها الإنسان، ومعه جانبه الفكريّ، الذي يوجد، في النهاية بعدُ أيضاً، في أماكن أخرى من الكون. فالخَلْقُ، هذا الشيء الهائل الباعث لاستيائك، والمتمثل في إنشاء الكون، هو، من دون جدال، الشرط الأوليّ للأخلاقي الذي ما كانت لتوجد أرضيّة من دونه، وربما لم يكن بدٌّ للمرء أن يسمي الخيّر زهرة الشر، une fleur du mal، وإلهك البشري هو آخر الأمر، أوَلَيس آخر الأمر، واستميح عفوك، ولكنه قبل كل شيء، قطعة من الطبيعة الفظيعة، مع مقدار من إضفاء السمة الفكرية كامن فيه وليس بمحسوب حساباً ينطوي على السخاء على وجه الخصوص. على أن من الممتع، بالمناسبة، أن نرى الى أي مدى تجنح نزعتك الإنسانية، وكل أنواع هذه النزعة، بلاريب، الى التمركز حول الأرض على النحو الذي كان شائعاً في العصور الوسطى، - وهو أمر ظاهر بالضرورة، وإنما تعدُّ النزعة الإنسانية في الأوساط الشعبية موالية للعلم، غير أنها لاتستطيع أن تكون كذلك لأن المرء لايستطيع أن ينظر الى موضوعات العلم على أنها شيء من عمل الشيطان من دون أن يرى، أيضاً فيها ذاتها، شيئاً من هذا القبيل. وهذا شأن العصر الوسيط، لقد كان العصر الوسيط يتمركز حول كوكب الأرض، وحول الإنسان، واتجهت الكنيسة التي واصل العصر الوسيط فيها حياته، للدفاع عن نفسها في وجه المعارف الفلكية في فكر النزعة الإنسانية فأضفت عليها الصفة الشيطانية وحظرتها، تكريماً للإنسان، وأصرت على الجهل بدافع إنساني. وها أنتذا ترى أن نزعتك الإنسانية إنما هي عصور وسطى بحتة، وقضيتها هي كونيّات كنسيّة ضمن حدود كايسرزآشرن تؤدي الى

التنجيم، الى ملاحظة وضع الكواكب، وتشكيلها، وإفاداتها الدّالة على حسن الطالع أو على الفساد، - وهذا طبيعي تماماً، وبحق، لأن الارتباط الحميم بين الأجسام في مجموعة كونية محدودة وثيقة الترابط فيما بينها الى هذا المدى، كما هو الحال في منظومتنا الشمسية، والتعلُّق المتبادل الوثيق في حالة التجاور، أمر واضح وضوح الشمس».

واعترضت قائلاً: «لقد سبق أن تحدثنا عن أحوال علم التنجيم ذات مرة، ولقد مضى على هذا وقت طويل، وكنا نسير حول حوض الأبقار، وكان ثمة حوار في الموسيقا، وكنت في تلك الأيام تدافع عن مجموعة النجوم الثابتة.

وأجاب قائلاً: «أنا أدافع عنها اليوم أيضاً. لقد كانت عصور التنجيم تعرف الكثير جداً. كانت تعرف، أشياء أو تحسّ بها إحساساً داخلياً، ممّا يهتدي إليه اليوم أكثر العلوم توسُّعاً. أمّا أن الأمراض، والآفات والأوبئة كانت لها علاقة بوضع النجوم فقد كان ذلك بالقياس الى تلك العصور يقيناً حدسياً. لقد وصل الناس اليوم الى مدى يتناقشون عنده في مسألة هل توجد بذور، أو جراثيم، أو عضويات تسبب، مثلاً، وباء الانفلونزا على الأرض، ترجع الى كواكب أخرى، من المريخ، أو المشتري أو الزهرة».

وقال إن من الأرجح أن الأمراض المعدية، والأوبئة، كالطاعون، أو الموت الأسود، لاترجع الى هذا النجم أو ذاك، مادام من المؤكد تقريباً أن الحياة نفسها، وأصلها على وجه الإطلاق، لايعودان الى الأرض، بل هاجرا من خارجها، وإنه يعرف من أفضل المراجع، أنها ترجع الى نجوم مجاورة يُغَلِّفها جو أكثر ملاءمة للحياة، من حيث تبايُنه، ويحتوي على

الكثير من الميتان والأمونياك، كالمشتري والمريخ والزهرة، وقد وصلت منها، أو من واحد منها، وهو يترك لي الخيار، الحياة ذات مرة، محمولة على قذائف كونية، أو، ببساطة، بطريق ضغط الأشعة، الى كوكبنا الذي هو أقرب الى العقم والبراءة، وعلى هذا فَرَجُلُ الدنيا، هذا التاج الذي تُتَوَّج به الحياة، يقال إنه، هو وكل التزامه بالجانب الفكري، يُظَنُّ أنه نتاج خصوبة ناجمة عن غاز مستنقعات في كوكب مجاور...

وقلتُ مكرراً وأنا أومىء برأسي: «زهرة الشر».

وأضاف قائلاً: «وهو يزدهر في الشر على الأغلب».

وكان يعابثني، لافي نظرتي الى العالم المنطوية على حسن النية فحسب، بل بسبب الإيحاء المخادع بوجود اطلاع معيِّن خصوصي، شخصيّ، مباشر، من جانبه، على حقائق السماء والأرض، وهو ذلك الإيحاء الذي ظل يتمسك به على الدوام، في مزاج مثقل بالهموم. ولم أكن أعرف ذلك، ولكن كان في وسعه أن يقول لي هو نفسه، إنه كان يقصد بهذا كله الى عملٍ ما، وهو الموسيقا الكونية التي كان يحملها في ذهنه في تلك الأيام، بعد حكاية الأغانيّ الجديدة. وكانت هذه هي السمفونية المدهشة ذات الفصل الواحد أو الفانتازيا الأوركسترالية التي وضعها خلال الأشهر الأخيرة من عام ١٩١٣ والأشهر الأولى من عام ١٩١٤، وحملت اسم «عجائب الكون»، في مخالفة صريحة لرغبتي واقتراحي، لأنني كنت أتهيَّب مما ينطوي عليه ذلك العنوان من الاستهتار، ولكن أدريان أصرَّ، وهو يضحك، على التسمية الأخرى، الساخرة ذات اللهجة المِنبرية الرهيبة في الظاهر فحسب والتي تهيئ العارف تهيئة أفضل لطبيعة هذه الأشكال من وصف المهول، المضحكة

من الأعماق، والشائهة، وإن كان ذلك أيضاً، في كثير من الأحيان، بطريقة احتفالية صارمة، وإجرائية، بالأسلوب الرياضيّ. ولكن هذه الموسيقا لاتمت بصلة الى روح «عيد الربيع» الذي كان يشكل، مرة أخرى، وبمعنى معيَّن، التهيئة لهذا، أي روح التمجيد المستسلم الخاشع، ولولا أن سمات شخصية معينة في المخطوطة الموسيقية كانت تشير الى الكاتب ذاته لما كان من المفترض أن يصدق المرء أن الذي أبدع كليهما هو النفس الواحدة ذاتها. على أن جوهر صورة العالم تلك الأوركسترالية التي تستغرق حوالي ثلاثين دقيقة، هو التهكُّم - وهو تهكّم لاينطوي إلاّ على تأييد بالغ للرأي الذي أدليت به في حديثي، والذي يفيد أن اشتغال المرء بما يُجاوز المقاييس ويتجاوز حدود البشري، لايقدِّم غذاء لنزعة التقوى. إنه استهزاء خبيث شيطاني، ومديح ينطوي على دعابة حلوة، في تقليد ساخر، يبدو أنه لايتوجّه نحو بنيان العالم الرهيب الذي يحاكي عمل الساعة، بل يتوجه أيضاً نحو الوسيلة التي يرتسم فيها، بل يتكرَّر: ألا وهو الموسيقا، عالم الألحان، ولقد أسهم إسهاماً غير قليل فيما جرَّ على فَنِّية صديقي من مأخذٍ يتمثل في وجود روح معادية للفن، ولعنة ناجمة عن التجديف العَدَميّ.

ومع ذلك فقد اكتفينا من هذا. وأنا أفكر في تكريس الفصلين التاليين لبعض التجاريب الاجتماعية التي شاطرتُها أدريان ليڤركون، عند منعطف العالم، ومنعطف الزمان، بين عامي ١٩١٣- ١٩١٤، أثناء كرنفال مونيخ الأخير، قبل نشوب الحرب.


محمد خطاب

(٢٨)

أما أن المستأجر عند آل شفايجشْتِل لم تستغرقه كل الاستغراق عزلته التي تحاكي عزلة الأديرة، والتي يحرسها الكلب كاشْبِرْل - سوسو، بل كان يشهد مجالس أُنْس معينة في المدينة، وإن كان ذلك في أوقات متفرقة، ومع التحفظ، فذلك ماسبق أن قلته له في هذا الصدد محبِّباً إليه، وباعثاً لاطمئنانه، بالطبع، تلك الضرورة الماثلة، والمعروفة لدى الناس جميعاً، وهي ضرورة نهوضه في وقت مبكر، وارتباطه بقطار الساعة الحادية عشرة. وكنا نلتقي عند آل روده في شارع رامْبَر، الذين كان آل كنوتيرِش، والدكتور كرانِش، وتْسِنْك وشبنجلر وشفيرتفيجر، عازف الكمان والمزمار، وأنا، نلتقي عندهم في جو من الصداقة، ثمّ عند آل شلاجِنْهاوفن، كما كنا نلتقي أيضاً عند ناشر شيلدكناب، رادبروخ، في شارع الأمراء، وفي الطابق الجميل الأنيق عند بولنجر الصناعي العامل في صناعة الورق (وكان، بالمناسبة، من أصل يعود الى إقليم الراين)، الذي كان روديجر قد أدخلنا عليه أيضاً.

وكان يسرُّ القوم أن يسمعوا عزفي على كمان الحب عند آل روده، وفي صالة الأعمدة عند آل شلاجنهاوفن، وهو العزف الذي كان يمثل، بالطبع، إسهامي الاجتماعي الذي كان يترتَّب عليّ، على وجه الخصوص، أن أقدِّمه، أنا المثقف والمعلم البسيط، الذي لم يكن قطُّ فائق الحيوية في

المحادثة. أمّا في شارع رامبر، فكان هذان المدعُوّان: الدكتور كرانِشْ، المصاب بالربو، وبابتيست شبنجلر، هما اللذان حثّاني على ذلك، أما أوّلهما فبسبب اهتمام لديه بالتُّحَف والنُّميّات (إذ كان يسرُّه أن يحادثني، بطريقته الحديثة ذات اللفظ المتقن ومخارج الحروف الواضحة، عن الأشكال التاريخية لأسرة الكمان)، وأمّا الآخر فبدافع التعاطف العام مع مايخرج عن نطاق الحياة اليومية، بل مع الشاذّ والغريب. ومع ذلك فقد كان عليَّ في ذلك المنزل أن أراعي رغبة كونرادكنوتيريش في أن يُسْمِع القوم عزفه على التشيللو وهو يشخر ويَنْفُر، وإيثار الجمهور الصغير لعزف شفيرتفيجر اللطيف عل الكمان. وكان مما يزيد تملُّق غروري (وأنا لاأنكر هذا أبداً) أن الطلب الوارد من الأوساط الأخرى الأوسع نطاقاً والأرفع مقاماً، وهو الطلب الذي عرفت زوجة الدكتور شلاجِنْهاوْفِن، المولودة في بْلاوْزِج، كيف تحشُدُه حولها وحول زوجها الذي يتحدث باللهجة السُّوابيّة، وكان مع ذلك ثقيل السمع للغاية، على إنتاجي الذي كنت أمارسه على سبيل الهواية فحسب، كان بالغ الحرارة والحيوية، وكان يضطرني على الدوام تقريباً الى الإتيان بآلتي الى شارع بريان لكي أقدِّم للحضور «شاكونة» أو «سارابَنْده» من القرن السابع عشر ومقطوعة بعنوان «مباهج الحب» من القرن الثامن عشر، أو لأعرض عليهم سوناته لأريوستي، صديق هيندِل، أو إحدى المقطوعات التي كتبها هايدن للكمان البوردوني، والتي يمكن عزفها على الكمان بلاريب.

ولم يكن مما جرت العادة عليه أن ينطلق الحافز من لَدُنْ جانيت شورل فحسب، بل كان هذا ينطلق أيضاً من المدير العام، صاحب

السعادة، فون ريديزيل، الذي لم يكن فضله على الآلة القديمة والموسيقا القديمة يرجع، مثلما كان الحال عند كرانش، الى ميل للتحف القديمة عند أهل الاطلاع، بل الى نزعة محافظة صِرْفة. ومن البدهي أن هذا يمثل فرقاً كبيراً. وكان رجل البلاط هذا، الذي كان عقيداً سابقاً في سلاح الفرسان، يُسْتَحْسَنُ وجوده في وظيفته الراهنة لمجرد السبب المتمثل في أنه كان معروفاً بأنه يعزف على البيانو قليلاً. وما أكثر القرون التي تبدو اليوم قد انصرمت، منذ كان المرء يغدو مديراً عاماً لانتمائه الى النبلاء، وعزفه اليسير على البيانو!، - وإذاً فقد كان البارون ريديسيل يرى في كل ماهو قديم وتاريخي حصناً هجومياً ضد ماهو عصريّ وهدّام، ونوعاً من الجدل المذهبي الإقطاعي ضده، وكان يسانده بهذه الروح، من دون أن يفهم أي شيء منه في الحقيقة. ومثلما لايستطيع المرء أن يفهم الجديد والفتيّ، من دون أن تكون له في التقاليد قدمٌ راسخة، فلابدَّ أن يظل الشغف بالقديم مفتقِراً الى الأصالة، متسماً بالعقم، عندما يغلق المرء أبوابه دون الجديد الذي انبثق عن القديم، بحكم الضرورة التاريخية. وهكذا كان رْيديزيل يقدِّر الباليه ويرعاها، وذلك، في الحقيقة لأنها كانت تتميَّز «بالرشاقة». وكانت كلمة الرشاقة تعني، بالقياس إليه كلمة السرِّ المميِّزة في الجدل المذهبي ذي النزعة المحافظة، ضد النزعة الثورية الحديثة. أمّا عالم الفن التقليدي في الباليه الفرنسية الروسية، الذي كان يمثله أناسٌ مثل تشايكوفسكي ورافل، وسترافنسكي، فلم يكن لديه تصورٌ عنه على الإطلاق، وكان بعيداً، بُعداً شاسعاً، عن أفكار من قَبيل تلك الفكرة التي أعرب عنها بعد ذلك، الموسيقي الروسي المذكور أخيراً، حول الباليه الكلاسيكية، إذ قال إنها تعد انتصاراً للتخطيط الرزين

على الشعور المتسم بالشرود والشطط، وللنظام على المصادفة، من حيث كونُه أنموذجاً للسلوك المتحمّس للفن عن وعي وتصميم، ومن حيث كونه مثال الفن. أمّا ما كان ماثلاً لعينيه، بالأحرى، في هذا الصدد، فكان يتمثل، ببساطة، في أثواب صغيرة من نسيج شفاف، وجلبة ناجمة عن وقع رؤوس أصابع القدمين، وأذرعٍ محنيِّة على الرؤوس في «رشاقة»، تحت عيون مجلس أنس في البلاط يكرِّس «المثاليّ» ويستهجن الإشكاليّ القبيح، في الشرفات، ورهط من الطبقة الوسطى المُلْجَمة العنان في صالة العموم.

وكان يجري الآن إنتاج الكثير لڤاجنر بالطبع عند آل شلاجنهاوْفن، إذ كان يرتاد البيت، ضيفان، في كثير من الأحيان، العازفة بالصوت النَّدِيّ (سوبرانو) الدرامية، تانيا أورلاندا، وهي سيدة ضخمة فخمة، وصاحب الصوت الصادح البطولي، هارالدكيو بيلوند، وهو رجل بات بديناً، له نظارة أنفيّة، وصوت صادح. ولكن عمل ڤاجنر الذي ما كان مسرحه الملكي ليوجد من دونه، كان السيد فون ريديزيل، بما كان يتميَّز به من ارتفاع الصوت، والعنف، قد أدخله، بدرجة تقل أو تكثر، في مضمار - «الرشيق» رشاقة إقطاعية، وكان يقدم إليه آيات التقدير، وكان يزيد من استعداده لذلك أنه كان يوجد شيء أكثر جدة، يتخطى هذه الحدود، كان في وسع المرء أن يرفضه، وأن يطرح ڤاجنر في مُقابله، على أنه موسيقيّ محافظ. وهكذا كان يحدث أن سعادته كان يرافق المغنين بنفسه عند الجناح، الأمر الذي كان يتملَّقهم، على الرغم من أن فنونه في البيانو كانت أقلَّ من أن تكون نِدّاً لمستخلَص البيانو، وكانت تعرِّض تأثيراته للخطر أكثر من مرة. ولم يكن يسرني على الإطلاق أن

يرفع مغني موسيقي الحجرة، كيو ييلوند، عقيرته مزمجراً بأغاني زيجفريد الحَدّاديّة التي لانهاية لها، والتي تنبىء عن تبلُّد حقيقي في الشعور كان يبلغ منه أن قطع الديكور الأكثر حساسية، من مزهريّات وكؤوس فنية، كانت تدخل في حالة من المشاركة المستثارة، في الاهتزاز والدَّوي. غير أني أعترف بأنه كان يصعب عليَّ مقاومة الهزّة بصوت بطوليّ نسائي، كما كان على هذه الصورة صوت أورلاندا في تلك الأيام. وكان عنفوان الشخصية، وقوة الجهاز، وما تنطوي عليه النبرات المسرحية من المِران، يَمْنَحْنَنا وَهْمَ وجود روحٍ نسائي ملكي، في حالة من الانفعال الشديد. وبعد تلاوة أنشودة إيزولدا «ألا تعلمين، ياسيدة الغرام»، مثلاً، حتى جانبها الوجدي «المشاعل، ولو كانت نور حياتي، وإني لأتهيَّب من إطفائها ضاحكاً» (حيث كان المغنّية تميِّز الفعل المسرحي بحركة من ذراعها تندفع بقوة الى الأسفل) ولم يكن ينقص ذلك الكثير لكي أجثو على ركبتيّ، والدموع في عيني، أمام تلك التي ينصبُّ عليها الإعجاب انصباباً، وهي تبتسم ابتسامة المنتصر، وفي النهاية كان أدريان هذه المرة هو الذي وجد نفسه على استعداد لمرافقتها، وكان هو أيضاً يبتسم حين نهض عن مقعد البيانو،. والتقت نظرته بملامحي التي كانت الهزة قد بلغت منها حدّ البكاء.

إنه لمما يحسِّن حالة المرء أن يتمكن من الإسهام بنفسه بشيء ما في التسلية الفنية للحضور، ولقد أثَّر في نفسي أنْ شجَّعني بعدها صاحب السعادة فون ريديزيل تسانده في ذلك، في الوقت ذاته، ربة المنزل الأنيقة ذات الساقين الطويلتين، وذلك بطريقته في الحديث الملوَّنة في الحقيقة بلهجة أهل الجنوب الألماني، ولكن لهجة الضابط كانت تزيد

من حِدَّتها، على تكرار «ذات البطء المعتدل» و «رقصة البلاط» لميلاندر (١٧٧٠) التي كنت قد قدمتها على أفضل الوجوه الممكنة منذ عهد قريب ذات مرة على أوتاري السبعة هنا. ألا ما أضعفَ الإنسان! لقد كنت ممتنّاً له، ونسيت كل النسيان كراهيتي لقلة حيائه الناعمة والفارغة، بل قلة حيائه الصامدة صمود البغال، والماثلة، الى حد ما، في السيمياء الواضحة الدالة على الارستقراطية، مع الشاربين الأشقرين المفتولين في مقدمة الوجنتين المستديرتين المحلوقتين، وأمام قرص النظارة البرّاق في العين تحت الحاجب المُبْيَضّ. أما أدريان فقد كانت شخصية الفارس بالقياس إليه، إن صح التعبير، خارج إطار أي تقييم، وخارج إطار الكراهية والازدراء، بل خارج إطار الضحك، وهذا ماكنت أعرفه، إذ لم تكن تستحق عنده هزة كتف، وهذا ماكنت أحسّ به أنا أيضاً بلاريب. ولكن في أمثال هذه اللحظات، عندما كان يطالبني بنشاط المتبرِّع، لكي يستجمّ الحضور من السيل الدافق للثوريّ الوصولي، بشيء «رشيق»، لم يكن له مندوحة من أن أكون طيِّباً معه.

ولكن كان من الغريب للغاية، وكان مؤلماً في جانب منه ومضحكاً في جانب آخر، أن يصطدم المرء إذ ينتقل من نزعة المحافظة عند ريديزيل الى أخرى لاتتعلق المسألة في حالتها بعبارة «هاتِ أيضاً» بمقدار ماتتعلّق بعبارة «لقد عاد، مرة أخرى»، إنها نزعة مُحافِظة من عهد مابعد الثورة ونزعة محافظة مناوئة للثورة، ومعارضة للتقييمات المدنية الليبرالية من الجانب الآخر، لا من قبلُ، بل من بعد. وكانت روح العصر تتيح الفرصة أخيراً لمثل هذا التلاقي المشجع والمذهل أيضاً بالنسبة الى النزعة المحافظة القديمة وغير المعقدة، وحتى في صالون السيد

شلاجنهاوفن الذي كان يأتلف، ائتلافاً ينمّ عن الطموح، من ألوان متعددة قدر الإمكان، كانت الفرصة تتاح لهذا: وذلك عن طريق شخص المثقَّف المستقل الدكتور حاييم برايزاخر، وهو رجل ذو معدن أصيل الى حد بعيد، وفكر متطوِّر، بل مغامر جريء يتسم ببشاعة فاتنة كان يلعب هنا، بمتعة معينة تنطوي على الخبث على مايبدو، دور الجسم الغريب الذي يقوم بدور الخميرة. وكانت ربّة المنزل تقدر ذلاقة لسانه باللهجة المحلية التي كانت، بالمناسبة، متأثرة تأثُّراً شديداً بلهجة إقليم بفالتس، ونزوعه الى العبارات التي تتسم بالتناقض الظاهري، وهي العبارات التي كانت تجعل السيدات يَصْفِقْن أيديهن فوق رؤوسهن في نوع من التهليل المنطوي على التظاهر بالحياء. أمّا مايتصل به هو ذاته فقد كان هذا بلاريب، نوعاً من التعاظم الذي ارتضاه لنفسه في هذا الوسط، الى جانب الحاجة الى إدهاش السذاجة الأنيقة بالأفكار التي كان يبدو أنها كانت خليقة أن تكون أقلَّ إثارة على الأرجح، في ركن الزبائن الدائمين من أهل الأدب. ولم أكن أُوليهِ أدنى قدر من المحبة، وكنت أرى فيه على الدوام امرءاً يثبِّط الهمم في المَجال الذهني، وأرى نفسي متأكداً أنه كان بغيضاً الى أدريان أيضاً، على الرغم من أن المسألة لم تنته قطُّ، لأسباب لم تتضح لي كل الوضوح، الى تبادل للأفكار أكثر تفصيلاً حول برايزاخر. غير أن تحسُّسه المُتَشمِّم للحركة الفكرية في ذلك العصر، وإحساسه بأحدث الآراء المعبِّرة عن الإرادة أمر لم أنكره أبداً. وكان بعضُ ذلك يتجلى لي في شخصه، وفي حديثه في الصالون قبل كل شيء سواه.

لقد كان من أولئك المثقفين الذين يأخذون من كل جانب من الثقافة

بطَرَف، وكان يعرف كيف يخوض في كل موضوع، وكان من فلاسفة الحضارة، غير أن تفكيره كان يتجه اتجاهاً معادياً للحضارة مادام لايظهر أنه يرى في مجمل تاريخها شيئاً سوى عملية انحلال وتفسُّخ. وكانت أدعى المفردات الى الازدراء في فمه كلمة «التقدم»، وكان له أسلوب مُدَمِّر في طريقة التلفُّظ بها وكان المرء يشعر حقاً أنه كان يفهم السخرية المتحفِّظة التي كان يوليها للتقدم، على أنها تذكرة الهوية القانونية لإقامته في وسط المجتمع، والعلامة المميِّزة لأهليّته لارتياد هذا الصالون. وكان ينطوي على الظُّرف، ولكنه لم يكن ظُرْفاً يتسم بالتعاطف الحقيقي، حين كان يتهكّم على التقدم في فن التصوير، من التصوير البدائي، المسطّح، الى التصوير المنظوريّ. وكانت نظرته الى رفض خداع العينين المنظوري من قبل الفن السابق على الفن المنظوريّ، على أنه انعدام للأهلية والمقدرة. وعلى أنه حيرة وبلبلة، بل على أنه بدائية بليدة خرقاء، وهَزُّه كتفيه، فوق ذلك، كمن يرثي لحاله، كان هذا هو مايعدُّه ذروة من ذرى الغطرسة العصرية الحمقاء. وكان يقول إن الرفض، والتخليّ، وتقدير الأشياء دون قدرها لاتعدُّ من قبيل العجز، وعدم المقدرة، وعدم حيازة المعرفة الواسعة لايعد شهادة فقر حال، وكَأَنَّ الوهم ليس مبدأ الفن الأكثر وضاعة، والأكثر إنصافاً للغوغاء، وكأن رفضَ المرء الاعتراف بشيء منه ليس من آيات الذوق النبيل! وكان يقول إن رفض الاعتراف بأشياء معينة، هذه المقدرة، التي هي جدُّ قريبة من الحكمة، أو هي، بالأحرى، جزء منها، ضاعت مع الأسف، وأن الفضول العادي يطلق على نفسه اسم التقدُّم.

وكان حُماة الصالون، من مواليد بْلاوْزِج، يشعرون، على أي نحو

من الأنحاء، بأن هذه الآراء تذكِّرهم ببلدهم، وكان هؤلاء الحماة، بعد ذلك، أقربَ الى الشعور بأن برايزاخر لم يكن بالرجل المناسب تماماً لتمثيلهم، منهم الى الشعور بأنهم قد لايكونون القومَ المناسبين للتصفيق لهذه الآراء.

وقال إن الأمور تسير على نحو مماثل فيما يتعلق بانتقال الموسيقا من أحادية الصوت الى تعدُّدية الأصوات، والى الهارموني الذي يسر الناس أن ينظروا إليه على أنه تقدم ثقافيّ، بينما كان بلاريب من مكتسبات البربرية.

وصاح السيد فون ريديزيل بصوت كنعيق الغراب: «هذا يعني... عفواً... من مكتسبات البربرية؟» وكان قد اعتاد أن يرى في البربرية شكلاً من أشكال المحافظة وإن كان شكلاً مشيناً.

«بلاريب، ياصاحب السعادة، فأصول الموسيقا المتعددة الأصوات، أي أصول الغناء في أشكال التوافق الخماسي أو الرباعي، تقع بعيداً عن مركز الحضارة الموسيقية، عن روما، حيث يكون موطن الصوت الجميل وتبجيله، إنها تقع في الشمال ذي الحنجرة الخشنة، ويبدو أنها كانت نوعاً من التعويض عن خشونة الحنجرة. إنها تقع في انكلترا وفرنسا، وعلى وجه التحديد في بريطانيا البربرية التي بلغ منها أنها كانت أول من أدخل الثلاثيَّ الغنائي في الهارموني. وعلى هذا فما يسمى بالتطور الأعلى، والتعقيد، والتقدم، يمثّلن في بعض الأحيان إنجاز البربرية. وأنا أدع لكم مسألة هل ينبغي للمرء أن يثني على هذه مقابل ذلك...».

وكان من الواضح الجليّ أنه كان يسخر من صاحب السعادة، ومن الحاضرين جميعاً إذ كان يتملّقهم بتقديم نفسه في الوقت ذاته على أنه

امرؤ محافظ. وكان من الواضح أنه لايطيب نفساً مادام أي امرئ بعدُ يعرف مايفترض أنه يفكر فيه. ومن البدهي أن هذه الموسيقا الغنائية المتعددة الأصوات، هذا الاختراع الصادر عن بربرية تقدمية، تحوَّلت الى موضوع لحمايته المُحافِظة بمجرد أن تحقَّق الانتقال التاريخي منها الى المبدأ الهارموني - التوافقي، وتحوّل، بذلك، الى موسيقا الآلات في كلا القرنين الأخيرين. ولكن هذه الموسيقا كانت تمثل التدهور والانحلال في الفن العظيم، فن الطباق الموسيقي الذي هو الفن الحقيقي الوحيد، فن عبث الأرقام البارد المقدَّس، الذي مازال، والحمد لله، لايمت بصلة الى عُهْرِ الوجدان وديناميةالمنكر والخبيث. والى صميم هذا الانحلال يرجع باخ العظيم، من آيزيناخ، الذي سمّاه جوته، وهو على الحق كل الحق، هارمونياً. وقال إن المرء لايكون المخترع للبيانو المعدَّل، أي لإمكانية فهم كل نغمة فهماً يضفي عليها معاني متعددة، وتبديلها تبديلاً هارمونياً، أي رومانسية التلحين الهارموني الجديد، من دون أن يكتسب هذا الاسم القاسي، الذي أطلقه عليه ذلك المطَّلع على بواطن الأمور، في ڤايمار. أهو الطباق الموسيقي الهارموني؟ هذا شيء لاوجود له. وقال إن هذا شيء لاتُعْرَف له هيئة ولاشكل. لقد بدأ اللِّين والإلانة، والتزييف، وقَلْب دلالة القديم والأصيل الذي يجري الإحساس به على أنه تداخل رنين أصوات متباينة في مُتَعَدِّدَة الأصوات، الى الهارموني التوافُقي(*)، منذ القرن السادس عشر. وكان أناس مثل باليسترينا، والأخوين جابرييلي، وصاحبنا الطيب ديلاسّو، هنا في الميدان، خليقين أن يشاركوا في ذلك مشاركة باعثة للشعور بالعار. وقال إن هؤلاء السادة جاؤوا بمفهوم الفن المتعدد الأصوات الغنائي «إنسانياً» وعلى النحو الأقرب متناولاً، أجل،

وكانوا يظهرون لنا، من أجل ذلك، صورة أعظم أساتذة هذا الأسلوب ولكن هذا إنما يأتي ببساطة من أنهم ارتضوا، في شطرهم الأعظم، طرازاً من الجملة الموسيقية توافقيا(*) صِرفاً. وأن أسلوبهم في البحث في الأسلوب المتعدد الأصوات وحده، وهو الأسلوب الذي يبعث على الرثاء حقاً، من مراعاة التناغم الهارموني، الى العلاقة بين توافق الأصوات وتنافرها، قد تعرَّض للإضعاف.

وبينما كان الحاضرون جميعاً يتعجَّبون، ويتسَلَّوْن ويَطْربون، ويضربون بأيديهم على رُكَبهم، كانت عيناىَ تلتمسان عينَيْ أدريان في غمرة هذه الأحاديث الباعثة للاستياء، غير أنه لم يُولِني نظرته. أمّا ريديزيل فقد كان ضحية لاختلاط كامل.

وقال: استميح عفوك، اسمح لي... باخ، باليسترينا...».

وكانت هذه الأسماء تتميّز، بالقياس إليه، بهالة الموثوقية المحافظة، ثم أحيلت الآن الى مجال التخريب المتسم بسمة النزعة العصرية - وكان في الوقت ذاته متأثراً تأثراً يبلغ من رهبته أنه رفع نظارته الأحادية عن عينه، فبات وجهه محروماً من أية بارقة من ذكاء، ولم تكن حاله أفضل أيضاً عندما دخل تشدُّق برايزاخر في نقد الحضارة في مجال العهد القديم، أي أنه اتجه نحو جوِّه الشخصي الأصلي، الى القبيلة اليهودية، أو الشعب اليهودي وتاريخه الفكري، وأثبت هذا أيضاً وجود نزعة محافظة عنده، ملتبسة الى أقصى الحدود، وتنطوي مع ذلك على مالم يُسْمَع بمثله أو لايُصدَّق، ويتسم بالخبث. وكان حين سمعه الناس، قد بدأ التدهور، والنعت بالغباء، وفقدان كل إحساس بالقديم والأصيل في وقت

(*) harmonisch - akkordisch.

مبكِّر للغاية، وفي موضع يبلغ من تمتُّعه بالاحترام مالم يسمح أحد لخاطره أن يحلم به، ولا أستطيع سوى أن أقول إن المسألة كانت، على وجه الإجمال، مضحكة الى حد الجنون، إذ كانت أمثال تلك الشخصيات التوراتية ذات المقام الرفيع عند كل من يدين بالمسيحية، مثل الملك داود والملك سليمان، والأنبياء بثرثرتهم عن الله في السماء، وأولئك الوكلاء الذين يمثلون لاهوتاً متأخراً أفل نجمه، وما عاد لديه تصوٌّر عن الواقع العبري القديم والأصيل، واقع الإله (الإلوهيم)، إله الشعب اليهودي، يهوه، وما عاد يرى في الطقوس التي كان الناس في أيام القومية الأصيلة يعبدون بها هذا الإله القومي، أو، بالأحرى، يقسُرونه على الحضور الجسدي، سوى «لغز العصر الأول» وكان شديداً بوجه خاص على سليمان «الحكيم»، وأطلق لسانه فيه حتى لقد بات السادة يصفرون من بين أسنانهم، وبات يصدر عن السيدات هتاف ينبئ عن دهشتهن.

وقال فون ريديزيل: «استميح عفوك! أنا، بتعبير مهذب... الملك سليمان في روعته وجلاله... ماكان ينبغي لك...».

وردّ برايزاخر قائلاً: «كلاّ، ياصاحب السعادة، ما كان ينبغي لي... لقد كان الرجل محباً للجمال، وكان فيما يتصل بالدين تقدُّمياً، أنموذجياً في الارتداد عن عبادة الإله القوميّ، المتَّسم بالحضور الفعّال، أي هذا الذي يمثل جوهر طاقة الشعب الغيبيّة، الى الدعوة الى إله مجرد، للبشر كافة، في السماء، أي الى التحوُّل من ديانة الشعب الى ديانة للعالم كله. ولانحتاج، لإثبات هذا إلاّ الى الرجوع الى الخطبة المُزْرِية التي ألقاها بعد الفراغ من بناء الهيكل الأول، والتي سأل فيها: «وهل يمكن أن يقيم الرب في الأرض مع البشر؟ - وكأن رسالة إسرائيل الوحيدة،

بأسرها، لاتتمثَّل في إقامة مسكن لله أو خيمة، وتزويدها بكل الوسائل من أجل حضوره الدائم، غير أن سليمان لايتورَّع عن القول مُرَتِّلاً: «السموات لاتحيط بك، فما أَوْلى هذا البيت الذي بنيته أن يكون أقلّ إحاطةً بك منها!». هذا هَذْر، وبداية النهاية، أي بداية التصوُّر الفاسد للرب عند شعراء المزامير، الذين يكون الرب عندهم قد نُفِي تماماً الى السماء، والذين يترنَّمون بالإله الذي في السموات على حين لاتعرف أسفار موسى الخمسة السماء مستَقَرّاً للألوهة، على الإطلاق. فهناك يتقدم الله شعبه في عمود من النار، وهناك يريد أن يقيم بين ظهرانَيْ شعبه، وأن يروح ويغدو بين الناس، وأن تكون له منصة ذبيحته، إذا أردنا أن نتجنَّب الكلمة المتأخرة، ذات السمة الإنسانية «الهيكل». وهل كان ينبغي للمرء أن يرى أن من الممكن لصاحب مَزْمور أن يتساءل، قائلاً، على لسان الرب: «أتراني آكل لحم الثيران، وأشرب دم الكِباش؟» إن مجرد وضع شيء كهذا على لسان الرب أمر لامثيل له، ببساطة، وضربة تنويرية تنطوي على التطاول، في وجه الأسفار الخمسة التي تصف القربان، بصريح العبارة، بأنه «الخبز»، أي الغذاء الفعلي ليَهْوَه. وليس هناك سوى خطوة واحدة، من هذا السؤال، ولكن من الأقوال المأثورة لسليمان الحكيم، الى ميمون، الذي يقال إنه أكبر حاخام في العصر الوسيط، وهو رجل تمثَّل أرسطو في الحقيقة، وتوصَّل الى تفسير القربان بأنه تنازل من الرب تجاه الغرائز الوثنية للشعب. آه، هَهْ، لابأس، قربان الدم والدهن الذي كان فيما سلف يَطْعَمه الرَب مملَّحاً ومتبَّلاً، فيجعل له جسداً، ويستحثه على الحضور، ماعاد، بالقياس الى صاحب المزمور سوى رمز»؛ (ومازلت أسمع نبرة الازدراء الذي لايوصف،

التي نطق بها الدكتور برايزاخر بهذه الكلمة)، «ماعاد الناس يذبحون الحيوان، بل يذبحون الشكر والتواضع، وهو أمر لايكاد يصدَّق، ويقال الآن إن من يذبح الشكر يمجِّدني» وفي مرة أخرى «إنما القرابين التي تُقدَّم الى الرب هي النفس التائبة، وجملة القول إنه ماعاد ثمة وجود للشعب والدم والواقع الديني، منذ عهد بعيد، بل هو الحساء الإنساني المائع...».

وهذا إنما يكون اختباراً لتقشُّعات برايزاخر المحافظة بدرجة عالية. وكان هذا ممتعاً بقدر ماكان مكروهاً. ولم يكن في وسعه أن يكتفي من الوقوف بين يَديْ الطقس الأصيل، عبادة الإله القومي، الواقعي، الذي لايكون تجريدياً عاماً بحال من الأحوال، والذي لايكون، من أجل ذلك، «القادر على كل شيء» و «الحاضر في كل مكان»، من حيث هو تقنية سحرية، ومعالجة لاتخلو من الخطورة من الناحية الجسدية، للديناميّ، من الممكن أن تنتهي المسألة فيها، بسهولة، الى حالات شقاء وتعاسة، وحالات تماسّ كهربائي ذات طابع كارِثيّ نتيجة لأخطاء وزلاّت. لقد كان أولاد هارون قد ماتوا لأنهم كانوا قد أتَواْ بـ «نار من نوع غريب»، وكانت هذه حالة فاجعة الى حد بعيد من الناحية التقنية، كانت النتيجة السببية لخطأ ما. كان امرؤ يدعى أوزا قد لامس، في تهوُّر، الصندوق، أو مايسمى تابوت العهد حين أوشك أن ينزلق من العربة عند نقله وخر صريعاً على الفور، وكان هذا تفريغاً لشحنة دينامية متعالية، نشأ من جراء عدم التبصُّر، وذلك في الحقيقة من جراء عدم تبصُّر الملك داود الذي كان يفرط في العزف على الجنك، وذلك أنه ماعاد يفهم شيئاً، وأوعز بنقل التابوت على عربة بأسلوب الجهلة بدلاً من حمله على الأعواد

الحاملة تبعاً للتعاليم المبرَّرة تبريراً حسناً في أسفار موسى الخمسة، على أن داود لم يكن أقل بعداً عن الأصل. وكان ماعاد يعرف شيئاً عن الأخطار الدينامية الناجمة عن تعداد للشعب، ولقد تسبَّب، من جراء تنظيم مثل هذا الإحصاء، في ضربة بيولوجية فادحة، بل وباء، وموت، من حيث كون ذلك ردَّ فعلٍ لطاقات الشعب الغيبيّة، لأن الشعب الأصيل لم يحتمل، ببساطة، مثل هذا التسجيل الذي ينطوي على المكننة، وانحلال المجموع الديناميّ المرتبط بالترقيم، الى أفراد متماثلين...

وكان محبَّباً الى قلب برايزاخر أن تتدخل سيدة، قائلة إنها لم تكن تعرف أبداً أن تعداداً للشعب يعد خطيئة الى هذا المدى.

وردَّ قائلاً، بلهجة سؤال مبالغ فيها: «خطيئة؟؟ كلاّ، ففي الدين الحقيقي لشعب أصيل ماكانت أمثال هذه المفاهيم اللاهوتية الباهتة، مثل «الخطيئة» و «العقوبة» لتَرِد على الإطلاق في مجرد سياقها السببي الذي مازال مجرد سياق أَخلاقي، وقال إن ماتتعلق المسألة به إنما هو سببيّة الخطأ والحوادث أثناء العمل، وأن الدين والأخلاق ما كان كلّ منهما ليمتّ الى الآخر بصلة إلاّ بمقدار مايمثل هذا انحلال الآخر، لقد كان كل ماهو أخلاقي «فكرياً صِرْفاً»، كان سوء فهم للطقسيّ، وهل كان ثمة شيء أكثر اتِّساماً بالوحشة والهجر من «الفكري الصِّرف» لقد احتفظت الأديان العالمية التي تتسم بطابع مميِّز، بسمة تتمثل في أنها تجعل من الصلاة، واسمحوا لي بهذا، تسوُّلاً، والتماساً للرحمة، وتوسُّلاً الى الرب، واسترحاماً لديه، واستعانة به، وطلباً، واستعطافاً، وما يسمى بالصلاة...

وقال فون ريديزيل، بتوكيد فعليّ هذه المرة: «استميح عفوك، كل

ماهو صحيح فلا بأس به، ولكن كان إيعاز «أَحْسُروا الخوذات عن رؤوسكم للصلاة» دائماً، بالقياس إليّ...».

وقال الدكتور برايزاخر مستكملاً، بغير هوادة: «الصلاة هي الصيغة المتأخرة التي أضفي عليها الطابع الشعبي، ورُوِيَت بماء العقلانية، لشيء يتسم بالعزم والعنفوان والإيجابية الفاعلة، والقوة: وهو الاستحضار السحري للَقَسْر الإلهي».

وكان البارون يثير في نفسي مشاعر الرثاء حقاً، إذ لم يكن هناك بدٌّ أن تشوِّش أعماق روحه نزعة المحافظة عنده، وقد غطّى عليها الاكتساح البارع الرهيب الذي كان ينطوي على عودة الى صفات الأسلاف من جراء تطرُّف في المحافظة ما عاد ينطوي على شيء فروسيّ، بل كان أقرب الى شيء ثوري، وكان يبدو هدّاماً أكثر من كل ليبرالية، وكان فيها، مع ذلك، بلاريب، وكأنما بقصد السخرية، نداء محافظ مستحسن - وكنت أتصوَّر أن هذا خليق أن يسبب له ليلة مؤرَّقة ولكن ربما كانت، في غمرة شعوري بالرثاء، قد ذهبت الى أبعد مما ينبغي. ولم يكن كل شيء على مايرام على الإطلاق في أحاديث برايزاخر، في أثناء ذلك، وكان من اليسير على المرء أن يعارضه، وأن يلفت نظره، مثلاً، الى أن الاستهانة الروحية بالقربان لايُعْثَر عليها، أوَّل مايُعْثَر عليها، عند الأنبياء، بل في أسفار موسى الخمسة ذاتها، أي عند موسى، الذي يعلن بصراحة لا لَبْس فيها، أن القربان مسألة ثانوية، ويجعل كل الأهمية لطاعة الله والالتزام بأوامره، ولكن الإنسان الذي يتميز بالإحساس المرهف لايطيب له أن يزعج أو يكدِّر الصفو، ولايروق له أن يقتحم، بذكريات مضادة منطقية أو تاريخية، نسقاً من الأفكار تم اكتسابه، ويظل، وهو في مجال المضاد للفكريّ، يقدِّر الفكريَّ ويراعيه.

واليوم يرى المرء، بلاريب، أن من أخطاء حضارتنا أنها مارست هذه المراعاة وهذا التقدير بقدر مفرط من الشهامة والمروءة - حيث كان عليها، في الجانب المقابل، أن تتصرَّف بالجسارة الصِّرْفة وبالتعصب، الذي ينطوي على العزم والتصميم.

لقد كنت أفكر في كل هذه الأمور حين عمدت، منذ بداية هذه الملاحظات، الى تقييد اعترافي بمودتي مع اليهود بملاحظة أن ثمة أمثلة مزعجة حقاً عرضت لي من هذا الجنس أيضاً فيما عرض لي، وأن اسم العالم المستقل برايزاخر أفلت من زمام قلمي قبل أوانه. وهل يستطيع المرء، بالمناسبة، أن يؤاخذ الفكر اليهودي عندما يثبت تقبُّله المتسم بإرهاف الحس، للقادم والجديد، كفاءته حتى في المواقف المعقدة، حيث يتطابق الطليعيّ مع الرجعيّ؟ وعلى كل حال فقد أتيح لي أن أحسّ أول مرة بالعالم الجديد القائم على معاداة الإنسانية، ذلك العالم الذي لم تكن نيتي الحسنة تعرف عنه شيئاً، عند آل شلاجنهاوفن، عن طريق هذا المدعو برايزاخر.




محمد خطاب

(٢٩)

لقد ظل كرنفال مونيخ عام ١٩١٤، أي هذه الأسابيع الرَّخِية الباعثة للشعور بالتآخي، والحافلة بالوجنات الحارة من أثر الاحتفال بين عيد الغطاس وأربعاء الرماد، بما في ذلك من الحفلات العامة والخصوصية، التي شاركت فيها، أنا الذي مازلت أستاذاً شاباً في المدرسة الثانوية، في فرايزنج، مستقلاً أو في صحبة أدريان، أكثر إفعاماً بالحياة في ذاكرتي، والأفضل أن أقول إنها أحفل بالعواقب الوخيمة، إذ كانت آخر كرنفال قبل نشوب حرب السنوات الأربع التي تنضم الآن لتتجلى لنظرتنا التاريخية، مع أهوال أيامنا هذه، لتشكل حقبة واحدة: هي مايسمى بالحرب العالمية الأولى التي وضعت نهاية أبدية لبراءة الحياة الجميلة في مدينة نهر الإيزار، ورفاهيتها الديونيزية، إذا صح هذا التعبير. أتُراها كانت هي الأيام التي شقَّت علينا فيها تطورات معينة في مصائرنا الفردية، في أوساط معارفنا، تحت سمعي وبصري، على حين كان سائر الناس لايكادون يحفلون بها، وكان مقدَّراً لها أن تفضي الى كوارث لابدّ أن يرد الحديث عنها في هذه الصحائف، لأن هناك صلة جزئية وثيقة بينها وبين حياة بطلي أدريان ليڤركون، ومصيره، بل لأنه كان له، في واحدة منها، وفقاً لأعمق معلوماتي، تورُّط بطريقة قاتلة على نحو خفي.

ولست أقصد بذلك حظ كلاريسا رودّه، هذه الشقراء الطويلة، التي

كانت ماتزال تقيم بيننا في تلك الأيام، وكانت ماتزال تعيش عند أمها وهي تعدّ العدة لمغادرة المدينة لتدخل في التزام بصفة هاوية شابة في مسرح من مسارح الأقاليم، وكان هذا التزاماً دبّره لها معلمها، ممثل أدوار كبار السن في المسرح الملكي، وكان مقدَّراً لهذا أن يثبت أنه مصيبة، ولابدّ من تبرئه مرشدها في المسرح، الذي يدعى زايلر، وهو رجل ذو خبرة وتجربة، من كل مسؤولية عن هذا. وكان قد كتب ذات يوم الى زوجة السناتور روده رسالة أعلن إليها فيها أن تلميذته فائقة الذكاء في الحقيقة، وأنها مفعمة بالحماسة للمسرح، ولكن موهبتها الطبيعية لاتكفي لكي تضمن لها مسيرة ناجحة في المسرح، إذ تفتقر الى الأساس الأوَّلي لكل فنيّة مسرحية، والى الغريزة الكوميدية، والى مايسمونه بالدم المسرحي، وأنه لابدَّ له أن ينصح لها بما يمليه عليه ضميره، وهو ألاّ تتابع السير في الطريق الذي سلكته، غير أن هذا أسفر عن أزمة حافلة بالدموع، وانفجار لليأس من جانب كلاريسا مزَّق نياط قلب أمها، وأوعز الى زايلر، الممثل في المسرح الملكي، الذي كان قد غطّى نفسه بهذه الرسالة، بإنهاء التدريب، ومساعدة الفتاة الناشئة، عن طريق علاقاته، على الحصول على وضع مبتدئة لكي تنطلق منه.

لقد انصرمت الآن اثنتان وعشرون سنة منذ أن تحقق مصير الفتاة الذي يبعث على الرثاء، وسوف أتحدث عن ذلك في ترتيبه الزمني. وأمام عيني مصير أختها إنيس الرقيقة والباعثة للألم، الذي يرتقي بالماضي وبالألم - الى جانب مصير المسكين رودي شفيرتفيجر الذي كنت أفكر فيه وقد تولاني الفزع حين لم يكن في وسعي أن أكف عن الحديث عن تورُّط أدريان الوحيد في هذه الأحداث، في الوقت الحاضر. لقد

اعتاد القارئ على أمثال هذه التوقعات عندي، وعسى ألاّ يفسرها على أنها من قبيل إطلاق الكاتب العنان لنفسه، أو الهَوَس عند الأدباء. على أن المسألة، ببساطة، هي أنني أحيط ببصري، من بعيد، بأمور معينة سوف يترتَّب عليَّ أن أسردها في هذه المرحلة أو تلك، مع اقتران ذلك بالخوف والقلق، بل بالفزع، حتى إنها لتظل ماثلة أمامي، جاثمة على صدري، وأحاول أن أُفَرِّق وزنها، بالإتيان على الحديث عنها قبل إبّانه، وبطريقة التلميح، وبالطبع بأسلوب لايفهمه سواي أنا، فأطلقها من مَحْبَسها بصورة جزئية، وبذلك أحسب أنني أخفِّف عن نفسي عبء الإفضاء بها في المستقبل، وأنتزع منها أشواك الفزع، وأحُدُّ من رهبتها وإثارتها للوحشة. كل هذا فيما يتعلق بتبرير تقنية في السرد «خاطئة»، ومن أجل فهم محنتي. أمّا أن أدريان كان بعيداً كل البعد عن بدايات التطورات التي يدور الحديث عنها هنا، وكان لايكاد يوجه نحوها التفاتة من عينيه، ولم يلتفت إليها بدرجة معينة إلاّ عن طريقي، أنا الذي يتميَّز بقدر من الفضول الاجتماعي أكبر منه، أمّا هل ينبغي لي أن أقول: بقدر أكبر من المشاركة الإنسانية، فذلك ما لا أحتاج الى أن أقوله أوّلاً، فالمسألة تتعلق بما يلي:

لم تكن الأختان، من آل روده، كلاريسا وإنيس، تنسجمان على وجه الخصوص مع أمهما، زوجة السناتور، ولم يكن من النادر أن يتبيَّن المرء أن بوهيمية صالونها الجزئية المكبوحة، والمتسمة بشيء من الشهوانية كانت تُثْقِل على حياتهما التي اجتُثَّت جذورها، وإن كانت فيها أيضاً بقايا من بورجوازية قائمة على النظام الأبوي ذي الحياة المؤثَّثة. وكانت كلتاهما تطمح الى الخروج من حالة الهُجْنة، أما كلاريسا

المزهوة بنفسها فكانت تنزع الى الخروج الى حياة فنية على نحو حاسم كانت تفتقر، فيما يتعلق بها، كما لم يكن بدٌّ لأستاذها أن يقرر بعد بعض الوقت، الى نداء في دمها يدعوها إليها، وأمّا إنيس، ذات الكآبة السوداوية الرقيقة، والمتوجِّسة من الحياة في أساسها، فكانت تنزع الى العودة الى المأوى، الى الحماية النفسية الكامنة في الطبقة الوسطى الآمنة، التي كان الطريق إليها زواج محترم، ينعقد على أساس الحب قدر الإمكان، وإلاّ فعلى اسم الله، وإن لم يكن بدافع الحب. وسارت إنيس في هذا الطريق، وذلك، بالطبع، مع المرافقة العاطفية القلبية من جانب أمها - وأخفقت فيه مثلما أخفقت أختها في طريقها ذاك. وتبيّن، بصورة مأساوية، أن هذا المثال لم يكن يلائمها في الحقيقة شخصياً ولا سمحت تلك الحقبة التي كانت تغيِّر كل شيء وتقوّضه، بتحقيق هذا المثال مدة من الزمان أطول.

ففي تلك الأيام تقرَّب إليها رجل يدعى هلموت إنستيتوريس، وهو باحث في علم الجمال، ومؤرخ للفن، ومدرس في المعهد العالي للتقنية، حيث كان يقرأ، وهو يدير في قاعة المحاضرات صوراً ضوئية على الطلاب، في نظرية الجميل، وفن العمارة في عصر النهضة، غير أنه كان ينطوي على آمال كبيرة في أن يُستدعى ذات يوم الى الجامعة، وأن يغدو أستاذاً، وأستاذ كرسي وعضواً في المجمع العلمي، ولاسيما حين يرتقي، وهو العَزَب المتحدِّر من أسرة موسرة من ڤورتسبورج، وكان ينتظر حصة من إرث لها شأنها، بوجاهة حياته عن طريق تأسيس بيت الزوجية الذي تلتئم فيه مجالس الأنس، ومضى يبحث عن زوجة، ولم يكن في حاجة الى أن يحفل بالأحوال المالية للفتاة التي يقع عليها اختياره، - بل على

النقيض من ذلك، إذ كان من الرجال الذين يترتب عليهم في الزواج أن يمسكوا بالدفتر الاقتصادي في أيديهم وحدهم تماماً، ويرغبون أن يعلموا أن الزوجة مرتبطة بهم كل الارتباط.

وهذا لايشهد على شعور بالقوة، ولم يكن إنستيتوريس بالرجل القوي في الواقع، وهو الأمر الذي كان يمكن أن يتبيّنه المرء من خلال الإعجاب الجمالي الذي كان يكنُّه لكل ماهو قوي ومزدهر، غير عابئ بما عدا ذلك. وكان أشقر، متطاول الرأس، أقرب الى القصر، أنيقاً حق الأناقة، ذا شعر أملس، مَفْروق، مزيَّت قليلاً، وكان يعلو فمه شارب أشقر وكانت تطلّ من وراء النظارة الذهبية العينان الزرقاوان بتعبير رقيق، نبيل، وكان مما يجعل فهمه صعباً - أو ربما يجعله مفهوماً على وجه الخصوص، أنه كان يبجِّل الفظاظة، على أنه لم يكن يبجِّلها إلاّ عندما تكون جميلة، وكان ينتمي الى ذلك النموذج الذي ربَّتْه تلك العقود من السنين، والذي يظل على الدوام يصرخ، بينما يتوهَّج السل في عظام وجنتيه، قائلاً: «ألا ما أقوى الحياة، وما أجملها!»، كما عبَّر عن ذلك بابتيست شبنجلر ذات مرة.

على أن إنستيتوريس لم يكن يصرخ الآن، بل كان يتحدث بصوت خفيض هامس، حتى عندما كان يعلن أن عصر النهضة الإيطالي عصر «كان يشيع في أجوائه بخار الدم والجمال»، كما أنه لم يكن مسلولاً، بل عرض له، على أقصى تقدير، شأن كل امرىء تقريباً في صباه الأول، سِلٌّ يسير، غير أنه كان يتسم بالرقّة البالغة والعصبية، وكان يعاني من عصب الأمعاء، من الضفيرة الشمسية التي ينطلق منها قدر كبير من المخاوف ومشاعر الموت السابقة لأوانها، وكان من الروّاد المُداوِمين في

مصح للأثرياء في ميران. وما من شك في أنه كان يُمَنيّ نفسه - وكان أطباؤه يُمنّونه - بأن الاعتدال في الحياة الزوجية المتميِّزة بالعناية والرعاية سوف يدعم صحته.

وعلى هذا تقرَّب، في شتاء ١٩١٣ - ١٤ من صاحبتنا إنيس روده، بطريقة تحمل المرء على أن يَحْزِر أن المسألة خليقة أن تفضي الى خطبة. على أن هذه الخطبة لم تأتِ إلاّ بعد وقت متسع، وصل الى فترة الحرب الأولى. وكان التخوُّف، والضمير الحيّ من كلا الجانبين يُلحّان على تمحيص طويل مُتَأنٍّ لمسألة هل خُلق كل منهما للآخر، بالفعل، غير أن هذه المسألة ذاتها كانت تبدو، عندما كان المرء يرى «الزوجين الشابين»، سواء في صالون زوجة الشيخ، حيث كان أنستيتوريس قد قَدَّم نفسه التقديم اللائق، أم في الاحتفالات العامة، في زوايا معزولة للثرثرة، أحدهما مع الآخر، يتناقشان، فيما بينهما، على وجه الخصوص، أو بأنصاف الكلمات، وكان صديق البشر المُلاحَظ، الذي كان يرى شيئاً كالخطبة التمهيدية أو الاختبارية، يلوح في الأفق، يرى نفسه وقد توقَّف على غير إرادة منه ليشارك بقلبه في هذه المناقشة.

أمّا أن هلموت وجه عينيه تجاه إنيس على وجه الخصوص، فربما كان الناس يتولاهم العجب من ذلك، لكي يفهموه كل الفهم في النهاية. ولم تكن هي امرأة من نساء عصر النهضة، - ولم تكن أقل في شيء منها في وَهْنِها الروحي، ونظرتها المخيِّمة كالقدر المحتوم، والمفعمة بالحزن الوقور، وبجيدها الضئيل المائل الى الأمام، وفمها المُدَبَّب في تعبير عن شقاوة واهنة متأزِّمة. ولكن هذا الخاطب ما كان ليعرف على الإطلاق كيف يعيش بمثاله الجمالي أيضاً، إذ كان تفوُّقه الرجولي خليقاً أن يكون

قصير الباع جداً في هذا الصدد - ولم يكن المرء في حاجة إلاّ الى أن يتصوَّره الى جانب مخلوقة كاملة صاخبة، مثل أورلاندا، لكي يتأكد من ذلك بأسلوب فكاهيّ.

على أن إنيس لم تكن تخلو، أيضاً، من فتنة أنثوية، بحال من الأحوال. وكان من الأمور المفهومة للغاية أن يغرم رجل مايفتأ ينظر حواليه بشعرها الجَثْل، ويديها الصغيرتين اللتين تشكلان نُقْراتٍ صغيرة، وشبابها المصون المتعفِّف. وربما كانت تتصف بما كان يحتاج إليه. وكانت ظروفها تجتذبه، وهي الظروف المتمثلة في أصلها النبيل الذي كانت تؤكِّده، والذي كان ينال منه الى حد ما، حالتها الراهنة، وانتقالها الى موطن آخر، وهزيمة ساحقة معيَّنة، بحيث ماعادت تهدد رجحان وزنه. بل كان في وسعه أن يشعر بأنه يرتقي بها، ويعيد إليها اعتبارها باتخاذها زوجة له. أمها، الأرملة، المفتقرة جزئياً، والمولعة باللهو الى حد ما، وأخت كانت تذهب الى المسرح، وَسَط للاختلاط، والتعامل ذو طابع غجري بدرجة تقل أو تكثر - كانت هذه أحوالاً لم يكن يستهجنها من أجل مصلحة كرامته الخاصة، ولاسيما أنه لم يكن يفرِّط تجاه نفسه في شيء من جرّاء هذا الارتباط، ولم يكن يعرِّض للخطر مسار حياته من جرائها، وكان في وسعه أن يكون على يقين أنْ ستكون إنيس المزوَّدة من قبل زوجة الشيخ، بدوطة تتألف من جهاز من الكتان، أو من الفضة، على نحو صحيح، وعاطفي، ربّة منزل أنموذجية لاشائبة فيها.

وهكذا كانت تتمثل لي الأشياء، كما كانت تبدو لعينَيْ الدكتور إنستيتوريس. ولو حاولت أن أنظر إليه بعيني الفتاة، لافتقدت المسألة تطابقها وانسجامها. وما كان في وسعي أن أنْسِبَ الى ذلك الرجل

الضئيل، المشغول بنفسه، والرقيق في الحقيقة، وذي الثقافة الممتازة، والجسد الذي ليس بجسد رجل على الإطلاق (إذا كانت له، بالمناسبة، مشية قصيرة الخَطْو) ولو جنّدت في ذلك كل طاقة خيالي، جاذبيةً تجاه الجنس الآخر - بينما كنت أشعر مع ذلك بأن إنيس كانت، على الرغم من كل الصرامة المنغلقة في عذريَّتها، تحتاج الى مثل هذه الجاذبية في الأساس. وأضيف الى ذلك التعارض بين أنماط التفكير الفلسفية، وأمزجة الحياة النظرية عند كليهما، وهو التعارض الذي ينبغي أن يوصف بأنه قطري، وعلى وجه الخصوص: أنموذجي. وكان هذا هو التعارض بين الجمالية والأخلاق، حين يوضع بأكثر الصور إيجازاً، وهو التعارض الذي كان يسود، الجدلية الثقافية في تلك الحقبة في شطر كبير منها، وكان يتمثَّل في هذين الشابَّيْن الى حدٍّ ما: النزاع بين تمجيد مدرسيّ لـ «الحياة» بما تنطوي عليه من انعدام التحرُّج، الباعث للتشهير، والتمجيد المتشائم للألم بعمقه ومعرفته. ويستطيع المرء أن يقول إن هذا التناقض كان يشكل، في مصدره الإبداعيّ، وحدة شخصية، ولم يتفكَّكْ إلاّ على مر الزمن. ولابدّ للمرء أن يضيف قائلاً إن الدكتور إنستيتوريس كان من طراز رجال عصر النهضة بلحمه ودمه - ياإلهي! وكانت إنيس روده، بصراحة كاملة، ابنة النزعة الأخلاقية المتشائمة. ولم تكن قد تبقّى لها أدنى شيء من أجل عالم «يشيع في أجوائه بخار الدم والجمال، أمّا مايتصل بـ «الحياة» فقد كانت تلتمس على وجه الخصوص، الحماية من ذلك في زواج بورجوازي صارم، يتسم بالنبالة، والإعداد الحسن من الوجهة الاقتصادية، ويردُّ كل صدمة قدر الإمكان. وكان من قبيل السخرية أن الرجل، أو القزم، الذي كان يبدو أنه يريد أن يعرض عليها

هذا الملاذ كان يتحمس أشد الحماسة للضرب الجميل في الأرض وعمليات القتل الإيطالية، بالسم.

وإني لأشك في أن الاثنين كانا يسترسلان في أمور مثيرة للجدل في نظرتهما الى الحياة حين كان كلٌ منهما يخلو لصاحبه، إذ كانا يتحدثان عندئذ، بلاريب، عن أمور أقرب وأدنى، ويجريان، ببساطة، الصورة التي هما خليقان أن يكونا عليها إذا ما عقدا خطبتهما. لقد كانت الفلسفة أقرب الى أن تكون موضوعاً للتسلية الاجتماعية الرفيعة، وإني لأذكر بالطبع مناسبات عديدة، كانت أساليبهما في التفكير يصطدم فيها بعضها ببعض من خلال المحادثة في الحلقة الأكبر، وعلى مائدة الراحة والخمر في خلوة من خلوات قاعة الرقص: عندما كان إنستيتوريس يقول، مثلاً: إن الرجال ذوي الغرائز القوية، الفظة، هم وحدهم الذين يستطيعون أن ينجزوا الأعمال العظيمة، وكانت إنيس تحتج على ذلك بأن الحالات التي انبثق منها العظيم في الفن إنما كانت في كثير من الأحيان حالات تغلب عليها المسيحية الى أقصى الحدود، ويحني هامتها الضمير، ويهذب مشاعرها معاناة الألم، وتتَّسم بمزاج متجهِّم تجاه الحياة. وكانت أمثال هذه النقائض تبدو لي عبثاً لاطائل تحته، ومرتبطة بعصر معين، ولا تُوَفيّ الواقع حقه، وهو أن تقيم التوازن الذي قلّما يتحقق، ولاشك في أنه دقيق دائماً، بين الحيوية والوَهْن، ذلك التوازن الذي يبدو أنه هو الذي يشكِّل العبقرية، ولذلك لم يكن للمرء بدٌّ أن يدعهما وشأنهما.

وذات مرة، على ماأذكر، حين كنا نقعد معاً (وكان آل كنوتريش، وتْسِنك وشبنجلر وشيلدكناب وناشره رادبروخ من هذا الرهط) لم تهدأ

حدة التوتر أبداً في الجدل الودي بين العاشقين، كما أمكن للقوم أن يشرعوا بتسميتهما، بل كان ذلك على نحو مضحك تقريباً بين إنستيتوريس ورودي شفيرتفيجر، الذي كان في ملابس صياد بالغة الأناقة. ولست أدري على وجه الدقة ماالذي كان الحديث يدور حوله. وعلى كل حال فقد كان الاختلاف في الرأي قد نجم عن تعليق بريء كل البراءة من قبل شفيرتفيجر، ولم يكن يرتبط إلاّ بالقليل من الأفكار أو لم يكن يرتبط منها بشيء. وكان يتعلق «بالمأثرة» على قدر ماأعلم، بشيء تم تحصيله بكفاح، وأُنْجز بإجهاد الإرادة ومغالبة النفس، وكان رودولف الذي أثنى على الحديث من قلبه وعَدَّه مأثرة جُلّى، لايستطيع على الإطلاق أن يفهم ماالذي خطر ببال إنستيتوريس فحسب، حتى لامه في هذا، وأبى أن يعترف بمأثرة يُبْذَل فيها الجهد والعرق. أما من حيث الجمال فقد قال إنما يجب أن تطلق عليه، وحده دون غيره، صفة المأثرة، لاإرادة الثناء، بل الموهبة والاستعداد، وإن بذل الجهد وضيع، وإنه لايتسم بالنبالة، ويكون، من أجل ذلك وحده من قبيل المأثرة، إلاّ مايصدر عن الغريزة على نحو لاإرادي، وبسهولة ويسر. على أن رودي الطيب لم يكن بطلاً، ولا غلاْباً على الإطلاق، ولم يكن قد أتى، في كل أيام حياته شيئاً لم يكن يبدو له سهلاً يسيراً مثل عزفه الممتاز على الكمان، ولكن ما كان الآخر يقوله هنا كان يحزُّ في نفسه، وعلى الرغم من أنه كان يحسّ إحساساً غامضاً بأن له في ذلك شأناً ما «أسمى»، غير مُيَسَّرٍ له، فقد كان لايحتمل ذلك ولايطيقه. وكان ينظر في وجه إنستيتوريس وقد انفرجت شفتاه في غيظ، وكانت عيناه تنظران نظرة ثاقبة في عينيه اليمنى واليسرى على التناوب. وقال: «كلاّ، كيف

يكون هذا، إنه عبث بلاريب»، وكان يتحدث بصوت أقرب الى الخفوت، والاكتئاب، إذ كان يلوح في ذلك أنه لم يكن على يقين كامل من قضيته. «المأثرة مأثرة، والاستعداد لها ليس كذلك. أنت تتحدث عن الجمال، يادكتور، ولكن من الجميل جداً، أن يتغلب المرء على نفسه في مسألة ما، ويجعلها أفضل مما أوتيه بحكم الطبيعة وقال: «مارأيك في هذا، ياإنيس». وكان يلتمس العون من هذه، لأنه لم يكن لديه تصوُّر عن المبدئية التي كان رأي إنيس المقابل يختلف بها في أمثال هذه الأمور عن رأي هلموت.

وأجابت قائلة: «أنت على حق» وكانت تعلو وجهها حمرة لطيفة «وعلى كل حال فأنا أراك على حق. الاستعداد ممتع، ولكن في كلمة «المأثرة» يكمن إعجاب لايلائمها ولا يلائم ماهو غريزي، على الإطلاق».

وصاح شفيرتفيجر قائلاً بلهجة المنتصر: «ها أنتذا ترى!» وردّ إنستيتوريس قائلاً وهو يضحك «ما من شك في ذلك. لقد توجهت الى المرجع الصحيح».

وكان هنا الآن شيء غريب لم يكن لأحد بدّ أن يحسّ به إحساساً عابراً على الأقل، وكانت تشهد عليه أيضاً حمرة وجه إنيس التي لم تكن تتلاشى من جديد على الفور، وكان من شأن إنيس، على وجه الإطلاق، أنها كانت تعدُّ خطيبها على غير الحق في هذه المسألة وفي كل مسألة مماثلة. ولكن تصويبها وجهة الفتى رودولف أمر لم يكن من شأنها، ولم يكن من المعروف عند هذا، على الإطلاق، إنه يوجد شيء كاللاأخلاقية، ولايستطيع المرء أن يصوب وجهة من لايفهم الأطروحة

المقابلة على الإطلاق، - وذلك على الأقل قبل أن يكون قد شرحها له. وكان يكمن في حُكْم إنيس، على الرغم من كونه طبيعياً تماماً ومبرَّراً من الوجهة المنطقية، شيء باعث للوحشة بلاريب، وقد تأكَّد لي هذا من جراء الضحكة المجلجلة التي واكبت بها أختُها كلاريسّا أيضاً انتصار شفيرتفيجر الذي لم يكن يستحقه - هذه الشخصية المزهوَّة بنفسها، ذات الذقن المفرط في القصر، التي لم يكن يفوتها ذلك بلاريب، عندما كان التفوُّق يريق ماء وجهه لأسباب لاتمت بصلة الى التفوُّق، والتي كانت ترى، بلاريب، أنها لم تكن تضيِّع على نفسها بذلك شيئاً.

وصاحت قائلة: «والآن، يارودولف، بسرعة! أدِّ الشكر، وانهض، أيها الفتى. وأَحْنِ قامتك! وائْتِ منقِذَتَك بقدح من المثلجات، واطلب منها رقصة الفالس التالية!».

هكذا كانت تفعل ذلك دائماً، وكانت تتضامن أبداً مع أختها، وتظل تقول: «بسرعة!»، عندما يتعلق الأمر بكرامتها، وكانت تقول «بسرعة!» أيضاً، لخطيبها إنستيتوريس، عندما كان هذا يثبت، في لباقته في معاملته للنساء، أنه بطيء على أي نحو من الأنحاء، ومتعثِّر. وكانت تتضامن، على وجه الإطلاق مع التفوق، بدافع الكبرياء، وتحرص عليه، وتظهر أقصى علائم الدهشة إذا لم يحدث لها ماتستحق، على الفور. وكان يبدو أنها تريد أن تقول إذا كان امرؤ يريد منك شيئاً فعليك أن تقفز واثباً». وإني لأذكر حقاً كيف قالت ذات مرة أيضاً «بسرعة!» لشفيرتفيجر، من أجل أدريان الذي أعرب عن رغبة ما تتعلق بمسائل حفلة موسيقية لتسابفنشتوسّ (وأعتقد أن المسألة كانت تتعلق ببطاقة لجانيت شورل) كان لدى شفيرتفيجر هذا وذاك مما يعترض

به على تلبيتها »، إذ صاحت قائلة: «أجل، يارودولف!، بسرعة! ماالذي حدث، بحق الإله؟ هل يجب على المرء أن يُركِّب لك ساقين؟ ».

وردّ قائلاً: «كلاّ، لايجب هذا على امرئ أبداً، فأنا على يقين، بلاريب... ولكن...

وقالت تزدريه، بلهجة متعالية، بين الفكاهة والجدّ: «هنا لايوجد «ولكن»، وضحك أدريان مثلما ضحك شفيرتفيجر، - أما هذا فكان يضحك مع تفطيسته المعروفة، شأن الغلمان، بزاوية فمه، وبكتفه، ويعد بترتيب كل شيء.

وكانت المسألة كما لو أن كلاريسا ترى في رودولف نوعاً من خطيب كان عليه أن «يقفز»، وكان يجتهد بالفعل، على الدوام، وبأكثر الطرق بساطة، وتودُّداً وألفة، من أجل صالح أدريان، وكانت تسعى الى الاستعلام عن رأيي في كثير من الأحيان، من أجل الخطيب الفعلي، من أجل ذلك الذي يسعى الى الظفر بأختها، - وهو ما كانت إنيس نفسها تفعله على النحو ذاته، بالمناسبة، وبطريقة أكثر لطفاً، وتهيُّباً، وكانت كأنما تنكُص مُجْفِلة على الفور من جديد، كمن تريد أن تسمع، ثم تريد ألاّ تسمع، ولاتعرف، من جديد. وكانت كلتا الأختين تثق بي، أي أنهما كانتا تبدوان لي كأنهما تضفيان عليَّ الأهمية التي تؤهلني وتمنحني الحق في تقييم الآخرين، وهو الأمر الذي كان يقتضي أيضاً، وبالطبع وقوفاً معيّناً خارج إطار اللعبة، استكمالاً للثقة، ومن أجل حيادٍ لايكدِّر صفوه مكدِّر. على أن دور الثقة يعد، دائماً، باعثاً للارتياح، ومؤلماً في الوقت ذاته، لأن المرء لايلعب هذا الدور إلاّ مع توافر الشرط الأوَّلي، وهو ألاّ يكون القائم بالدور نفسه وارداً في الحسبان. وكنت كثيراً ما أقول

لنفسي: ولكن كم يكون بعث الثقة في الناس أفضل بلاريب من إثارة عواطفهم الجامحة! وكم يُعَدُّ الظهور لهم في مظهر «الطيِّب» أفضل من الظهور لهم في مظهر «الجميل!»».

أمّا «الإنسان الطيب» فكان في عيني إنيس روده، بلاريب، من تربطه بالناس علاقة أخلاقية محضة، لاعلاقة تنطوي على استثارة جمالية، ومن هنا كانت ثقتها بي. ولكن لابدَّ لي أن أقول إنني كنت أخدم الأختين خدمة غير متساوية الى حد ما، وكانت المعلومات التي أدلي بها فيما يتصل برأيي في الخاطب إنستيتوريس يتم ترتيبها، الى حد ما، تبعاً لشخصية السائلة. فكنت إذا تحدثت الى كلاريسا أفصحت عمّا في نفسي بقدر أكبر كثيراً، وأعربت عن رأيي في موضوعات اختياره المتردد (الذي لم يكن، بالمناسبة، تردُّداً أحاديّ الجانب)، بأسلوب عالم النفس، ولم أكن أتهيَّب من التهكُّم، بموافقتها، على ذلك الخَرِع الذي يؤلِّه الغرائز الفظة. وكان الأمر يختلف حين تسألني إنيس ذاتها. هنالك كنت أحسب الحساب للمشاعر التي كنت أفترض وجودها من الناحية الشكلية، من دون أن أعتقد بوجودها في الحقيقة، أي أن ذلك كان بالأحرى مراعاة للأسباب المعقولة التي سوف تتزوج الرجل من أجلها على الأرجح، وتحدَّثْتُ، مع التزام الاحترام، عن خصاله الحسنة الثابتة، ومعرفته واستقامته الإنسانية، واحتمالات مستقبله الممتازة. وكانت عملية إضفاء الحرارة الكافية على كلماتي، مع عدم الإفراط في ذلك، مهمة عويصة حرجة، إذ كان يبدو لي أن مما يستتبع الشعور بالمسؤولية أن أؤيّد الفتاة في شكوكها، وأن أكَرِّه إليها المأوى الذي كانت ترغب فيه، كما كان يبدو لي أن من الواجب أن أقنعها، في مواجهة هذه

الشكوك، بالتوجه إلى هذا المأوى، بل كان الشعور بالمسؤولية يراودها، من حين إلى آخر، بدافعٍ من سبب خاص، لأن إقناعها بالإقدام على ذلك أكثر انطواء على الشعور بالمسؤولية، من النصح لها بالعدول عنه.

وذلك أنها سرعان ما شبعت من سماع رأيي في هلموت إنستيتوريس، وواصلت سيرها في طريق الثقة، بل عمَّمت هذا بمعنى ما، إذ رغبت في سماع حكمي على شخصيات أخرى من وَسَطِنا، على تْسنك وشبنجلر، مثلاً، أو لكي أذكر مثالاً آخر، عن شفيرتفيجر، وعن رأيي في عزفه على الكمنجة، وعن شخصيته، وهل أحترمه، وإلى أي درجة، وما هي درجة الجدّ أو الهزل التي يشير إليها هذا الاحترام، وأجبتها تبعاً لأفضل تقدير، بأقصى قدر ممكن من الإنصاف، على نحو مماثل لما تحدثت به عن رودولف هنا، في هذه الصحائف، وكانت تستمع إلي بانتباه لتستكمل بعد ذلك كلمات ثنائي المشروطة بشرط الصداقة بملاحظات خاصة من عندها، لم يكن في وسعي إلاّ أن أُقرِّها، غير أنها أدهشتني بإلحاحها: وكان إلحاح المُعاينة الذي ما كان ليفاجئ في حالة شخصية الفتاة ونظرتها المشحونة بسوء الظن، إلى الحياة، غير أنه إذا طُبِّق على هذا الموضوع كان فيه شيء باعث على الاستغراب بلا ريب.

ولم يكن في النهاية في هذا الصدد، ما يبعث على العجب من أنها عرفت الرجل الشاب الجذاب زمناً أطول مما عرفتُه، وكيف كانت، مثل أختها، تقف منه، في نوع من العلاقة الأخوية، وكانت تنظر إليه من موقع أقرب من موقعي، وكانت تستطيع أن تتحدث عنه، في ثقة، بقدر أكبر من الدقة. وقالت: «إنه إنسان لا رذيلة فيه (ولم تستخدم هذه الكلمة، بل استخدمت أية كلمة أضعف، ولكن كان من الواضح أنها

كانت تقصدها)، إنه إنسان طاهر الذيل -ومن هنا تأتي إمكانية الثقة به، لأن الطهارة شيء يوثق به ويُؤْنَس إليه (وكانت كلمة مؤثرة في فمها، إذ لم تكن هي ذاتها، بحال من الأحوال ممن يُؤْنس إليهن، وإن كانت كذلك بالقياس إليّ، على سبيل الاستثناء). وقالت إنه لا يشرب دائماً سوى الشاي المحلّى قليلاً، من دون قشدة، وهذه، بالطبع، ثلاث مرات في اليوم-، ولا يدخن -وعلى أقصى الأحوال في بعض المناسبات، وفي استقلال كامل عن قسرٍ تفرضه العادة، وقالت: إنه امرؤ يقوم عنده مقام كل أمثال هذه الخصال التي تخدِّر الرجل (وأعتقد أنني أذكر أنها عبّرت عما في نفسها بهذه العبارة)، أي مقام تلك المخدرات، الغزلُ الذي يتفانى فيه، بالطبع، كل التفاني، والذي خُلِق له- لا للحب، ولا للصداقة، اللذين هما خليقان أن يتحوّلا بين يديه إلى غزل. أتراه امرؤ طائش متهوِّر؟ نعم، وكلاً. وما من شك في أن هذا ليس بمعنى العادة المبتذلة، ولا يحتاج المرء إلاّ إلى أن يراه في صحبة صاحب المصنع، بولينجر، الذي يباهي مباهاة هائلة بثروته، وقد دأب على الترنّم بهذين البيتين:

لَقَلْبٌ جذلانُ مبتهج، ودمٌ صحيحٌ معافى
خير من كثير من المال والمتاع-،

وذلك لمجرد حمل الناس على أن يزدادوا له حسداً، على ماله، -إذا أراد المرء أن يدرك الفرق. ولكن لما كان رودولف يعي قيمته، على الدوام، ولكي يظل واعياً لها، كان يثقل على الناس بتلطُّفه، ودلّه، وظرْفه الاجتماعي، وعلى وجه الإطلاق، بولعه بالاجتماعي الذي يُعد، بلا ريب شيئاً رهيباً في الحقيقة. وقالت تسألني: ألا أجد أن حياة

الفنانين هذه، بمجملها، وعلى ما فيها من خلوّ البال، والزُخْرُف، هنا، في هذا المكان، ومثال ذلك مهرجان البيدَرْماير المزوَّق، في نادي الكوكوتشيللو، الذي شاركنا فيه مؤخراً تتناقض تناقضاً ينطوي على العذاب مع ما في الحياة من الحزن وإثارة الريبة، وتسألني أولا أعرف هذا أيضاً: الخوف من الخواء الروحي، ومن العدمية والتفاهة. مما كان يسود (الدعوة) المتوسطة، في تناقض صارخ مع الاستثارة الحُمَّوية المرتبطة بذلك، نتيجة للخمر، والموسيقا والتيار السفلي من العلاقات بين البشر. وقالت إن المرء يمكن أن يرى في بعض الأحيان، بعينيه، كيف يتحدث الواحد من الناس مع آخر مع المحافظة الآلية على القوالب الاجتماعية، ويكون مع ذلك غائباً كل الغياب، بأفكاره، أي عند شخصية أخرى يلاحظها... ويلاحظ مع ذلك انهيار مكان العرض، والفوضى والاستهتار المطردين، أي الصورة المنحلّة وغير النظيفة لصالون، حوالي نهاية «الدعوة». وقالت إنها تعترف بأنها تظل أحياناً تبكي في سريرها طوال ساعة، بعد سهرة...

وظلت تتحدث على هذا النحو، وتعرب عن المزيد من القلق العام ونزعة النقد، وبدا كأنها نسيت رودولف كل النسيان، ولكن حين عادت إليه كان المرء قلّما يشك في أنه لم يفارق ذهنها في أثناء ذلك. وقالت إنها عندما تتحدث عن ظُرْفِه الاجتماعي، فهي تعني شيئاً بريئاً غاية البراءة، الأمر الذي يمكن أن يضحك له المرء، غير أنه ينطوي مع ذلك أيضاً، من حين إلى آخر، على شيء من الكآبة. ومن ذلك أنه يأتي إلى الحفل آخر القادمين دائماً، من جراء حاجته إلى أن يحمل القوم على انتظاره، الآخرين دائماً، في انتظاره، ثم إنه يحسب حساباً للتنافس،

وللغيرة الاجتماعية، إذ يروي أنه كان بالأمس هنا أو هناك، في منزل آل لانجيفيشه أو ما يمكن أن يكون اسم أصدقائه أو عند آل رولڤاجن، حيث تكون البنتان المتحدِّرتان من أصل كريم («وعندما أسمع هذه الكلمة يتولاني الخوف والذعر»)، غير أنه يذكر هذا على سبيل الاعتذار وتهدئة الخواطر، وذلك، مثلاً، بمعنى: «لم يكن لي بدٌّ أن أعرِّج على القوم هناك أيضاً، من جديد»، -حيث كان من الممكن أن يكون القوم على يقين أنه يتحدث عند أولئك مثلما يتحدث هنا، إذ كان يريد من كل امرئ أن يعيش على وهم مؤداه أنه يؤثر أن يكون عنده على أن يكون عند أي امرئ سواه، -وكأن كل امرئ لم يكن له بدّ أن يعلّق على هذا الأهمية القصوى، على وجه الخصوص. ولكن اقتناعه بأنه يسبب لكل امرئ بذلك سروراً طاغياً، كان ينطوي على إمكانية العدوى. إذ يأتي في الساعة الخامسة إلى الشاي، ويقول إنه وعد بأن يكون في مكان ما، آخر بين الخامسة والنصف والسادسة، عند آل لانجيفيشه أورولْفاجن، الأمر الذي لم يكن صحيحاً أبداً، ثم يظل بعد ذلك إلى السادسة والنصف، ليكون ذلك آية على أنه يؤثر أن يكون هنا، وأنه مشدود إلى هذا المكان، وأن الآخرين يستطيعون أن ينتظروا، وقلت إنه يكون بذلك على يقين أن الواحد منهم لا بدَّ أن يسرَّه أن فلاناً يُسَرُّ بذلك بالفعل حيثما أمكنه ذلك.

وضحكنا، غير أني كنت أضحك مع التحفُّظ، إذ كنت أرى الغمَّ والكمد بين حاجبيها، وكانت في أثناء ذلك تتحدث كأنما كانت ترى ذلك ضرورياً -أم هل تراها كانت ترى ذلك ضرورياً بالفعل؟-، لتحذيري من ألوان تعطُّف شفيرتفيجر، أي تحذيري من أن أعلق عليها من الأهمية

فوق ما ينبغي، قائلة إن المسألة ليس وراءها شيء، وإنها استمعت، بطريق المصادفة، ذات مرة، على مسافة ما، فسمعت، كلمة فكلمة، كيف كان يطالب امرءاً كانت هي تعلم علم اليقين أنه لا يحفل به البتة، أن يظل مع الحاضرين، بتعبيرات لطيفة، حميمة، من اللهجة المحلية، مثل: أتذهب، كُنْ مَرِناً، ولتبقَ ههنا!» الأمر الذي ذهب بقيمة مثل هذا الإقناع من جانبه إلى الأبد، كما بدا لها، وكما يمكن أن يبدو لي.

وجملة القول أنها اعترفت بسوء ظن مؤلم في جدِّه، وفي المظاهر التي يظهر بها ألوان تعاطفه واهتمامه، عندما يكون فلان من الناس مريضاً، مثلاً، ويأتي هو لرؤيته، وقالت إن هذا كله يحدث كما سوف أعانيه أنا أيضاً، بطريقة لطيفة، فحسب، ولأنه رأى أن من المناسب، واللائق اجتماعياً، وليس بدافع أعمق، وأنه لا يجوز للمرء أن يستنتج منه شيئاً، كما يترتَّب على المرء أن يغضّ النظر عن ضروب من قلة الذوق فعلية تصدر عنه، ومنها، مثلاً، صراخه قائلاً: «هناك الكثيرات من أهل الشقاء!»، وقالت إنها سمعت هذا بأذنيها، وأن امرءاً كان يحذره، هازلاً، من أن يتسبَّب في شقاء فتاة، أو ربما كانت المسألة تتعلق بامرأة متزوجة، وأنه أجاب عن ذلك بالفعل، قائلاً بغرور وبَطَر: «إليك عني فهناك الكثير جداً من أهل الشقاء!» وأنْ ليس أمام المرء عندئذ إلاّ أن يفكر في نفسه، قائلاً: «فلتحفظ السماء كل إنسان! ألا ما أشنع العار الذي يجرُّه على المرء انتماؤه إلى هؤلاء!».

وقالت إنها لا تريد، بالمناسبة، أن تكون مفرطة في القسوة، -فيما يتعلق بكلمة (العار) وأنها لا تريد أن تسيء فهمهم: إذ لا سبيل إلى الشك في أصل معين، أكثر نبلاً، لمعدن رودولف. ففي بعض الأحيان

يمكن للمرء أن يخرجه من مزاجه المألوف، الصاخب في الحفلة، بجواب يخرج بصوت مكتوم، أو بنظرة واحدة، هادئة، باعثة للوحشة، وأن يكسبه إلى جانب الروح الأكثر جدية. وقالت: آه، لطالما بدا هذا أنه تمّ الظفر به بالفعل، وأنه قابل للتأثير عليه إلى حد فائق، على ما هو عليه. وعندئذ يغدو آل لانجيفيشه، وآل رولفاجن، أو مهما كانت أسماؤهم، مجرد ظلال ونماذج، بالقياس إليه. ولكن يكفي، بالطبع، أنه تنسَّم هواءً مختلفاً، وكان عرضة لمؤثرات مختلفة، لكي تحل الغربة الكاملة، والتنائي، محل الثقة والفهم المتبادل، وأنه يشعر بهذا عندئذ، لأنه مرهف الحس، ويحاول أن يصلح ما أفسد، نادماً. وإن هذا لمؤثر على نحو مضحك، ولكن لكي يسلك نفسه من جديد في إطار العلاقة، يكرر أية كلمة طيبة، بدرجة تقل أو تكثر، سبق للمرء أن نطق بها ذات مرة بنفسه، أو كلمة من كتاب أوردها المرء في بعض الأحيان، -ليكون هذا آية على أنه لم يَنْسَ ذلك، وأنه من أهل المقام الرفيع. على أن المسألة في أساسها خليقة أن تذرف من أجلها الدموع. وأخيراً وداعه عند هذا المساء- إذ تجلّى في هذا استعداده للتوبة، والإصلاح، إذ يأتي، ويودِّع بدعابات باللهجة المحلية تتغير من جرائها ملامح الوجه، وقد يكون ردُّ الفعل عليها بارتسام ملامح التعب مع شيء من المعاناة، ولكن بعد أن يكون قد صافح الآخرين حواليه، يعود أدراجه، مرة أخرى، ويقول ببساطة، وحرارة: وداعاً، ويتلقى عليه، بالطبع رداً أفضل. وبذلك يخرج بخاتمة طيبة، إذ لا بدّ له أن يخرج بهذه. ويبدو أنه يفعل ذلك، على هذا النحو، مرة أخرى، في الحفلتين اللتين يرتادهما أيضاً...

أو يكفي هذا؟ هذه ليست رواية يفتح فيها المؤلف، عند تأليفها،

قلوب شخصياته للقارئ على نحو غير مباشر، من خلال تصوير المشاهد. على أنّ من حقي، وأنا كاتب السِّيَر، على نحو مطلق، أن أسمي الأشياء، وبأسمائها، مباشرة، وأن أقرّر، ببساطة، الوقائع النفسية التي كان لها تأثير على حَدَث الحياة التي يترتَّب عليه تصويره. ولكن الأقوال الخصوصية التي أمْلتها ذاكرتي على قلمي منذ هنيهة، وهي أقوال تتسم بحدّة أودّ أن أقول إنها حِدّة نوعية، لا يمكن أن يرقى الشك إلى الواقعة التي يترتَّب عليَّ الحديث عنها، بها. لقد كانت إنينس روده تحب الفتى شفيرتفيجر، وفي هذا الصدد كان ثمة سؤالان يطرحان نفسَيْهما: أولهما: هل كانت تعلم، وثانيهما: متى، وفي أي موعد، اتخذت علاقتها بعازف الكمنجة، التي كانت في الأصل علاقة أخوّة وزمالة، هذه الصفة الحارّة، والمنطوية على المعاناة.

أما السؤال الأول فقد أجبت عنه بالإيجاب. وذلك أن فتاة تتمتع بهذا القدر من الاطلاع، بل يستطيع المرء أن يقول: مدرّبة في مضمار علم النفس، تتقصّى أمور حياتها بأسلوب أدبيّ، مثلها، سيكون من البدهي أن يكون لها إدراك وفهم لتطور مشاعرها، مهما يكن هذا التطوُّر قد بدا لها في البداية مفاجئاً، بل غير قابل للتصديق. على أن البراءة الظاهرية التي كانت تكشف لي بها عن قلبها لم تكن تثبت شيئاً ضد معرفتها، لأن ما كان يبدو أنه بساطة كان، في شطر منه، تعبيراً عن دافع قسري إلى الإفضاء، وكان في شطره الآخر مسألة ثقة تجاهي، وهي ثقة مموَّهة على وجه الخصوص، إذ كانت تفترض أنها تعدُّني بسيطاً بما يكفي، وأنها لا تلاحظ ما كان أيضاً نوعاً من الثقة، غير أنني رغبت وعرفت في الحقيقة ألاّ تغيب الحقيقة عني، لأنها كانت تعدُّ سرها

محفوظاً عندي ومشمولاً بالرعاية. وقد كان هذا كذلك بصورة مطلقة، وكان من حقها أن تكون على يقين من تعاطفي الإنساني وكتماني للسر، على الرغم من أنه يصعب كثيراً، بحكم الطبيعة، على الرجل، أن يضع نفسه في إطار نفسية امرأة وعقلها، وهي امرأة تتوقّد رغبة في واحد من جنسه. ومن البدهي أن متابعة مشاعر رجل تجاه مخلوق أنثوي -وإن كان هذا المخلوق الأنثوي لا يقول للمرء نفسه شيئاً على الإطلاق، ستكون أسهل علينا كثيراً من أن نضع أنفسنا ضمن إطار تأثُّر الجنس الآخر بشخصية من جنسنا. على أن المرء لا (يفهم) هذا في الأساس، بل يتقبّله، بأسلوب المتعلمين، المثقفين، في احترام موضوعي لقانون الطبيعة، والحق أن من عادة سلوك الرجل هنا أن يكون أكثر اعتصاماً بالصبر على نحو ينمّ عن حسن المقصد مما يكون في حالة سلوك المرأة التي يكون من شأنها، إذا عرفت عن واحدة من بنات جنسها أنها شغفت قلب رجل حباً، أن تنظر إليها، في الغالب نظرة مفعمة بالحسد والغيظ، وإن كان هذا القلب لا يعنيها ولا تحفل به البتَّة.

وإذاً فلم أكن أفتقر إلى النية الحسنة الودية من أجل الفهم، وإن كان الفهم بمعنى الانفعال والتعاطف ممتنعاً عليّ بحكم الطبيعة. يا إلهي! شفيرتفيجر الضئيل! لقد كان تكوين وجهه ينطوي آخر الأمر، بلا ريب، على شيء باعث للضيق واعتلال المزاج، وكان صوته حَنَكيّاً، وكان فيه من خصال الغلمان أكثر مما فيه من خصال الرجولة، إذا سلَّمنا عن طيب خاطر بجمال زرقة عينيه، وقامته السليمة، وخفة ظل عزفه على الكمنجة والقيثارة إلى جانب لطفه بوجه عام. وإذاً فقد كانت إنيس روده تحبه، حباً ليس بالأعمى، ولكن مصحوباً بمعاناة أعمق، من باب أولى.

وكنت أسلك تجاه ذلك، في سريرة نفسي، سلوك أختها كلاريسا ذات النزعة التهكُّمية التي تنظر إلى الجنس الآخر نظرة الصلف والكبرياء على نحو مطلق: لقد كنت أنا أيضاً خليقاً أن أقول له: «أسرع! أسرع أيها الآدمي، أي شيء تحسَبُ نفسك؟ هلاّ تفضَّلت بالقفز بعيداً!»

على أن مسألة القفز لم تكن على هذا الجانب من البساطة، وإن كان رودلف خليقاً أن يعترف بالتزامه به، إذ كان هناك بالطبع، هلموت إنستيتوريس، العريس، أو العريس المنتظر، إنستيتوريس الخاطب، - وبذلك أعود أدراجي إلى سؤال: منذ متى تحوَّل الاهتمام بالعلاقة الأخوية برودلف إلى عاطفة جامحة. لقد كانت مقدرتي البشرية على الإحساس الداخلي تقول لي ذلك: لقد حدث هذا في تلك الأيام، حين تقرَّب الدكتور هلموت، الرجل من المرأة، وشرع يخطب وُدَّها. وكنت، ومازلت، على يقين أن إنيس ما كانت لتقع أبداً في غرام شفيرتفيجر لولا دخول إنستيتوريس، الخاطب، حياتها. لقد كان هذا يخطب ودَّها، ولكن كان يفعل ذلك من أجل امرئ آخر، لأن الرجل المعتدل استطاع في الحقيقة، عن طريق خطبته، وما يرتبط بها من سلاسل الأفكار، أن يوقظ المرأة فيها -وكان المدى الذي بلغه كافياً، غير أنه لم يستطع أن يوقظها من أجل نفسه، على الرغم من أنها كانت على استعداد لأن تتبعه لأسباب عقلية، إذ لم يصل به الأمر إلى هذا المدى، بل توجهت أنوثتها التي انبعثت، على الفور. نحو آخر كان وعيها لا يعرف تجاهه كل هذا الوقت إلاّ المشاعر الرصينة، نصف الأخوية، وقد تحرَّرت فيه الآن مشاعر مختلفة كل الاختلاف. ولم يكن ثمة حديث عن أنها كانت خليقة أن تعده الرجل المناسب، واللائق، بل كان مزاجها السوداويّ الذي كان يبحث

عن الشقاء يثبِّت نفسه عليه، وهو الذي كانت قد سمعته يقول في ازدراء: «هناك الكثيرات من أهل الشقاء!»

وإنه لأمر غريب، آخر الأمر! لقد كانت تأخذ من الإعجاب بالعريس غير الكافي، من أجل (الحياة) الغريزية التي لا روح فيها، والتي كانت معاكسة لروحها، شيئاً ما، في حالتها المتضعضعة فتنقله إلى الآخر، وتخادعه، بمعنىً ما، فيما يتعلق باتجاهه الفكري الخاص. أوَ لم يكن رودولف يمثل شيئاً كالحياة العزيزة في عيني كآبتها المنطوية على المعرفة.

وكان يتميّز، في مقابل إنستيتوريس، الذي كان مجرد أستاذ في الجمال، بمزية الفن ذاته، هذا الذي يغذي الهوى ويجلو الإنسانيّ، في جانبه، لأن شخصية المحبوب يعلو شأنها من جراء ذلك بالطبع، والمشاعر تجاهه تظل تستمد من ذلك غذاء جديداً، بطريقة مفهومة، عندما ترتبط بالانطباع المتخلف عن شخصة انطباعات فنية باعثة للسكر على الدوام تقريباً. وكانت إنيس في الحقيقة تزدري في الأساس ممارسة المهنة الجمالية في المدينة التي تستمتع بالمسرات الحسيّة التي كان الفضول الأمومي قد نقلها إليها على أساسٍ من حرية أخلاقية أكبر، غير أنها كانت تشارك، من أجل المأوى الخاص بالطبقة الوسطى فيها، في احتفالات مجتمع كان يشكل اتحاداً فنياً واحداً كبيراً، وكان هذا على وجه الخصوص يشكل خطراً على السكينة التي كانت تبحث عنها. وتحتفظ ذاكرتي بصور من هذا العصر بليغة التعبير، تعبِّر عن الخوف، فأنا أرى جماعتنا، وآل روده، وآل كنويترش، مثلاً، فيها، وأرى نفسي ذاتها، بعد العرض المتألّق على وجه الخصوص لسمفونية لتشايكوفسكي

في قاعة تسابفِنشتوسَّر، في أحد الصفوف الأمامية، واقفاً في وسط الجمهور، أصفِّق. وكان قائد الأوركسترا قد أوعز إليها بالنهوض لتتقبل، معه، شكر الجمهور على عمله الجميل. وكان شفيرتفيجر يقف غير بعيد، عن شمال أستاذ الحفلة الموسيقية (الذي كان يفترض أن يحل محله خلال أجل قريب) والآلة في ذراعه، مهتاجاً، مشرق الوجه، متجهاً نحو القاعة، يوجه التحية إلينا شخصياً على البعد بإيماءة من رأسه، بأسلوب حميمي لم يكن مسموحاً به تماماً، بينما كانت إنيس التي لم أستطع أن أضن على نفسي بإلقاء نظرة عليها، تظل توجه عينيها بعناد إلى نقطة أخرى، هناك في الأعلى، نحو قائد الفرقة الموسيقية، كلاً، بل إلى مكان ما، أبعد منه، نحو آلات الجُنُك. أو: أرى رودُلف نفسه، وقد استحوذت عليه الحماسة من الأداء النموذجي لرفيق له زائر من أهل الفن، يقف في مقدمة قاعة باتت خالية تقريباً، وهو يرفع كفيه بالتصفيق بهمة ونشاط في اتجاه المنصة، حيث كان ذاك العبقري ينحني في المرة العاشرة. وعلى بعد خطوتين منه، بين الكراسي التي تداخل بعضها في بعض، تقف إنيس التي قلّما احتكّت به في هذه الأمسية، شأننا نحن الآخرين، وتنظر إليه، وتنتظر أن يكتفي، ويلتفت، ويلاحظها، ويحييها، غير أنه لا يتوقّف، ولا يلاحظها، والأحرى أنه كان ينظر إليها مع ذلك بزاوية عينه، أو، إذا كان في هذا فوق ما ينبغي أن يقال، كانت عيناه الزرقاوان لا تنظران إلى البطل، هناك في الأعلى، نظرة خالية مما يكدِّرها، إذ كانتا تُسْحبان، من دون أن تذهبا نحو الزاوية بالفعل، سَحْباً يسيراً نحو الجانب الذي كانت تقف فيه وتنتظر، ولكن من دون أن يقطع عمله المتحمِّس، وما هي إلاّ ثوان أخرى، وإذا هي تَنْفَتِل، شاحبة، وقد

ارتسمت غضون الغضب بين حاجبيها، في مكانها، وتنطلق مسرعة. وعلى الفور يمسك عن إرسال التصفيق إلى النجم، مرة أخرى، ويجري في أثرها، ويدركها عند الباب، وترتسم على وجهها ملامح تنم عن شعورها بالمفاجأة الباردة، من جراء كونه هنا، بل من جراء كونه موجوداً في هذه الدنيا على وجه الإطلاق، وترفض أن تمدَّ إليه يدها، أو تنظر إليه، أو تكلِّمه، وتتابع عَدْوَها.

لقد تبيَّن لي أنه ما كان لي أن أورد هذه الصغائر، الفتات والفضلات من ملاحظاتي هنا على الإطلاق، إذ إنها ليست مؤهلة لأن توضع في كتاب، وقدتبدو لعينَيْ القارئ شيئاً صبيانياً، وقد يأخذها عليَّ على أنها تخمينات ثقيلة، وقد يحسُب عليّ، على الأقل، أنني أغفلت مائة أخرى مماثلة لها، تداخلت، على النحو ذاته، في إحساسي، وهي تلك التي أحس بها صديق للبشر متعاطف معهم، وما عاد من الممكن، بسبب التعاسة التي تراكمت عليها، أن تنفصل عن ذاكرتي على الإطلاق. لقد ظللت على مدى السنين أتابع تنامي كارثة لعبت بالطبع في الأحداث العالمية العامة دوراً ضئيل الأهمية للغاية، واعتصمت بالصمت الكامل عن كل مارأيت وما أَهَمَّني تجاه كل الجهات، ولم أتحدث إلاّ لأدريان وحده على الفور في تلك الأيام ذات مرة في بفايفرينج عن ذلك، في البداية -على الرغم من أنني كنت، على وجه الإجمال، قليل الميل، إلى الحديث معه، هو الذي كان يعيش في عزلة رهبانية عن أمور الحب، في أحداث اجتماعية من هذا النوع، بل كنت أنطوي على تهيُّب معين من ذلك، ومع ذلك فقد فعلتُها، ورويت له خفية، أن إنيس روده مغرمة برودي شفيرتفجير، كما لاحظت، غراماً

قاتلاً لا يرجى له شفاء، على الرغم من أنها توشك أن تُخطب إلى إنستيتوريس.

وكنا نقعد في حجرة رئيس الدير، نلعب الشطرنج.

وقال: «هذه أمور جديدة، أتراك تريد أن يفوتني التحريك المناسب وأخسر بذلك قلعتي؟

وابتسم، وهزّ برأسه، وأضاف قائلاً:

«يا لها من مخلوقة بائسة!»

ثم، بعد التفكير التالي في القطعة التي يسحبها، مع توقُّف بين الجمل:

وهذا، بالمناسبة، ليس بالأمر الهزلي، بالقياس إليه -وينبغي له أن يحرص على أن يخرج من هذه المسألة سليماً لا غبار عليه»




محمد خطاب

(٣٠)

ووجدتني الأيام الأولى، اللاهبة، من آب عام ١٩١٤، أبدِّل القطار المترع بالبشر، وأنتظر في قاعات محطات الخطوط الحديدية، وعلى درجات السلالم الخارجية التي كانت تغطيها سلاسل الحقائب والأمتعة التي ظلت راقدة في أماكنها، في رحلة تتسم بالاندفاع، من فرايزنج إلى ناومبورج الثورنجيّة، حيث كان عليّ، أنا وكيل الرقيب الاحتياطي، أن أنضم على الفور إلى كتيبتي.

كانت الحرب قد نشبت، وكانت الطاقة التي لبثت عهداً طويلاً تطوي صدرها على السوء، قد انطلقت من عقالها، وثار ثائرها، متنكِّرة في ثوب تسوية الأمور على الوجه الصحيح، والانتهاء بسلام، وكان كل ما تمّ التنبّؤ به والتمرُّن عليه، خلال مدننا، يهدرُ حاميَ الوطيس، فزعاً، وانجرافاً، وحُمَيّا رهيبة للبؤس، واستحواذ القدر، والشعور بالقوة، والاستعداد للتضحية، في عقول البشر وقلوبهم. وقد يكون من الحق، ويسرني أن أعتقد به، أن تكون هذه الدارة القصيرة الكهربائية من دارات القدر قد أحسّ بها الناس في البلدان المعادية، وحتى في البلدان المتحالفة معنا، على أنها أقرب إلى أن تكون كارثة و(بلاءً عظيماً)، كما سمعنا هذا في الميدان في كثير من الأحيان، من أفواه النساء الفرنسيات، اللواتي دارت رحى الحرب بالطبع في بلادهن، وفي

حجراتهن ومطابخهن، إذ كنَّ يقُلْن: «ويلاه، يا سيدي، هذه الحرب، ما أفظعها من بلاء!»، أما في بلدنا، ألمانيا فلا سبيل إلى إنكار هذا أبداً، إذ كان هذا يحدث، على الأغلب الراجح، انطباعاً مؤداه أنه ثورة، ونشوة تاريخية، وسرور بالانطلاق، ونَبْذٌ للحياة اليومية، وتحرُّر من ركود عالمي ما كانت الأمور لتواصل سيرها معه علي هذا النحو، وكان يبدو حماسة للمستقبل، ونداءً إلى الواجب والرجولة، وكان، على الإجمال، احتفالية بطولية. وكان طلابي في السنة الثانوية الأخيرة، يعتمرون القبعات الحمر، وقد أشرقت عيونهم من هذا كله. وكان حب التعبئة والمغامرة عند الشباب يتّحد هنا، على نحو فكاهيّ مع مزايا شهادة ثانوية اضطرارية تبرّئ من المسؤولية على عجل، وكانوا يندفعون كالعاصفة، إلى مكاتب تقديم الطلبات، ولقد سرَّني أنني لم أكن مضطراً إلى أن أمثِّل دور قعيد البيت.

على أنني لا أريد أن أنكر أنني شاركت مشاركة كاملة في الشعور الشعبي بالنشوة، ذلك الشعور الذي كنت أحاول تمييزه منذ هنيهة، وإن كان الجانب المُسْكِر في ذلك بعيداً عن طبيعتي، وكان يمسني مسّاً رفيقاً على نحو يبعث على الشعور بالانقباض. ولم يكن ضميري -وأنا أستعمل هذه الكلمة هنا بمعنى يتجاوز الإطار الشخصيّ -نقياً كل النقاء. وكانت مثل هذه (التعبئة) للحرب، مهما بدا عليها من الشدّة والصرامة والالتزام بالواجب الذي يشمل الناس جميعاً، تنطوي دائماً على شيء من استهلال عطلة جامحة خارجة عن القواعد والأصول، واطِّراح لما يتسم بسمة الواجب الحقيقي، وهَرَب من المدرسة، وجموح غرائز تتبرَّم بالقيود -كانت هذه التعبئة تنطوي من هذا كله على قدر

أكبر من أن يكون من الممكن معه لإنسان رزين مثلي أن يكون على مايرام تماماً، على أن الشكوك الأخلاقية في مسألة هل كانت الأمة تسلك حتى الآن طريقاً صحيحاً إلى المدى الذي يجعل هذا الانحراف الأعمى مسموحاً به، على نحو تلقائي في الحقيقة، لها ارتباط بأمثال هذه الضروب من المقاومة المبنية على الطباع الشخصية. ولكن هنا تحلّ لحظة الاستعداد للتضحية، والموت التي تعزيّ عن كل شيء، وتعد بمثابة كلمة أخيرة، إن صح التعبير، وهي كلمة ما عاد يمكن أن يقال ضدها شيء. وإذا كانت الحرب سيتمّ الإحساس بها، بدرجة من الوضوح تقل أو تكثر، على أنها معاناة عامة يكون فيها كل فرد، مثلما يكون فيها كل شعب، مستعداً لأن يقوم بعمل كامل القيمة، ويكفِّر بدمه عن مساوئ العصر وخطاياه، وهي الخطايا التي تتضمن خطاياه هو أيضاً، ويتجلّى للوجدان، مسيرة تضحية تجرُّد آدم، من جرائها، من كسائه، ويفترض، بالاتفاق، أن يتم الظفر بحياة جديدة، أعلى، فستكون أخلاق الحياة اليومية قد زيدَ عليها واستُبِقَت، ولزمت الصمت في مواجهة الفائق، أو غير العادي. ثم إنني لا أريد أن أنسى أيضاً أننا انطلقنا إلى الحرب في تلك الأيام بقلب سليم نسبياً، ولم نقل إننا كنا ندفع بالأمور من قَبْلُ، في موطننا إلى الحد الذي لم يكن عنده بدٌّ من أن يُنظَر إلى كارثة عالمية دموية على أنها النتيجة التي لا سبيل إلى تجنبها من الوجهة المنطقية، للتمثيل الذي كنا نمارسه في الداخل. هكذا كانت الأمور، والشكوى إلى الله، قبل خمس سنين، لا قبل ثلاثين عاماً، وكان القانون والتشريع، وسلطان القضاء، والحرية وكرامة الإنسان، مازِلْن في حال لابأس بها. والحق أن ألوان التلويح بالقبضات من قبل ذلك الراقص والكوميديّ

الجالس على عرش القيصر، الذي يعدُّ في الأساس بعيداً كل البعد عن الروح العسكرية، والذي لم يخلق لشيء أقل من الحرب، مسألة مؤلمة بالقياس إلى المثقَّف -وقد كان موقفه من الحضارة موقفاً غبيّاً متخلِّفاً. ولكن تأثيره على الحضارة استنفد نفسه في عقوبات تأديبية فارغة. لقد كانت الحضارة حرة، وكانت تقوم على ارتفاع مرموق، ولئن كانت قد اعتادت على انقطاع صلتها بسلطان الدولة اعتياداً كاملاً ودقيقاً، فعسى أن يرى حَمَلَتُها من الشباب في حرب شعبية كبيرة على وجه الخصوص، على نحو ما نشب الآن، الوسيلة إلى اختراق الحواجز إلى شكل من أشكال الحياة تكون فيه الدولة والحياة شيئاً واحداً. لقد كان يسود هنا الآن بالطبع، كما هو الحال دائماً عندنا، خجل خصوصي من أنفسنا، وأنانية ساذجة بصورة كاملة، لا يهمّها، بل ترى أن من البدهي كل البداهة من أجل عمليات النشوء الألمانية (ونحن نظل أبداً في طور نشوء) أنَّ على عالم بأسره، هو أكثر استعداداً وفراغاً، وليس، بحال من الأحوال، مولعاً بديناميكا الكوارث، أن يُهْريق دَمَه معنا. والناس يحملون هذا منّا على محمل السوء، غير أنهم لا يفعلون ذلك من دون أن يكونوا على شيء من الحق. ذلك لأننا إذا نظرنا إلى المسألة من جانبها الأخلاقي فمن الواجب ألاّ تكون وسيلة شعب من الشعوب إلى شق طريقه إلى الشكل الأسمى من أشكال حياة مجتمعه -إذا كان مقدّراً لها أن تتجه وجهة دموية لا محالة - هي الحرب المتجهة نحو الخارج، بل يجب أن تكون هي الحرب الأهلية، ومع ذلك، فهذا يعزُّ علينا ويحزُّ في نفوسنا إلى حد فائق، على حين لا نبالي نحن، بل نجد، على النقيض من ذلك، أن من الرائع أن وحدتنا الوطنية -وهي بعد ذلك وحدة جزئية، أو

وحدة قائمة على حل وسط- كلّفت ثلاث حروب طاحنة. لقد أصبحنا دولة عظمى منذ عهد بعيد ،على أن الحالة كانت مألوفة ولم تسعِدْنا كما كنا نتوقع، كما أن الشعور بهذا لم يجعلنا أكثر جاذبية، وكان شعورنا بأنه زاد علاقتنا بالعالم سوءاً بدلاً من أن يُصْلحها، في أعماق نفوسنا، سواء أعْترفنا بذلك أم لا. وكان يبدو أنْ قد آن الأوان من أجل اختراق جديد: هو ذلك الاختراق الذي يفضي إلى مكانة القوة العظمى المهيمنة، والذي لم يكن من الممكن تحقيقه عن طريق العمل الداخلي الأخلاقي. وإذاً فهي الحرب، وإذا لم يكن بدٌّ منها، فلتكن ضد البشر جميعاً، لإقناعهم جميعاً والظفر بهم. وكان هذا ما رسمه (القدر) (ويا لهذه الكلمة من كلمة «ألمانية»، ويا له من صوت أوَّل، سابق على المسيحية، ويا له من موضوع مأساوي، أسطوري من موضوعات الدراما الموسيقية!) انطلقنا متحمسين له (متحمِّسين وحدنا تماماً)، وكلنا يقين أن ساعة ألمانيا التاريخية قد أزِفَت، وأن التاريخ يرفع يدها على هاماتنا، وأنْ قد جاء دورنا، بعد إسبانيا وفرنسا، وإنكلترا، لنطبع العالم بطابعنا، ونقوده، وأن القرن العشرين لنا، وأن على العالم أن يجدِّد نفسه، بعد انقضاء الحقبة المدنية التي افتُتِحت قبل نحو مائة وعشرين عاماً، في ظل الألمانيّ، في ظل اشتراكية عسكرية النزعة لم تتحدَّد معالمها تماماً إلى نهايتها، وكان هذا التصوُّر، إذا لم نقل هذه الفكرة، يهيمن على الأدمغة في وحدة متماسكة، مع الفكرة القائلة إننا أُرْغمنا على الحرب إرغاماً، وأن المحنة المقدسة كانت تدعونا إلى السلاح الذي كان حسن الإعداد، وكنا مُدَرَّبين عليه تدريباً حسناً بلا ريب، والذي كان ينطلق من امتيازه على الدوام ذلك الإغراء الخفي باستعماله -أي أن

ذلك كان مقترناً بالخوف من أن يطغى علينا الطوفان من كل حدب وصوب، الأمر الذي لم يكن يحمينا منه سوى قوتنا الهائلة، أي المقدرة على نقل الحرب فوراً إلى أرض الآخرين. وكان الهجوم والدفاع شيئاً واحداً في حالَتنا، وكانا يشكّلان معاً تلك اللهجة الخطابية المثيرة المرتبطة بالمعاناة، والنداء، نداء الساعة الكبرى، والمحنة المقدسة وإذا شاءت الشعوب هناك في الخارج أن تعدَّنا خارجين على القانون مكدِّرين لصفو السلام، وأعداء للحياة لا يُطاقون، فقد كانت لدينا الوسائل لضرب العالم على رأسه إلى أن يتغيّر رأيه فينا، ولا يعود معجباً بنا فحسب، بل يغدو محباً لنا أيضاً.

ولا يعتقدَنَّ أحدٌ أنني أتهكّم! فليس ثمة داع لهذا، وذلك على وجه الخصوص، لأنني لا أستطيع أن أتظاهر بأنني كنت مستبعداً من التأثُّر العام، فقد شاركت في ذلك بإخلاص، وإن كانت رزانة المثقّف الطبيعية تحول بيني وبين كل رَفْعٍ للعقيرة بالهتاف، بل ربما كانت تُلمُّ بي بعض الهواجس النقدية بصوت خفيض، فتؤثر في نفسي تأثيراً خفيّاً مكتوماً، وينتابني فوق ذلك انزعاج يسير، في التفكير فيما كان الناس جميعاً يفكرون فيه ويشعرون به، فأتبدَّل تبعاً للَّحظة الراهنة. فلكلٍّ منا شكوكه في مسألة هل تعد أفكار عامة الناس هي الصحيحة. ومع ذلك فإن من المُتَع الكبرى عند الفرد الأعلى شأناً، مرة أخرى، أن ينغمس المرء ذات مرة، بدمه ولحمه، في الشأن العام -وأين عسى أن يُعثَر على هذا ذات مرة، إذا لم يُعْثَر عليه هنا، والآن؟

وأقمت يومين في مونيخ لأودع الناس هنا وهناك وأستكمل بعض التفاصيل عن تجهيزي، وكانت المدينة في حالة من الغليان، من جراء

الاحتفال الجدّي، كما كانت تنتابها نوبات من الفزع وحُمَيّا الخوف عندما كانت تنتشر شائعة جامحة مؤداها أن تمديدات المياه قد تسمَّمت، أو يعتقد القوم أنهم اكتشفوا جاسوساً صربياً في وسط الجمهور. وكان الدكتور برايزاخر، الذي لقيته في شارع لودفيج قد ثبت على صدره الكثير من الشعارات والرايات الصغيرة ذوات الألوان السود والبيض والحمر، لكيلا يُعَدّ جاسوساً كهذا، ويُقْتَل بطريق الخطأ. وكانت حالة الحرب، ونقل السلطة العليا من المدنيين إلى العسكر، إلى جنرال يصدر البلاغات، يجري الإحساس بهما مصحوباً بقشعريرة خفيّة. وكان من بواعث الاطمئنان أن يعلم المرء أن أفراد الأسرة المالكة الذين كانوا يرحلون إلى مقارِّهم الرئيسية قادةً عسكريين، سيكون إلى جانبهم رؤساء أركان بارعون، ولم يكن في وسعهم أن يسبِّبوا ضرراً له شأنه. وكانت تواكبهم شعبية مطبوعة بطابع المرح. وكنت أرى الكتائب تخرج زاحفة من أبواب الثكنات وطاقات الأزهار على مواسير بنادقها، تواكبها نساء يحملن مناديل تحت أنوفهن وسط صيحات جمهور من المدنيين تجمّع راكضاً على عجل، وكان يبتسم لفتيان الفلاحين الذين تمت ترقيتهم إلى أبطال، ابتسامة تنطوي على الزهوّ المشوب بالغباء، والخجل. ورأيت ضابطاً في مقتبل العمر يقف في تجهيز للزحف الميداني على المنصة الخلفية لحافلة كهربائية، وقد اتجه بوجهه إلى الوراء، وكان يبدو عليه أنه مشغول بفكرة تتعلق بحياة الشباب التي يحياها -مطرقاً برأسه، مستغرقاً في أفكاره- ثم لم يلبث بعد ذلك أن تمالك نفسه، ونظر حواليه وهو يبتسم، لعلّ أحداً كان يرقبه.

وسرّني، مرة أخرى، أن أعرف أنني في وضع مماثل لوضعه، وأنني

لم أتخلّف وراء أولئك الذين كانوا يسدّون ثغور البلاد. وكنت في الأساس، وبصورة مؤقتة على الأقل، الوحيد في دائرة معارفي، الذي خرج. إذ كنا أقوياء، وكان شعبنا موفور العدد بما يكفي لنتمكن من تحمُّل سلوك الطريق الانتقائي ومراعاة مجالات الاهتمام الثقافية، الاعتراف بالكثير من الضروريات، وأن لا نَزُجَّ في المعارك إلاّ بما هو صالح كل الصلاحية فتوَّةً ورجولة. وكان يتبيَّن عند كل أصحابنا تقريباً وجود خلل صحيّ، كان الواحد منا لا يكاد يعرف عنه شيئاً، غير أنه كان الآن سبباً في إعفائهم. أمّا كنوتيريش، الزوجامبي، فكان مصاباً بدرجة يسيرة من السل، وأما المصوِّر تْسنْك فكان يعاني من نوبات ربو من النوع الذي يرافق السعال الديكي دأَب على اعتزال المجتمع من أجل التخلص منها، وكان صديقه، بابتِست شبنجلر يصاب باعتلال في الصحة، كما هو معروف، بصورة متناوبة، في كل الأماكن. وكان الصناعي بولينجر، الذي مازال حديث السن، يبدو امرءاً لا يستغنى عنه في موطنه بحكم اختصاصه في الصناعة. وكانت أوركسترا تسابْفِنشتوسَّ تشكل عنصراً في الحياة الفنيّة للعاصمة أهمَّ من أن لا يُستثنَى أعضاؤها، ومنهم أيضاً رودي شفيرتفيجر. وقد أحيط علماً، اخر الأمر، في هذه المناسبة مع الدهشة العابرة، بأن رودي قد اضطر إلى إجراء عملية كلفته إحدى كليتيه، وكان يعيش. كما سمع القوم فجأة، بكلية واحدة فحسب -حياة سليمة لا شائبة فيها، كما كان يبدو، وسرعان ما نسيت النساء ذلك.

وقد كان في وسعي أن أمضي في الحديث على هذا النحو، فآتي على ذكر بعض حالات الاستياء، والحماية، والإخلاء المبني على المراعاة،

مما كان يحدث في الأوساط التي كان يتردد عليها آل شلاجنهاوفن، وسيدات آل شورل في الحديقة النباتية، -وكانت أوساطاً لم يكن يفتقَد فيها نفورٌ مبدئي من هذه الحرب، مثلما كان ذلك النفور من الحرب السابقة: كذكريات اتحاد الراين، والصداقة مع الفرنسيين، والمَقْت الكاثوليكي لبروسيا، وأمثال تلك الأمزجة. وكانت جانيت شورل تعاني من تعاسة عميقة، وعلى وشك أن تذرف الدموع، إذ كان الاستعار الفظّ لنار الخصومة بين الأمّتَيْن اللتين كانت تنتمي إليهما، وهما فرنسا وألمانيا، اللتين كانت ترى أنه ينبغي أن تكمِّل إحداهما الأخرى، بدلاً من أن تتصارعا، يدفعها إلى اليأس الكامل. وكانت الكلمات تتدفق من فيها تدفُّقاً وهي تنشج غاضبة: «لقد أصابني من هذا ما يكفيني إلى آخر أيامي! وعلى الرغم من مشاعري المختلفة عنها لم أُقَصِّر في الإعراب عن مشاركة وجدانية تجاهها ذات سمة أدبية.

ولكي أودِّع أدريان الذي كان عدم تأثُّره الشخصي بمجمل هذا كله يمثل أكثر الأمور بَدَهية في الدنيا في نظري، خرجت إلى بفايفرينج، حيث كان على ابن المنزل، جيريون، أن ينطلق بعدد من الخيل إلى مكان تجنيده. ووجدت هناك روديجر شيلدكناب الذي كان مايزال حراً بصورة مؤقتة، وكان يقضي عطلة نهاية الأسبوع عند صديقنا. وكان قد خدم في البحرية، وتمّ سحبه فيما بعدُ أيضاً ولكنه سُرِّح من جديد بعد بضعة أشهر. وهل سارت الأمور عندي سيراً مختلفاً كثيراً، يا تُرى؟ أقول على الفور إنني لم أكد أنفق سنة واحدة فحسب، حتى معارك جبل الأرغون عام ١٩١٥، وظللت في الميدان ثم نقلت إلى موطني عن طريق الصليب الأحمر، الأمر الذي لم أستحقِقْه إلاّ باحتمالي لبعض المنغِّصات،

وإصابتي بعدوى التيفوس.

هذا ما أقوله بصورة مسبقة. أما حكم روديجر على الحرب فكان متأثِّراً بعلاقته بإنكلترا، المبنية على الإعجاب بها، مثلما كانت علاقة جانيت محكومة بدمها الفرنسي. وكان الإعلان البريطاني للحرب قد سرى في أوصاله سرياناً حاسماً، وحوَّل مزاجه إلى مزاج قائم على الضيق والتذمُّر إلى حد فائق. وكان يرى أنه ما كان يحق لأحد أبداً أن يتحدّاها بالزحف المناقض للاتفاقيات، على بلجيكا. أمّا فرنسا وروسيا -فلا بأس في الأمر من ناحيتهما، إذ يمكن للألمان أن يكونوا أنداداً لهما. ولكن انكلترا! لقد كان هذا استهتاراً رهيباً. وهكذا لم يكن يجد أيضاً في الحرب، وهو الميّال إلى واقعية قائمة على التذمُّر والتبرُّم، شيئاً سوى القذارة، والروائح الكريهة، وأهوال بتر الأطراف، وألوان الترخُّص والإباحية في مجال الجنس، والإفلاس، وكان كثير التهكُّم على البلاغة الإيديولوجية التي تجعل من العبث عصراً عظيماً. ولم يكن أدريان يردُّ عليه ذلك. أمّا أنا فكنت أُقِرُّ، على الرغم من شدّة تأثُّري العميق، طائعاً مختاراً، بأن أقواله تعبِّر عن جزء من الحقيقة.

وكنا نجلس ثلاثة في قاعة إلهة النصر الكبيرة، عند المساء، على أن مرور كليمنتينا شفايجشتل، التي كانت تخدمنا بمودة، جيئة وذهاباً، حملني على أن أقرر أن أسأل أدريان عن أحوال أخته أورسولا في لانجْنِزالْتسا. وكان زواجها أسعد الزيجات وقد تماثلت للشفاء حقاً من وهن في الرئتين، ونزلة يسيرة في صدرها جرّتها عليها ثلاث ولادات تعاقبْن على عجل، عام ١٩١١، وعام١٩١٢، وعام ١٩١٣، وكان هؤلاء هم البراعم الشنايْد يفاينيّون الثلاثة: روزا، وحزقيال، وريمون الذين

أبصروا نور الدنيا في تلك الأيام. وكانت قد انصرمت حتى ظهور نيبوموك الساحر، حين التأم شملنا في تلك الأمسية، تسعة أعوام أيضاً.

واستفاض الحديث أثناء وجبة الطعام وبعدها، في حجرة رئيس الدير، عن الأمور السياسية والأخلاقية، وعن الظهور الأسطوري للسجايا الوطنية، الذي يحدث في أمثال هذه اللحظات التاريخية، والذي تحدثت عنه بتأثُّر معيَّن، لأوازن إلى حدٍّ ما طريقة النظر التجريبية الحاسمة، مع الحرب، وهي الطريقة التي يعدها شيلدكناب الطريقة الوحيدة التي يوصى بها، أي عن الدور المتميِّز لألمانيا، وعن الخطيئة التي ارتكبتها بحق بلجيكا، والتي ذكَّرت، إلى حد بعيد، بعَمَلِ العنف الذي أقدم عليه فريدريك الأكبر ضد سكسونيا المحايدة، رسميّاً، وعن صياح العالم الصارخ ضد هذا، وخطبة مستشار الرّايْش الفلسفية، بما فيها من إقرار بالذنب مبنيّ على الرويَّة والتفكير وما فيها من مبدأ لا سبيل إلى ترجمته، على الصعيد الشعبي، مؤدّاه أن المحنة لا تعرف مَحظوراً ولا مباحاً، وما فيها من استهانة مبرَّرة أمام الله بوثيقة قانونية قديمة في مواجهة إلحاح ضرورات الحياة الراهنة. وكان روديجر هو السبب في أننا ضحكنا من ذلك، إذ تقبَّل وصفي المتأثِّر بعض التأثُّر، غير أنه نحا بكل هذه الفظاظة في العاطفة، وهذا الانكسار النبيل والاستعداد الصادق للفعلة النكراء، عن طريق المحاكاة الساخرة للمفكِّر الطويل القامة، الذي كان يُمَوِّه خطة استراتيجيّة محدَّدة منذ عهد بعيد بثوب من الشعر الأخلاقي، منحى ينتهي به إلى الهزلي الذي لا يُقاوَم -بل إلى ما هو أكثر من ذلك، وهو الهزلي في صورة زمجرة الفضيلة الكسيرة النفس في عالم كانت خطة هذه الحملة الجافة معروفة لديه منذ عهد بعيد، ولما

كنت أرى أن هذه كانت أحبّ الأمور إلى مضيفنا، وأنه كان ممتناً لتمكُّنه من الضحك فقد سرَّني أن أشارك في هذا المرح مشاركةً لا تخلو من ملاحظتي أن المأساة والملهاة ترجع كلٌّ منهما إلى الطينة ذاتها، وأن تغييراً في الإضاءة يكفي لتحويل هذه إلى تلك.

وكنت أتعاطف بفكري ومشاعري، مع نزوع ألمانيا الاضطراري، ومع عزلتها المعنوية وحرمانها العمومي من حماية القانون، مما كان يبدو لي أنه مجرد التعبير عن الفزع العام من قوتها وتفوُّقها في الاستعداد للحرب (إذ كنت أسلِّم بأن هذه، أي القوة والتفوُّق، كانا الآن، مرة أخرى، كافيين من أجل العزاء الفجّ، في حرماننا من حماية القانون) -أقول، على وجه الإطلاق- إنني لم أدع تأثُّري الوطني الذي كان تمثيله أصعب كثيراً من تمثيل الآخر، يضمحلُّ عن طريق إضفاء الطابع الهزليّ على السمات المميِّزة، وأضفي على ذلك التأثُّر، وأنا أروح وأغدو في الحجرة، كلمات معيَّنة، بينما كان شيلدكناب يدخّن، في الكرسيّ المنخفض غليوناً من التبغ المفروم. وكان أدريان يقف كيفما اتفق، أمام منضدة عمله الألمانية القديمة للقراءة والكتابة -ذلك لأن مما كان يلفت النظر أنه كان يكتب أيضاً، مثلما كان يفعل إراسموس الهولباينيّ، على سطح مائل. وكانت تنتشر على المنضدة بضعة كتب: منها مجلد صغير لكلايست، وضعت فيه علامة قراءة عند المقالة حول العرائس، ثم السوناتا التي لا مندوحة عنها لشكسبير، ومجلد آخر فيه مقطوعات لهذا الشاعر، وكان فيه «كما تهواه» و«جعجعة فارغة» و، إذا لم أكن مخطئاً، أيضاً، «سيّدان من ڤيرونا» ولكن كان يوجد على المنصة، عمله الراهن -أوراق متفرّقة، ومشروعات، وبدايات، وملاحظات، ومخطّطات

أوَّلية، في حالات متباينة من التقدم: فكثيراً ما كان لا يوجد سوى السطر الأعلى من الصوت المقابل، وهو صوت الكمان، أو الأبواق الخشبية، وفي النهاية السفلية الأخيرة دور الأصوات الخفيضة، ومازال بينهما فراغ أبيض، وفي أماكن أخرى كان هناك إيضاح العلاقة الهارمونية وترتيب الآلات الموسيقية، وقد تم إيضاحهما بتدوين سائر أصوات الأوركسترا أيضاً، وكان قد تقدم أمامها واللُّفافة بين شفتيه، لينظر فيها، على نحو مماثل تماماً لنظرة لاعب الشطرنج عندما يتفحَّص حالة جولة من جولاته على الميدان المخطَّط بالمربعات، وهي الجولة التي يذكِّر بها التأليف الموسيقي تذكيراً شديداً. وكان اجتماعنا يتسم بخلو البال إلى حد بلغ منه أنه تناول قلماً ليسجِّل دور اليراعة، أو البوق، كما يحلو له، وكأنما كان وحده.

ولم نكن نعرف الكثير من المعلومات الدقيقة عما كان يشغله، الآن، حيث كانت تلك الموسيقا الكونية عند أولاد شوتّ في ماينتس تظهر مطبوعة بالشروط ذاتها التي طبعت بها أغاني برنتانو قبل ذلك. وكانت المسألة تتعلق بلحن أوركسترا (سويت) يتعلق بأشكال شائهة درامية أخذ موضوعاتها، فيما سمعنا، عن كتاب الأقاصيص والنوادر (Gesta Romanorum– بطولات الرومان)، وقام بها بمحاولات من دون أن يكون عرف بعدُ حق المعرفة أنْ سينشأ عن ذلك شيء ما، وهل سيتمسَّك به. وعلى كل حال فلم يكن البشر هم المقصودون بالتجسُّد، بل العرائس (ومن هنا كانت عرائس كلايست!) -أمّا ما يتصل بـ «معجزة الكون» فقد كان ينتظر هذا العمل المنطوي على الغرور مع الاحتفالية عرضٌ في الخارج ولكن المشروع انتهى إلى السقوط من جراء نشوب

الحرب. وكنّا قد تحدثنا في ذلك على المائدة. وكانت عروض «خاب سعي العشّاق» في لوبك، على ما لقيت من الإخفاق، إلى جانب مجرد الوجود، فيما يتعلق بأغاني بْرِنْتانو، قد أحدثت مفعولها مع ذلك على نحو خفيّ، وبدأت تنشئ لاسم أدريان في أوساط الفن الداخلية وقعاً معيّناً يضفي عليه صفة المعتزل، وإن كان ذلك ذا سمة تجريبية أيضاً، وحتى هذا أيضاً لا يكاد يوجد في ألمانيا ذاتها، على أنه لا يوجد أبداً في مونيخ، ولكنه يوجد في موضع آخر أكثر إرهافَ حسٍ. وكان قد تلقّى قبل بضعة أسابيع رسالة من السيد مونتو، مدير الباليه الروسية في باريس، والعضو السابق في أوركسترا كولونيا، أعرب فيها المدير الذي يقابل التجربة بالمودة، عن رغبته في تقديم «أعجوبة الكون»، مع بعض المقطوعات الأوركسترالية الأخرى، من «خاب سعي العشاق»، في عروض بأسلوب الحفلات الموسيقية البحتة. وكان يقصد إلى إقامة العرض في مسرح الشانزيليزيه، وقد دعا أدريان إلى المجيء إلى باريس من أجل ذلك، ولدراسة أعماله بنفسه وعرضها أيضاً. ولم نكن قد سألنا صديقنا هل كان خليقاً أن يلبّي الدعوة في ظروف معينة. وعلى كل حال فقد كانت الظروف قد تشكّلت الآن بحيث ما عاد الحديث يَرِدُ من بعدُ عن هذه المسألة.

ومازلت أرى نفسي أروح وأجيء فوق البساط والأرضية الخشبية في الحجرة القديمة المكسوّة بالألواح، بثُرياتها العريضة وخزانتها الجدارية المزوَّقة، ووسائدها الجلدية المنبسطة على الأريكة القائمة في ركنها، ومشكاة النافذة العميقة، مستفيضاً في الحديث عن ألمانيا وكان ذلك من أجلي أنا بدرجة أكبر، وفي كل الأحوال من أجل شيلدكناب أكثر مما هو

من أجل أدريان الذي لم أكن أنتظر منه اكتراثاً. ولما كنت قد تعوَّدت أن أعلِّم وأتكلَّم، فما أنا بالمتحدث الرديء إذا ما أتيح لخاطري بعض الإثارة. على أن صوتي في الإلقاء ليس مما لا يروق الناس سماعه، وإني لأجد سروراً معيناً إذ تطاوعني الكلمات، وتظل رهن إشارتي، وكنت أدع ذلك لروديجر، بأسلوب لا يخلو من التلويح الحيّ باليَد، لكي تُحسَب كلماتي من قبيل البلاغة المتعلقة بالحرب، التي كان يستاء منها أيّما استياء، ولكن لا بدّ أن يُباح لي قليل من المشاركة النفسية في هيئة الشخصية -التي لم تكن تستغني بحال من الأحوال عن الملامح المؤثِّرة، وهي الهيئة التي تركتها الطبيعة الألمانية المتعددة الصور في العادة، تنشأ- بحكم كون هذه المشاركة أمراً طبيعياً فيما أرى. على أن ما تتعلَّق به المسألة، في التحليل الأخير، إنما هو سيكولوجية الاختراق.

وقلت في كلمتي، إنه في حالة شعب من طراز شعبنا، يعد الجانب النفسي هو صاحب المقام الأول دائماً، وهو المحرِّك الحقيقي، على حين يتبوّأ العمل السياسيّ المنزلة الثانية، إذ يمثل المنعكس، والتعبير والوسيلة إلى ذلك المحرِّك. أمّا ما يقصد بالاختراق من أجل الوصول إلى مكانة الدولة العظمى التي يندبنا إليها القدر، بأعمق معانيه، فهو الاختراق بغية الوصول إلى العالم -للخلاص من عزلة نعيها ونعاني منها ولم نتمكن من نسفها عن طريق تدخُّل على أساس متين، في الاقتصاد العالمي، منذ تأسيس الرَايْش. على أن الجانب المرير في هذا هو أن الظاهرة التجريبية للحملة الحربية تفترض أن يوجد ما هو في الحقيقة حنين إلى التوحيد...»

وهنا سمعت أدريان يقول بشطر من صوته، وبضحكة قصيرة:

«بارك الله في دراستك!» ولم يكن قد رفع طرفه عن أوراق نوطاته.

وظللت واقفاً أنظر إليه، من دون أن يحفِل بي، من أجل ذلك.

ورددت قائلاً: «الأمر الذي يجب استكماله، فيما ترى،بلا ريب، بقولك: «لن تُجْدِيَ في شيء، والحمد لله؟»

وردّ قائلاً: «ربما كان الأفضل أن يقال: «لن يعود هذا بطائل، أرجو عفوك، فقد وقعت فيما هو من شأن تلاميذ المدارس، لأن خطبتك ذكَّرتني أيَّما تذكير بمجادلتنا ونحن في فراش التبن في الماضي البعيد، -كيف كانت أسماء الفتيان؟ ها أنذا ألاحظ أن الأسماء القديمة آخذة في الضياع» (كان في التاسعة والعشرين حين كان يجلس هنا) - «دويتشماير؟ دونجرز ليبين؟»

وقلت: «أتراك تقصد ذلك الفتى الضخم، دويتشماير، وآخر يدعى دونجَرزْهايم، وكان معهما أيضاً آخر يدعى تويتليبين، وفتى يدعى هوبماير. الأسماء لم تنطبع في ذاكرتك أبداً. لقد كانوا فتية طيبين، أهل جدّ واجتهاد».

«بالطبع! ماذا يخطر ببالك، كان واحد منهم يدعى شابِّلر، ثم كان هناك واحد معيَّن يعد طبيباً اجتماعياً، ما قولك الآن؟ أنت لم تكن في الحقيقة واحداً منهم، حسب كليَّتك، ولكن في هذه الأيام أعتقد أنني أسمعهم عندما أسمعك. فراش التبن- الأمر الذي أودُّ من خلاله مجرَّد أن أقول: إذا كان المرء ذات مرة طالباً ظل طالباً على الدوام، فالحياة الجامعية تحفظ الشباب والهمَّة».

وقلت: «لقد كنت من كليَّتهم، وكنتَ في الأساس طالباً مستمعاً أكثر مني. وهذا بَدَهي، يا أدري. لقد كنت مجرد طالب، وربما كنت على

صواب في أنني ظللتُ كذلك، ولكن الأمر يغدو أفضل عندما تحفظ الحياة الجامعية الشباب، وهذا يعني أن الإخلاص يحافظ على الفكر، وعلى الفكرة الحرة، وعلى التفسير الأعلى للحادثة الخام...».

وقال يسأل: «وهل يدور الحديث هنا عن الإخلاص، لقد فهمت أن كايسرز آشرن تودّ أن تكون مدينة عالمية. وهذا أمر لا ينطوي على الكثير من الإخلاص».

وصحتُ به قائلاً: «هيّا، هيّا، أنت لم تفهم شيئاً من أمثال هذا، وتفهم أحسن الفهم ما قصدت إليه بالاختراق الألماني الذي يفضي بنا إلى العالم».

وأجاب قائلاً: «ما كان هذا ليجدي، إذا كنت أفهم ذلك، لأن الحدث الخام سوف يجعل احتجازنا، وانحباسنا، بصورة مؤقتة على الأقل، كاملين من باب أولى، وإن تماديتم يا أهل الحرب إلى هذا الحد في الحماسة حتى بلغتم بها النطاق الأوروبي. فأنت ترى هذا: أنا لا أستطيع الذهاب إلى باريس، وسوف تذهب بدلاً مني. وهذا حسن أيضاً! والحديث بيننا: فأنا ما كنت لأذهب على أية حال، وأنت تسعفني بإخراجي من حرج...»

وقلت بصوت مضغوط، إذ كانت كلماته قد وقعت مني موقعاً مؤلماً: «سوف تكون الحرب قصيرة الأمد، ولا يمكن أن تدوم طويلاً أبداً. ونحن ندفع ثمن الاختراق السريع إثماً، معترفاً به، نريد أن نعلن عن رغبتنا في التكفير عنه. ولا بد لنا أن نأخذه على عاتقنا.

وتدخّل قائلاً: «وسوف تعرفون كيف تحتملونه محافظين على كرامتكم، فألمانيا لها كاهلان عريضان، ومن تراه ينكر أن اختراقاً

حقيقياً كهذا جدير بما يسميه العالم المُدَجَّن جريمة! وآمل ألاّ تعترض على أنني أستهين بالفكرة التي يروق لك أن تشتغل بها وأنت راقد على القش. ولا يوجد في الأساس إلاّ مشكلة واحدة في هذا العالم، وهذا هو اسمها: كيف يحقِّق المرء الاختراق؟ وكيف يخرج إلى الهواء الطلق؟ وكيف ينسف الشرنقة ويتحوّل إلى فراشة. وذلك أن الموقف الإجمالي برمّته تهيمن عليه هذه المسألة». وقال وهو يشدّ الشريط الصغير الأحمر، في مجموعة أعمال كلايست على المنضدة: «هنا يجري الحديث عن الاختراق وأقصد في المقالة الممتازة عن العرائس، وهو يسمّى فيها على وجه الخصوص، الفصل الأخير من تاريخ العالم. ولا يجري الحديث في أثناء ذلك إلاّ عن الجماليّ، عن السحر، والرشاقة الطَّلْقة، التي تكون في الحقيقة مرموقة على الدّمية، وعلى الرب، وهذا يعني اللاشعور، أو وعياً لانهائياً، على حين يَقتل الرشاقةَ كلُّ تأمُّل واقع بين الصفر واللانهاية. ويقول ذلك الكاتب إن الوعي لا بدَّ أن يكون قد اجتاز لانهائياً لكي تعود الرشاقة إلى الحضور، وإنه لا بدّ لآدم أن يأكل من شجرة المعرفة مرة ثانية لكي يعود إلى الوقوع في حالة البراءة».

وصحت قائلاً: «لكم يسرني أنك قرأت هذا لتوِّك! إنه لينمّ عن تفكير رائع، ولقد كنتَ على الحق كل الحق حين أدخلته في إطار فكرة الاختراق. ولكن لا تقل إن المسألة لا تتعلّق إلاّ بالجمالي وحده، لا تقل (وحده)! فالمرء يرتكب خطأ كبيراً حين يرى في الجماليّ قطاعاً جزئياً ضيقاً ومعزولاً من قطاعات الإنساني، بل يجب أن يُنظَر إليه على أن كلَّ شيء في الأساس يكمن في مفعوله الجذّاب. أو المدهش الغريب، مثلما تنطوي كلمة (الرشاقة) عند الأديب على أوسع نطاق من المعاني.

التحرُّر الجماليّ، أو اللاّتحرُّر، هذا هو المصير الذي يفصل في السعادة أو الشقاء، وفي المُقام المُؤْنِس على الأرض، أو الوحشة التي لا شفاء فيها وإن كانت تنطوي على الزُّهوِّ بالنفس، وليس المرء بمضطرٍ إلى أن يكون من فقهاء اللغة لكي يعرف أن القبيح هو المكروه. ويقول إن الرغبة في الاختراق للخلاص من الارتباط والانغلاق في القبيح تفيد على أية حال أنني أدرس قش فراش النوم، غير أني أشعر، وكنت أشعر دائماً، وأريد أن أمثِّل في مقابل الكثير من الظواهر التي تنمّ عن الفظاظة، وجهة النظر القائلة إن هذا في الألمانية هو أن يكون المرء ألمانياً بأصح معاني الكلمة، ألمانياً عميق الألمانية، بل هو يمثل، على وجه الخصوص، تعريف القومية الألمانية، من حيث هي نزعة روحانية يتهدَّدها التيه في الأحلام، وسمّ العزلة، والعمل في الخدمة عند أهل الريف، والتعقيد العُصابي، والنزعة الشيطانية الهادئة...»

وأمسكتُ عن الكلام، ونظر إليّ، وأعتقد أن اللون كان قد زايل وجنتيه، وكانت النظرة التي كان يوجهها إليّ هي تلك النظرة، الواعية، التي ملأت قلبي تعاسة، ولم يكن يهمني أكُنْتُ أنا المعنيّ بتلك النظرة، أم كان المعنيُّ بها امرَءاً آخر: كانت نظرة خرساء، محَجَّبة، نائية، على برود، إلى الحدّ اللاذع المُهين، وأعقبتها الابتسامة، مع انغلاق الفم واختلاج جناحي الأنف شأنَ المتهكِّم المُعْرِض المُشيح بوجهه. وابتعد عن المنضدة، لا تجاه مكان شيلدكناب، بل نحو مشكاة النافذة التي كان يعلق لتوِّه على جدارها المكسوِّ بألواح الخشب، صورة من صور القديسين. وكان روديجر يقول كلاماً كيفما اتفق، وقال: إنني خليق أن أتلقّى التهنئة على تفكيري، إذ تمكنت من التقدُّم إلى الميدان على الفور،

وعلى ظهر الجواد في الحقيقة، وقال إنه ينبغي للمرء ألاّ يتقدم إلاّ على صهوة الخيل، وإلاّ فالأفضل ألاّ يتقدَّم على الإطلاق، وكان يلطم بيده عنق الفرس المتخيَّلة. وضحكنا، وكان وداعنا، حين لم يكن لي بدٌّ من الذهاب إلى الخط الحديدي، يسيراً، مَرِحاً. وكان من الخير أنه لم يكن عاطفياً، ولو كانه لكان ذلك خليقاً أن يثبت أنه ليس بالأمر المناسب كثيراً. غير أنني كنت أحمل نظرة أدريان معي، إلى الحرب، وربما كانت هذه النظرة، لا تيفوس القمل، هي التي سرعان ما جاءت بي إلى جانبه مرة أخرى، في البيت.



(٢١)

كان أدريان قد قال: «سوف تذهبون بدلاً منيّ، ولم نذهب! أوَ ينبغي لي أن أعترف أنني كنت، وأنا في السكون الكامل، وخارج زاوية النظر التاريخية، أشعر من جرّاء ذلك بعار عميق شخصيّ حميم؟ لقد لبثنا، أسابيع بطولها، نرسل إلى موطننا أخبار النصر مقتضبة وجيزة، تُلبِس جانب النصر ثوب البدهية البارد، في إيجاز متكلف. وكانت لتّيش قد سقطت منذ عهد بعيد، وكنا قد ربحنا المعركة في اللورين، وانعطفنا إلى اليسار، طبقاً للخطة الأساسية التي ظللنا أياماً طويلة نعلّق عليها الآمال، بخمسة من الجيوش، عبر نهر الماس، وأخذنا بروكسل، ونامور، وانتزعنا بالقتال الضاري انتصارَيْ شارلروا ولونجڤي، وربحنا سلسلة ثانية من المعارك في سيدان، وريتيل وسانت كينتين، واحتللنا ريمس. وكان الزحف الذي يحملنا جارفاً إلى هناك، يجري على جناح السرعة، وكنا نتمتع، كما كنا نحلم، بالحظوة عند إله الحرب، وباستجابة القدر وكأننا محمولون على أجنحته. وكان من المفروض أن تحتمل رجولتنا جانب محرقة القتل بجَلَد وثبات، وهي التي لا تنفصل عن هذا الجانب، إذ كان هذا هو المطلب الرئيسي الذي يلقى على عاتق بطولتنا. ومازلت أستدعي حتى اليوم، بسهولة ووضوح يلفتان النظر، صورة امرأة غالِيّة مهزولة، واقفة على رابية تحدق ببطاريتنا، وكان ينبعث عند قدميها

دخان بقايا قرية دمَّرتها القذائف وهتفت لنا وعلى وجهها إيماءة مأساوية ما كانت لتتهيّأ لامرأة ألمانية، قائلة: «أنا الأخيرة» وكرّرت العبارة بالفرنسية، وهي تفذف باللعنات فوق رؤوسنا، ثلاث مرات: «أيها الأشرار، أيها الأشرار! أيها الأشرار!»

وكنا ننظر إلى بقاع أخرى أمامنا، لم يكن لنا بدٌّ أن ننتصر، وكانت هذه صنعة النصر القاسية. على أن شعوري بالبؤس وأنا على صهوة جوادي البنيّ والسعال الخبيث والآلام الحادة في المفاصل يعذبانني نتيجة للمبيت في جوّ البلل تحت قماش الخيمة المشمّع، كان مما ردّ إلى نفسي شيئاً من السكينة.

ودمَّرنا بعدُ كثيراً من القرى برصاصنا، محمولين على أجنحة النصر. ثم جاء الجانب غير المفهوم، الذي كان يبدو عبثيّاً، وهو الأمر بالانسحاب. وأنّى لنا أن نفهمه؟ كنا ننتمي إلى كتيبة هاوزن التي كانت تتأهَّب للزحف على باريس، إلى الجنوب من شالون على المارن، في تقدُّم كامل، مثلما كانت تفعل كتيبة كلوك في مكان آخر. ولم نكن ندري أن الفرنسي قد اخترق الجناح الأيمن لبيلوف في مكان ما، بعد معركة دامت خمسة أيام، الأمر الذي كان سبباً كافياً لتحرُّك الضمير المتوجِّس لقائد أعلى تمت ترقيته في مكانه بسبب عمه، من أجل استعادة هذا كله. ومررنا من جديد بالقرى ذاتها التي كنا قد خلَّفناها وراء ظهورنا داخنةً تحترق، كما مررنا أيضاً بالرابية التي كانت تقف عليها المرأة المأساوية. وما عادت هناك.

لقد كانت الهة النصر تكذب علينا. وما كان لهذا أن يكون. وما كانت الحرب ليتمّ الظفر بها في اقتحام سريع، -ولم نكن نفهم أكثر مما يفهم أولئك الذين كانوا في الوطن ما كان يعنيه هذا. ولم نكن نفهم

تهليل العالم العاصف للمخرج الذي انتهت إليه معركة المارن، وأن الحرب القصيرة التي كان يرتبط بها خلاصنا تحوّلت إلى حرب طويلة لم نكن نحتملها، وباتت هزيمتنا مجرد مسألة الزمن والتكاليف بالقياس إلى الآخرين، -لقد كان في وسعنا أن نلقي السلاح، وأن نرغم قادتنا على الصلح الفوري، لو كنّا ندرك ذلك، ولكن لم يكن من الممكن أن يُؤْتى من هؤلاء أيضاً سوى هذا أو ذاك من طريق خفيّ. وذلك أنهم لم يكونوا قد تحققوا بعد من حقيقة تفيد أن زمن الحروب التي يمكن تحديد موقعها قد انتهى، وأن كل زحف إلى ميدان نجد أنفسنا مضطرين إليه لا بدّ أن يفضي إلى حريق عالمي. وفي مثل هذا كانت الآن مزايا الجبهة الداخلية، والصدق في القتال، وارتفاع مستوى الاستعداد، والدولة الموطّدة الدعائم، ذات السلطان والبأس، إلى جانبنا، وكانت تشكّل الفرصة لانتصار عاجل خاطف. ولئن كان هذا قد فاتنا -وكان من المكتوب أنه لا بد أن يفوتنا، فقد كان ما يمكن أن ننجزه بعد، من أجل قضيتنا في سنوات محكوماً عليه بالدمار، من حيث المبدأ، وبصورة مسبقة،- هذه المرة، والمرة التالية، وعلى الدوام.

لم نكن نعرف ذلك. وشيئاً فشيئاً كان يجري تعذيب الحقيقة في داخلنا، على أن الحرب، التي كانت باعثة للعفن والعطن، والانهيار، والبؤس، وإن كانت حرباً تبدو من حين إلى آخر مشرقة في انتصارات جزئية كاذبة، تمدُّ في عمر الأمل، هذه الحرب التي قلت أنا أيضاً إنها لا يجوز إلاّ أن تكون قصيرة الأمد، طالت أربع سنين. هل ينبغي لي أن أذكّر هنا، بالتفصيل، بالانغماس في الوحل، والعجز، واستنفاد طاقاتنا وممتلكاتنا، وما في حياتنا من الشحّ والثغرات، وفقر التغذية، وانحلال الأخلاق من جراء العوز، والجنوح إلى السرقة، مع اقتران ذلك بالتبذير

الفج عند العوامّ الذين أثرَوْا؟ وقد يحق للمرء أن يلومني لأنني خليق بذلك أن أتجاوز حدود مهمتي التي تتسم بأنها من قبيل السيرة الحميمة، بطريقة غير منضبطة. لقد شهدت ما أشرت إليه، منذ بداياته إلى نهايته المريرة، في المناطق المجاورة، حيث كنت أمضي إجازتي، وأخيراً مستبعداً من الخدمة العسكرية، أعيد إلى وظيفته التعليمية في فرايزينج، لأن الخدمة في التنظيف من القمل كانت غير كافية على ما يبدو على مشارف آراس، أثناء فترة القتال الثانية على الموقع الحصين، التي دامت من مطلع أيار إلى مرحلة متأخرة من تموز ١٩١٥: إذ انتهت بي العدوى إلى أسابيع في مخيم العزل، ثم إلى شهر آخر في مربع الاستجمام الخاص بالمحاربين المصابين في تاوْنوس، وأخيراً ما عدت أغالب النظرة التي تفيد أنني أدَّيت واجبي الوطني وأنني خليق أن أفعل خيراً إذا ما عملت في موضعي القديم، في سبيل الحفاظ على جهاز التعليم.

وهكذا فعلت، وأتيح لي أن أعود من جديد زوجاً وأباً في المسكن المتواضع الذي كان من الممكن أن تكون جدرانه وأشياؤه المألوفة إلى درجة فائقة قد أُسْلِمَت للدمار بالضرب بالقنابل، ومازالت تشكِّل حتى اليوم إطار حياتي القائمة على الاعتزال والخواء، ويجب أن يقال، مرة أخرى، لا بمعنى الهذر والتشدُّق، بلا ريب، بل على أساس التقرير البسيط، إنني كنت أعيش حياتي الخاصة من دون أن أهمل ذلك على وجه الخصوص، وكنت أعيش حياة هامشية فحسب، وعلى الدوام، بشطر من انتباهي، كما لو كنت أؤدي عملاً باليد اليسرى، وأن جدّي واجتهادي الحقيقيين، وتوتُّري، وقلقي، كل ذلك كان مكرَّساً لحياة صديق الطفولة الذي كان يسرني أيّما سرور أن أُرَدَّ إلى حيث أكون قريباً منه،

إذا كانت كلمة السرور هذه في محلها، مع اقتران ذلك بالرعدة الباردة الناجمة عن ضيق الصدر، وما يبعث علي الشعور بالألم من جراء عدم تَلَقّي الجواب، وذلك ما كان ينبعث على نحو مطَّرد الزيادة، من عزلته الإبداعية. لقد كان يبدو لي على الدوام أن مهمتي الحقيقية والملحّة «أن تكون لي عين عليه» وأن أسهر على حراسة حياته غير العادية والحافلة بالألغاز، وكان هذا يشكل مضمونها الحقيقي ومن أجل ذلك تحدثت عن خواء أيامي الراهنة.

أما مقامُه -وكان مُقاماً بمعنى ينطوي على التكرار ولا يمكن تحبيذه تماماً على نحوٍ من الأنحاء- فكان قد اختاره اختياراً موفَّقاً، -والحمد لله! فقد كان خلال سنوات الانهيار، وألوان الحرمان المبرِّحة التي كانت تزداد حدّتها على الدوام عند رهطه من المزارعين، من آل شفايجشتل، يجري عليه من الرزق ما يكفيه، وإلى الحد الذي يتمناه المرء فحسب، ومن دون أن يعرف ذلك حق المعرفة، ويقدِّره حق قدره، وكان قد ظل غير متأثِّر تقريباً بالتغيُّرات التي أفضت إلى الجَدْب، والتي خضعت لها البلاد المحاصرة التي أحيط بها، وإن كانت مازالت رحبة واسعة من الوجهة العسكرية. وكان يتقبَّل ذلك ببدهيّة ومن دون أي ذكر، مثلما يتقبّل المرء شيئاً صادراً عنه وكامناً في طبيعته التي كانت طاقات المواظبة فيها، وتوجُّهها نحو ما يظل ثابت الجودة على الدوام، يفرضان نفسيهما في مواجهة الظروف الخارجية، وعلى نحو فردي. وكان في وسع عاداته البسيطة، المتعلقة بالغذاء، أن ترضي الجانب الاقتصادي عند آل شفايجشتل في كل الأوقات. ولكن أضيف إلى ذلك أنني وجدته، بمجرد عودتي من الميدان، في رعاية اثنتين من بنات حواء كانتا قد تقربتا منه

وطرحتا نفسيهما، وكلٌ منهما مستقلة عن الأخرى، صديقتين قائمتين على رعايته. وكانت هاتان هما السيدة ميتا ناكيدي والسيدة كونيجونده روزنشتيل، -أما إحداهما فمعلمة بيانو، وأما الأخرى فشريكة عاملة في محلّ لتجارة الأمعاء، وأقصد بذلك مؤسسة لتحضير أغلفة القديد. وإنه لأمر عجيب: أن تكون شهرة مبكِّرة متقوقعة خفيّة كل الخفاء، لواحد من الجمهور العريض، كما بدأ هو، مرتبطة باسم ليڤركون، وأن يكون مستقرُ وعيها في جوّ ينطوي على الاطّلاع، بين أقطاب أهل المعرفة، كانت تلك الدعوة الباريسية، مثلاً، سمة مميِّزة من سماته، ولكن كان له في الوقت ذاته انعكاس بلا ريب أيضاً في مناطق أعمق، متواضعة، في القلب الفقير لنفوس بائسة تعزل نفسها عن الجمهور عن طريق حساسية الوحدة والمعاناة المتنكِّرة في ثوب «طموح أعلى»، وتجد سعادتها في تبجيل ترجع إليه أيضاً قيمة الندرة الكاملة. ولا يمكن أن يبعث على الدهشة أنهما امرأتان، وأنهما في الحق عذراوان، لأن الحرمان عند البشر هو بلا شك مصدر حدس كحدس الأنبياء، لا يكون، من أجل مثل هذا الأصل الوضيع، أقلّ قابلية للتقدير بحال من الأحوال، وكان الشخصيّ المباشر يلعب فيه دوراً لا يستهان به، بل ترجح كفته على الفكريّ، الذي لا يمكن رسم خطوطه الأساسية إلاّ رسماً غامضاً، ولا يمكن إدراكه وتقييمه إلاّ من طريق الوجدان والإحساس الداخليّ في كلتا الحالتين على أية حال. ولكن هل أتمتّع، أنا، الرجل الذي يستطيع أن يتحدث عن تصدُّع معيَّن يُحْدِث مفعوله منذ وقت مبكِّر، في الرأس وفي القلب من حياة أدريان الباردة والحافلة بالألغاز، والمنغلقة على نفسها، بأدنى حق في التهكُّم على الافتتان الذي كان ينطلق من عزلته وعدم

الانسجام في طراز حياته، نحو هاتين المرأتين؟

أمّا ناكيدي، وهي مخلوقة تمرق مروق السهم، وتظل أبداً تحمرُّ وتذوب كل لحظة خجلاً، في نحو الثلاثين، تلتمع عيناها من وراء النظارة الأنفية التي ترتديها، عند الحديث، وعند الاستماع أيضاً، في مودة وتشنُّج، وهي تقطِّب مع ذلك أنفها وتومئ برأسها، -هذه إذاً وجدت نفسها ذات يوم، حين كان أدريان في المدينة، على الجانب الأمامي من مكان الوقوف في حافلة، إلى جانبه، وحين اكتشفت ذلك، طارت هاربة، شأن المهووسة، عبر البوابة الممتلئة، نحو المكان الخلفيّ، ولكنها عادت أدراجها منه بعد لحظات، إلى الجمع الحاشد، لتخاطبه، وتسمّيه باسمه، وتفصح له عن اسمها، وهي تحمرّ خجلاً ويتولاّها الشحوب، وتضيف إلى ذلك حديثاً عن ظروفها، وتقول له إنها تقدِّس موسيقاه، الأمر الذي أحاط به كله وهو يشكر لها. ومن هنا كان هذا التعارف الذي لم تكن ميتا قد مهّدت له. ثم لم تواصله بعد ذلك. ثم استأنفته من جديد، بزيارة ولاء مصحوبة بالأزهار، في بفايفرنج، بعد بضعة أيام، ولبثت ترعاه بعد ذلك، رعاية مطردة، في تنافس حُرٍّ تشدُّه غيرة من الجانبين، مع روزنشتيل التي كانت قد بدأت ذلك بداية مختلفة.

وكانت يهودية، متينة البنيان، في سن مقاربة لسن ناكيدي، لها شعر صوفيّ يصعب ربطه، وعينان كتب في لونهما البنيّ الذي ينمْ عن حزن مغرق في القدم أن ابنة صهيون قد صقلتها التجاريب، وأن شعبها مثل قطيع تائه. وكانت امرأة أعمال صلبة العود في ميدان يتسم بالفجاجة (لأن مصنعاً لمصارين القديد ينطوي بصورة حاسمة على شيء

فجّ)، ومع ذلك فقد كانت لها عند الحديث، العادة الكئيبة، وهي أن تبدأ كلَّ جُمَلها بـ «آه!»، «آه، كلاّ»، «آه، نعم»، «آه، هلا صدقتني»، «آه، وكيف لا يكون ذلك»، «آه، أريد أن أسافر إلى نورنبرج غداً»، كذلك كانت تقول بصوت عميق، شاكٍ، خشن خشونة الصحراء، وحتى عندما كانت تُسْأل: «كيف حالك؟» كانت تجيب قائلة: «آه، حالي على مايرام تماماً»، ومع ذلك فقد كان الجواب يختلف كل الاختلاف عندما كانت تكتب، -الأمر الذي كان يسرها أن تفعله، إلى حد فائق، ذلك لأن كونيجونده لم تكن شديدة الولع بالموسيقا، مثل كل اليهود تقريباً، فحسب، بل كانت تحافظ أيضاً على علاقة باللغة الألمانية أكثر نقاء وعناية إلى حد بعيد، من المتوسط القومي، بل أكثر حتى من معظم المثقفين، وكانت قد شقت طريقها إلى التعارف مع أدريان، الذي كانت تسميه على الدوام، من عندها، «صداقة» (أو لم تكن بالفعل، صداقة على المدى البعيد؟)، برسالة ممتازة، طويلة، محكمة البنيان، ولئن لم تكن باعثة على الدهشة من حيث مضمونها، فقد كانت، في أسلوبها تضاهي رسائل الولاء التي كانت تصاغ وفقاً لأفضل النماذج في ألمانيا ذات النزعة الإنسانية، الأقدم عهداً، والتي كان مُتَلَقِّيها يقرأها وهو يشعر بمفاجأة معينة، وما كان ليستطيع أن يمرّ بها مرور الكرام من جرّاء مكانتها الأدبية، ولم يكن له بدٌّ أن يحس بمفاجأة معينة، غير أنها كانت تكتب إليه بالنتيجة أيضاً، بغض النظر تماماً عن زياراتها الشخصية ذوات العدد الجمّ، في بفايفرنج، في كثير من الأحيان: بالتفصيل، ولم يكن ذلك بموضوعية بالغة، كما لم يكن مثيراً بعد، من حيث الموضوع، غير أنه كان وجدانياً من حيث اللغة، ونظيفاً ومقروءاً، -على أنه لم

يكن آخر الأمر بخط اليد، بل على آلة مكتبها، مع مراعاة علامات التنقيط التجارية، -معربةً عن تبجيلها الذي كانت أكثر تواضعاً من أن تحدده، أو أقل استعداداً لتبريره بمزيد من التفصيل- وعلى كل حال فقد كان تبجيلاً تحدده الغريزة، ولقد أثبت صدقه عبر الكثير من السنين، من خلال ضروب الإخلاص والتفاني التي لم يكن للمرء بدٌّ أن يقدر من أجلها الشخصية الممتازة تقديراً كبيراً، وجدِّياً، بصرف النظر تماماً عن سائر ألوان البراعة التي تتحلى بها. وكنت أنا على الأقل أفعل هذا، وأجتهد في إبداء التقدير الباطني ذاته لناكيدي ذات المرور الخاطف، وإن كان أدريان لا يرتضي هذه الأفانين من التودُّد والتقدمات من قبل هذه النصيرة، دائماً، إلاّ بكل ما في كيانه من اللامبالاة والإهمال. وهل كان نصيبي آخر الأمر من جانبها مختلفاً إلى هذا المدى؟ أمّا أنني وضعت نصب عينيّ أن أريد بهما الخير (على حين كانتا لا تستطيع إحداهما أن تحتمل الأخرى، على الطريقة البدائية، وكانتا إذا التقتا نظرت كلٌّ منهما إلى صاحبتها نظرة لاذعة) فيجوز لي أن أرى ذلك مما يشرفني، لأنني كنت أنتمي إلى طائفتها بمعنى معين، وكان لديّ سبب يحملني على الشعور بالاستثارة من جراء تكرار علاقتي الخاصة بأدريان، وهي العلاقة التي تدنّى مستواها واكتسبت طابع العذرية.

وإذاً فقد كانت هاتان المرأتان اللتان كانتا تأتيان دائماً وأيديهما محمَّلة، تحملان، على أية حال، إلى ذلك الذي كان يتمتع بالتقدير الكبير ويُشاد بذكره كلَّ ما يمكن تصوُّره ويمكن الوصول إليه، مما يتصل بأسس التغذية، بطرق ملتوية: من سكر، وشاي، وبن، وشوكولا، ومعجنات، ومخللات، وتبغ مفروم من أجل لفّ اللفافات، حتى بات في

وسعه أن يفضي بذلك إليّ أنا، وإلى شيلدكناب، وورودي شفيرتفيجر الذي لم يفارقه الأُنس إليه والثقة به أبداً، وكان اسما المرأتين القائمتين بالخدمة يحظيان بالمباركة فيما بيننا في كثير من الأحيان. أمّا ما يتصل بالتبغ واللفافات فلم يتخلَّ أدريان عنهما إلاّ مُكْرَهاً، أي في الأيام التي كانت تنتابه فيها الشقيقة التي كانت تظهر في صورة دُوار بحرٍ ثقيل. وكان هو يلازم سريره في الحجرة المظلمة، الأمر الذي كان يحدث مرتين إلى ثلاث مرات في الشهر، غير أنه ما عاد في وسعه أن يحتمل الاستغناء عن المنبِّه المسلّي في العادة، الذي لم يتحوَّل عنده إلى عادة إلاّ في لايبتسج، في مرحلة جدّ متأخرة، وكان أقل ما يكون صبراً عليه أثناء العمل، إذ كان خليقاً أن يكون أقلّ قدرة على الاحتمال، كما كان يؤكد ذلك، من دون لفّ اللفافات، وابتلاع الدخان. غير أنه كان متفانياً في العمل إلى حد بعيد حين عدت أدراجي إلى الحياة المدنية، ولم يكن ذلك، تبعاً لانطباعي، راجعاً بدرجة كبيرة إلى موضوعه الراهن، وهو «مسرحيات أبطال الرومان» أو لم يكن من أجل ذلك وحده، بل لأنه كان ينزع إلى أن يخلّف هذا وراءه، وأن يكون على أهبة الاستعداد لمطاليب كانت عبقريته تعلن عنها. وكان يلوح في أفق حياته الإبداعية، منذ تلك الأيام، وعلى الأرجح منذ نشوب الحرب، التي كانت تعني، بالقياس إلى نبوءةٍ كنبوءته، انقطاعاً عميقاً، واستهلالاً لفترة تاريخية جديدة صاخبة تقوِّض الأسس والمرتكزات، حافلة إلى درجة الإتراع، بالمغامرات الجامحة والآلام، -كانت تلوح في أفق حياته منذ ذلك الوقت «الرؤيا التشكيلية»، وهي العمل الذي كان يفترض أن يَهَب لهذه الحياة قوة اندفاع تبعث على الدوار، وكان يزجي فترة الانتظار إلى أن يؤون أوانه

بالأشكال الشائهة العبقرية الخاصة بالعرائس، كما أرى، أنا، على الأقل، هذه العملية. وكان أدريان قد تعرَّف على الكتاب القديم الذي كان يعد مصدراً لمعظم الأساطير الرومانسية في العصر الوسيط، وهو هذه الترجمة لأقدم مجموعة من الأساطير والحكايات المسيحية من اللاتينيّة، عن طريق شيلدكناب، -وإنه ليسرّني أن أُقرَّ لصاحب الحظوة ذي العينين المتماثلتين بهذه المأثرة. وكانا قد قرأا فيه معاً في بعض الأمسيات، وكان ما حدث أثناء ذلك على حسابه قبل كل شيء هو ولع أدريان بالجانب الهزلي، هذه الرغبة في الضحك، -بل المقدرة على الضحك إلى درجة ذَرْف الدموع، وهي المقدرة التي ما كانت لتعرف أبداً كيف تغذي طبيعتي الجافة إلى حد ما، كما كان يحول بينها وبين ذلك أيضاً خروج معين عن حدود اللياقة كان يكمن، بالقياس إلى طبيعتي المتسمة بالوَجل، في هذا الذوبان في المرح لكيانه المحبوب في توتُّره وفَزَعه. وكان روديجر، ذو العينين المتماثلتين لا يشاطرني بحال من الأحوال هذا الفهم الذي احتفظت به لنفسي آخر الأمر، والذي ما كان له أن يحول بيني وبين المشاركة الصادقة في أمثال هذه الأمزجة الخاصة بالمرح والانطلاق، حين يستقيم الأمر لهذا. أمّا ذلك السيليزي فكان بالأحرى من دواعي اغتباطه، وكأنما كان يؤدي بذلك رسالة، أو مهمة، أن يلاحظ بوضوح أنه قد وُفِّق إلى أن ينقل أدريان إلى حالة ذرف الدموع من الضحك، وكان يُوَفَّق إلى هذا بكتاب النوادر والخرافات توفيقاً لا جدال فيه، وبطريقة جديرة بالامتنان وغنية بالنتائج المثمرة إلى أقصى الحدود.

وأريد أن أقول إن كتاب «بطولات الرومان»، بما ينطوي عليه من

عدم المقدرة على الإقناع التاريخي، وبنزعته التعليمية ذات الروح المسيحية التَّقَويّة، والسذاجة الأخلاقية، وبما فيه من مشكلات الضمير الفاحشة، من قتل الوالدين، والخيانة الزوجية، والزنى المركَّب بالمحارم وأباطرتها الرومان الذين لا يمكن إثبات حقيقتهم التاريخية، وبَناتها المحروسات حراسة هائلة والمعروضات للبيع بشروط مُبْتَدَعة بالكيد والمراوغة، -ولا يمكن إنكار أن كل هذه الخرافات التي كانت تُتلى بأسلوب ترجمة ينزع إلى اللاتينية مع الحفاظ على المهابة والوقار، ويتسم ببساطة لا سبيل إلى وصفها، عن فرسان يحجون إلى الأرض الموعودة، والزوجات ذوات العشاق والقَوّادات الماكرات، ورجال الكهنوت المتفانين في السحر الأسود، يمكنها أن تحدث أثراً باعثاً للمرح إلى حد فائق. وكانت ملائمة إلى أقصى درجة لاستثارة فكر أدريان فيما يتعلق بالمحاكاة الساخرة. وكان فكرة مَسْرَحَةِ عددٍ من هذه الأقاصيص في قالب مكثَّف مقتضب من أجل مسرح العرائس، مَسْرَحَةً موسيقية، تشغله منذ اليوم الذي تعرف فيه عليها. فهنا، مثلاً، الخرافة اللاأخلاقية من أساسها، والتي تستبق «الديكاميرون» عن حيلة العجائز اللواتي لا يرجون لله وقاراً، تتوصّل فيها متواطئة في جريمة تتعلق بهوىً محرَّم، إذ تتقنّع بالقداسة، إلى حمل زوجة نبيلة، بل شريفة إلى حد استثنائي، كان زوجها الذي يثق بها يضرب في الأرض، على أن تغدو طوعَ إرادة آثمة لفتى كانت الرغبة فيها تأكله، إذ تقدم الساحرة لكلبتها الصغيرة، بعد أن فرضت عليها الجوع بومين، خبزاً من الخردل تأكله فتذرف البهيمة على أثره الدموع غزاراً من عينيها، فتأخذ هذه الساحرة الكلبة الصغيرة معها إلى المتزمِّتة، وتُستَقْبَل هناك بتقدير وإجلال، إذ كان الناس جميعاً

ينظرون إليها على أنها قديسة. ولكن حين تبصر السيدة الكلبة الصغيرة الباكية، وتسأل عن علّة هذه الظاهرة وقدتولاّها العجب، تتظاهر العجوز بأنها تفضل أن تتفادى هذا السؤال لكي تدلي بعد ذلك ، حين تلحّ عليها السيدة في طلب الحديث، باعتراف مؤدّاه أن هذه الكلبة الصغيرة كانت، قبل أن تغدو كلبة، ابنتها المغالية في التبتُّل والاحتشام، دفعت، بفتى يتحرَّق شوقاً إليها إلى الموت من جرّاء رفضها العنيد المتحجِّر، أن تنزل على رغبته، فامّسَخَت على هذه الصورة عقاباً لها على ذلك، وهي تذرف الآن، بالطبع، على نحو متواصل، دموع الندم إذ تعيش حياة الكلاب. وكانت القوّادة تبكي مثلها وهي تروي هذه الأكاذيب المقصودة، غير أن السيدة ينتابها الفزع من جراء التفكُّر في وجه الشبه بين حالتها هي وحالة تلك التي لحقت بها العقوبة، وتتحدث إلى العجوز عن الفتى الذي يعاني بسببها، وعلى أثر ذلك تضع هذه نصب عينيها ماهية الأذى الذي لا يُعَوَّض إذا ما تحوَّلت هي أيضاً إلى كلبة، وتتلقّى بالفعل تكليفاً باستدعاء الفتى المتيَّم المُدْنَف، لكي يروي غُلَّة رغبته، ويحتفل كلاهما على اسم الله، بالاستناد إلى تلك النكتة الملفَّقة، الفاجرة، بأحلى خيانة زوجية.

ومازلت أحسد روديجر إذ أتيح له أن يتلو هذه الحكاية لصديقنا، أول مرة، في حجرة رئيس الدير، على الرغم من أنني مضطر إلى أن أقول لنفسي إنها ما كانت لتكون هي ذاتها لو أنني رويتها بنفسي، وكانت إضافته إلى هذا العمل المستقبلي تقتصر على هذا الحافز الأول. وحين باتت المسألة تقتضي معالجة الخرافات من أجل خشبة مسرح العرائس، وتحويلها إلى صورة الحوار قصرَّ في الاستجابة متعلّلاً بضيق

الوقت أو بدافع روح التحرر المعاند الجامح المعروف، وكان أدريان، الذي لم يحمل ذلك منه على محمل السوء، يلجأ إلى إجراء احتياطيّ، ما دمتُ بعيداً عنه، إذ كان يصمّم بنفسه المشاهد غير المحكمة الصياغة، والأحاديث المتبادلة، على نحو تقريبيّ، وكنت بعد ذلك أنا الذي كان يضعها، في ساعات الفراغ، على عجل، في قالبها النهائي المؤلف من مزيج من النثر والأبيات القصيرة المقفّاة. وقد خُصِّص في هذه الأثناء، حسب مشيئة أدريان، للمغنين الذي يعيرون أصواتهم للعرائس التي تصدر عنها ردود الأفعال، مكانهم وسط الآلات الموسيقية في الأوركسترا المشغولة بعدد مقتصد للغاية، يتألف من كمان، وكمان أجهر، ويَراعة، وفاجوت، وبوق خشبي، وبوق معدني، إلى جانب آلة إيقاع لرجل واحد، وفوق ذلك لأوركسترا مؤلفة من جهاز للأجراس، ومعها متحدث يحشر الحدث في إنشاد وسرد مثلما تفعل آلة الموشَّحة الدينية.

وهذا القالب الخارج على المألوف، يثبت أنه ناجح وموفق إلى أقصى الحدود في المرحلة الخامسة من حكاية «حول ميلاد قداسة البابا جريجور»، وهي اللبُّ الحقيقي لِلَّحن الأوركستري الثلاثي (Suite)، أما الميلاد فلا يبلغ نهايته بحال من الأحوال في شذوذه وغرابته الآثمين، على حين يبلغ من كل أحوال البطل المفزعة أنها لا تقتصر على كونها لا تشكل عقبة في طريق رفعه في النهاية إلى مقام والٍ يمثل المسيح، بل تجعله يظهر، بعد رحمة الرب العجيبة، مندوباً لذلك على وجه الخصوص ومقدَّراً له. على أن سلسلة الصعوبات طويلة، ولعل من نافلة القول بالقياس إليّ أن أكرِّر هنا سرد قصة الأخوين اليتيمين من الأسرة المالكة،

اللذين كان الأخ منهما يحب أخته حبّاً يتجاوز الحدود المألوفة، حتى إنه ليضعها، بطريقة تخرج عن قدرته على التحكُّم في نفسه في ظروف تعد أكثر من مثيرة للاهتمام، ويجعل منها أمّاً لصبي فائق الحسن. وهذا الصبي، ابن الأخوين. بالمعنى السيئ للكلمة، هو الذي يدور حوله كل شيء. وبينما يسعى والده إلى التكفير عن ذلك برحلة إلى أرض الميعاد، ويلقى حتفه هناك، تدفع بولده أقدار غير مستيقنة، لأن الملكة التي قررت ألاّ تدع سليلاً فظيعاً كهذا يُعَمَّد على مسؤوليتها، تجعله، هو ومَهْدُه الأميري في برميل أجوف، وتُسْلِمه إلى أمواج البحر من دون أن تقصِّر في أن تضيف إلى ذلك لوحة صغيرة مكتوبة، وذهباً وفضة من أجل تربيته، وتحمله أمواج البحر «في السادس من أيام الاحتفالات» إلى موضع قريب من دير يديره رئيس دير تقيّ. ويعثر عليه هذا، ويعمِّده باسمه الخاص، جريجور، ويتيح له حظاً من التعليم يصيب نجاحاً فائقاً لدى ذلك الموهوب في جسمه وعقله على نحو استثنائي. وبينما تقسم الأم الخاطئة الآن على ألاّ تتزوَّج أبداً، وهو الأمر الذي كان باعثاً لأسف البلاد، وكان ذلك، بوضوح ظاهر للعيان، لا لأنها كانت تنظر إلى نفسها على أنها مُدَنَّسة، وغير جديرة بزواج مسيحيّ فحسب، بل لأنها تحفظ للأخ المفقود وفاءً لا يستهان به، وحين يطلب يدها دوق شديد البأس من خارج البلاد ترفضه فيتولاّه السخط الشديد عليها، حتى إنه ليقتحم مملكتها، بالحرب ويغزوها إلى أن تبقى فيها مدينة حصينة وحيدة تنسحب إليها، وعندها يفكر الفتى جريجور، حين يدرك طريقة نشوئه، في الحج إلى الضريح المقدس، وتقذف به يد الأقدار، بدلاً من ذلك، إلى مدينة أمه، حيث يطَّلع على مأساة حاكمة المملكة، ويطلب أن يدخلوه

عليها، ويعرض خدماته عليها، وهي التي (تتأمَّله بدقة) كما تقول الرواية، غير أنها لا تعرفه، ثم تروي الحكاية كيف يقضي على الدوق الخانق، ويحرر البلاد، ويُقتَرَح على الأميرة التي يتم إنقاذها، من قبل محيطها، زوجاً لها، وكيف تتمنَّع في الحقيقة بعض التمنُّع، وتشترط يوماً واحداً فحسب، للنظر في أمرها -ولكنها توافق، على الرغم من قَسَمها- بحيث تتم إجراءات الزواج وسط استحسان كبير وتهليل في طول البلاد وعرضها، ويتراكم، من دون أن يدري أحد، شيء مَهول على شيء مَهول، حين يرتقي ابن الخطيئة مع أمه سرير الزوجية، -ولا أريد أن أفصِّل في هذا كله، بل أريد أن أذكِّر بمجرد نقاط الذروة المشحونة بالانفعال، التي تستوفي حقها في أوبرا العرائس بطريقة رائعة مدهشة، ومِنْ ذلك أن الأخ حين يسأل أخته في البداية تماماً لماذا تبدو شاحبة إلى هذا الحد، ولماذا «زاوَل عينيها سوادهما»، وتجيبه قائلة: «ليس في هذا من عجيب، لأنني حامل، وبالتالي كسيرة الفؤاد»، أو عندما تجْأر بالشكوى الغريبة عند سماع نبأ موت من تم الكشف عن إجرامه قائلة: «لقد تولَّى أملي، وأدبرت قوتي، أخي الوحيد، وأنايَ الثانية!»، ثم إنها تغطي الجثمان بالقبلات من أخمص قدميه إلى جمجمته، حتى إن فرسانها الذين تأثَّروا إلى حد الامتعاض من تلك اللوعة، رأوا في ذلك ما حملهم على أن يدفعوا بالحاكمة بعيداً عن الميت، أو عندما تتحدث إليه، حين تدرك مع مَنْ تعيش في زواج بالغ الرقة، قائلة: «أيْ ولدي الجميل، أنت طفلي الوحيد، أنت بَعْلي وسيدي، أنت ولدي وولد أخي، أيْ ولدي الجميل، وأنت ياإلهي، لماذا تركتني أولد! ذلك لأن المسألة على هذه الصورة، إذ تعرف، عن طريق لوحة الرسالة الصغيرة التي كتبتها

بنفسها في سالف الأيام، والتي تجدها في حجرة سرية من حجرات زوجها، من كانت تشاطر المخدع، والحمد لله أن ذلك كان من دون أن تكون وَلَدَت له أيضاً أخاً وحفيداً لأخيها، وبات على هذا الآن أن يفكر مراراً في رحلة التكفير التي يشرع فيها على الفور أيضاً، مشياً على الأقدام. وينتهي إلى صياد سمك يعرفه من دقة أطرافه، ويدرك أنه ليس في صدد مسافر عادي، ويتفاهم معه على أن العزلة القصوى هي الشيء الوحيد الذي يلائمه، ويُبْحِر به ستة عشر ميلاً في عرض البحر، إلى صخرة يجيش الموج حوالَيْها كالطوفان، وهناك، وبعد أن يطلب أن توضع الأغلال في قدميه، وأن يُلقى بمفتاح هذه الأغلال في البحر، يقضي جريجور سبعة عشر عاماً في التكفير تلوح له في نهايتها رحمة تتغمده غير أنه لا يبدو أنه فوجئ بها هو ذاته، وذلك أن البابا في روما يموت، ولا يكاد يموت حتى يُسْمع صوت يتنزَّل من السماء: «ابحثوا عن وليّ الله، جريجوريس، وعيِّنوه وكيلاً عني!» هنالك يسرع الرسل في كل اتجاهات الريح، ويُعَرِّجون على صياد سمك يتذكَّر. وإذا هو يصطاد سمكة يُعْثَر في بطنها على المفتاح الذي ألقي به في البحر في سالف الأيام، وعندها يُبْحر بالرسل إلى صخرة التكفير، ويرفعون عقيرتهم نحوه قائلين: «أيْ جريجوريوس، يا وليَّ الله، هلاً تنَزَّلْت إلينا من صخرتك، إذ شاءت إرادة الرب أن تكون وكيلاً لله على الأرض!». فكيف كان جوابه لهم؟ لقد قال في تسليم وإذعان: «إذا كان هذا يرضي الرب فليكن ما يشاء». ولكن حين يأتون روما، ويُفْتَرَض أن تُقْرَع الأجراس، لا تنتظر الأجراس ذلك، بل تطِنّ من تلقاء ذاتها، -كل الأجراس تَطِن بحرية كاملة، إيذاناً بأن بابا في مثل هذه التقوى والحكمة

والعلم لم يوجد بعدُ ولن يوجد، ويبلغ مجد الرجل صاحب الغبطة أمَّه، ولمّا كانت قد انتهت فيما بينها وبين نفسها، بحق، إلى أنها لا تجد مَنْ تفضي إليه بما في حياتها خيراً من هذا المختار، فهي تتوجّه إلى روما لتعترف للأب المقدس، الذي يعرفها، حين يسمع اعترافها، ويقول لها: «أيْ أمي الحلوة، وأختي، وزوجتي، أيْ صديقتي. لقد كان الشيطان يحسب أنه سينتهي بنا إلى الجحيم، ولكن قدرة الله العليا حالت دون ذلك». ويبني لها دَيْراً تديره على أنها رئيسة له، ولكن إلى أجل قريب، إذ سرعان ما يتاح لكليهما أن يُسْلِم الروح إلى بارئه.

وإذاً فعلى هذه الحكاية المغرقة في الإثم، والسذاجة، والحافلة بالرحمة، كان أدريان قد حشد كل النكتة، والفزع، وكل الإلحاح، والخيالية، والاحتفالية الطفولية في التصوير الموسيقي المسهب، ومن الممكن أن يلاحظ بلا ريب، ومن الممكن أن يُطَبَّق على هذه القطعة، أو على هذه بالذات النعت المستغرب الذي وضعه الأستاذ الشيخ من لوبيك، وهو «الفكريّ الرباني: Gottgeistig». على أن من المنطقي أن أذكر ذلك، لأن «بطولات الرومان» تمثل بالفعل شيئاً مماثلاً لارتداد عن الأسلوب الموسيقي في «خاب سعي العشاق»، مادامت اللغة الموسيقية في (المعجزة الكونية) تشير بدرجة أكبر إلى لغة «الرؤيا النبوئية»، وحتى إلى لغة «فاوستوس» وأمثال هذه الضروب من الإدراك المُسْبَق والتوافق تَرِد في الحياة الإبداعية في كثير من الأحيان، أما التشويق الفني الذي كان ينبعث من هذه المواد تجاه صديقي، فذلك ما أستطيع تفسيره بلا ريب: لقد كان تشويقاً فكرياً، لا يخلو من مسحة من الشر والتقليد الساخر التحليلي، إذ كان ينبثق عن الصدمة الارتدادية النقدية

الموجهة نحو المُشْجي المتورِّم في عصر من عصور الفن آذنت شمسه بالمغيب، وكان المسرح الموسيقي يأخذ موادّه من الأسطورة الرومانسية وعالم الأسطورة في العصر الوسيط، وكان يُفْهَم منه في أثناء ذلك أنّ أمثال هذه الموضوعات هي وحدها الجديرة بالموسيقا، والتي تتلاءم مع جوهرها. وكان يبدو أن هذا قد تمت تلبيته: ومع ذلك فقد كان هذا بطريقة مدمِّرة حقاً، إذ حلَّ الباعث للضحك، ولا سيما في المبنيّ على المقالب والشهوانيّ، محلَّ الكهنوتية الأخلاقية، بعد أن اطَّرح كل الأُبّهة المتورّمة، الماثلة في الوسائل، وتمّ نقل الفعل إلى مسرح العرائس الذي بات مضحكاً في حد ذاته. وكان ليڤركون شديد الاهتمام بدراسة إمكاناتها النوعية أثناء الاشتغال بمسرحيات «بطولات الرومان»، وكان الولع بالمسرح، على طريقة عصر الباروك الكاثوليكي، عند الشعب الذي كان يعيش بين ظهرانيه مستوطِناً يتيح له بعض الفرصة لذلك. وكان يوجد بالقرب من ڤالدسهوت صيدلاني يحفر على الخشب قطع العرائس ويكسوها بالثياب، وكان أدريان يختلف إلى هذا الرجل مراراً، كما كان يرتحل إلى ميتّنڤالد، قرية الكمنجة في وادي الإيزار الأعلى، حيث كان الصيدلاني تستحوذ عليه الهواية ذاتها، وكان يقيم، بمساعدة زوجته وأبنائه المَهَرة، مسرحيات عرائس بأسلوب بوكشي وكريستيا ڤِنْتَر، في المكان، اجتذبت جمهوراً عريضاً من أهل البلد والغرباء. وكان ليڤركون يشاهد هذه ويدرس أيضاً، كما لاحظت من الوجهة الأدبية. مسرحيات الأراجوز وخيال الظل الغنية جداً بجوانبها الفنية، عند أهل جاوة.

وكانت أمسيات حافلة بالاستثارة المرحة، عندما كان يعزف لنا، أيّ

لي، ولشيلدكناب، وكذلك لرودي شفيرتفيجر الذي كان يأبى إلاّ أن يكون حاضراً هذه المرة أو تلك، في قاعة إلهة النصر ذات النوافذ الخفيضة، على بيانو المائدة القديم، كتابات جديدة من نوطته الموسيقية العجائبية كانت تطبّق فيها أكثر الأشياء استحواذاً على النفس من الوجهة الهارمونية، وأكثرها اتساماً بسمة المتاهة من وجهة الإيقاع، على أكثر الأمور بساطة، ويعزف مرة أخرى، نوعاً من أسلوب البوق الخشبي الموسيقي عند الأطفال، على أكثر الأمور شذوذاً من حيث المادة. لقد استدرَّ الدموع من عيوننا لقاء الملكة مع الرجل الذي بات الآن مقدَّساً، والذي وَلَدَتْه لأخيها والذي تحتويه الآن بذراعيها زوجاً، كما لم يسبق لعيوننا أن بلَّلتها دموع، من جراء الضحك ومن جراء التأثر الخيالي، مختلطاً هذا بذاك على نحو فريد تماماً، وكان شفيرتفيجر، في ثقته المطلقة العنان، يحسّ برُخصة اللحظة وهو يعانق أدريان قائلاً له: «لقد أدَّيْت هذا أداءً رائعاً!»، وكان يضغط رأسه على رأسه، وكنت أرى فم روديجر الذي ارتسمت عليه المرارة على كل حال، وقد تقلّص مستهجناً، ولم يكن لي أنا بدٌّ أن أغمغم قائلاً: «كفى!» وأن أمدَّ يدي كأنما أريد أن أردّ هذا الذي لا يعوقه عائق، والذي نسي المسافات وتجاوز الحدود.

وربما كان هذا يجد بعض المشقة والجهد في متابعة الحديث الذي انعقد في حجرة رئيس الدير على أثر العرض الذي تمّ في مجلس أنس حميم. وتحدثنا عن الجمع بين المتقدِّم والشعبيّ، وعن ردم الهوة بين الفن والانفتاح وسهولة المنال، وبين الرفيع والوضيع، كما تمّ إنجاز ذلك ذات مرة من قبل الرومانسية، في الأدب، وفي الموسيقا، بمعنىً ما، -وعلى أثر ذلك بات مصيرالفن فصلٌ وغربة أعمق مما كان في أي يوم من الأيام

بين الجيِّد والسهل، وبين النبيل الجليل والمسلّي، وبين التقدُّمي وما يمكن الاستمتاع به على وجه العموم. فهل كان من قبيل النزعة العاطفية أنَّ الموسيقا -وكانت تمثل كل شيء- كانت تقتضي، بوعي مطَّرد الزيادة، الخروج من عزلتها المقترنة بالتقدير والاحترام، وأن تظفر بالمجتمع من دون أن تغدو مبتذلة، وأن تتحدث بلغة يفهمها حتى من لم تتوفَّرْ لديه الثقافة الموسيقية، مثلما كان هو يفهم هُوَّة الذئاب، وإكليل العذارى، وڤاجنر؟ وعلى كل حال فإن النزعة العاطفية، لم تكن الوسيلة إلى هذا الهدف، بل كانت أحرى -إلى حد بعيد- أن تكون هي السخرية، والتهكُّم، وما أكثر ما كانت قريبة من البداية الزائفة، أي من الرومانسيّ، مرة أخرى. بقاء المرء مُتَسَنِّماً ذروة الفكر، وحل أكثر نتائج التطور الموسيقيّ الأوروبي تعرُّضاً للتصفية والانتقاء بتحويلها إلى البَدَهِيّ، وأن يحيط كل امرئ بالجديد منها، ويغدو سيدها، بأن يستعملها، من دون ارتباك، مادّة بناء حرة، وأن يُمَكّن من الشعور بالتقليد، بعد تحويله إلى نقيض الخَلَف المُقَلِّد، وإزالة ما في الصنعة التي كان يُدْفَع بها إلى الأعالي، من لفت للنظر، والعمل على أن تتوارى فنون العمل الموسيقي المتعدد الأصوات، والتوزيع الموسيقي، وأن تنصهر متحوِّلة إلى أثر قائم على البساطة، بعيد جداً عن السذاجة، على بساطة مرنة من الناحية الذهنية -كان هذا هو ما يبدو أنه مهمة الفن ومطمحه.

وكان الذي يمسك بناصية الحديث على الأغلب الراجح هو أدريان، على حين كنا، نحن الآخرين، نساعده مجرد مساعدة يسيرة، وكان يتحدث وقد استثاره العرض المتقدِّم، وقد احمرَّت وجنتاه وسرت الحرارة في عينيه، وألمّ به شيء من الحُمّى، على أن حديثه لم يكن، بالمناسبة،

متدفقاً كالسيل، بل كان أقرب إلى أن يقذف بالكلمات قذفاً، ولكن مع حركة بلغ من كثرتها أنني خُيِّل إليّ أنني لم أره يساق إلى الإفضاء بمكنون نفسه، لاتلقائي، ولا في حضور روديجر، بهذه الفصاحة، وكان شيلدكناب قد عبَّر عن عدم إيمانه بمسألة تجريد الموسيقا من الرومانسية، وقال إن الموسيقا ترتبط بالرومانسية ارتباطاً يبلغ من عمقه وجوهريته أن المرء لا يستطيع أن ينكر ذلك في يوم من الأيام من دون التعرُّض لخسائر طبيعية وفادحة. وعلى أثر ذلك قال أدريان:

«وَدِدْت لو استصويت قولكم إذا كنتم تقصدون بالرومانسي حرارة الشعور الَتي تنكرها الموسيقا اليوم في خدمة الروحانية التقنية، وما من شك في أن هذا نكران للذات، ولكن ما سميناه تصفية المعقَّد بتحويله إلى بسيط هو في الأساس مماثل لاستعادة الحيوي واستعادة طاقة الشعور. ولو كان هذا ممكناً -لكائن مَنْ كان- فما أنت قائلٌ؟ واتجه نحوي، وأجاب عن سؤاله بنفسه: «سوف تقول إنه الاختراق. وعلى هذا فمن أتيح له الاختراق ليخرج من برودة الروح إلى عالم جرأة الشعور الجديد، كان من الواجب على المرء أن يسميه مخلِّص الفن. ومضى قائلاً وهو يهز كتفيه بعصبيّة: «الخلاص، كلمة يقولها الهارمونيُّ، إنها الكلمة المعبِّرة عن عملٍ من أجل السعادة المرتبطة بقفْلة في الموسيقا الهارمونية. أو ليس من المضحك أن الموسيقا لبثت حيناً من الدهر تحس أنها وسيلة خلاص، على حين تحتاج هي ذاتها، شأن كل فن من الفنون، إلى الخلاص، أي الخلاص من عزلة احتفالية كانت ثمرة تحرر حضاريّ، وإعلاء من شأن الحضارة، وصل بها إلى درجةٍ جعلتها بديلاً عن الدين وتعويضاً عنه، انطلاقاً من تفرُّدها بنخبة متعلِّمة، يطلق عليها اسم

«الجمهور»، سرعان ما باتت ليس لها وجود، بحيث يغدو الفن وحده بصورة كاملة، خلال أجل قريب، وحده إلى درجة الانقراض، إلاّ أن يجد الطريق إلى (الشعب)، وهذا يعني الناس، إذا لم نشأ التعبير عن ذلك باللغة الرومانسية؟».

وكان يقول هذا ويسأل عنه بنَفَس واحد، بنصف طاقة صوته، وبأسلوب المحادثة، ولكن مع ارتعاد خفيّ في صوته فهمه القوم من باب أولى حين أكمل كلامه قائلاً:

«صدقوني، سوف يتغيَّر جو الحياة الفنية بأكملها، وذلك في الحقيقة بتحوُّله إلى المَرِح الأكثر تواضعاً، وذلك أمر لا مندوحة عنه، وإنه لسعادة، ولسوف تجرد هذا الجو من الكثير من المقاصد السوداوية، وتُقْسَم له براءة جديدة، بل سلامة طَوِيّة. وسيكون المستقبل فيه، وسوف يجد، هو ذاته، في نفسه خادماً لمجتمع يحيط بما هو أوسع نطاقاً بكثير، ولن تكون له حضارة، ولكن ربما كان هو ذاته حضارة، ونحن لا نتصوَّر ذلك إلا بشق النفس، ومع ذلك فسوف يوجد، وسيكون هو الطبيعيّ: فنٌّ من دون معاناة، يتمتع بالصحة النفسية، وهو غير احتفاليّ، خالٍ من الحزن، أليف موثوق، يتحدث البشر فيه بعضهم إلى بعض بأسلوب رفع الكلفة...»

وأمسك عن الحديث، وأخلدنا، نحن جميعاً، إلى الصمت وقد عَرَتْنا هِزَّة. إنه لمن المؤلم، ومما يرتقي بالعاطفة في الوقت ذاته، أن تسمع من يتحدث عن العزلة عن المجتمع، والترفُّع عن الألفة، وعلى الرغم من كل هذا التأثُّر كنت غير راض في أعمق أعماق نفسي، عن تصريحه، على أنني كنت غير راض، على وجه الخصوص، عنه. وكان ما قاله لا يتلاءم

معه، ومع كبريائه، إذا شئنا، وذلك ما كنت أحبه، وللفن حق فيه. فالفن روح، ولا ينبغي للروح أن يشعر، على الإطلاق، بأنه ملتزم كل الالتزام بالمجتمع، أو بالطائفة، -لا يجوز له ذلك، فيما أرى، من أجل حريته ونُبْله، وأن الفن الذي (يذوب في الشعب) ويجعل من حاجات الجمهور، والإنسان البسيط، وحاجات من لا يتذوقون الفن، حاجاته، سينتهي إلى البؤس، وإن تحويل هذه الحالات إلى واجب يلتزم به، بسبب الدولة مثلاً، وعدم السماح إلاّ بفن يفهمه الإنسان البسيط، لهو من أسوأ أشكال عدم تذوق الفن، وهو قتل للروح. وهذا يستطيع -وهذه قناعتي- أن يكون على يقين، في حالة أكثر حملاته، وأبحاثه، ومحاولاته، جرأة، وانطلاقاً، وقلة تلاؤم مع الجمهور، أن يخدم حتى البشر على المدى البعيد. وما من شك في أن هذه كانت العقلية الطبيعية عند أدريان أيضاً، ولكن كان يحلو له أن ينكرها، وكنت أخطئ كثيراً عندما كنت أحس بهذا على أنه إنكار لكبريائه. وأظن أنه كان أقرب إلى أن يكون محاولة في اللطف والإيناس بسبب أقصى درجات الكبرياء. ألا ليت الرعدة لم تخالط صوته حين كان يتحدث عن حاجة الفن إلى الخلاص وعن الحديث إلى البشر بلهجة رفع الكلفة، -هذا الانفعال الذي أغراني على الرغم من كل شيء، بالضغط خلسة على يده، غير أني أحجمت عن ذلك، بل كنت أكثر ميلاً إلى إلقاء نظرة مشوبة بالقلق على رودي شفيرتفيجر، مخافة أن يكون أوشك أن يعانقه في النهاية.



(٣٢)

وكان زواج إنيس روده من الأستاذ الدكتور هلموت إنستيتوريس في فترة بداية الحرب، حين كانت البلاد مازالت في حالة حسنة يحدوها الأمل القوي، وأنا نفسي مازلت في الميدان، في ربيع عام ١٩١٥، مع مراعاة كافة المراسيم المدنيّة، إذ عُقِد القران مدنياً وكنسيّاً، وأقيمت وليمة عرس في فندق الفصول الأربعة، وتبعتها رحلة الزوجين الشابين إلى درسدن وسويسرا السكسونية -خاتمة لاختبار طويل متبادل كان يبدو أنه أدى إلى نتيجة مفادها أن كلاً من الزوجين كان يلائم صاحبه. على أن القارئ يحس بالسخرية التي أضعها في كلمة «على ما يبدو» ودلك، بالمناسبة، من دون قصد سيئ، ذلك لأن مثل هذه النتيجة لم تكن واردة بالفعل، أو أنها كانت واردة منذ البداية الأولى، ولم يُقَدَّر للعلاقة بين الاثنين شيءٌ من التطور منذ أخذ في التقرُّب من ابنة السناتور أول مرة، على أنَّ ما كان يؤيّد الارتباط من كلا الجانبين في لحظة الخطبة لم يزدَدْ مفعوله ولم ينقص عمّا كان في تلك الأيام، ولم يُضَفْ إليه شيء جديد، غير أن التحذير الكلاسيكي القائل: «من أجل ذلك فلنختبر من يزمع الارتباط الأبدي» كان قد حدث من جرّائه ما فيه الكفاية من الوجهة الشكلية، وكان طول الاختبار نفسه يبدو أنه يقتضي حلاً إيجابياً، وهو الأمر الذي أضيفت إليه بعدُ حاجة أكيدة إلى الاقتران أسفرت عنها

الحرب، وكم من علاقة عائمة أنضجتها الحرب منذ بدايتها نضجاً مستعجلاً. أمّا ما يتّصِل بموافقة إنيس التي كانت مستعدّة لها لأسباب نفسية -أم هل يجب أن أقول: لأسباب ماديّة، أي لأسباب عقلانية، كما يمكن أن يقال -منذ البداية الأولى، بدرجة تقل أو تكثر، فقد كان يدخل في الحساب، بدرجة بالغة القوة، الظَّرْف المتمثل في أن كلاريسا كانت قد غادرت مونيخ حوالي نهاية العام السابق، ودخلت في التزامها الأول في تْسيلّه على نهر الألّير، حتى لقد كانت أختها خليقة أن تظل وحدها مع أمها التي كانت تستنكر سلوكها على ما كان فيها هي من الميول البوهيمية المروَّضة المدجَّنة.

وكانت زوجة السناتور، بالمناسبة، تجد سرورها في الترتيب المدني الذي كانت تُعِدُّه ابنتها، والذي كانت هي تعمل بأسلوب الأم، من أجله أيضاً عن طريق التسلية التي تؤمِّنها بصالونها، والنشاط الاجتماعي في منزلها، على أنها كانت هي ذاتها راضية بذلك، وكانت تستجيب بذلك لولعها بالحياة، ذلك الولع المطبوع بطابع التحلُّل الخاص «بالجنوب الألماني» والذي يرغب في استدراك بعض ما فات، وتدع جمالها الآخذ بالأفول يراوده عن نفسه رجال كانت تدعوهم، مثل كنوتيريش، وكرانِش، وتْسِنك وشبنجلر، وتلاميذ المسرح الصغار. بل إنني لا أذهب بعيداً، بل ربما ذَهبت إلى البعد الكافي على وجه الخصوص في النهاية، إذا ما قلت إنها وقفت أيضاً مع رودي شفيرتفجير موقفاً بالغ الميوعة والمجانة يتندَّر على علاقة الأم بابنتها، في محاكاة ساخرة للشعر الجدّي، وأن الضحكة الصاخبة الرقيقة الرشيقة، كان يتعالى صداها على وجه الخصوص أثناء احتكاكها معه، وهي الضحكة التي كانت تُعْرف بها، ولكن بعد كل ما

أسلفت من التلميح أو التعبير عن الحركات الواردة في حياة إنيس الداخلية، أستطيع أن أدع للقارئ أن يتصوَّر الاستياء المعقّد، والخجل، والعار، الذي كانت تحسّ به إزاء هذه الألوان من المغازلة والمعابثة. وقد حدث بحضوري أنها غادرت صالون أمها أثناء حدث من أمثال هذه الأحداث محمرَّة الوجه، وانسحبت إلى حجرتها التي كان رودلف يقرع بابها، كما كان من الجائز أن تكون أمَّلت ذلك أو انتظرته بعد ربع ساعة، ليسأل عن سبب تواريها الذي كان يعلمه علم اليقين، غير أنه سبب لا يمكن التصريح به، بالطبع، وليعبِّر لها عن مقدار افتقادهم إياها هناك، ولينتزع منها، بالحديث الكثير، وبكل اللهجات، وحتى بتلك الرقة الأخوية، الوعد بالعودة، ولم يهدأ له بال إلا بعد أن وعدت بالعودة إلى الاحتكاك بأهل المجلس، لامعه في الحقيقة، إذ لا سبيل إلى هذا البتَّة، ولكن بعد بعض الوقت.

وأستميح العفو لإدخالي اللاحق لهذا الحدث الذي انطبع في ذاكرتي غير أنه كان مَنْفيّاً عن ذاكرة زوجة السناتور روده بطريقة عاطفية، الآن، بعد أن باتت خطبة إنيس وزواجها حقيقة واقعة، ولم تكن المسألة أنها أعدت للعرس عدته بكل الفخامة الممكنة فحسب، وأنها، بالنظر إلى الافتقار إلى دوطة نقدية تستحق الذكر، لم تقصِّر في تقديم جهاز للعروس فخم من الملابس الداخلية والفضة، كما تنازلت عن بعض قطع الأثاث العائدة إلى عصر قديم، وعن بعض الصناديق الخشبية المنقوشة، وعن هذا الكرسيّ أو ذاك من الكراسي الصغيرة المُؤَطَّرة المُذَهَّبة، لكي تسهم في تجهيز المسكن الفخم الذي كان الزوجان الشابان قد استأجراه في شارع برنتس ريجنت، بارتفاع طابقين، وكانت الغرف الأمامية فيه

تفضي إلى الحديقة الانكليزية، بل إنها، لكي تبرهن لنفسها وللآخرين، أن سرورها بالمجتمع والسهرات والأمسيات البهيجة في صالونها إنما كان بالفعل مسخَّراً لخدمة ابنتيها، أظهرت الآن رغبات اعتزال حاسمة، وكشفت عن ميلها إلى اعتزال الدنيا، فما عادت تستقبل، وانتقلت، بعد نحو عام من زواج إنيس، من بيت الزوجية في شارع رامبرز، لتضع حياة الترمُّل على أساس جديد كل الجدة، على أساس ريفيّ: إذ انتقلت إلى بفايفرنِج، حيث اتخذت مسكنها، من دون أن يلاحظ ذلك أدريان تقريباً، في ذلك المبنى المنخفض، الواقع في الساحة الخالية قبالة مزرعة آل شفايجشتل، وأمامه أشجار الكستناء، حيث كان يسكن فيما سلف، المصور الرسام صاحب المناظر الطبيعية الكئيبة، من مستنقع فالدسهوت.

وكانت جاذبية هذا الركن الذي تتوافر فيه عناصر الذوق، مع تواضعه، تجاه كل يأس مريح، أو إنسانية جريحة، جاذبية تلفت النظر: إذ لم يكن للمرء بدٌّ أن يفسِّرها بالاستناد إلى شخصية مالك المزرعة، ولا سيما المضيفة ذات النشاط الدؤوب، إلزاشفايْجشْتِل، وموهبتها في «الفهم»، التي كانت تثبتها أيضاً، بوضوح رؤية عجيب، في حديثها في بعض المناسبات مع أدريان، حين كانت تحدثه بأن زوجه الشيخ هناك تفكر في الانتقال، إذ قالت: «هذا بسيط كل البساطة (وكانت تلفظ كلمة بسيط: einfach بإدغام النون بالفاء بحيث تغدو ميماً، على طريقة أهل باڤاريا العليا)، يا سيد ليڤركون، إذ رأيتها لتوّي، فقد شبعت من المدينة، والناس، والمجتمع، ومن السادة والسيدات، لأن السن تُكْسِبها الحياء والوَجَل. وهذا أمر مختلف بالطبع، فهناك من لا يضيرهن ذلك، ويرتِّبن أمورهن بناءً على ذلك، وذلك ما يلائمهن أيضاً، وهؤلاء

النسوة لا يغدون، على المدى الطويل، إلاّ ذوات أُبَّهة وبريق، ويكتسبن الدهاء والخبث، حين تشيب سوالفهن، أليس كذلك، وهكذا دواليك. أما ما صَنَعْنَه فيما مضى فيدعنه يَشفُّ صارخاً حقاً يمكن تخمينه تماماً، من خلال مكانتهن في سالف الزمن، أما الرجال فيفتنهم ذلك في كثير من الأحيان أكثر مما يتصور المرء. ولكن منهن من لا يصلح لهن ذلك ولا يستقيم به أمرهن، وعندما تضمر الوجنتان، ويغدو الجيد معروقاً، ولا تظهر أسنان حين يضحكن، هنالك يتولاّهن الخجل والكرب حين يقفن أمام المرآة، ولا يعدن أبداً إلى البروز للناس، وتظهر عندهن غريزة تدفعهن إلى الاختفاء شأن المخلوقات المعذَّبة، وحين لا يعود وجود للأسنان، ولا للعنق يكون الشعر هو الذي يبعث على الألم والشعور بالعار، وعند السيدة زوجة السناتور تكمن المشكلة في الشعر، فقد لاحظت ذلك على الفور، ولولاه لكان كل شيء على ما يرام، بعضه مع بعض، ولكن الشعر، كما تعلم يسقط فوق الجبين بحيث يبدو الشعر المضاف فاسداً ولا يعود في مقدورها أن تصل به إلى هناك على الوجه السليم مهما بذلت من جهد بمكواة الشعر، وهنالك يتولاّها اليأس، وتحلّ المعاناة الكبرى، صدِّقْني! وإذا هي تتخلى عن الدنيا، وتنسحب معتزلة، إلى آل شفايجشْتِل، هذا أمر بسيط كل البساطة».

هكذا كان شأن المرأة، بجمجمتها المشدودة بإحكام، والتي ابيض شعرها قليلاً، بحيث يكشف في الوسط عن شريط من بشرة الرأس البيضاء. وكان أدريان كما قلنا، قليل التأثر بانتقال المستأجرة الجديدة التي طلبت من المضيفة، بعد أن زارت المزرعة أولاً، أن تذهب بها إليه من أجل حديث قصير، ولكنها لم تره عندها إلاّ مرة واحدة على الشاي،

في البداية الأولى في مراعاة لجو العمل الهادئ عنده، إذ بادلته تحفُّظاً بتحفُّظ، -في هذه الحجرات المنخفضة ذات الكساء البسيط، وراء أشجار الكستناء، على الأرض المستوية، التي كانت مملوءة بما يكفي من الروعة، بالبقايا ذات الأناقة البورجوازية، من أثاث منزلها، من شمعدانات، وأرائك مكسوَّة بالسجاد، و(البوق الذهبي) في إطار ثقيل، والبيانو الكبير بغطائه المتَّخذ من الديباج. ومنذ الآن، كان القوم إذا لقي بعضهم بعضاً في القرية أو على طرقات الحقول، اقتصر الأمر على تبادل تحية ودية، أو وقفوا أيضاً بضع دقائق يتحادثون حول الوضع المتردّي للبلاد ومحنة التغذية المتفاقمة في المدن، وهي المحنة التي كانت المعاناة منها هنا أقل كثيراً، حتى لقد وجدت عزلة زوجة السناتور تبريراً عملياً، واكتسبت، فيما يبدو، شيئاً من قبيل المبدئية المتسمة بالقلق، إذا أتاحت لها أن تزوِّد ابنتيها، بل أصدقاء منزلها السابقين، مثل آل كنوتريش، بمواد غذائية من بفايفرنج، كالبيض، والزبدة، والقديد، والدقيق، واتخذت من هذه العبوات والإرساليات مهنة على وجه الخصوص خلال سنوات الجدب الأكثر قسوة.

وكانت إنيس روده التي باتت الأن غنية، وذات مكانة، مجهزة من أجل الحياة قد أخذت أناساً من الزمرة الصغيرة من ضيوف صالون أمها من أجل المؤانسة الخاصة بها وبزوجها، مثل عالم النُميّات الدكتور كرانيش، وشيلدكناب، ورودي شفيرتفيجر، وأنا نفسي -ولكنها لم تأخذ تْسِنْك وشبنجلر، ولم تأخذ طائفة فناني المسرح الصغيرة، وزملاء دراسة كلاريسا- من أجل مؤانستها هي وزوجها، واستُكملت هذه المجموعة بعناصر من الجامعة، من المدرسين المسنين وحديثي السن، من كلا

الجامعتين وسيداتهما، وكانت لها بالسيدة كنوتيريش، ناتاليا، ذات المظهر الإسباني الغريب، علاقة صداقة، بل علاقة حميمة. وكان هذا، على الرغم من أن السيدة الظريفة حقاً كانت لها سمعة لا شك فيها أبداً، تفيد أنها مدمنة على المورفين -وهو تشنيع تأكّدت صحته تبعاً لملاحظتي، عن طريق بريق عينيها الجذاب خلال الحديث في بداية المجلس، وبسبب تواريها من حين إلى آخر، لكي تنعش هذا المرح الآخذ في التدهور شيئاً فشيئاً من جديد. أمّا أن إنيس، المجبولة بصورة كاملة إلى هذا المدى على الكرامة المتحفِّظة، والاحترام المبنيّ على علاقة الرعاية والأبوّة، والتي لم تُقْدِم على زواجها إلاّ لكي تتمكن من إشباع هذه الأشواق، فكانت تفضل معاشرة ناتاليا على معاشرة ذوات الرزانة والاعتدال من زوجات زملاء زوجها، أي من أنموذج زوجة الأستاذ الجامعي الألماني، وكانت تزورها زيارة خاصة، وتراها وحدها في بيتها، فذلك ما كان يكشف لي حق الكشف عن الصراع القائم في طبيعتها، وعن مدى الشك القائم في الأساس بصدد مشروعيتها الشخصية، وملاءمتها لحنينها المدني إلى موطنها.

وأمّا أنها لم تكن تحب أبداً زوجها الذي كان مجال اهتمامه مقصوراً على الصغائر، وهو علم الجماليات الذي ارتضاه لنفسه، أي مطامح القوة الجمالية، فذلك ما لم يكن عندي موضع الشك أبداً، بل كان ما تزجيه إليه حباً مفتعلاً مبنياً على اللياقة وحسن السلوك، وكان في هذا من الصدق ما يبلغ منه أنه تمثل مركزه في تميز كامل كان يزيد من إرهافه بعدُ، ذلك الدهاء في التعبير، وهو دهاء معيَّن، لطيف وعسير، وكانت العناية والدقة اللتان كانت تشرف بهما على تدبير

منزلها، وتمهد بهما لاستقبالاتها، مما يمكن أن يعد أكثر من مجرد حذلقة تنطوي على المعاناة -وكان هذا يحدث في ظروف اقتصادية كانت تجعل المحافظة على صحة الأصول البورجوازية أشد صعوبة من عام إلى عام، وكانت تستعين على العناية بمسكنها الغالي والجميل، بما فيه من السجاد الفارسي المبسوط على أرضية متألِّقة، بخادمتين قد أُحْسِن تهذيبهما، في ثياب كما ينبغي لمثلهما، ذواتَيْ قلنسوتين صغيرتين، وشرائط مقوَّاة تشد صُدَيْريِّيْهما، وكانت أولاهما، وهي خادمة الغرفة تقوم بخدمات الوصيفة لديها، وكانت تهوى أن تقرع الجرس لهذه المدعوَّة صوفي، وكانت تفعل ذلك دائماً، من أجل متعة الاستخدام عند السادة، وبغية التأكُّد من الحماية والرعاية اللتين اشترتهما بزواجها. وكانت صوفي هي أيضاً تلك التي كانت تحزم لها العدد الجمَّ من الحقائب والسلال الصغيرة التي كانت تأخذها معها عندما كانت ترتحل مع إنستيتوريس إلى الريف، إلى تيجرن زيه أوبريشتسجادن، وإن كان ذلك يحدث على مدى بضعة أيام فحسب. وكانت هذه التلال من الأمتعة التي كانت تثقل على نفسها بها عند أقصر نزهة تخرج بها من عش رعايتها تمثل عندي، أيضاً، رمزاً لحاجتها إلى الحماية، ولخوفها من الحياة.

ومازال من الواجب عليَّ أن أقول المزيد عن مسكنها المؤلف من ثماني حجرات، والمحفوظ من كل هباءةٍ من غبار، في شارع برنتس ريجنت، إذ كان، بصالونيه اللذين كان أحدهما مؤثَّثاً تأثيثاً حميمياً بدرجة أكبر، ليكون حجرة معيشة يومية، وبحجرة طعامه الفسيحة المكسوَّة بخشب البلوط المحفور، وبحجرة الرجال والتدخين، بما فيها من

وسائل الراحة المصنوعة من الجلد، وبحجرة نوم الزوجين التي كانت تسبح في الهواء فوق مخدعيها المصنوعين من خشب شجر الكمثرى المصقول على صُفْرته، إيماءات سماوات أُسرَّة، وكانت تنتظم على منضدة التزويق النسائية القوارير والأواني الفضية تبعاً للحجم على نحو دقيق، -كان هذا المسكن، فيما أرى، الصورة الأنموذجية التي امتدت حتى إلى ذلك العصر الذي آذنت شمسه بالمغيب، لبورجوازية ثقافية ألمانية، -ولم يكن آخر ذلك أنه كان بفضل (الكتب الجيدة) التي كان المرء يجدها مصفوفةً في كل مكان، في حجرة المعيشة، وفي حجرة الاستقبال، وفي حجرة الرجال، وكان ذلك، في شطر منه، لأسباب تتعلق باستعراض الفخامة والوجاهة، ولأسباب تتعلق بمراعاة الجانب النفسي في الشطر الآخر، إذ كان يُجْتَنَب عنصر الإثارة والانحلال: كانت كتباً ثقافية خالصة، فمنها تاريخ ليوبولد رانكة، ورسائل جريجوروڤيوس، ومؤلفات في تاريخ الفن، وكلاسيكيون ألمان وفرنسيّون، وجملة القول إن الثابت والمحافظ كان هو الأساس. ومع مرور السنين بات المسكن أكثر جمالاً بعد، أو أكثر امتلاءً وأكثر ألواناً، وذلك أن الدكتور إنستيتوريس كان يصادق هذا الفنان أو ذاك من أهل مونيخ، من ذوي أسلوب قصر الزجاج الأكثر رصانة (وكان ذوقه الفني سَلِس القياد مطلقاً على الرغم من كل تأييده النظريّ لنزعة العنف التشنيعية)، وكانت صداقته على وجه الخصوص مع رجل يدعى نوتّيبوم، من مواليد هامبورج، وكان هذا متزوجاً، غائر الوجنتين، مدبَّب اللحية، مضحكاً يتمتع بموهبة التقليد المضحك للممثلين والحيوانات، والآلات الموسيقية، وأساتذة الجامعة، وكان ركناً من أركان أعياد الكرنفال الآخذة في الانقراض، بارعاً في تقنيات الاقتناص الاجتماعي

الذي يتميّز به مصور لوحات الأشخاص، وكان في فنه، وهو ما يحق لي أن أقوله، رجل التصوير السهل اليسير، ذي المستوى المتدنّي. وكان إنستيتوريس، الذي اعتاد التعامل العلمي مع الممتاز والعظيم إمّا أنه لا يميّز بين هذا وبين المتوسِّط المتميِّز بالمقدرة والبراعة، وإمّا أن يعتقد أنه مدين بتكليفاته لصداقته الطيبة، ولا يطلب من أجل جدرانه شيئاً آخر سوى مالا ينطوي على الباعث للشعور بالصدمة، مع حسنه وظُرْفه، والباعث لراحة النفس مع نبله، الأمر الذي كان يجد فيه مساندة حاسمة له من قِبَل زوجِه، ولئن لم يكن ذلك من جراء الذوق فما من شك في أنه كان من قبيل طبيعة الروح والتفكير. ومن أجل ذلك طلب كلاهما إلى نوتْبوم أن يصورهما مقابل مال جزيل، تصويراً شديد المماثلة، ومن دون أن يقولا شيئاً: سواءً كلٌّ لوحده، أم كلاهما معاً، وفيما بعد، حين جاء الأطفال، أتيح لصاحب النكات أن ينجز صورة العائلة إنستيتوريس بالحجم الطبيعي، وكان تصويراً بأسلوب الدمى -أهْدرت على مساحته الفسيحة كمية من الألوان الزيتية التي تعطي مظهراً براقاً، وكان يزيِّن حجرة الاستقبال في إطار واسع نفيس، مزوَّد بإضاءة كهربائية خاصة من أعلاه ومن أسفله.

لقد قلت: وحين جاء الأطفال، إذ جاء أطفال، ويا لتلك الأناقة التي نُشِّئوا عليها، ويالذلك الإنكار المتسم بالصمود والجلد، وأكاد أقول: البطولي، للظروف التي كان يقلّ فيها على نحو مطرد، ما تتيحه للمواطن النبيل من الحظوة، فكأنما كانوا يُرَبَّوْن للعالم الذي كان، لا للعالم الذي سيكون. فمنذ نهاية عام ١٩١٥ أنجبت إنيس لزوجها بنيَّة أسْمَوْها لوكريتسْيا، التي وضعت في سرير مُلَمَّع على صُفْرَته تحت مظلة

مزوّقة، بالقرب من الفضيات المصفوفة في صفوف متناظرة على اللوح الزجاجي المبسوط على منضدة التزويق، وأعلنت إنيس على الفور أنها تفكر في أن تجعل منها فتاة كاملة التربية والتهذيب (une jeune Fille accomplie) كما عبَّرت عن ذلك بفرنسيَّتها على طريقة أهل كارلسروهه، وبعد عامين تبعها توأمان صغيران، كانا بنتين، مرة أخرى، عُمِّدتا، على النحو ذاته، بطقوس منزلية صحيحة، مع الشوكولا، والخمر الحلو، والفطائر يُقَدَّمْن من إناء من الفضة، مكلَّل بالأزهار، باسم إينشِن وريكْشِن، وكانت البُنيّات الثلاث جميعاً بيضاً، يلثغن بالسين في دلال مستعذَب، ويحرصن على أثوابهن الصغيرة ذوات ربطات العنق، وكان يبدو أنهن يتعرَّضن للضغط الناجم عن هوس أمهن وحرصها على خلوٍّ مظهرهن من أية شائبة، ويتَّسمن، بطريقة تدعو إلى الأسى، بسمة المخلوقات الصغيرة المُتْرَفَة التي تُرَبى، كما تربَّى الغراس الصغيرة، في الظل، ويعتريهن الاغترار بأنفسهن، إذ كن يقضين أيامهن الأولى في سلال صغيرة مُزَوَّقة عليها ستائرُ من الحرير، وكانت تسير بهن مرضعة (إذ كانت إنيس لا تقربهن بنفسها، لأن الطبيب كان قد نهاها عن ذلك) وهي سيدة من الشعب مازالت تبالغ في زينتها بأسلوب موافق تماماً للأسلوب البورجوازي، في عربة صغيرة ذات تركيب بالغ الأناقة، على عجلات من المطاط، تحت أشجار الزيزفون، في شارع برنتس ريجنت. ثم حل محلَّ هذه آنسة، هي مربية مثقفة في روضة أطفال كانت ترعاهن. وكانت الحجرة المشرقة بالنور، التي تَرَعْرَعن فيها، حيث كانت تقوم أسرّتهن الصغيرة، وحيث كانت إنيس تزورهن بمجرد أن يتيح لها ذلك فراغها من مقتضيات تدبير المنزل، وحرصها على أناقتها وحسن

هندامها ، تمثل الصورة الأنموذجية لفردوس منزلي للأطفال بمعنى الكلمة، بما فيها من نقش تصويري يلف جدرانها ، ومن أثاث كأثاث الأقزام الأسطوري، أيضاً، ومن أرضية اللينو لويم، ومن عالم الألعاب ذي التنسيق الحسن، فمنها الدب المصنوع من القماش، والحِملان التي تدرج على عجلات، ودُمى العرائس، وعرائس كيتهً كروزهٍ، والخطوط الحديدية فوق أشرطة زينة الجدران.

وهل يجب عليَّ الآن أن أقول، أو أكرِّر، إن كل هذه الصحة، واستقامة الأمور لم تكن تعني صحة ولا استقامة، وأنها كانت تقوم على العَسَف، إذا لم نشأ أن نقول إنها تقوم على الكذب، وأنها لم تكن موضع شك على نحو مطرد الزيادة من الخارج فحسب، بل كانت هشّة سريعة العطب بالقياس إلى العين الأكثر حِدّة، والتي أكسبتها المشاركة حدة، من الداخل أيضاً، ولم تكن موفّقة سعيدة، ولا كانت تجد في النفس صدى من إيمان، كما أنها لم تكن إلاّ مفتعلة حقَّ الافتعال؟ لقد كانت هذه الصحة والاستقامة الموفَّقة السعيدة، تبدو لي بأكملها، على الدوام، إنكاراً متعمَّداً، وتمويهاً للإشكاليّ، وكان هذا يتناقض تناقضاً عجيباً مع عبادة الألم والمعاناة عند إنيس، وكانت هذه المرأة، فيما أرى، أذكى من أن تُغَرَّ عن نفسها بأن ذلك السور المدني المثالي الذي كانت ترفع إليه حياة أطفالها على نحو مؤلم إنما كان التعبير عن حقيقة، والمبالغة في إصلاحها ، وهي أنها لم تكن تحبهم، بل كانت تجد فيهم ثمرات ارتباط دخلت فيه بضمير أنثوي غير نقيّ، وكانت تعيش فيه وهي تتعرّض لألوان من المقاومة الجسدية.

يا إلهي العظيم، إنه لمن البدهيّ أن النوم مع هلموت إنستيتوريس

لم يكن سعادة مسكرة بالقياس إلى امرأة! وهذا ما يصل إليه أيضاً فهمي للأحلام الأنثوية والمطاليب الأنثوية، وقد كنت على الدوام مضطراً إلى أن أتصوَّر أن إنيس حملت بأولادها بدافع محض الواجب، صابرة، معرضة بوجهها عنه، إن صح التعبير، ذلك لأنهن كنَّ بناته، وذلك ما لم يكن شبه الثلاث به يدع مجالاً للشك فيه، وكانت كفته ترجح كثيراً على الشبه بالأم، وربما كان ذلك لأن إسهامها النفسي في إنجابهن كان بالغ الضآلة. على أنني لا أود على الإطلاق أن أسيء، من قريب أو بعيد، إلى الزواج الطبيعي للسيد الضئيل، إذ ما من شك في أنه كان رجلاً كامل الرجولة، وإن كان في صورة قزم، وقد عرفت إنيس عن طريقه المتعة، وكانت متعة لا سعاده معها، ولم تكن السعادة التي كان يمكن أن يزدهر هواها على أرضها الفقيرة.

لقد سبق أن قلت إن إنستيتوريس، حين بدأ يخطب عذرية إنيس إنما كان يفعل ذلك قائماً فيه مقام آخر، وهكذا كان الآن أيضاً، من حيث كونه زوجاً، مجرد المنبِّه لرغائب منحرفة، وكان الباعث لتجربة سعادة جزئية، مزعجة في الأساس، وكانت تقتضي الاستكمال، والتحقق والرضى، وكانت تجعل الألم الذي تحمله من أجل شفيرتفيجر، والذي تكشف لي في الحوار معها على نحو عجيب، متحولاً إلى هوى جامح. وأنه لأمر واضح كل الوضوح: فقد بدأت في التفكير فيه موضوعاً للخطبة وهي مترعة بالهم، وأغرمت به، امرأة عالمة، بكل وعيها، وبكامل وجدانها، ورغبتها فيه، وحتى هذا لا يمكن أن يتطرق إليه شك، وهو أن الفتى لم يكن له بدٌ على الإطلاق من أن يستجيب لهذا الشعور الذي يقبل عليه في إلحاح، بتفوقه الفكري -وإني لأوشك أن أقول: إن

المسألة كانت خليقة أن تكون أجمل لو أنه لم يستجب له، حيث تطنّ في أذني العبارة الأخوية: «رويدك أيها الإنسان، ماذا يخطر ببالك، هلاّ تفضلت بالوثوب!». ومرة أخرى: أنا لا أكتب رواية، ولا أعكس نظرة الكاتب التي تحيط بكل شيء علماً في المراحل الدرامية لتطور حميم متوارٍ عن أعين الدنيا، ولكن الذي لا ريب فيه هو أن رودولف قد دُفع به إلى مأزق بأسلوب تعسفي تماماً، ولسان حاله يقول: «ماذا ينبغي لي أن أفعل؟»، بذلك الأمر الذي لا بدّ أن يطاع، -مما يجعلني أستطيع أن أتصوَّر بلا ريب، كيف كان شغفه بالغزل، الذي كان في البداية متعة بريئة، يغريه بمغامرة في موقف يزداد توتُّراً وحرارة على نحو مطَّرد، وقد كان في وسعه أن يتفادى ذلك أيضاً لولا هذا الميل إلى اللعب بالنار.

وبعبارة أخرى: كانت إنيس إنستيتوريس تعيش، تحت غطاء الطهارة البورجوازية التي كانت ترغب في الحماية التي توفِّرها رغبة تضاهي من يحن إلى موطنه حنيناً يؤرِّقه، في حالة خيانة زوجية وهي تكوين نفسي معيَّن، وكانت، حتى في تكلُّفها، تعيش مع أثير لدى النساء يتسم بسمة صبيانية، كان يثير لديها الشكوك والهمّ، مثلما تثير في العادة امرأة طائشة في نفس الرجل المحبّ لها حبّاً جدِّياً، شكّاً وهمّاً، وكانت حواسُّها التي أيقظها الزواج المفتقر إلى الحب تجد بين ذراعيه ما يشبعها. وعاشت على هذا أعواماً بطولها، منذ اللحظة التي تقع، إذا كنت أُحْسِن الرؤية، على مدى أشهر فَحسب بعد زواجها، إلى نهاية العقد الزمني، ولئن لم تعش بعد ذلك على هذا النحو فذلك لأنه تنصَّل منها، وهو الذي عملت بكل طاقاتها على التمسُّك به. وكانت هي التي تتحكم في العلاقة وتوجِّهها وتعالجها وتموهها بنقاب ما، إذ كانت تقوم

بدور الزوجة النموذجية وبدور الأم في الوقت ذاته وكان ذلك عملاً فنياً يومياً، وحياة مزدوجة كانت تأكل أعصابها بالطبع، وكان ما يبعث على أقصى خوفها أنه كان يهدِّد جمال مظهرها وهو الجمال المتأزِّم الدقيق، - ومن ذلك أنه كان يزيد في عمق التجعيدتين عند جذر الأنف بين حاجبيها الأشقرين بطريقة معينة تذكِّر بمن جُنَّ جنونها، كما يترتَّب عليها في هذا الصدد، مع كل الحذر، والدهاء والتحفُّظ الذي يتصل بذلك، أن تخفي عن عيون المجتمع أمثال هذه الألوان من الشذوذ، وكانت الإرادة اللازمة لذلك غير واضحة كل الوضوح أبداً. كما كانت لا تخلو من الانقطاع أبداً: سواء أكان ذلك بالقياس إلى الزوج الذي لم يكن لها بدٌّ أن تتملَّقه ما دامت تفترض أن سعادتها تكمن في ذلك على الأقل، كما هو الحال حتى عند الزوجة التي كان كبرياؤها الجنسي يهدف، في الخفاء، على وجه الخصوص، إلى أن يعلم من يجب أن يعلم أنها ليست مضطرة إلى الاكتفاء بمداعبات زوجها التي لا يقدرها أحد تقديراً كبيراً. ومن أجل ذلك يكاد يخطئ ظني في افتراض أن المعرفة بالطرق الملتوية التي كانت إنيس إنستيتوريس تسلكها في محيطها المونيخيّ كانت منتشرة على نطاق عام إلى حد بعيد، على الرغم من أنني لم أتبادل مع أحد في ذلك قطُّ كلمة سوى مع أدريان ليفركون. بل إني لأذهب إلى حد حُسْبان إمكانية أن يكون هلموت نفسه كان يعرف الحقيقة أيضاً: وذلك أن وجود مزيج معين من الفضيلة المبنية على التعلُّم، والصبر المشوب بالأسى مع هزّ الرأس، -وحب السلام يؤيد هذا الافتراض، وليس من النادر أبداً أن يحدث أن يعدّ المجتمع الزوج الأعمى الوحيد، على حين يرى هو أنه ما من أحد سواه يعلم شيئاً. وهذه هي ملاحظة رجل طاعن في السن له

نظرته في الحياة.

ولم يكن لديّ انطباع مؤداه أن إنيس كانت تهتم على وجه الخصوص لأي معرفة يشاركها فيها أحد، وكانت تبذل أقصى ما في وسعها لكي تدع أمثال هذه مهملَةً وراء ظهرها، ولكن هذا كان أقرب إلى أن يكون محافظة على حسن المظهر الخارجي، -إذ كان من يريد أن يعرف يستطيع أن يعرف إذا لم يكدِّر صفوها. وذلك أن العاطفة الجامحة أكثر اغتراراً بنفسها من أن تستطيع أن تتصوَّر أن هناك أي امرئ يمكن أن يتصدّى لها بصورة جدِّية. وعلى الأقل فهذا هو واقع الحال في أمور الحب، حيث يدّعي الشعورُ لنفسه كلَّ حقٍ في العالم، ويحسب حساب الفهم مع كل ما في المسألة من الحَظْر وإثارة الشعور بالصدمة، على نحو تعسفيّ تماماً. وكيف كان سيتاح لإنيس، مادامت ترى أنها لم يسترق السمع إليها أحد، أن تفترض مبدئياً اطِّلاعي على هذا بهذه البساطة؟ غير أنها كانت تفعل هذا كأنما على نحو خالٍ من أي تحفُّظ -وكل ما في المسألة أنه كان يُفتَقَد اسم معيَّن على وجه الخصوص- في حديث مسائي كان بيننا -ولا بد أنه سيكون في خريف ١٩١٦- ويبدو أنه كان يمتُّ بصلة إليها. وكنت قد استأجرت في تلك الأيام، خلافاً لأدريان، الذي كان إذا قضى أمسيته في مونيخ، يتمسّك دائماً بالعودة بقطار الحادية عشرة إلى بفايفرنج، حجرة صغيرة في شفابنج، غير بعيد عمّا وراء بوّابة النصر، في شارع هوهنتسولَرْن، لكي أكون مستقلاً، وليكون لي مأوى في العاصمة في بعض الظروف، وبذلك أمكنني أن أوافق وأنا راضٍ ،على عودتي إلى طعام العشاء عند آل إنستيتوريس، على أنني صديق حسن، حين رَجَتْ مني إنيس، يساندها في ذلك زوجها، أن أظل في

صحبتها بعد ذلك عندما يكون هلموت الذي كان ينوي أن يلعب الورق في نادي أللوتريا، قد انصرف. ومضى بُعَيْد الساعة التاسعة، راغباً في الحديث والثرثرة. ثم قعدت ربة المنزل وضيفها وحدهما في حجرة المعيشة اليومية التي كانت مجهَّزة بمفروشات على شكل السلال تغشاها الوسائد حيث كان تمثال إنيس النصفي، نحته مَثّال صديق لهم، من الألَبَسْتَر، على حمّالة عمودية -وكان شديد الشبه بها- بديعاً للغاية، وكان حجمه أقل من الحجم الطبيعي إلى حد بعيد، غير أنه ناطق إلى حد فائق بما فيه من الشعر الجَثْل، والعينين المحجوبتين، والعنق الدقيق الرقيق، المائل قليلاً إلى الأمام، والفم المدبَّب في شيطنة ثقيلة.

وعُدْتُ أنا المؤتمن، مرة أخرى، أنا، الإنسان (الطيِّب) الذي لا يثير الانفعالات، على النقيض من العالم المثير الذي كانت إنيس تجده مُجَسَّداً في الفتى الذي كانت ترغب في الحديث عنه معي. على أنها قالت ذلك لنفسها: فهذه الأشياء، مما حدث، وتمَّت معاناته، ومن السعادة، والحب، والآلام، لم تكن تستوفي حقها عندما كانت تلتزم الصمت، وكانت لا تزيد على أن يُستمتَع بها، ويُعانَى منها، ولم تكن تكتفي في الليل والصمت، وكانت كلما ازدادت رهبة وإثارة للشعور بالوحشة ازدادت حاجتها إلى الطرف الثالث، إلى الإلْف المؤتمن على الأسرار، وإلى الإنسان الطيب، فوق ذلك، وهو الذي كان في وسعها أن تحدثه في ذلك، -وكان هذا أنا، إذ تبيَّن لي ذلك، وأخذت دوري على عاتقي.

وكنا قد قضينا بعض الوقت، بعد انصراف هلموت، كأنما طوال الوقت الذي كان ما يزال فيه على مَسْمَع منا، نتحدث في أمور غير ذات

أهمية، وفجأة قالت تباغتني:

«سيرينوس، هل تلومني، وتزدريني، وتأخذ عليَّ أمراً ما ؟»

ورددت قائلاً: «كلاّ، أبداً، معاذ الله! يا إنيس، لقد ظللت دائماً أذكر القول المأثور: «الانتقام لي، وأنا الذي أجزي به»، وإني لأعلم أنه قد بات يخفِّض العقوبة إلى مستوى الجنحة، وكأنّي به يتجرَّعها معها حتى لا يعود من الممكن تمييز أحدهما من الآخر، وتعود السعادة والعقوبة شيئاً واحداً. ولا بدَّ لكما أن تعانيا، أتراني أقعد هنا لو عُيِّنْتُ قاضياً للأخلاق؟ أمّا أنني أخشى عليك فهذا ما لا أنكره، غير أنني كنت خليقاً أن أحتفظ بهذا لنفسي لولا سؤالكِ إيايَّ هل ألومك»

وقالت: «وما المعاناة، وما هو الخوف والخطر المُذِلّ، بالقياس إلى الانتصار الواحد، الحلو، الذي لا يستغنى عنه، والذي ما كان المرء ليرغب في العيش من دونه: وهو هذا المتَّسم بالخفة، وإطلاق العنان، والدنيوية، والذي يعذِّب النفس بلطف ورقة لا يوثق بهما ولكنه ينطوي مع ذلك على قيمة إنسانية حقيقية، إنه التشبُّث بقيمته هذه الجديّة، وإرغام مبالغته في التأنُّق على التحوُّل إلى الجدّ، والاستحواذ على ما هو غير ثابت ومستقر، وأن يراه المرء، أخيراً، وفي النهاية، لا مجرد رؤية، بل رؤية لا تكون أبداً كافية في كثير من الأحيان، من أجل توكيده والتيقُّن منه، في الحالة التي تليق بقيمته، في حالة التفاني، حالة العاطفة الجامحة التي يكون معها تنفُّس الصعداء العميق!»

ولا أقول إن المرأة استخدمت هذه الكلمات على وجه الدقة، غير أنها عبَّرت عمّا في نفسها بأسلوب شديد المقاربة لهذا، إذ كانت واسعة الاطلاع، قد اعتادت ألاّ تعيش حياتها الداخلية في صمت، بل تفصح

عما في نفسها، بل كانت قد جربّت نفسها في فن قرْض الشعر وهي بعدُ فتاة. وكانت كلماتها تتميز بدقة أهل الثقافة، وبشيء من الجرأة التي تنشأ كلما كانت اللغة تطمح إلى بلوغ مستوى الشعور والحياة على نحو جدّي، وحَمْل هذين على الذوبان فيها، وعودتهما إلى الحياة الحقيقية في داخلها فحسب. وما هذه برغبةٍ من رغائب الحياة اليومية، بل هي نتاج الانفعال، وبهذا الاعتبار يوجد بين الفكر والانفعال ارتباط وثيق، ولكن الفكر يُعَدُّ بهذا الاعتبار مؤثِّراً تأثيراً عاطفياً أيضاً. ولمّا كانت تواصل الحديث، ولا تصغي إلاّ في حالات نادرة، وبشطر من أذنها، إلى ما أتدخَّل به خلال حديثها، فقد كانت كلماتها، وأقول ذلك بصراحة، مشبعة بسعادة حسِّية تجعل من اللائق أن أسردها هنا بحديث مباشر، على أن رثائي لها، وتحفُّظي، وخوفي البشري يَحُلْن بيني وبين هذا، كما أن هذا أيضاً ربما كان يرجع إلى الوجل والتهيُّب المنطويين على ضيق الأفق، من تحميل القارئ شيئاً مؤلماً. وكانت تكرر أقوالها مراراً في سعيها الحثيث إلى استدراك ما سبق قوله، ولم يستوفِ حقه، والوصول به إلى تعبير أكثر ملاءمة، وكانت المسألة تتعلق دائماً، في هذا الصدد بالموازنة الخصوصية بين القيمة وبين الهوى الشهوانيّ، لتحقيق الفكرة الثابتة النشوانة على نحو غريب، وهي أن القيمة الداخلية لا يمكن إشباعها، أو تحقيقها إلاّ في المتعة التي من الواضح أنها تماثل (القيمة) في جدِّيتها، وأن أقصى درجات السعادة، وأكثرها امتناعاً على الاستغناء عنها في الوقت ذاته يتمثل في استدامة ذلك واستمراره. ولعل مما لا يوصف على الإطلاق تلك النبرة المنطوية على السرور الباطني الحارّ، السوداويّ، وغير المؤمَّن والمضمون، آخر الأمر، والتي كان

يتخذه في فمها هذا المزيج من مفهومي «القيمة» و«المتعة»، والمدى الذي تظهر به المتعة في أثناء ذلك، في صورة عنصر من عناصر الجدّ متناهٍ في عمقه، وفي تعارض رهيب مع العنصر البغيض، عنصر المجتمع، الذي تكشف هذه القيمة، من خلاله، عن نفسها في صورة العابثة اللعوب، وهو الذي كان العنصر الروحي الكشّاف لإهابها، إهاب اللطف والإيناس، والذي لا بدّ للمرء أن يأخذه، أو ينتزعه ليحظى به وحده، وحده إلى أقصى الحدود، وبالمعنى الأخير للكلمة. لقد كانت المسألة تدور حول إلجام اللطف والإيناس بهدف تحويله إلى الحب، ولكن كانت تدور في الوقت ذاته حول شيء أكثر تجريداً، أو حول شيء ينصهر فيه المتصوَّر والحسيّ انصهاراً رهيباً، في شيء واحد: حول الفكرة القائلة، إن التعارض بين استهتار الاحتفال الاجتماعي وبين الشبهة الحزينة التي تحملها الحياة كان يتحقق زواله في عناقها، وكان يتمّ الثأر لمعاناتها من ذلك بأحلى الطرق من خلال هذا العناق.

أمّا ما اعترضت به أنا فما عدت أستطيع أن أذكر بعدُ، من تفاصيله، سوى سؤال واحد كان يهدف بلا ريب إلى الإشارة إلى تقدير الموضوع الشهواني فوق قدره، والاطلاع على الكيفية التي يغدو بها هذا ممكناً: فأنا أذكر أنني أشرتُ، بإشارة المتلطِّف المُتَرَفِّق، إلى أنَّ ما يتشبَّث به الهوى هنا ليس على الإطلاق بأكثر الأمور روعة حيوية ولا بأكثرها كمالاً، ولا بأجدرها بأن يرغب المرء فيه، وأنه قد تبيَّن، بمناسبة مسألة الفصل في الصلاحية للخدمة العسكرية، وجود خَلَل وظيفي فيزيولوجي، هو استئصال عضو. وكان الجواب بمعنى أن هذا التقييد يُقرِّب ما هو محبَّب إلى النفس، إلى الروح الذي يعاني، وأنه لولا هذا التقييد لما كان

ثمة أمل لهذا على الإطلاق، وأنه هو الذي جعل روح الطيش والتقلُّب مفتوحاً أمام نداء الألم، بل كان في جوابها ما هو أكثر من ذلك بعدُ، وكان فيه من الدلالة ما يكفي: وهو أن اختصار أمد الحياة، الذي ينجم عن ذلك، مثلاً، هو أقرب إلى أن يعني عزاءً بالقياس إلى الرغبة في التملُّك، وبَعْثاً للاطمئنان وضماناً وتوكيداً، منه إلى أن يعني بَخْساً يفضي إلى الغَمّ والكآبة... وكانت كل تفاصيل الحديث الباعثة للضيق والانقباض، فيما تبقّى، حاضرة من جديد، إذ كانت قد كشفت لي عن تَرَدّيها أوَّل الأمر، إلاّ أن ذلك كان الآن منفصلاً، في سرور باطنيّ يكاد يكون خبيثاً: إذ قالت إنه ربما أمكن أن يكون كشف الآن، عن طريق الملاحظة التي تطيِّب الخاطر، وهي أنه ربما اضطر إلى أن يعرِّج في طريقه من جديد أيضاً على آل لانجيفيشه أو آل رولفاجن، ورأى عندهم أناساً لم يكن هو نفسه يعرفهم، وعن أنه تحدث هناك أيضاً على النحو ذاته، وقال إنه اضطر مع ذلك أيضاً إلى أن يُعَرِّج عليها مرة أخرى أيضاً، - وبات من الممكن الآن تصوُّر شيء ينطوي على الانتصار في هذا الصدد. وذلك أن نُبْل المحتد عند بنات آل رولفاجن ما عاد باعثاً للخوف وحرقة القلب، وكان يتماشى مع هذا أن أشكال التماس اللطف والرقة من أناس لامبالين من أجل عدم الرحيل كانت قد انتزع منها السمّ، ومنها العبارة الفظيعة: «لقد سبق أن وُجِد الكثير جداً من أهل الشقاء!» -وكان هناك تنهُّد يتمّ عن طريق كسر شوكة العار في الكلمة. وكان من الواضح أن هذه المرأة كانت مفعمة بفكرة مؤداها أنها تنتمي في الحقيقة إلى عالم المعرفة والمعاناة، غير أنها أنثى في الوقت ذاته، وهي تملك، في أنوثتها، الوسيلة إلى انتزاع الحياة والسعادة لنفسها، ولتعطيل عنصر الغرور في

قلبها. أمّا قبل ذلك فكان من الواجب ضبط جانب الحماقة على أية حال بنظرة، أو كلمة جدِّية، لحظة من الزمان. مع إمعان النظر، للظفر بها بصورة عابرة، وقد كان في وسع المرء أن يقفها، وأن يودِّع ما فيها من أمور غير ذات جدوى، في عودة، مرة أخرى، وأن يصلحها بالهادئ والجدِّيّ. وأمّا الآن فقد كانت هذه المكاسب السريعة الزوال قد تم تثبيت ملكيّتها، في الوصال، -مادام التملُّك والوصال ممكنين في الثَّنوية، وما دامت الأنوثة التي يخيّم عليها الظل قادرة على ضمان هذا، وكانت هذه هي التي كانت إنيس تسيئ الظن بها، إذ كانت تصرِّح بعدم إيمانها بإخلاص الحبيب. وقالت: «سيرينوس، إنه أمر لا مناص منه ولا مهرب، وأنا أعرف ذلك، سيغادرني». وكنت أرى التجاعيد بين حاجبيها تزداد عمقاً، في تعبير عن العناد والتشبُّث، وأضافت إلى ذلك قولها بصوتٍ كالميّت: «ولكن فالويل له عندها! والويل لي!»، ولم يكن لي بدٌّ أن أتذكَّر كلمة أدريان، حين حدثته أول مرة بهذه العلاقة: «ينبغي له أن ينظر كيف يخرج من هذه المسألة سليماً معافى!».

وكان هذا الحوار بالقياس إليّ تضحية حقيقية، وقد استغرق ساعتين، وكان الأمر يقتضي الكثير من نكران الذات، والتعاطف الإنساني والإرادة الطيبة الودية لاحتمال ذلك والفراغ منه، وكان يبدو أن إنيس تعي ذلك أيضاً، غير أن ما كان يلفت النظر، ولا بدّ لي أن أقوله، أن امتنانها للصبر، والزمن، والطاقة العصبية اللواتي بُذلْن من أجلها، كان معقداً على نحو لا تخطئه الملاحظة عندي، من جراء سرور داخليّ معيَّن خبيث، بهذا، كان بمثابة سرور بالأذى تجلَّى في ابتسامة تنطوي على لغزٍ ما، ومازلت حتى اليوم، لا أستطيع أن أفكر فيها من دون أن

يتولاني العجب من أنني لبثت أعاني وأحتمل كل هذا الوقت. وقد لبثنا في الواقع قاعدين إلى أن عاد إنستيتوريس أدراجه من نادي (أللوتريا)، حيث كان يلعب لعبة التاروك مع سادة المجتمع. وكان يحوم فوق محياه تعبير عمّا حَزِر وقدّر، مما يبعث على الشعور بالحرج، حين رآنا ونحن مازلنا معاً، وشكر لي حلولي محلّه بهذا الأسلوب الودّي، ولم أعد إلى القعود بعد تحيته من جديد، وقبلت يد ربة البيت، ومضيت، محطّم الأعصاب حقاً، ومهزوزاً، موزَّع النفس بين الشعور بالاستياء والشعور باللامبالاة، عبر الشوارع التي أخلدت إلى الهدوء، إلى مكان إقامتي.




محمد خطاب

(٢٢)

وكان الزمن الذي أكتب عنه، بالقياس إلينا، معشر الألمان، عصر انهيار الدولة، والاستسلام، وثورة استنفاد القوى، والضياع الحائر بين أيدي الغرباء. أما العصر الذي أكتب فيه، والذي لا بد أن يفيد في تدوين هذه الذكريات على الورق في عزلة هادئة، فكان يحمل في بطنه المتورِّم تورُّماً فظيعاً، كارثة وطنية تبدو هزيمة تلك الأيام بالقياس إليها مجرد سوء حظ معتدل، أو تصفية مفهومة لمشروع خائب. على أن النهاية الشائنة المزرية تظل دائماً شيئاً مختلفاً، وهي بعدُ أكثر طبيعية من محكمة العقوبات كتلك التي تحوم فوقنا منذ الآن، مثلما هبطت في سالف الأيام على سدوم وعمورة، وعلى نحو لم يسبق لنا أن استحضرناه في تلك المرة الأولى، بلا ريب.

أمّا أنها باتت وشيكة، وأنها ما عاد يمكن وقفها منذ عهد بعيد – وكان الله في عوننا– فذلك ما لا أعتقد أن أي امرئ يخالجه أدنى شك فيه، وما من شك في أن المونسنيور هنتربفورتنر وأنا، ما عدنا ننفرد وحدنا بتلك المعرفة التي تثير الرعدة والتي تتصاعد في الوقت ذاته على نحو خفي. وأمّا أن هذه المعرفة تظل مغلّفة بالصمت فتلك حقيقة تلوح كالشبح، في حد ذاتها. وذلك أنه إذا كان من الأمور الرهيبة أن يكون ثمة أناس قلائل عارفون، خُتِم على أفواههم بالصمت، يضطرون إلى

العيش وسط جمهور ممن ضُرِب على أبصارهم بالعمى، فإن الرهبة التي يقف لها شعر الرأس تكتمل، فيما يبدو لي، عندما يغدو الناس جميعاً عارفين، غير أنهم يضرب عليهم الصمت بفعل السحر، بينما يقرأ كلٌّ منهم الحقيقة في العيون المستخفية أو المحملقة في فزع.

وفي الوقت الذي كنت أحاول فيه، مخلصاً، من يوم إلى يوم، في استثارة هادئة، أن أُوَفِّيَ مهمتي الخاصة بكتابة السيرة، حقَّها، وأن أعطي الجانب الحميم والشخصي، شكله اللائق، كنت أدع ما يحدث في الخارج يحدث، وأدع ما يتصل بالزمن الذي أكتب فيه. لقد تحقق غزو فرنسا الذي كان يُعتَرَف به منذ عهد بعيد من حيث كونه إمكانية. - فكان إعجازاً عسكرياً تقنيّاً من الدرجة الأولى، أو من درجة جديدة على وجه الإطلاق تم الإعداد له ببراعة وحيطة كاملتين، وقد زاد من عجزنا عن منع العدو من ذلك أننا لم يكن يجوز لنا أن نجرؤ على حشد قواتنا في نقطة الإنزال، إذ كنا غير مستيقنين من أن هذه النقطة ليست نقطة يجب أن يُنْظر إليها على أنها واحدة من بين نقاط أخرى، وأنه ينبغي توقُّع هجمات أخرى في مواضع لا يمكن حَدْسُها، على أن الشك أو الشبهة لا يفضيان إلاّ إلى العبث والهلاك: وكانت هذه هي المسألة، وسرعان ما كانت هذه القوات التي جيء بها إلى الشاطئ، من دبابات ومدافع، والاحتياجات، من أنواع شتى، أكثر مما كان في وسعنا أن نزج في البحر من جديد. وأما شيربورج التي جعل فن الهندسة الألماني ميناءها غير صالح للاستعمال البتة، كما يجوز لنا أن نثق بذلك، فقد استسلمت وفقاً لما تفيدة برقيات الراديو البطولية لقائدها العام ولأميرالها، إلى الفوهرر، ومنذ أيام تستعر نار معركة يدور القتال فيها

حول المدينة النورماندية كايان (Caën)، -وهو قتال يهدف في الحقيقة، إذا كان قلقنا يرى رؤية صحيحة، إلى فتح الطريق إلى العاصمة الفرنسية: هذه الباريس التي خُصِّص لها في النظام الجديد دور حديقة إله القمر ودار المسرات، وباتت المقاومة ترفع رأسها بجسارة، حيث ما عاد من الممكن الآن كبح جماحها من قبل القوات المتحدة لشرطة الدولة عندنا، والمتعاونين معها من الفرنسيين.

أجل، فما أكثر ما حدث مما لعب دوره في عملي المنفرد، من دون أن أدع شيئاً من ذلك يُلاحَظ عَلَيَّ! ولم يكن ذلك بعد أيام كثيرة من الإنزال المدهش في النورماندي، عندما ظهر سلاحنا الانتقامي الجديد في أحد مشاهد مسرح الحرب الغربية، وقد سبق أن ذكره الفوهرر مراراً بسرور داخلي: ألا وهو قنبلة الروبوت، وهي وسيلة قتال جديرة بالإعجاب على النحو الذي يمكن للمحنة المقدسة أن توحي به إلى عبقرية المخترع، -رسل التدمير. هذه الطائرة الخالية من الركاب، التي يتم إطلاقها بأعداد كبيرة، من الساحل الفرنسي، لتتفجَّر فوق جنوبي إنكلترا، وإذا لم يكن كل شيء من قبيل الخداع، فقد أصبحت هذه تمثل خلال وقت قصير ورطة للخصم. أتراها ستكون على استعداد للحيلولة دون حدوث أمر جوهري؟ على أن القدر لم يشأ أن يتمّ الفراغ من الإنشاءات الضرورية في الوقت المناسب لإفساد الغزو بالقذائف الطائرة، ومن ثم وَقْفُه. وفي هذه الأثناء نقرأ عن الاستيلاء على بيروجيا التي تقع، والحديث بيننا، في منتصف الطريق بين روما وفلورنسا. بل إن الناس باتوا يتهامسون حول الخطة الاستراتيجيّة لإخلاء شبه جزيرة الآبينين على وجه الإطلاق، -ربما لتحرير قوات من أجل القتال الدفاعي

الواهن في الشرق، حيث لا يرغب جنودنا أن يُرسلوا بأي ثمن. وثمة موجة من الهجوم الروسي آخذة في الجريان هناك، تجاوزت فيتيبسك، وهي تهدد الآن منْسك، عاصمة روسيا البيضاء التي يزعم أهل الشائعات عندنا أنهم يعرفون أن سقوطها لن يكون بعده توقف في الشرق أيضاً.

ما عاد ثمة توقُّف! أيتها النفس إيّاك والتصوُّر، والابتداع! لا تجرُئي على تقدير ما يمكن أن يعنيه انهيار السدود في حالتنا القصوى، المتّسمة بالتربُّص، والرهيبة على نحو فريد، بصورة مطلقة -مثلما هي على وشك الاختراق، وأن لا يكون هناك صمود بعد في وجه الكراهية التي لا تقدَّر، ولا يُسْبَر غورها، والتي عرفنا كيف نذكي لهيبها ضدنا بين الشعوب حوالينا! والحق أن ألمانيا أيضاً تحولت منذ عهد بعيد إلى مسرح للحرب بتدمير مدننا من الجو، ولكن تبقى مع ذلك فكرة مفادها أن الوضع يمكن أن ينتهي إلى هذا، بمعناه الحقيقي، وهي فكرة غير ممكنة الإدراك بالقياس إلينا، وممتنعة على أذهاننا. ولدعايتنا أسلوب غريب في تحذير العدو من انتهاك حرمة أرضنا، الأرض الألمانية المقدسة! وكأنه فعلة شنعاء يقف لها شعر المرء من الرهبة... الأرض الألمانية المقدسة! وكأن ثمة شيئاً ما، كائناً ما كان، يتسم بالقدسية فيها، وكأنها لم تُدَنَّس بقدر هائل من إهانة الحق منذ عهد بعيد، تدنيساً كاملاً لم يغادر منها شيئاً، ولم تكن معرَّضة للعنف ولمحكمة العقوبات من الناحية الأدبية والفعلية على حد سواء. فليأت هذا! فما عاد ثمة شيء آخر يُعَوَّل عليه، أو يُراد، أو يُرْغَب فيه. أمّا النداء إلى الصلح مع الأنجلوساكسون، وعرض استئناف القتال ضد الطوفان السَّرْماتي(*) من قبل ألمانيا وحدها،

(*) الروسي.

والمطالبة بالتنازل عن شيء من ضرورة التسليم بلا قيد ولا شرط، أي بالتفاوض، ولكن مع من، في الحقيقة؟، فليس سوى عبث مَنْ تدور عيناه خوفاً وقلقاً، وهو تعبير عن حاجة نظام حكم لا يريد أن يدرك، ومازال لا يفهم حتى اليوم على ما يبدو، أنه قد قُضِي عليه، وأن عليه أن يتوارى، مجلّلاً باللعنات -إذ جعل العالم كله- لا يحتمله ولا يحتملنا، ولا يحتمل ألمانيا، والرّايْش -بل إني لأذهب إلى مدى أبعد من ذلك، وأقول: إنه جعل القومية الألمانية، وكل ما هو ألماني لا يُطاقان في نظر العالم..

وهذه هي خلفية عملي في السيرة في اللحظة الراهنة، وأعتقد أنني مدين بلمحة موجزة عنها للقارئ. أما ما يتصل بخلفية قصتي ذاتها، حتى اللحظة التي انتهت بها إليها، فقد ميَّزتها في مستهل هذا الفصل بعبارة: «في أيدي الغرباء»، وإنه لمن الفظيع أن يقع المرء في أيدي الغرباء. لقد طالما أشبعت هذه الجملة وحقيقتها المرة تفكيراً، ولقد عانيت منها في كثير من الأحيان، في تلك الأيام، أيام الانهيار والتسليم. ذلك لأنني أنطوي، بحكم كوني رجلاً ألمانياً، بصرف النظر عن اللون العالميّ الذي اعترى علاقتي بالعالم من جراء التقاليد الكاثوليكية، على شعور حيّ بالتميُّز القومي، وبالحياة الخاصة التي تميِّز بلادي، وفكرتها، إن صح العبير، من حيث هي انكسار ضوئي بشري في مقابل الأخرين يرى لنفسه، بلا ريب، حقوقاً متساوية في التحوُّلات والتغيرات، ولا يستطيع أن يَدَّعي ذلك إلاّ مع توافر سمعة خارجية معينة، وفي حماية دولة مستقيمة. على أن الجانب المفزع بنوعه الجديد، والمتمثل في هزيمة عسكرية حاسمة، إنما يمثل قهر هذه الفكرة، ودحضها الطبيعي من قبل

إيديولوجية غربية مرتبطة باللغة أيضاً قبل كل شيء، والأيْلولة الكاملة إلى هذه الإيديولوجية التي لا يمكن أن ينجم عنها، هي أيضاً، شيء حسن على ما يبدو، بالقياس إلى الجوهر الخصوصيّ، ولقد ذاق هذه التجربة التي تثير الرعدة الفرنسيّون المنهزمون في المرة السابقة، حين قدَّر وسطاؤهم المجدَ المتمثل في دخول قواتنا إلى باريس، تقديراً مفرطاً في العُلُوّ بغية التخفيف من وطأة شروط المنتصر، وردّ عليهم رجل الدولة الألماني بأن كلمة المجد (gloire)، أو أي مكافئ لها، لا يَردان في قاموسنا. وكان هذا الحديث يجري عام ١٨٧٠، بلهجة الفزع، والصوت الخافت المُتطامن، في مجلس النواب الفرنسي. وكان القوم يسعون، وقد تولاّهم الخوف، إلى استجلاء ما يعنيه أن يكون المرء في موقف يجعله تحت رحمة خصم له لا يعرف عالم المفاهيم عنده مفهوم المجد..

ولطالما فكرت في ذلك حين أصبحت اللغة المهنية الخاصة بالفضيلة المتطرفة المتشدِّدة، التي لبثت تجادل على مدى أربع سنين في دعاية «الموافقين» الحربية، لغة المنتصر السائدة، كما وجدتُ ما يؤيد قول من قال إن الاستسلام لا تفصله مسافة طويلة عن التنازل الخالص عن السلطة، وأن يُقتَرَح على المنتصر أن يتفضَّل بإدارة البلاد التي وقعت في يديه، بنفسه، تبعاً لفكرته الخاصة، إذ تضيق بالمغلوب السبل وتتقطّع به الأسباب. وقد عرفت فرنسا أمثال هذه الحركات قبل ثمانية وأربعين عاماً، ولم تكن غريبة عنّا الآن، نحن أيضاً، ومع ذلك فهي تُقابَل بالرفض، ويظل المغلوب خاضعاً للسيطرة، لكي يعود إلى النهوض على قدميه من تلقاء ذاته، على أي نحوٍ من الأنحاء، ولا يكون التوجيه من الخارج إلاّ بهدف الحيلولة دون أن تذهب الثورة التي تملأ الفراغ بعد رحيل

السلطة القديمة، إلى مدى بعيد في التطرُّف، بحيث تعرض للخطر، فيما تعرِّض، النظام المدنيّ عند المنتصرين. وهكذا أفاد الحفاظ على الحصار حتى بعد إلقاء السلاح، عام ١٩١٨، الدول الغربية في السيطرة على الثورة الألمانية وإبقائها ضمن المسار الديمقراطي المدني، والحيلولة دون تحوُّلها إلى ثورة البروليتاريا الروسية. ولذلك لم يكن في وسع الامبريالية البورجوازية التي اعتادت النصر أن تكتفي بالتحذير من (الفوضى)، ولا أن تكتفي بصورة حاسمة، برفض كل تفاوض مع مجالس العمال والجنود، وما شاكلها، ولا أن تضمن الضمان الكافي، أن لا يعقد الصلح إلاّ مع ألمانيا متينة البنيان موطَّدة الأركان، فلا تعطي الطعام إلاّ لألمانيا كهذه. وكان ما لدينا من حكومة يسير وفقاً لهذا التوجيه الأبويّ، ويتمسّك بالمؤتمر الوطني مواجهاً به دكتاتورية البروليتاريا، ويرفض عروض السوڤييت، وإن كانت تتعلق بتقديم الحبوب، ممتثلاً لهذا التوجيه. وليس مما يبعث على السرور في قرارة نفسي أن يتاح لي أن أضيف هذا. والحق أنني أنطوي، من حيث كوني رجلاً معتدلاً، من أهل الثقافة، على فزع طبيعي من الثورة المتطرِّفة، ودكتاتورية الطبقة الدنيا، التي لا أستطيع أن أتصوَّرها، بالاستناد إلى نشأتي في البيت، إلاّ في إطار صورة الفوضى، وحكم الغوغاء، وجملة القول أنها صورة تدمير الحضارة، ولكن عندما أتذكَّر الحكاية الشائهة، التي تروي كيف سار كلا منقذَيْ الأخلاق الأوروبية، الألماني والإيطالي، معاً، في أبهاء قصر اللوحات الفنية الفلورنسي، الذي لم يكونا ينتميان إليه في الحقيقة، وأكَّد كلٌّ منهما للآخر أن كل هذه «الكنوز الفنية الرائعة» كانت خليقة أن تؤول إلى التدمير على يد البلشفية، لولا أن

السماء حالت دون ذلك برفع كليهما إلى سدّة الحكم -عند ذلك تتعدَّل مفاهيمي عن حكم الغوغاء بأسلوب جديد، والآن يبدو لي حكم الطبقة الدنيا أنا المواطن الألماني، حالة مثالية، في المقارنة التي باتت الآن ممكنة، مع حكم الحثالة. فما أعرفه هو أن البلشفية لم تدمِّر قط أعمالاً فنيّة، بل كان هذا أقرب إلى أن يقع ضمن محيط مهمّات أولئك الذين زعموا أنهم يحموننا منها. أوَ كان ينقصنا الكثير لكي يسقط أيضاً عمل بطل هذه الأوراق، أدريان ليڤركون أيضاً، ضحية لولعهم بأن يدوسوا على المتاع الفكري بأقدامهم -وهو الولع الذي يظل بعيداً بُعْداً مطلقاً عمّا يسمونه بحكم الغوغاء؟ أوَ لم يكن انتصارهم، والتفويض التاريخي بترتيب أمور هذا العالم وفقاً لما يحلو لهم من تصوُّرات فظيعة، خليقَيْن أن يقضيا على عمله، ويذهبا بخلوده؟

وقبل ستة وعشرين عاماً كان الاشمئزاز من الفضيلة ذات اللسان الطلق، التي تدعي لنفسها العصمة، فضيلة بورجوازية البلاغة، و(ابن الثورة)، الذي ثبت في حكم قلبي أنه أشد بأساً من الخوف من الفوضى، وجعلني أرغب فيما لم يكن ذاك يرغب فيه، على وجه الخصوص: ألا وهو استناد بلادي المنكسرة إلى شقيقتها في الألم، إلى روسيا، -إذ كنت في هذا الصدد على استعداد لتحمُّل التحوُّلات الاجتماعية، التي سوف يسفر عنها مثل هذا التعاون. لقد هزَّتني الثورة الروسية، والتفوُّق التاريخي لمبادئها على مبادئ الدول التي تضع أقدامها على نحورنا، ولم يكن يخالجني الشك في ذلك.

ولقد علَّمني التاريخ منذ ذلك الوقت أن أنظر بعيون مختلفة إلى المنتصرين علينا في تلك الأيام، الذين سيدخلون بالتالي في تحالف مع

الثورة في الشرق، من جديد، وإنه لحق: فثمة شرائح معينة في الديمقراطية البورجوازية كانت تبدو، وهي تبدو اليوم، ناضجة لما سميته حكم الحثالة، -الراغبة في التحالف مع هؤلاء، لكي تَمُدَّ في عمر امتيازاتها، ومع ذلك فقد نجم لها زعماء كانوا يرون، على نحو لا يختلف عنّي، أنا ابن الإنسانية، في هذا الحكم، آخر ما أمكن وجاز أن يُفْرَض على البشرية، ودفعوا عالمهم إلى القتال ضده في معركة حياة أو موت. ولا يكفي أن نشكر لهؤلاء الرجال ذلك، وإنه ليثبت أن ديمقراطية البلدان الغربية، على كل ما فيها من تقادم مؤسساتها على مدى الزمن، ومع كل العناد المتمثل في مفهوم الحرية فيها، في مقابل الجديد، والضروري، تسير مع ذلك، في جوانبها الجوهرية، على نهج التقدم الإنساني، والإرادة الطيبة الهادفة وهي قادرة على الوصول بالمجتمع إلى الكمال، والتجديد، والإصلاح، وإعادة روح الشباب، والتحوُّل إلى ظروف أكثر ملاءمة لطبيعتها.-

وكلُّ هذا على الهامش، أمّا ما أذكِّر به هنا فيما يتعلق بالسيرة فهو فقدان السلطة الذي بات يحرز تقدُّماً ويكتمل مع الهزيمة الوشيكة، في الدولة العسكرية الملكية التي لبثت عهداً طويلاً تمثل طراز حياتنا وعاداتها، وانهيارها وتخليها عن السلطة، وما ينشأ عن ذلك، مع استمرار العوز والجوع، والانهيار المطرد في قيمة العملة، من حالة التدهور المتتابع، وحرية المضاربة، ومن تخويل معين يدعو إلى الرثاء، إذ لم تتوافر مؤهلاته، بالاستقلال المدني، وانحلال بنية للدولة، كانت قد لبثت عهداً بالغ الطول مترابطة بأواصر النظام، إلى كتلة تمارس الجدل، من الرعايا الذين باتوا ولا سادة لهم. وما هذا بالمشهد الذي يبعث الكثير من الارتياح، ولا يمكن التخفيف من وقع كلمة «مُخْزية» حين

يكون عليَّ أن أميِّز الانطباعات التي خرجتُ بها من مؤتمرات (مجالس معينة للعاملين في مجال الفكر) خرجت إلى الحياة في تلك الأيام، الخ... في أبهاء فنادق مونيخ، مشاركاً مراقباً، سلبياً صرفاً. ولو كنت كاتب روايات لوَددْت أن أصف للقارئ مثل هذه الجلسة التي كان يتحدث فيها كاتبٍ قصصي، حديثاً لا يخلو من الظُّرف، وحتى بطريقة تأمُّلية، فائقة الحساسية، حول موضوع (الثورة وحب الإنسان)، وأطلق العنان بذلك لمناقشة حرة، مفرطة في الحرية، مسهبة ومبلبلة، لأشد النماذج شذوذاً وغرابة، وهي النماذج التي لا تخرج إلى النور إلاّ في أمثال هذه المناسبات، من الحمقى، والمهووسين، والأشباح، والخبثاء من مُثَبِّطي الهمم، والفلاسفة القاعدين في بيوتهم. وأقول إنني كنت خليقاً عندها أن أصف مثل هذا المؤتمر الحائر الفوضوي، بالاستناد إلى ذكرى مترعة بالعذاب، وصفاً حسِّياً. فقد كانت هناك كلمات ضد حب الإنسان، وكلمات معه، وكلمات في صالح الضباط، وكلمات معادية لهم، وكلمات لصالح الشعب، وكلمات ضدّه. وألقت فتاة صغيرة قصيدة، وحيل بين جندي ألماني وبين استئناف قراءة مخطوط استهلّه الكاتب بديباجة جاء فيها: أيها المواطنون، والمواطنات، الأعزاء، وما من شك في أنه كان خليقاً أن يستغرق الليلة بأكملها، وانطلق مرشح ماكر مع جملة من الخطباء المتقدمين في محاكمة لا هوادة فيها، من دون أن يكرِّم الاجتماع بإعراب عن رأي إيجابي خاص به -وهكذا دواليك. وكان سلوك المستمعين الذين كانوا يحتملون الصيحات العارضة الفظّة الغليظة، هائجاً مائجاً، وطفولياً، ومتوحشاً، وكانت الإدارة لا تتمتع بالكفاءة، والهواء مخوفاً، والنتيجة أقلَّ من صفر. وكان القوم يتساءلون وهم ينظرون حواليهم، مراراً، أهُمُ الوحيدون الذي كانوا يعانون، وسَرَّهم

آخر الأمر أن يظفروا بالشارع المفتوح، حيث كانت حركة مرور الحافلات قد تم وقفها منذ ساعات، وكانت تُدَوِّي طلقات لا على التعيين، عبثية على الأرجح، في الليلة الشتائية.

وكان ليڤركون، الذي حدثته عن هذه الانطباعات يعاني في تلك الأيام إلى حد فائق، مريضاً بطريقة تنطوي على شيء من التعذيب المُذلّ المهين، من قَرْصٍ وتعرُّض للعناء المجهد بالملاقط اللاهبة، من دون أَن يضطر المرء الى أَن يخشى على حياته، مثلاً، من شيء ما على نحو مباشر، ولكن كان يبدو أنه قد وصل الى نقطة عميقة، بلغ منها أنها لم تكن تزيد على أن تمدّ في عمره، إذ تجرُّه معها من يوم الى آخر. وكان ماأصابه غثيان معدة لايكبح جماحه بأشد أشكال النظام الغذائي صرامة، إذ يظهر بأشد أشكال وجع الرأس ساعات، بل أياماً عديدة، ثم يعود خلال أيام قلائل، وفوق ذلك، في حالة فراغ المعدة، محنة حقيقية، مُهينة، خبيثة معذِّبة، تحطّ من شأن صاحبها، في إنهاك عميق ينتهي بحساسية كبيرة تجاه الضوء على نحو مستمر، عندما تكون النوبة قد ولَّت. ولم يكن يجري الحديث عن أن المعاناة كان يجب أن تعزى، مثلاً، الى أسباب نفسية، الى التجاريب المنطوية على العذاب في هذا العصر، كهزيمة البلاد ومايرافقها من ظروف، إذ كانت هذه الأمور قلّما تمسُّه في عزلته الريفية في حجرة الدير، البعيدة عن المدينة، ولم يكن يطلع على مايجري منها في كل يوم، على كل حال، عن طريق الصحف التي يقرأها، بل كان يطلع عليها عن طريق راعيته المهتمة والرزينة الهادئة بالقدر ذاته، وهي السيدة إلزا شفايجشتل. وذلك أن الأحداث التي لم تكن تأتي بالقياس الى المتبصِّر، في صورة صدمة طارئة، بل في صورة التحقيق لشيء طال انتظاره، كانت لاتكاد تقدر على دفعه الى أن يهزَّ

بكتفه. ولم يكن يقابل محاولاتي استخراج الجانب الطيب من هذا الوبال، الذي يمكن أن يستكنَّ فيه، بشيء آخر سوى تقشُّعات مماثلة لتلك التي تعرَّضت لها في مستهلّ الحرب، حيث كنت أتصور عبارته الدالة على عدم التصديق، في برودها: «بارك الله في مساعيكم»، وهي العبارة التي كان يجيبني بها في تلك الأيام.

ومع ذلك: فعلى الرغم من أن الربط النفس الوجداني بين تدهور صحته وبين مصيبة الوطن لم يكن ممكناً إلاّ بدرجة جد ضئيلة، وكان ميلي الى رؤية هذا الجانب موازياً رمزياً للآخر في ارتباط موضوعي، هذا الميل الذي ربما لم توحِ به إليّ سوى حقيقة التزامن، لوم يكن من الممكن التغلُّب عليه عن طريق حقيقة بُعْدِه عن الأمور الخارجية، حملني على إغلاق باب هذه الفكرة من جانبي بعناية، وعلى أن أحاذر أن أوردها في الحديث أمامه، ولو من باب الإشارة أو التلميح.

ولم يكن أدريان يرغب في طبيب، لأنه ربما كان يرى في معاناته شيئاً مألوفاً من حيث المبدأ، بل مجرد تصعيد حاد لمرض الشقيقة الموروث عنده. وكانت السيدة شفايجشتل هي التي أصرَّت آخر الأمر على استشارة طبيب الناحية، الدكتور كوربيس، وهو ذاته الذي كان قد وقف فيما مضى الى جانب الآنسة القادمة من بايرويت في محنة ولدها. ولم يعترف الرجل الطيب بالشقيقة، إذ لم تكن أوجاع الرأس التي كانت زائدة في كثير من الأحيان، تظهر من جانب واحد، كما يفترض ذلك في حالة الشقيقة، بل كانت تلازم داخل العينين وفوقهما، في عذاب مبرِّح، وقد قُيِّم ذلك آخر الأمر، من قبل الطبيب على أنه عَرَض مرضي لخاصّة مُرافِقة. وكان تشخيصه يشير، مع التحفُّظ آخر الأمر، الى شيء مثل

القرحة المعدية، وقد هيّأ المريض لنزف يعرض له بين الحين والآخر، غير أنه لم يحدث، ووصف له حلاً يتمثل في حجر جهنم (نترات الفضة) يتناوله باطنياً، وحين لم يحقق هذا نجاحاً، تحوَّل الى إعطائه جرعات قوية من الكينين، مرتين في اليوم، وأفضى هذا في الواقع الى التخفيف بصورة عابرة. ومع ذلك فقد تجددت، على فواصل زمنية تبلغ أسبوعين، ثم على مسافة يومين كاملين، النوبات المشابهة جداً لنوبات دوار البحر الثقيلة، وسرعان ماتعرَّض تحديد كوربيس للمرض لهزة وتَأَرْجُح، أو رَسَخ بمعنى آخر: إذ بات يعتقد أن من الواجب أن تعدَّ معاناة صديقي الآن، على وجه اليقين، نزلة معدية مزمنة، مقترنة في الحقيقة بتوسُّع في الجانب الأيمن من المعدة، مقترنٍ بأشكال من الاحتقان الدموي، تحدُّ من تغذية الرأس بالدم. ووصف الآن ملحاً فوّاراً من كارلسباد، وقوتاً علاجيّاً(*) بأقل حجم ممكن، بحيث كانت وصفة الطعام تكاد لاتقدم سوى اللحم الطري والسوائل، والحساء، كما كانت تنهى عن الخضار، وما يتخذ من الدقيق، والخبز. وكان هذا يتوجَّه أيضاً ضد تكوُّن الحموض الشديد الباعث على اليأس الذي كان أدريان يعاني منه، والذي كان كوربيس يميل الى أن ينسب إليه عللاً عصبية بصورة جزئية على الأقل، أي مفعولاً مركزياً، أي الى المخ الذي أخذ يلعب هنا دوراً في تكهُّناته التشخيصية لأول مرة، وكان ينزع، على نحو يزداد شيئاً فشيئاً، الى أن ينسب ظاهرات الألم والمعاناة الى الدماغ، إذ كان توسع المعدة قد تم شفاؤه من دون أن تزول أوجاع الرأس والأشكال الثقيلة من الغثيان، - وكان يؤيده في ذلك رغبة المريض الملحّة في وقايته من النور: وذلك أنه

(*) Diät

كان يقضي شطر يومه في حجرة شديدة الظلمة، حتى عندما يكون خارج سريره، إذ كان الضحى المشمس يكفي لإرهاق أعصابه الى مدى يبلغ منه أنه كان يتعطّش الى الظلمة ويستمتع بها مثلما يستمتع المرء بعنصر باعث للارتياح. ولقد قضيت أنا بعض ساعات النهار أحادثه في حجرة رئيس الدير التي كان يبلغ من إظلامها أن المرء لم يكن يستطيع أن يتبيَّن معالم الأثاث فيها، وأن يميِّز بريقاً باهتاً من الخارج على الجدران إلاّ بعد اعتياد طويل.

وفي هذا الوقت كانت القبعات الثلجية، وصَبّات الماء البارد على الرأس في الصباح، هي الاستعمالات الموصوفة، وقد سجلت هذه نجاحاً أفضل من الاستعمالات السابقة، وإن كانت مجرد وسائل مُسَكِّنة لم يكن أثرها الملطِّف يسمح بالحديث عن تماثل للشفاء: إذ كانت الحالة الرهيبة لم تتحقق إزالتها، وكانت النوبات تعود على نحو متقطِّع، وكان الرجل الذي كان يعاني يعلن أنه يريد أن يحتملها بلاريب، لولا أن ثمة شيئاً كان يتواصل فيما بين ذلك، وهو الألم المتواصل والضغط في الرأس، على العينين، والشعور الإجمالي الذي هو من نوع الشعور بالشلل، الذي يصعب وصفه، من قحف الرأس الى رؤوس أصابع القدمين، والذي كان يبدو أنه يبهظ بثقله أعضاء الكلام، حتى لقد كان حديث الرجل الذي كان يعاني، ينطوي أحياناً، سواء وَعى ذلك أم لم يكن يعيه، على شيء كأنما يُجَرُّ جراً، من جراء الاستعمال الواهن للشفتين، وعلى شيء من النقص في النطق بالكلمات. بل كنت أقرب الى الاعتقاد بأنه لم يكن يلقي بالاً الى ذلك، إذ لم يكن يدع هذا يعوقه عند الحديث، غير أنني كنت أنطوي، من ناحية أخرى، على انطباع

مؤداه أنه كان يستخدم هذا المُعَوِّق على وجه الخصوص، ويرتضيه، لكي يقول أشياء كان هذا الأسلوب في الإفضاء يبدو ملائماً لها، بطريقة معينة، غير مكتملة تماماً ومخصصة لكي تُفهم فهماً جزئياً، وكأنه يتحدث من عالم الحلم. وهكذا كان يحدثني عن عذراء البحر الصغيرة في أقاصيص أندرسن التي كان يحبها حباً فائقاً، ويعجب بها، ولم يكن آخر ذلك الوصفُ الممتاز فعلاً للمجال الفظيع الخاص بساحرة البحر وراء الدُوّامات الجارفة في غابة الأخطبوط التي اطمأنت إليها نفس الطفلة المشوقة، لكي يكون لها، بدلاً من ذيل السمكة ساقان بشريتان، وربما لتظفر، عن طريق حب الأمير ذي العينين السوداوين - إذ كانت لها، هي، عينان «في مثل زرقة البحر المتناهي في العمق» بروح لايتولاها الفناء. وكان يعبث بالمقارنة بين الألم الحاد كالسكين الذي وجدت الجميلة الصامتة نفسها مستعدة لاحتماله مع كل خطوة، على وسيلَتيْ مشيها البيضاوين، وبين ما كان عليه أن يتحمّله هو ذاته بغير انقطاع، وكان يسميها أخته في الكآبة، وكان يمارس بالمناسبة نوعاً من النقد المألوف والفكاهي لسلوكها، وعنادها، وحنينها العاطفي الى عالم البشر ذوي الساقين.

وقال: «تبدأ المسألة مباشرة بعبادة التمثال المرمري الذي وصل الى قاع البحر، بالفتى الذي يعود، على مايبدو، الى ثورڤالدسن، والذي تجد فيه قدراً من الذوق كثيراً الى حد غير مسموح به. وقد كان ينبغي للجدة أن تنتزع منها هذا التمثال، بدلاً من أن تسمح للصغيرة أن تزرع بعدُ شجرة صفصاف محزونة في مثل حمرة الورد، أيضاً، في الرمل الأزرق، وكان القوم قد تركوها في وقت مبكر تشرُد فوق ماينبغي، ثم وصلت

الرغبة في العالم العلوي الذي يُقدَّر فوق قدره الى درجة هستيرية، وفي «الروح الخالدة»، لايمكن كبح جماحها بعد. فلماذا كانت الرغبة في الروح الخالدة؟ إنها رغبة حمقاء تماماً؟ فمن الأمور الباعثة على الاضطراب الكثير أن المرء يتحول بعد الموت الى زبد فوق البحر، كما يتهيّأ ذلك للصغيرة بحكم الطبيعة. ويقال إن ساحرة بارعة قد اجتذبت إلى الماء رأس الأمير الأجوف هذا، الذي لايعرف كيف يقدرها أبداً، ويتزوج، أمام عينيها امرأة أخرى، وأغرته بالتدحرج الى درجات قصرها المرمرية، ثم أغرقته بهدوء، بدلاً من أن تربط مصيرها بغبائه، كما كان من شأنها أن تفعل ذلك. والأرجح أنها كانت خليقة أن تحب بذيل السمكة التي ولدت به. بهوى أكثر حرارة الى حد بعيد مما يتاح لها وهي بالساقَيْن البشريتين المؤلمتين...».

وتحدث بموضوعية لم يكن من الممكن أن تكون إلاّ هزلية، ولكن بحاجبين متقلصَيْن، ومع ذلك بوضوح جزئي فحسب، وبشفتين تتحركان على غير إرادة منهما، عن المزايا الجمالية لشخصية الساحرة في مقابل البشري المتشعِّب، وعن سحر الخطوط الذي ينساب به جسد النساء من الوركين الى ذيل السمكة. وكان ينكر هنا كل ماهو هائل مشوَّه يلازم في العادة التَّوْليفات الميثولوجية للبشري مع الحيواني، ويتصرَّف كما لو كان لايسلِّم بأن مفهوم الخيال الميثولوجي هو في محله على وجه الإطلاق: فالأنثى البحرية تتمتع بواقع عضوي كامل، بالغ الجاذبية، كما يحسّ به المرء في الواقع حقَّ الإحساس، في مواجهة ظرف عذراء البحر الصغيرة المهزومة التي تثير الشعور بالرثاء، بما تنطوي عليه من تعاسة، بعد أن تشتري لنفسها ساقين، الأمر الذي لايحمده لها أحد - قائلين إنها قطعة

من الطبيعة لاريب فيها، ظلت الطبيعة مدينةً به، - إذا ظلت مدينة به، وهو مما لايعتقده، بل يعرفه على نحو أفضل، وهكذا دواليك.

ومازلت أسمعه يتحدث على هذا النحو، أو يغمغم بنزعة الى المُزاح مشوبة بالتجهّم، كنتُ أجيب عنها بالهزل، وفي القلب، الى جانب الإعجاب الهادئ بالمزاج الذي كان يعرف كيف ينتزعه من الضغط الذي كان جاثماً عليه على مايبدو. وكان هذا هو الذي كان يحملني على إقراره على رفضه للمقترحات التي كان الدكتور كوربيس يتقدم بها بحكم واجبه: إذ كان يوصيه، أو يدعوه الى النظر في استشارة مرجع طبي أعلى، ولكن أدريان كان يتفادى ذلك، ويأبى أن يقرّ به، وقال إنه ينطوي، أوّلاً، على ثقة كاملة بكوربيس، وإنه مقتنع، فضلاً عن ذلك، بأنه لابدأن ينتهي الى الخلاص، بالاستناد الى طاقته الخاصة، والى الطبيعة، من الغثيان، وحده، بدرجة تقل أو تكثر. وكان هذا يتماشى مع شعوري الخاص، على أنني كنت أحرى أن أميل الى تبديل في المحيط، أو الى إقامة استشفائية أوردها الطبيب في مقترحه أيضاً، من دون أن يتمكن من إقناع مريضه بذلك، كما كان من الممكن توقُّع هذا، وكان هذا المريض أكثر تعلقاً بإطار حياته هذا الذي اختاره واعتاده على نحو حاسم، من البيت والمزرعة، وبرج الكنيسة، والبركة، والرابية، كما كان أكثر تعلقاً بحجرة دراساته العائدة الى العصر القديم، وكرسيه المخملي، من أن يسمح لنفسه بأن تراودها فكرة استبدال هذا كله، ولو مدة أربعة أسابيع فحسب، بأهوال حياة في مَرْبَع للاستحمام، ومائدة نزلائه، والنزهة والموسيقا الاستشفائية، وكان يتعلّل، قبل كل شيء، بمراعاة جانب السيدة شفايجشْتِل، التي لم يكن يرغب في تكدير صفوها

بتفضيل أي رعاية خارجية، في أي مكان من العالم ، على رعايتها ، إذ يشعر ، بلاريب، وهو تحت رعاية هذه الأم المتميِّزة بالفهم، والأُناة والرزانة، أنه يتمتع بعناية أفضل الى حد بعيد. وقد كان في وسع المرء أن يتساءل بالفعل أين كان خليقاً أن يحظى بمثل مايحظى به عندها ، وهي التي كانت تأتيه الآن، وفقاً لأحدث التوصيات، بالطعام كل أربع ساعات: ففي الساعة الثامنة بيضة، وكاكاوا وبُقْسماط، وفي الساعة الثانية عشرة قطعة صغيرة من البُفْتيك أو الكُسْتِلاتة، وفي الساعة الرابعة حساء، ولحم، وشيء من الخضار، وفي الساعة الثامنة شواء بارد وشاي وكان هذا النظام الغذائي باعثاً للشعور بالانتعاش، إذ جنَّبه حمى هضم الوجبات الكبيرة.

وكانت ناكيدي، وكونيجونده روزنشتيل تزوران بفايفرينج على سبيل التناوب، وكانتا تأتيان بالأزهار، والمخللات، وأقراص الفلفل والنعنع، ونحو ذلك مما يسدّ النقص السائد. ولم يكن يسمح لهما بالدخول دائماً، بل كان من النادر أن يُسْمَح لهما، وهو ما لم يكن يربك أيّاً منهما. وكانت كونيجونده تعوِّض نفسها في حالة الرفض برسائل محكمة الصياغة على وجه الخصوص، محرَّرة بأنقى لغة ألمانية وأرقاها، ولم تكن ناكيدي تحظى بمثل هذا العزاء بالطبع.

وكان يسرُّني أن أتعرَّف على روديجر شيلدكناب، ذي العينين المتماثلتين لدى صديقنا. وكان حضوره يحدث أثراً في نفسه يبعث على الطمأنينة، وإشراق الوجه، الى حد بعيد، - إذا ما أتيح له ذلك مزيداً من المرات فحسب! غير أن مرض أدريان كان واحداً من الحالات الجدية التي دأبت على بعث الشلل في تَلَطُّف روديجر، - فنحن نعلم أن شعوره

برغبة الناس الملحة فيه كان يجعله جموحاً معانداً، ضنينا بنفسه، على أنه لم يكن يفتقر الى ألوان الاعتذار، وأقصد: إمكانات عقلنة هذا الاستعداد النفسي الخصوصي: اعتزاله الناس بكسبه القوت عن طريق الأدب، هذا العذاب بالترجمة، وكان من الصعب أن يكون غير مشغول، وفضلاً عن ذلك كانت صحته تعاني من أحوال التغذية الرديئة، وكان يعاني من نزلات معوية أكثر تواتُراً، وكان إذا ظهر في بفايفرينج كان على جسده حزام قطني - إذ كان يأتي، على كل حال، في هذه المرة أو تلك، بل كان يرتدي أيضاً، بلاريب، منديلاً له غطاء من مادة الجوتا برشا، - وكان هذا مصدراً للفكاهة اللاذعة، والتندُّر الأنجلوسكوني عليه، كما كان أيضاً مصدراً لإضحكاك أدريان الذي لم يكن يستطيع أن يرتقي بنفسه فوق أفانين عذاب الجسد، بحرية النكتة، والضحك، مع أحد، مثلما كان يفعل ذلك مع روديجر.

وكانت زوجة الشيخ روده تأتي أيضاً، بحكم البدهية، من حين الى آخر، من ملاذها الغاصّ بالأثاث البورجوازي، لكي تستفسر لدى السيدة شفايجشْتِل عن حالة أدريان حين لايكون في وسعها أن تراه هو ذاته. فإذا استقبلها، أو التقيا في الخلاء، حدثته عن ابنتيها وهي تحافظ على انغلاق شفتيها فوق ثغرة في أسنانها الأمامية، إذ كان يوجد، هنا أيضاً، فضلاً عن متاعب شعر الجبين، متاعب كانت تحملها على الهرب من الناس. وكانت تروي أن كلاريسا تحب مهنتها الفنية أيّما حب، ولاتسمح أن يقلل من سرورها بممارستها، برود معيَّن من جانب الجمهور، وفرط النقد العيّاب، والقسوة الوقحة من جانب هذا المدير من مدراء المسارح أو ذاك: إذ كان هذا يصيح بها قائلاً من وراء الكواليس:

«بسرعة، بسرعة!» عندما كانت توشك أن تمثل مشهداً إفرادياً باستمتاع، وكان الالتزام الذي انطلقت منه قد انقضى أجله، في تسيّله، على أن الالتزام التالي لم يرتَقِ بها الى ماهو أعلى شأناً: وكانت تمثل الآن أدوار عاشقات من الصبايا في إلبينج، في بروسيا الشرقية البعيدة، غير أنها كانت تأمل في الحصول على التزام في المملكة الشرقية، أي في بفورتسهايم، حيث لم تكن القفزة من هناك الى مسارح كارلسروهه أو شتوتجارت بعيدة في النهاية. وكان المهم في هذا المسار هو أن لاتظل خطاها تتعثَّر في الريف، بل أن تثبِّت أقدامها في بعض الأحيان في مسرح كبير من مسارح الأقاليم، أو في مسرح خاص من مسارح العواصم يتمتع بالأهمية الفكرية. وكانت كلاريسا تأمل أن تكون لها الغلبة والفوز. ولكن كان يستفاد من رسائلها، وعلى الأقل من رسائلها الى أختها، أن ألوان نجاحها كانت الى الطبيعة الشخصية أي، الشهوانية، أقرب منها الى الطبيعة الفنية. وما أكثر المطاردات التي كانت ترى نفسها معرَّضة لها، والتي كان رفضها ببرودتهكُّمي يستنفد جزءاً من طاقتها. وكانت قد روت لإنيس، وإن لم تَرْوِ لأمها مباشرة، أن رجلاً غنياً من أصحاب المحال التجارية، له لحية بيضاء، وإن كان، بالمناسبة، في حالة صحية لابأس بها، أراد أن يتخذ منها عشيقة له، ووعدها بمعيشة مستعذبة، من مسكن وسيارة وثياب، تمكنها من إسكات كلمة المخرج القليلة الحياء، حين يقول لها: «بسرعة، بسرعة!»، كما كانت خليقة أن تغيِّر مزاج النقد. ولكنها كانت أكثر زُهُواً بنفسها من أن تؤسس حياتها على هذا الأساس، وقال إن مايعنيها هو شخصيتها، لاشخصها، وصُدَّ التاجر، ومضت كلاريسا الى كفاح جديد،

نحو إلبينج.

أما ابنتها السيدة إنستيتوريس فكانت أقلّ تفصيلاً في الحديث عنها: إذ كانت حياتها تبدو أقل حُفولاً بالحركة، والجرأة، وكانت أقرب الى النمط الطبيعي، والمضمون - إذا ما نظر المرء إليها من الجانب السطحي، وكانت السيدة روده تريد أن تراها من جانبها السطحي على مايبدو، أي أنها كانت تصف زواج إنيس بأنه سعيد، الأمر الذي كان يمثل شكلاً صارخاً من أشكال السطحية العاطفية. وفي تلك الأيام على وجه الخصوص كان التوأمان قد خرجا الى الدنيا، وتحدثت زوجة الشيخ بتأثُّر بسيط، عن الحدث، وعن الأطفال الثلاثة المدللين كالأرانب الصغيرة، وكنُدَف الثلج الأبيض، الذين كانت تزورهم من حين الى آخر في حجرة الأطفال المثالية وكانت تثني بلهجة التوكيد على كبرى بنتيَهْا، وهي مزهوَّة بها، لقوة الإرادة التي تعرف كيف تحقق بها لإدارتها المنزلية الخُلوَّ من كل شائبة على الرغم من الظروف المعاكسة. ولم يكن من الممكن التمييز في مسألة هل كانت الحكاية، أي حكايتها مع شفيرتفيجر، غير معروفة لديها بالفعل، أم تراها كانت تتظاهر بذلك فحسب، وكان أدريان، كما يعلم القارئ، يطلع على هذه الأمور عن طريقي. بل لقد تلقى ذات يوم اعتراف رودولف بذلك - وكان حدثاً غريباً.

وقد أظهر عازف الكمان أثناء مرض صديقنا الحادّ قدراً كبيراً من الاهتمام والمشاركة، والإخلاص والتعلّق، بل كان يبدو كأنه يود لو ينتهز الفرصة ليكشف له عن مقدار حسن مقصده وميله، - بل أكثر من ذلك بعد: إذ كان انطباعي يفيد أنه كان يعتقد أنه كان ينبغي له أن يستغل

حالة أدريان وما فيها من المعاناة، والتردّي، والحيرة والتردد الى حد ما، كما قال حقاً، ليبذل مساندته الكاملة، الكبيرة، التي يدعمها قدر كبير من سحر شخصيته، لكي يتغلّب على جفاء، أو نُفْرة وبرود، ورفض ساخر كان يزعجه لأسباب تقل أو تكثر، أو يؤلمه، أو يجرح كبرياءه، أو يجرح شعوراً حقيقياً - والله يعلم كيف كانت حقيقة المسألة! وإذا تحدث المرء عن طبيعة رودولف الميالة الى الغزل، كما لابدّ للمرء أن يفعل - فمن السهل أن يتعرَّض المرء لخطر قول كلمة واحدة فوق ماينبغي، ولكن ينبغي للمرء أيضاً ألاّ يقول أقلَّ مما ينبغي ولو بمقدار كلمة واحدة، وكانت هذه الطبيعة، تبدو لي، من جانبي كما كانت تبدو، تجلّياتها، على الدوام، في ضوء نزعة شيطانية ساذجة مطلقة، وطفولية، بل عفريتيّة، كنت أعتقد أنني أرى انعكاس بريقها في بعض الأحيان يضحك من عينيها الزرقاوين الجميلتين جمالاً فائقاً.

وكان يكفي، كما قلت، أن شفيرتفيجر كان يعنى عناية جدِّية بصحة أدريان، وكثيراً ماكان يستفسر عن حالته بالهاتف لدى السيدة شفايجشْتِل، ويعرض زيارته بمجرد أن يكون هذا قابلاً لأن يُحتَمَل بوجهٍ ما، ويكون موضع الترحيب من أجل التسلية، وذلك أنه أتيح له بُعَيْد ذلك أن يأتي، ذات مرة أيضاً، في أيام التحسُّن، وكان يرسم على مظهر لقائه أكثر مظاهر السرور جاذبيّة، بل كان يخاطب أدريان بلهجة رفع الكلفة في مستهل الزيارة، مرتين، ليصحّح لهجته في الثالثة ويخاطبه بلهجة التوقير في النهاية، إذ كان ذلك لايجاريه. وكان أدريان يخاطبه في بعض المناسبات أيضاً باسمه الأول، من باب العزاء، وعلى سبيل الاختبار الى حدٍّ ما، ولئن لم يكن ذلك بالصيغة المصغَّرة، كما كان

مألوفاً بوجه عام عند شفيرتفيجر، فقد كان بلاريب بالصيغة الكاملة، أي باسم رودلف، غير أنه سرعان مايرجع عن ذلك، مرة أخرى، وقد هنَّأه بالمناسبة بألوان النجاح الجميلة التي أتيحت لعازف الكمان مؤخراً. وكان قد أقام في نورنبرج حفلة موسيقية خاصة به، وذلك، على وجه الخصوص، بأداء ممتاز لتوليفات في «مي - ماجور» لباخ (للكمان فحسب)، لفتت أنظار الجمهور والصحافة. وكانت نتيجة ذلك ظهوره عازفاً منفرداً في إحدى الحفلات الموسيقية لأكاديمية مونيخ، في القاعة الموسيقية، حيث لقي أداؤه النظيف، الحُلْوُ، الكامل من الوجهة التقنيّة، لعزف تارتيني، إعجاباً فائقاً، وقد احتمل القوم صوته الضعيف في مقابل ذلك، إذ كان لديه مايعوِّض عن ذلك في مضمار الموسيقا (وفي المضمار الشخصي أيضاً). وكان ارتقاؤه الى وظيفة العازف الأول في أوركسترا تسابفنشتوسَّر، التي كان المتقلِّد لها حتى الآن قد استقال ليتفرَّغ للتعليم وحده من بعدُ، على الرغم من صباه - وكان يبدو أحدث سناً الى حد بعيد مما كان عليه في الحقيقة، بل كان مما يلفت النظر أنه كان يبدو حتى أحدث سناً مما كان عليه أيام تعارفي الأول معه، - كان هذا الارتقاء الآن مسألةُ مفروغاً منها.

ومع هذا كله كان رودي يظهر اكتئابه من جرّاء ظروف معينة تتصل بحياته الخاصة، - من جراء علاقته بإنيس إنستيتوريس، التي أفاض في الحديث عنها في خُلْوة مع أدريان، في جوّ من الألفة والثقة. وبالمناسبة فإن عبارة «في خلوة»(*) ليست صحيحة تماماً، أو لاتعبِّر عن

(*) لابدّ، من أجل فهم هذه العبارة ومايليها، من الإشارة الى دلالتها الحرفية الأصلية، إذ يعبِّر الألمان عن الخلوة بين إنسانين بقولهم مامعناه حرفياً: بين أربعة عيون (unter vier Augen)، ووجه المفارقة هنا أن العيون ذاتها لم يكن لها في هذا اللقاء من عمل، بسبب الظلمة. «المترجم».

المقصود بدرجة كافية تماماً، إذ كان الحديث يجري في حجرة مُعَتَّمة ولم يكن كل منهما يرى صاحبه مطلقاً، أو كان يرى منه شيئاً كالظل، وكان في ذلك تشجيع وتسرية بلاريب لشفيرتفيجر في اعترافاته، وذلك أن الوقت كان يوماً من أيام كانون الثاني، فائق الإشراق، أزرق السماء، مُشمساً، يتألّق فيه الثلج، من عام ١٩١٩، وكان أدريان قد عانى بعد وصول رودلف مباشرة، وبعد التحية الأولى، وهو معه في الخارج، من أوجاع الرأس المبرِّحة ماحمله على أن يلتمس من ضيفه أن يشاطره الظلمة الواقية التي جرّب ماتبعثه من الارتياح، هنيهة على الأقل.

وإذاً فقد كان القوم قد تبادلوا قاعة إلهة النصر، حيث كانوا يقيمون بادئ ذي بدء في حجرة رئيس الدير، وحبسوا عنها الضوء بالأدراج والستائر، على نحو بلغ من كماله أن الجوّبات كما كنت أعرفه: ففي البداية غَشِيَ العيون ليل كامل، ثم تعلّموا، على وجه التقريب، كيف يميِّزون وضع الأثاث، وباتوا يحسّون ببريق الضوء الخارجيّ الذي كان يرشح إليهم واهناً، في صورة بريق شاحب على الجدران، واعتذر أدريان مراراً، وهو قاعد في كرسيه المخمليّ، غارقاً في الظلام، عن هذه الإساءة، ولكن شفيرتفيجر الذي كان قد أخذ مقعد ساڤونا رولا الذي كان أمام منصة الكتابة، كان مرتاحاً كل الارتياح، قائلاً إنه إذا كان ذاك يريحه هذا - وهو يستطيع أن يتصورً من دون أدنى شك، مقدار مالابد أن يبعثه هذا من الارتياح - فهو أحب الأمور إليه أيضاً، وتحادثا بصوت مكتوم، بل خفيض، وكان ذلك، من ناحية، لأن حالة أدريان كانت تضطره الى ذلك، ومن ناحية أخرى، لأن المرء لابدَّ أن يَغُضَّ صوته وهو في الظلام، على غير إرادة منه، بل يسفر الظلام عن ميل معين الى

الإخلاد الى الصمت، والى انتهاء الحديث، ولكن تهذيب شفيرتفيجر وما اكتسبه من التحضُّر والممارسة الاجتماعية في درسدن لم يكن يحتمل توقُّفاً، وطفق يتحدث بلسان طلق، في تجاوز للنقاط غير ذات الأهمية، على الرغم من عدم اليقين الذي يجد المرء نفسه فيه، مع غلبة الظلام، بصدد رد فعل الآخر، وتعرض المتحدِّثان للوضع السياسي المتسم بسمة المغامرة، وأشكال القتال في عاصمة الرايْش، ثم تحوَّل الحديث الى أحدث ألوان الموسيقا، وعزف رودلف، بنقاء كبير، على المزمار، شيئاً من «ليالٍ في الحدائق الأسبانية، ومن سوناته ديبوسي»، للناي، والكمان، والجنك، كما عزف أيضاً، على المزمار، موسيقا البوريّه (الخاصة برقصة الجاقوت)، من مسرحية «خاب سعي العشاق»، أيضاً، في المقام الموسيقي الصحيح على وجه الدقة، وعلى أثر ذلك فوراً، الموضوع الهزلي، موضوع الكلب الصغير الباكي، من مسرحية العرائس «المكر الذي لايرجو لله وقاراً»، من دون أن يتمكّن من الحكم في مسألة هل كان ذلك يسرُّ أدريان ويمتعه، أم لا. وأخيراً تنهَّد وقال إنه لايروق له العزف على المزمار أبداً، بل يُثْقل على قلبه أو إنه إذا لم يكن ثقيلاً على قلبه فهو مزعج، ممّل، لايمكن الصبر عليه، وهو على أية حال حافل بالهموم الى حد يبعث على الحيرة، أي أنه عسير مع ذلك. ولماذا؟ ويقول إن الإجابة عن ذلك ليست يسيرة بالطبع، وإنها ليست حتى مباحة حق الإباحة، إلاّ أن تكون بين الأصدقاء، حيث لايدخل الأمر بالتحفُّظ في الميزان الصحيح للحكم، وهو هذا الأمر الفروسي المتصل بالشهامة، والذي يقتضي احتفاظ المرء بقضايا النساء لنفسه، والذي لاريب أنه دأب على الالتزام به، فهو ليس من أهل اللغو، غير أنه لايعد مع ذلك

مجرد فارس شهم أيضاً، والناس يخطئون كثيراً إذا مارأوا فيه مجرد مثل هذا الرجل،- أي رجلاً سطحياً من أهل الشهوات وعاشقاً متيَّماً فمثل هذا خليق أن يثير الاشمئزاز. أمّا هو فإنسان وفنان، وهو يعزف على وتر تحفُّظ الفرسان - وبهذا الاعتبار فهو لا يكترث بتحفّظ الفنانين - حيث يُعدّ ذلك الذي يتحدث إليه ممن يعرفون، على وجه اليقين، معرفة لاتقل عن معرفة الناس جميعاً. وجملة القول إن المسألة تتعلق بإنيس روده، والأصح بإنستيتوريس، وبعلاقته معها، وهي العلاقة التي لايستطيع حيالها شيئاً. «لا أستطيع حيالها شيئاً، يا أدريان، صدقني، صدقني! أنا لم أُغْرِها، بل كانت هي التي أغوتني، والقرون التي بات يحملها إنستيتوريس الضئيل على رأسه، إذا شئنا أن نستخدم هذا التعبير المبتذل، هي من صنعها وحدها، لا من صنعي. وما عساك تصنع عندما تتشبث بك امرأة كأنها تشرف على الغرق، وتريد أن تتخذ منك عشيقاً؟ أتريد أن تدع ثوبك الخارجي في يديها، وتهرب؟». كلاّ، هذا عمل ماعاد المرء يقدم عليه، بل توجد هنا الآن وصايا تتصل بالفروسية والشهامة لايبيح المرء لنفسه أن يهملها، إذا افترضنا فوق ذلك أيضاً أن السيدة جميلة، وإن كان ذلك أيضاً بطريقة تنطوي على وخيم العواقب، وعلى المعاناة، ولكنه يُعَدُّ، هو أيضاً، من المؤمنين بالقضاء والقدر، ومن أهل المعاناة، فهو فنان مجتهد، وكثيراً مايكون مترعاً بالهموم، وماهو بالوثّاب الخفيف الحركة، ولا هو من أهل الدعة والخمول، أو ممن يتسمون بأية خصلة من الخصال الأخرى التي يتصورها الناس فيه، وقال، إن إنيس تتصوَّر فيه خصالاً شتى، وهي خاطئة كل الخطأ، وهذاماينشئ علاقة منحرفة، وكأن مثل هذه العلاقة تعدّ في حد ذاتها منحرفة بما

يكفي، بما تنطوي عليه من المواقف ذات الحُمق والإسفاف التي تجرَّها معها على نحو متواصل، وبما تضطر صاحبها إليه من الحذر في كل اتجاه. أما إنيس فتحتمل هذا كله بسهولة أكبر، وذلك لسبب بسيط، هو أنها تحبّ حبّاً جامحاً - وهو يستطيع أن يعبِّر عن هذا أكثر مما تستطيعه هي، على أساس تصوراتها الخاطئة، وهو يعد هنا في موقع المغبون، إذ لايحب: «أنا لم أُحْبِبْها قطّ، وهذا ما أعترف به علانية، ولم أكُنْ أكِنُّ لها إلاّ أحاسيس الأخ والرفيق. أمّا أنني استرسلت معها على هذا النحو، وجَرَرتُ على نفسي هذه العلاقة الحمقاء التي تتشبَّث بها فقد كان هذا مجرد مسألة واجب من واجبات الفروسية والشهامة من جانبي». وقال إنه لابدّ له أن يضيف قائلاً، في ثقة، مايلي: إن هذا الهوى له جانبه المزعج الحرج، بل المشين الذي يحطّ من مكانة المرء، عندما يكون الهوى هوىً يائساً على وجه الخصوص، من جانب المرأة، على حين لايزيد الرجل على أن يؤدي واجبات الفروسية والشهامة، وأن هذا يعكس، على أيّ نحو من الأنحاء، علاقة التملُّك، ويفضي الى أرجحيّة للمرأة في الحب لاتبعث على السرور، حتى إنه ليضطر الى أن يقول إن إنيس تتعامل مع شخصه، وجسده، مثلما يتعامل الرجل في الحقيقة، وعلى نحو صائب، مع امرأة، - وذلك ممايؤدي الى أن تتعلق، فوق ذلك أيضاً، غيرتها المرضية، والمتشنِّجة، والتي لايوجد لها أي مبرِّر، بامتلاك شخصه امتلاك المنفرد بالملكية: فهي غير مبرَّرة، كما قلنا، لأنه يحوز على مايكفيه، على وجه الخصوص، فيها، وما يكفيه آخر الأمر منها ومن تشبّثها أيضاً، وكان شخصه غير المرئي، الذي يقابلها، شخصاً لايكاد يستطيع أن يتصور مقدار العزاء الذي يمثله

بالقياس إليه، في هذه الظروف على وجه الخصوص، قربُه من رجل رفيع المقام، يحظى من قبله هو ذاته بالاحترام، وجوّ مثل هذا الرجل، والتبادل معه. وقال إن الناس يحكمون عليه حكماً خاطئاً على الأغلب: فهو يؤثر كثيراً أن يخوض في حديث جدِّي يرتقي به، وينمي معارفه مع مثل هذا الرجل، على الرُّقاد مع النساء، على أنه لو قُدِّر له أن يصف نفسه ويميِّزها فهو يعتقد، بعد التمحيص الدقيق، أن أفضل مايفعله هو أن يصف طبيعته بأنها أفلاطونية.

وفجأة، وكأنما من أجل تصوير ماقيل لتوِّه، وصل رودي الى الحديث عن حفلة الكمان الموسيقية التي كان يتمنى كثيراً لو كتبها أدريان له، وأن يكتبها له على جسده، مع الوعد، قدر الإمكان، بحق العرض الحَصْرِيّ، قائلاً إن هذا هو حلمه! «أنا في حاجة إليك، يا أدريان، من أجل ارتقائي، واكتمالي، وتَحَسُّني، ومن أجل طهارتي، بمعنى ما، من الحكايات الأخرى، وإني لأقسم أن المسألة على هذه الصورة، وأنه لم يسبق لي قط أن كنت أكثر جدِّية في مسألة، أو في صدد حاجة، والحفلة الموسيقية التي ابتغيها منك هي مجرد الحفلة الأكثر تكثيفاً، وأودُّ أن أقول إنها التعبير الرمزي عن هذه الحاجة، وسوف تجعلها رائعة، وأفضل كثيراً من ديليوس وبروكوفييف، ولها موضوع أول في الفصل الرئيسي، بسيط بساطة لم يُسْمَع بمثلها، وقابل للغناء، ينبعث من جديد بعد المحط، - وهذه هي، دائماً، اللحظة الأفضل في حفلة الكمان الموسيقية الكلاسيكية. عندما ينبعث الموضوع الأول من جديد بعد عزف منفرد كالحركات البهلوانية، غير أنك لست في حاجة على الإطلاق الى أن تجعلها على هذه الصورة، وأنت لاتحتاج مطلقاً الى اتخاذ مَحَطّ، فهذا

أسلوب قديم (هو الضفيرة)، وفي وسعك أن تعكس كل التقاليد، كما تعكس تقسيم الفصول - فليس من الضروري أن تكون هناك فصول، وبالقياس إليّ يمكن أن تكون الحركة السريعة جداً في الوسط، زغرودة شيطانية حقيقية تلعب معها بالإيقاع ألعاباً بهلوانية على قدر ماتستطيع ذلك فحسب، ويمكن أن تأتي الحركة البطيئة في الختام، سُمُوّاً وتجلّياً، - ولايمكن لهذا كله على الإطلاق أن يكون مجانباً للتقاليد بما يكفي، وعلى كل حال فقد كنت أريد أن أضع ذلك، إذ أن الناس تسكَرُ أبصارهم، لقد أردت أن أتناوله وأتمثّله بحيث أستطيع أن أعزفه وأنا نائم، وأرعاه وأُعْنى به في كل نوطة، شأن الأم، لأنني خليق أن أكون له أمّاً، وأنت خليق أن تكون أباه، - إذاً لكان بيننا كالولد، ولداً أفلاطونياً، - أجل، حفلتنا الموسيقية، كانت هذه خليقة أن تكون على الوجه الصحيح، تحقيقاً لكل ماأفهمه من عبارة أفلاطوني».

هكذا كان شفيرتفيجر في تلك الأيام، ولقد تحدثت في هذه الأوراق لصالحه مراراً، ومازلت أتحدث اليوم، مادمت أدع هذا كله يحدث كأنما في مجلة مصوَّرة، وكان موقفي منه سَمْحاً ليِّناً، وقد اجتذبتني نهايته المأساوية الى حد ما. ولكن القارىء سوف يفهم الآن تعبيرات معينة استعملتها فيه فهماً أفضل، مثل تلك «السذاجة العفريتية» أو «الشيطنة الصبيانية» التي أشرت إليها على أنها وثيقة الصلة بجوهره وكيانه. ولو كنت مكان أدريان - ولكن من العبث بالطبع، أن أضع نفسي في مكانه - لما احتملت الكثير مما أعرب عنه رودلف. لقد كان هذا، على نحو حاسم، استغلالاً سيئاً للظلام، ولم تكن المسألة مجرد أنه مضى الى أبعد مما ينبغي له في صراحته في الحديث عن علاقته بإنيس،

- فقد ذهب الى أبعد مما ينبغي في اتجاه آخر، وكان شططه يستوجب العقوبة، كما كان عفريتيّاً - إذ أغراه بذلك الظلام، كما أودّ أن أقول إذا مابدا مفهوم الإغراء موضوعاً في موضعه الصحيح تماماً، ولم يكن من الأفضل أن يتحدث المرء عن لمسة من الألفة في تلك العزلة.

وهذا هو في الحقيقة الاسم الذي يطلق على علاقة رودي شفيرتفيجر بأدريان ليڤركون، وقد استغرقت هذه اللمسة وقتاً بلغ سنوات، ولم يكن من الممكن أن يجحد المرء نجاحاً معيناً، حافلاً بالكآبة: فقد أثبت عدم قابلية العزلة للدفاع عنها ضد مثل هذه الدعوة أنها ستكون من بواعث هلاك الداعي بلاريب.



(٣٤)

ولم يكن ليڤركون يشبِّه عذابه الخاص في أيام ذروة التدهور في صحته، بآلام السكين التي كانت تنتاب عذراء البحر الصغيرة فحسب، بل كان له في الحديث، من أجل ذلك، صورة أخرى كانت تستعمل بتجسيد أدقّ الى حد يلفت النظر، تذكرتُها حين فارقته وطأة المرض بعد شهور قلائل، في ربيع عام ١٩١٩، بأعجوبة، ونهض فكره، الذي كان يضاهي أبا الهول، ليصل الى أقصى درجات الحرية والقوة التي تستحق العجب والدهشة، فبات أقل تعوُّقاً، إذا لم نقل خالياً من العوائق، وعلى كل حال فقد كان شيئاً لايمكن وَقْفُه، وكان جارفاً بدرجة أكبر من ذي قبل، وليبلغ حد الإبداع الذي يبهر الأنفاس، - إذ كشفت لي في هذا الصدد تلك الصورة على وجه الخصوص، أن هاتين الحالتين، حالة الانحطاط وحالة الارتقاء، لم تكونا في وضع التقابل والتضاد، إحداهما في وجه الأخرى، من الجهة الداخلية، وأنهما لم تكونا تنشطران من دون أن تظل بينهما رابطة، بل كانت هذه تمهِّد لنفسها في تلك، وكانت متضمنة فيها الى حد ما، - مثلما كانت حقبة الصحة والإبداع المنبثقة بعد ذلك، على نحو معكوس أيضاً، لاتبعد عن شيء بُعْدَها عن أن تكون حقبة الإخلاد الى الراحة، بل كانت، في نوعها، على النحو ذاته، حقبةً للمعاناة، والابتلاء، والعمل المتلاحق، الحافل بالآلام، والموقف

الحَرِجِ المتأزّم... إني لأكتب كتابة رديئة! وذلك أن الرغبة في الإفضاء بكل شيء تدع جملي يطغى بعضها على بعض كالطوفان، وتدفعها بعيداً عن الفكرة التي شرعت في تدوينها، وتؤدي الى أن تبدو وكأنها تتيه عن العيون في شرودها. ولعلي أُحْسِن صنعاً حين استبق نقد القارىء. ولكن يأتي هذا الاندفاع والاسترسال في أفكاري من الاستثارة التي تنقلني إليها ذكرى هذا الزمان الذي أتناوله، وهو الزمن الدي تلا انهيار دولة السلطة الألمانية مع انحلالها المتوالي العميق الأثر، الذي جرف في زوبعته تفكيري أيضاً، وأمطر نظرتي الثابتة الى العالم بعاصفة من المستجدّات التي لم يكن من السهل عليها أن تعالجها. وكان الشعور بأن حقبة قد انتهت لم تكن تشمل القرن التاسع عشر فحسب، بل كانت تمتد الى الوراء حتى منطلق العصر الوسيط، الى نسف الروابط المذرسية، وتحرير الفرد، وميلاد الحرية، أي أنها حقبة كان عليَّ في الحقيقة أن أنظر إليها على أنها حقبة موطني الفكري اللاحق، وباختصار، حقبة النرعة الإنسانية المدنية، أقول إن الشعور بأن ساعتها دقت، وبأن طفرة من طفرات الحياة توشك أن تحدث، لتجعل العالم يدخل في فلك جديد، هذا الشعور المستديم بالترقُّب في أعلى درجاته لم يكن في الحقيقة، أوّل ماكان، نتاج نهاية الحرب، بل كان قد غدا نهاية نشوبها، لأربعة عشر عاماً خَلَوْنَ بعد نهاية القرن، وقد اتخذ من هذه الهزة، وهذا التأثر بالقدر، أساساً له، وهما الهزة والتأثر اللذان عايشهما من كان مثلي. فلا عجب الآن أنْ دفعت الهزيمة المفضية الى التشتُّت والتفتُّت بهذا الشعور الى الذروة، ولاعجب في الوقت ذاته، أن هذا تمكّن من النفوس في بلد من البلدان التي تقوّضت دعائمها مثل ألمانيا، بدرجة

أكثر حَسْماً مما كان ذلك عند الشعوب المنتصرة التي كان متوسط حالتها النفسية، بسبب النصر ذاته، أقرب الى النزعة المحافظة الى حد بعيد، ولم تكن هذه بحال من الأحوال تحسّ بالحرب على أنها الخط الفاصل العميق، التاريخي، كما كان ذلك يبدو لنا، بل كانت ترى فيه تكديراً لصفوها انتهى نهاية سعيدة، وأمكن للحياة بعد الفراغ منه، أن تتوجه من جديد الى المسار الذي كان هذا قد أخرجها منه. ومن أجل ذلك كنت أحسدها. كنت أحسد على وجه الخصوص فرنسا على التبرير والتوكيد اللذين أتيحا، في الظاهر على الأقل، لبنيتها الفكرية المدنية المحافظة، عن طريق النصر، وعلى الشعور باستخفائها في العقلانيّ - الكلاسيكي الذي أتيح لها أن تجنيه من النصر، وما من شك في أنني كنت خليقاً أن أشعر في تلك الأيام بأنني أحسن حالاً على الجانب الآخر من الراين، وبأنني أقرب الى أن أكون في موطني مما أنا عليه عندنا، حيث تسرّب، كما قلت، الكثير من الجديد، الباعث للتشويش، والمخاوف، والذي لم يكن لي بدٌّ أن أناقشه مع ذلك، بدافع من الضمير، الى نظرتي الى العالم، - وهنا أفكر في أمسيات المناقشات المختلطة في المسكن السُّوابيّ لرجل يدعى سكستوس كريدفسِن كنت قد تعرفت عليه في صالون شلاجنهاوفن، وسأعود إليه على الفور، لكي أقول هنا، بصورة مؤقتة فحسب، إن اللقاءات والمداولات الفكرية التي كانت تحدث عنده، والتي كنت أشارك فيها بدافع من محض الضمير، في كثير من الأحيان، أضافت الى معلوماتي قدراً غير قليل، - على حين كنت أشهد، في الوقت ذاته، بجماع نفسي، المستثارة من الأعماق، والتي كان يتولاها الفزع في كثير من الأحيان، ميلاد أحد المؤلفات على مقربة من محيط

الأصدقاء وهو مؤلِّف لم يكن يفتقر الى علاقات معينة جريئة، تنبؤية، بتلك المناقشات، وكان يؤكِّدها ويحققها على مستوى إبداعيّ أعلى.

وأضيف الى ذلك الآن أنني كان عليّ، مع هذا كله أن أهتمّ بوظيفتي التعليمية، وأن أصون واجباتي، ربّاً للمنزل، من الإهمال، وبذلك يفهم المرء الإجهاد المفرط الذي كان من نصيبي في تلك الأيام، وكان يسهم، مع التغذية الفقيرة بالحُرَيْرات، في خفض وزن جسمي خفضاً ليس بالقليل .

وهذا أيضاً أقوله لبيان خصائص مجريات الزمن السريعة، والحافلة بالأخطار، ولاريب في أن هذا لايهدف الى لفت نظر القارئ الى شخصي الضئيل الذي يظل يلائمه دائماً مكان في الخلفية فحسب من هذه المذكرات. أما أسفي على أن اجتهادي في السرد لابدَّ أن يثير انطباعاً يوحي بهرب الأفكار. فقد سبق أن عبَّرت عنه، وهو مع ذلك انطباع خاطئ، لأنني أتمسّك كل التمسُّك بمبادئي الفكرية، ولم أنسَ أنني كنت أريد تشبيهاً ثانياً، جذّاباً، يعبِّر عن الكثير، سوى ذلك التشبيه الخاص بعذراء البحر الصغيرة، الذي كان يستخدمه أدريان أيام آلامه المبرِّحة للغاية.

وكان يقول لي في تلك الأيام: «إن ما أشعر به مماثل على وجه التقريب، كما كان يشعر به يوهانيّ الشهيد في مرجل الزيت. ولابدّ لك أن تتصوَّر ذلك على نحو مماثل لهذا على وجه الدقة المتناهية. فأنا أقعد القرفصاء، شأن الصابر الخاشع، في البرميل الذي تُفْرْقع تحته نار الحطب المستَعِرة، وقد سَعَّرها بإخلاص رجل طيب بمنفاخه اليدويّ، تحت بصر صاحبِ جلالة إمبراطوريّ يتأملّ المسألة عن كثب - إنه الامبراطور

نيرون، كما يجب عليك أن تعلم، تركيٌّ كبير بهيّ الطلعة على ظهره عباءة إيطالية من القصب، - ويصبُّ عليَّ أجير الجلاّد الذي يرتدي سراويل ذات جيوب وسترة، الزيت الذي يغلي بمغرفة طويلة القبضة، حيث أقعد في خشوع، على قفاي، ويُصَبّ عليّ الزيت حسب أصول الفن، مثلما يصب الزيت على الشواء، شواء جحيميّ، وهو شيء يستحق الرؤية، وأنت مدعوٌّ، لكي تختلط بين المتفرجين المهتمين اهتماماً صادقاً، وراء الحاجز، من أهل إدارة البلدية، والجمهور المدعو، فريق منهم بالعمائم وفريق بالقلنسوات الألمانية القديمة الجيدة، وفوقها القبعات أيضاً، إنهم أهل المدن الطيِّبون - ومزاجهم التأمُّلي يستمتع بالوقاية من طعن الرماح، ويعرض كل منهم للآخر الحالة التي يمرّ بها شواء جحيميّ، ولكلٍّ منهم إصبعان على وجنته وإصبعان تحت أنفه. وثمة رجل بدين يرفع يده، كأنما يريد أن يقول: «فليحفظ الله كلاً منا!»، وثمة ارتياح أو انشراح، ساذج على وجوه النساء. ألا ترى ذلك؟ ونحن جميعاً في ازدحام شديد، والمشهد الحافل بالشخصيات حقاً، وقد أقبل معهم كلب نيرون الصغير، لكيلا تظل بقعة صغيرة خالية، وهو يتسم بسيماء ضئيلة دالة على الغضب كتلك التي تُرى في الكلب ذي الخطم الطويل. أمّا في الخلفية فيرى المرء أبراج كايسرزآشرن، وخارجات البناء المدبَّبة وجمالوناته...».

وقد كان ينبغي له بالطبع أن يقول: أبراج نورنبرغ، ذلك لأن ماكان يصفه، كان يوصف بمثل التجسيد الذي كان يصف به انتقال جسد الساحرة الى ذنب السمكة، حتى إنني عرفته قبل وقت طويل من فراغه من وصفه، وكان هذا هو الورقة الأولى من سلسلة نقش دورر على

الخشب، حول سفر الرؤيا. وأنىَّ يكون لي ألاّ أعود بتفكيري الى التشبيه الذي كان يبدو لي في تلك الأيام مأخوذاً على نحو غريب، والذي أوحى لي على الفور، مع ذلك، بأحاسيس داخلية معينة عندما تكشَّف لي بعد ذلك رويداً رويداً مشروع أدريان، وهو العمل الذي تمكَّن منه، إذ استحوذ عليه، والذي كانت طاقاته قد تجمعت من أجله بينما كانت جاثمة، حافلة بالعذاب؟ ألم يكن من حقي أن أقول إن أحوال الفنان المتسمة بالانحطاط، والأحوال ذات الارتقاء المثمر، والمرض والصحة عنده، لاتنفصل انفصالاً حاداً، بعضُها عن بعض، بحال من الأحوال، وأن ثمة عناصر من عناصر الصحة هي أحرى أن تعمل عملها في حالة المرض، وكأنما تحت حمايته، وأن تكون عناصر المرض تحدث أثرها في العبقرية، إذ تنتقل الى حالة الصحة؟ ولايكون الأمر على غير هذه الصورة. وأنا مدين بهذه النظرة المتبصِّرة لصداقة سبَّبَت لي كثيراً من الهم والفزع، غير أنها أفعمتني على الدوام بالفخر أيضاً: وهي أن العبقرية لها في عالم المرض تجربة عميقة، فهي تغترف منه، وتتحوَّل عن طريقه الى شكل إبداعيّ لطاقة الحياة.

وإذاً فمفهوم الموشّحة الدينية التي تتناول سفر الرؤيا، والاشتغال الخفيّ بها، يرجع بعيداً الى الوراء، الى عصر يتميّز بالاستنفاد الكامل لطاقات الحياة عند أدريان، وبالشدة والعنف والسرعة اللواتي دوَّنها بهن، بعد ذلك، على الورق، في أشهر قلائل، ولقد جعلني هذا على الدوام أتصورَّ أن تلك الحالة البائسة إنما هي نوع من الجوع والاستكنان كانت طبيعته تنسحب إليه، لكي ترسم وتطوِّر مشروعات لايضفي عليها الارتياح العام بحال من الأحوال جرأة المغامرة، وهي كأنما تنتزع، إذ

تُختَلَس مما هو سفلي، ويُؤتى بها من هناك، ويُكْشَف عنها، من دون أن يُستَرَق السمعُ إليها، ومن دون أن يُشتَبَه فيها، في خفاء لايُلْتَفَت إليه، معزول عزلاً مؤلماً عن حياتنا الصحية. وقد سبق أن ذكرت أن ما كان ينتويه لم يتكشَّف لي إلاّ خطوة خطوة، ومن زيارة الى زيارة. وكان يكتب، ويرسم المخططات ويجمع، ويدرس، ويؤلف الألحان، ولم يكن من الممكن أن يظل هذا خافياً عليّ، وكنت ألاحظ هذا بسرور داخلي عميق. وكانت الاستفسارات الهادفة الى جسّ النبض تصطدم، خلال الأسابيع بعدُ، بطريقة شطرها تمثيلي، وشطرها الآخر سر ليس بالمهول، بتكتُّم وممانعة واقعيين يتّسمان بالوجل والاستياء، وبضحكة مع تقلُّص الحاجبين، وعبارات مثل: «هلا تخلّيت عن الفضول، وحافظت على نقاء نفسك!»، أو: «أنت تظل دائماً، يا صاحبي الطيب، تطلّع على ذلك في وقت مبكّر بما يكفي»، أو، بوضوح أكبر، ومع استعداد أكبر للاعتراف: «أجل، هناك أمور فظيعة مقدسة تختمر. ويبدو أن الفيروس اللاهوتي ليس من السهل إخراجه من الدم، إذ لايفتأ يعود بنا الى الانتكاس العاصف فجأة».

وكانت هذه الإشارة تؤكد تكهنات خطرت ببالي لدى ملاحظة مطالعاته، إذ وجدت على منصة عمله كتاباً قديماً غير ذي شأن، وكان نقلاً بطريق الشعر الفرنسي، لرؤيا بولس العائدة الى القرن الثالث عشر، يرجع نصها الإغريقي الى القرن الرابع، وحين سألته من أين جاءه هذا، أجاب قائلاً:

«لقد دبَّرته لي السيدة روزنشتيل، وماهو بالطُرْفة الأولى التي بحثتْ عنها من أجلي. إنها امرأة ذات جدٍّ واجتهاد، ولم يغب عن بالها

أن لديّ ماأدَّخره لأولئك الذين تردَّوْا، وأقصد أنهم تردَّوْا في الجحيم. وهذا يوجد الألفة بين شخصيات متباعدة كل التباعد، مثل بولس وإنياس ڤرجيل، أوَتذكر أن دانتي يذكرهما معاً كأنهما أخوان، اثنان كانا هناك، في الأسفل؟.

وتذكرت، وقلت: «من المؤسف أن ابنة مضيفتك لاتستطيع أن تتلو عليك هذا».

وضحك قائلاً: «كلاّ، فلابدّ لي من استعمال عينيّ، للفرنسية القديمة».

وكان ذلك في الأيام التي لم تكن يستطيع فيها أن يستعمل عينيه، عندما كان ضغط الألم فوقهما، وفي عمقهما يجعل القراءة تستحيل عليه، وكانت كليمنتين شفايجشتل تضطر الى أن تقرأ عليه في كثير من الأحيان، وكانت تقرأ في الحقيقة أشياء كانت غريبة بما يكفي بالقياس الى الفتاة الريفية المنطوية على المودّة، ولم تكن أيضاً، مرة أخرى، غير ملائمة حين تخرج من فمها. وكنت أنا قد لقيت البُنيَّة الطيبة عند أدريان في حجرة رئيس الدير، وهي قاعدة قبالة ذلك المستقرِّ في الكرسي البيرنهايْميّ، وهي ذاتها، بظهرها المستقيم للغاية في كرسي سافونارولا، وراء منضدة الكتابة، تتلو بجرس ثقيل الواقع الى حد مؤثِّر، من كتاب المدرسة الابتدائية، بالألمانية الفصحى المتكلِّفة من مجلَّد بالورق المقوّى عليه بقع من الرطوبة والقدم، كان قد ورد المنزل على النحو ذاته بلاريب، عن طريق السيدة روزنشتيل الحاذقة، تجاريب الوجد التي خاضها ميشتهيلدفون ماجد يبورج. وكنت قد قعدت ساكناً في الركن، على الكرسي الطويل في الزاوية، ولبثت مِنْ بعدُ حيناً من الزمن

أصغي، وقد تولاّني الذهول، الى هذه المحاضرة الغريبة في ورعها، والطريفة، مع بعدها عن الصحة والإتقان.

هنالك عرفت أن الأمر كان كثيراً مايكون على هذه الصورة. فقد كانت الفتاة ذات العينين البنيّتين تقعد عند المتألّم، وتقرأ عليه، بنبرة من يقرأ الكتاب المقدس بنصّه اللاتيني، وبلهجة بنات المدارس، من كتاباتٍ مامن شك في أن السيد القس لم يكن لديه مايعترض به عليها: من أدب الرؤى والنظرات في العالم الآخر، في العصر المسيحي الأول وفي العصر الوسيط، في زيِّها الفلاحي الورع الذي يشهد على وجود رقابة كهنوتية، وهو ثوب أخضر بلون الزيتون، من الصوف، له خصْر مغلق حتى أعلاه، مجهّز بأزرار معدنية صغيرة قريبٍ بعضُها من بعض، يسطّح الصدر المتسم بسمة الصبا، كان ينسدل في طرف مدبَّب على الثوب المصفَّف على مدى بعيد، والطويل الذي يبلغ القدمين، وكانت تتخذ له حلية وحيدة تحت الزخرفة الحلزونية عند العنق، تتمثل في سلسلة من العملات الفضية القديمة. وكانت السيدة شفايجشتل الوالدة تدس رأسها من فرجة الباب من حين الى آخر، لتتفقد ابنتها التي كان من الممكن أن تحتاج إليها على كل حال، غير أنها كانت تومئ إيماءة الموافقة لكليهما، في إقرار ينطوي على المودة، وتنسحب من جديد، أو كانت تقعد أيضاً، عشر دقائق، لدى الباب، لكي تصغي، ثم تتوارى على أثر ذلك من جديد، من دون جَلَبة. وإذا لم تكن هذه التي كانت كليمنتينا تتلوها حالات غيبوبة ميشتهيلد، كانت حالات غيبوبة هيلديجارد فون بينجن، وإذا لم تكن هذه أيضاً، كانت نقلاً الى الألمانية لـ «تاريخ الكنيسة الأنجلوسكسونية للراهب المثقف بيدا ڤينيرابيليس،

وهو كتاب يُسرَد فيه قسم كبير من الأخيلة الكلتية عن العالم الآخر وتجاريب الرؤى من العصر المسيحي الأول الإرلندي - الأنجلوسكسوني. وفي هذا الكتاب الوَجْدي الكامل، الذي يبشر بيوم الدين، ويؤجّج نار الخوف من العقاب الأبدي بأسلوب تربويّ، والعائد الى الكتابات عن الآخرة في عصر ماقبل المسيحية، وفي العصر المسيحي الأول، يشكل حيِّزاً للرواية فائق الكثافة، حافلاً بالموضوعات التي ماتفتأ تعود الى الظهور من جديد، والتي انغمس فيها أدريان، ليكيِّف نفسه لعمل فني يحشد كل عناصره في نقطة المَحْرِق، وبلخصها في تركيب فني لاحق، متوعِّداً، وبموجب تكليف لاتأخذه لومة لائم، يضع نصب عيني البشرية مرآة الوحي، لترى فيها ماأُهَلَّ زمانه.

«ستأتي النهاية، النهاية قادمة، لقد انبعثت فوقك، انظر، إنها قادمة. هاهي ذي تعلو وتحط من ثَمَّ فوقك، ياساكن الأرض». وهذه الكلمات التي يضعها ليڤركون على لسان شاهده، الرّاوية، الذي يبشِّر بها في لحن رهيب يرتكز علي هارمونيات غريبة. أفقية، مُركَّبة من خطوات رباعية وخماسية صرفة، تضفي على النص مِن ثَمَّ، ذلك الغناء المتناوب، المتقادم، الجريء الذي يكررها تكراراً لاينسى في جوقتين، ذواتَيْ أربعة أصوات، تندفع كل منها تجاه الأخرى، وكأن هذه الكلمات لاتنتمي أبداً الى رؤيا يوحنا، فهي ترجع الى طبقة مختلفة، طبقة نبوءة المنفى البابلي، وحكايات حزقيال ومراثيه، التي يرتبط بها، بالمناسبة، كتاب باتموس، الحافل بالأسرار، من عصر نيرون، ارتباطاً غريباً. وبذلك يعد «التهام الكتاب» الذي جعل منه ألبرشت دورر، أيضاً، موضوعاً لأحد نقوشه على الخشب، مستعاراً من حزقيال استعارة حرفية تقريباً،

وتصل هذه الاستعارة الى تفصيل يفيد أن مذاقه (أو مذاق الشكوى، والتوجُّع) له في فم الطاعم المطيع حلاوة كحلاوة العسل، وهذا هو أيضاً حال العاهرة الكبيرة، المرأة فوق الحيوان، التي استخدم النورنبرغي في وصفها، من باب الفكاهة، دراسة لصورة شخصية جاء بها معه، لغانية من البندقية، وقد سبق أن وصفها حزقيال وصفاً يضاهي الرسم، بعبارات بالغة الشبه وعلى نحو بالغ الاستفاضة. وهناك في الواقع حضارة قائمة على الرؤى التي تتنبأ بنهاية العالم تروي لأهل الوجد وجهات نظر وتجاريب راسخة الى درجة معينة، - مهما يكن من شدة دلالتها على أمور تلفت النظر من الوجهة النفسية، بحيث تنتاب الحمَّى أحدهم في وقت لاحق، بينما تكون قد انتابت الآخر في مرحلة سابقة، وبحيث يكون الواحد منهم منجذباً انجذاباً غير مستقلَ، أي بطريق الاستعارة ممن عداه، وحسب الأنموذج المرسوم، ومع ذلك فهذا هو واقع الحال، وإنما أشير إليه في سياق تقرير أن ليفركون لم يلتزم في عمله الخاص بالجوقة، والذي لايُقارَن بما سواه أو يقاس عليه، نبض رؤيا يوحنا وحده بحال من الأحوال، بل أدخل في عمله كل ماتحدث عنه من تلك الأصول والأعراف الرؤْيَويّة إن صح التعبير، بحيث وصل الأمر الى إنشاء رؤيا تنبؤية جديدة خاصة، أو وصل، بمعنى ما، الى تلخيص لكل أشكال الإنذار بالنهاية. ويعد عنوان الرؤيا بالصُّور- "Apocalipsis cum figuris" بمثابة إعلان الولاء لدورَر، وهو يهدف، بلاريب، الى التأكيد على مايحقِّق من الوجهة البصرية، بالإضافة الى المفصَّل - النابض بالحياة، وامتلاء المكان امتلاء كثيفاً بتفاصيل دقيقة من صنع الخيال، الأمر الذي يعد مشتركاً بين كلا العملين، ولكن ينقصنا الكثير لكي يقال إن لوحة

أدريان الجصّية الهائلة كانت تتابع نهج التصاوير الخمسة عشر للنورنبرغي وفق برنامج معيّن، والحق أنها تضع لإيقاعاتها الفنية كثيراً من كلمات الوثيقة الحافلة بالأسرار التي كانت تلهم هذه اللوحات أيضاً، غير أنه وسَّع مجال الإمكانات الموسيقية، وإمكانات الجوقة، والإنشاد، والإلقاء الملحَّن مع الموسيقا، إذ أدخل بعضاً من الأجزاء الباعثة للانقباض من كتاب المزامير، ومنها، مثلاً، تلك الجملة التي تأخذ بمجامع القلوب: «لأن نفسي مترعة بالهمّ، وحياتي على شفا حفرة من الجحيم»، مثلما أدخل أيضاً أكثر الصور المفزعة إفعاماً بالتعبير وشجب الروايات المشكوك فيها، ومن ثَمَّ قطعاً مجتزأة معينة تحدث في هذه الأيام أثراً لاذعاً الى حد لايوصف، من مراثي يرميا الغنائية، وفوق ذلك بعدُ، شيئاً أكثر بُعْداً، في تأليفه الموسيقي، الأمر الذي لابدّ أن يسهم، بكل مافيه، في إحداث الانطباع الإجمالي الذي يوحي بانفتاح العالم الآخر، وحلول يوم الحساب، ورحلة الى الجحيم تعالج فيها التصوُّرات الخاصة بالعالم الآخر في مراحل أسبق، وذات صلة بالسحر والكهانة، وفي المراحل التي طوَّرها العصر القديم والمسيحية حتى أيام دانتي، تطويراً مبنيّاً على الرؤى. وقد أخذت صورة ليڤركون الصوتية المدويِّة، الكثير عن قصيدة دانتي، بل أخذت من ذلك الجدار الذي يتفجر من كثرة الأجساد وتزاحمها، وهو الجدار الذي يطلق عليه الملائكة صرخاتهم في أبواق الهلاك، هناك حيث يفرغ قارب شارون حمولته، ويُبْعَث الموتى، ويصلي القديسون، وتنتظر أقنعة الشياطين إشارة مينوس الذي يلفه حزام من الأفاعي، الملعون، ذو اللحم الكثير، يُحْدِق به أبناء مباءة الفسق أولو الابتسامة الصفراء الساخرة، ويحملونه، ويجرّونه، فينطلق في رحلة

فظيعة، وهو يغطي إحدى عينيه بيده، ويحملق، بالأخرى، في الوبال الأبديّ وقد تولاّه الفزع، ولكن الرحمة تنتشل، غير بعيد منه، نَفْسَيْ خاطئَيْن من الشَّرَك الى الخلاص، - وجملة القول أن هذا يرجع الى بنيان الجماعات والمشاهد في يوم الحساب.

وليغفر القارئ لرجل الثقافة الذي أكونه الآن، عندما يحاول أن يتحدث عن عمل قريب إليه يبعث على الخوف والقلق، إذ يقارنه بلحظات حضارية مفترضة ومألوفة، وهذه مسألة تفيد في بعث الطمأنينة التي مازلت أحتاج إليها حتى اليوم، عندما أتحدث عن مقدار مااحتجت إليها في الوقت الذي شهدت فيه نشوءها، وقد تولاّني الفزع، والدهشة، والضيق، والزُّهُوّ، - وكانت تجربة ترجع بلاريب الى التفاني المبنيّ على محبَّتي لصاحبها، غير أنها كانت تتجاوز إمكاناتي النفسية في الحقيقة، حتى لقد اعتراني منها مايصل الى درجة الارتعاد. وذلك أنه لم يلبث، بعد تلك العلائم الأولى للتكتُّم والممانعة، أن فتح لصديق الطفولة خلال أجل جد قريب، الباب الى معرفة مايأتي ومايدع من أمره، حتى لقد بات يتاح لي، عند كل زيارة لبفايفرنج - وقد كنت أزوره هناك بالطبع كلما استطعت الى ذلك سبيلاً، وكان ذلك على الدوام تقريباً في يومي السبت والأحد، أن أسجِّل أجزاء جديدة مما كان ينشأ: وكانت هذه زيادات وأعمالاً يومية من حجم كان لايصدَّق في بعض الأحيان، من مرة الى أخرى، ولاسيما عندما كان المرء يستعمل في وجه القوانين الصارمة سلاح التعقيد الفكري والتقنيّ المفروض، في قائمة الحساب، وكان من الممكن أن ينتاب من اعتاد التقدُّم الثابت المعتدل، تبعاً للأصول المدنية، الفزع الباعث على اصفرار الوجه، من جراء ذلك. أجل، أنا أعترف بأن

ماأسهم بالنصيب الأوفى من خوفي، الذي ربما كان ساذجاً، وأودّ أن أقول إنه خوف المخلوق الضعيف في مواجهة العمل الذي كان ينشأ، على وجه الإطلاق، بسرعة رهيبة، إذ نشأ، في معظمه، خلال أربعة أشهر ونصف، أي خلال فترة كان المرء خليقاً أن يضاهيها، في كل الأحوال، بالفترة التي تقتضيها الكتابة الآلية المجرَّدة.

وكان من الواضح للعيان، ومن المعترَف به، أن هذا الإنسان كان يعيش في تلك الأيام في حالة من التوتر المرتفع المرتبط بإلهام لم يكن يسعد سعادة بحتة على الإطلاق، بل كان يحرِّض ويستعبد، وكان بروز مشكلة أو تصدّيها، أو ظهور مشكلة من مشكلات التأليف الموسيقي، كما سبق أن استرسل في أثرها منذ الأيام الأولى، متوحِّدَيْن مع حلها التنويريّ، وكانت هذه قلّما تفسح له مجالاً للراحة، وكان تستعبده إذ تضطره الى متابعتها بالريشة والقلم. وكان أكثر الناس عجزاً على الإطلاق، يعمل عشر ساعات في اليوم، وكان، فوق ذلك، لايقاطعه سوى توقُّف قصير في منتصف النهار، ومشية في الخلاء من حين الى آخر، حول حوص المحَابس، على رابية صهيون، - وكانت هذه جولات استطلاعية كانت تتميز بسمة محاولة الهرب أكثر مما تتميز بسمة الاستجمام، وكان المرء يضطر الى أن ينظر في خطواته المتسارعة، ثم يعود الى النظر في خطواته المتعثِّرة، بحيث تغدو مجرد شكل آخر من أشكال عدم الاستقرار في مكان ما. ولقد رأيت في أمسية من أماسيّ يوم السبت قضيتها في صحبته، مدى بعده عن أن يكون سيد نفسه، وبُعْده عن أن يكون على استعداد للمحافظة على حالة الاسترخاء من التوتُّر التي كان يعمل من أجلها في حديثه معي حول موضوعات من

الحياة اليومية أو موضوعات غير ذات أهمية، عن قصد، وأراه ينتصب قائماً من وضع الاسترخاء وتغدو نظرته جامدة، متربِّصة، وتفتَرُّ شفتاه، وتتصاعد الى وجنته حمرة دالّة على نوبة انفعال ليست موضع الترحيب عندي. أي شيء كان هذا؟ أتراه كان واحدة من تلك الأشكال من الإشراق اللحنيّ الذي كان يتعرَّض له في تلك الأيام، كما أوشكُ أن أقول، وكأنَّ قوى معيَّنة لاأعترف بها، تحافظ على وعدها تجاهه، - إنه إشراق أحد الموضوعات الشامخة في تجسيدها الوصفي، في فكره، ويتميَّز منها العمل الرُّؤْيَوي بأنه كثير فائض، وبأن القوى الموجودة فيه تتعرَّض دائماً، وعلى الفور، للتمكُّن والاستحواذ الذي يعتريه البرود، إذ تؤخذ بالتأديب وكبح الجماح، إن صح التعبير، ويُعَدُّ لها الفكر في سلاسل وصفوف، وتعامل على أنها أحجار بناء في التأليف الموسيقي؟ وأراه يتقدَّم من منضدته بعنف، ويفتح المخطط الأولي للأوركسترا بعنف، بحيث تتمزَّق من جراء ذلك، بالفعل، ورقة من الأسفل كان قد قذف بها حواليه، وينظر فيه وهو يقطب جبينه تقطيبة لا أحاول أن أسمي مزيج التعبير الكامن فيها، غير أنها شوَّهت في عينيّ جمال وجهه المتسم بالذكاء والزُّهُوِّ بالنفس، بل ينظر في المخطط الذي ربما كان قد رسمت فيه جوقة الفزع للبشرية الهاربة أمام الفرسان الأربعة، التي تتعثر أقدامها، والتي تنطلق كالسيل، مغلوبة على أمرها، إنه النداء الفظيع الموجَّه الى الفاجوت الذي يمارس التشنيع المتهكِّم، نداء «آلام الطير» مدوَّناً، أو الإنشاد المتناوب أيضاً، بأسلوب التجاوب الصوتي، مضافاً إليه، وهو الذي استحوذ على قلبي - عند أول مرة أطَّلع فيها على اسمه، - إنه فوغُ الجوقة القاسي، مصحوباً بكلمات يرميا:

كيف يتبرَّم الناس بالحياة إذاً؟
كلٌّ يتبرَّم بخطيئته!
فلنبحث في جوهرنا ولْنمحِّصْه
ولْنَعُدْ الى الله!

* * *

نحن، نحن الذين أخطأنا
وكنا عصاة،
ومن أجل ذلك كان من حقك ألاَّ ترحم؛
بل صببت علينا الغضب صباً
واضطهدتنا، وخنقتنا بلا رحمة
لقد جعلت منا قَذَراً، وقمامة
بين الشعوب

* * *

وأنا أعدُّ هذه المقطوعة فوغاً، وإنها لتبدو متسمة بسمة الفوغ، ولكن من دون أن يتمّ تكرار هذا الموضوع، مع التقدير، بل يتطوّر هذا نفسه، مع تطوُّر المجموع، بحيث ينحَلُّ أسلوب، ويتم توجيهه الى حدٍّ ما، نحو اللامعقول الذي يبدو أن الفنان يخضع له، - الأمر الذي لايحدث من دون رجوع الى الوراء في تأويل صيغة الفوغات المتقادمة في بعض القصائد الغنائية والمقطوعات الآلية (من الصيغ السابقة على الفوغ)، من أيام ماقبل باخ، التي لايتم تحديد موضوع الفوغات فيها تحديداً صريحاً على الدوام، ولايتم التمسُّك به.

والى هنا، أو الى هناك كان ينظر بلاريب، وتناول ريشة النوطة، ثم

طرحها جانباً من جديد، وغمغم قائلاً: «لابأس، الى الغد، وعاد أدراجه اليّ ومحيَّاة يزداد احمراراً، غير أني عرفت أنه لن يظل ثابتاً على كلمة «الى الغد»، أو خِفْتُ ذلك، بل سيقعد الى العمل بعد فراقِه إياي، وسيبسط القول فيما ساوره أثناء الحديث متطفِّلاً عليه، - لكي يضفي على نومه بعد ذلك، بقرصين من اللومينال، العمق الذي لابدّ أن يعوِّض عن قِصَره، وليعود مع انبلاج الصباح الى البدء من جديد. وكان يتمثَّل قول من قال:

هيّا، ياكتاب المزامير، وهَلُمَّ أيها الجُنُك!

فإني أريد النهوض من النوم باكراً.

وذلك أنه كان يعيش على خوفٍ أن يُسْلَب حالة الإشراق التي أُنْعِمَ عليه بها، أو التي ابتُلِي بها، في وقت مبكِّر أكثر مما ينبغي، وقد عانى بالفعل، قبيل اختتام عمله، هذا الاختتام الرهيب الذي كان يقتضي كل جرأته، والذي يؤكِّد، بعيداً عن موسيقا الخلاص الرومانسية، السمة السلبية من الوجهة اللاهوتية، وسمة الخُلُوِّ من الرحمة في المجموع، تأكيداً صارماً - أقول إنه كان يعاني في الواقع، على وجه الخصوص، قبل تحديد نغمات الصنوج هذه المتعددة الأصوات الى حد فائق، والمتخبِّطة في وضعها الأكثر رحابة على وجه الإطلاق، والتي تحدث الانطباع الذي يوحي بوجود هوة مفتوحة تفضي الى غرق لا أمل معه، الى انتكاسة تمتد على مدى ثلاثة أسابيع، في حالة الألم والغثيان السابقة. وهي حالة توارت عنه فيها حتى الذكرى، حسب عبارته الخاصة، وهي ذكرى ماهية التأليف الموسيقي، وكيف يقوم به المرء. وقد مضى هذا ومرّ مرور الكرام، ففي مستهل آب ١٩١٩ عاد الى العمل من

جديد، وقبل أن ينتهي هذا الشهر الذي كان فيه الكثير من الأيام ذات الشمس القائظة، كان كل شيء قد تمّ الفراغ منه. على أن الشهور الأربعة والنصف التي نسبتها للعمل أجلاً لنشوئه تتوافق مع بداية فترة الإنهاك، وكانت هذه، إذا حُسِبَ معها العمل الختامي، يشكّلان ستة أشهر، وفي ذلك من إثارته للدهشة مافيه، إذ كان يحتاجها من أجل تدوين «رؤيا نهاية العالم» في صورة مخطط أوّلي.



(٣٤) «استئناف»

وهل يعدُّ هذا الآن، هو كل مالديَّ مما يقال في الصديق المغفور له، عن عمله المكروه ألف ضعف، والذي كانوا يتعاملون معه على مضض، غير أنه كان يلقى من المحبة والتقدير مئات الأضعاف؟ كلاً، بلاريب. فما زال هناك بعض ما لايزال يُثْقِل على قلبي في هذا الصدد، ولكنني كنت قد عزمت لتويّ أن أميِّز كل الخصال وملامح الشخصية التي كنت أحسّ بالاكتئاب والفزع من جرّائها، وذلك أمر بَدَهي، إذ كان هذا يحدث بأسلوب يحظى بالإعجاب، وذلك كله في سياق واحد مع تلك الإساءات التجريدية التي كنت أتعرَّض لها في المناقشات التي سبق أن تعرَّضت لها بإيجاز، في مسكن السيد سكستوس كريدفِسْ. أوَ كانت نتائج جِدَّة هذه الأمسيات هي التي ألحقت بي، مصحوبة بالمشاركة في عمل أدريان الوحيد، الإجهاد النفسي المفرط الذي كنت أعيش فيه في تلك الأيام، والتي كلفتني في الواقع ما لايقل عن أربعة عشر رطلاً من وزن جسمي.

وكان كريدڤيس، الرسام والخطاط، وفنّان تزيين الكتب، وجمّاع النقوش الملوَّنة على الخشب والسيراميك من شرقيّ آسيا، وهو مجال كان يلقي فيه محاضرات تنطوي على العلم والخبرة والبراعة أيضاً، إذ كان يدعى من قبل هذا الاتحاد الثقافي أو ذاك، في مدن شتى من مدن الرايْش، بل وفي الخارج أيضاً، سيداً ضئيل الجسم، لاسبيل الى تحديد

عمره، قد تأثر أسلوبه في الكلام بلهجة أهل الراين تأثُراً شديداً، وكان ينطوي على ضروب من الاهتمام الفكريّ غير مألوفة، وكان يقتفي أثر تطوٌرات العصر من دون أن يكون له ارتباط معين يمكن إثباته من حيث عقليته، بل كان يفعل ذلك على سبيل محض الفضول، وكان يشير الى هذا وذاك، مما يتناهى الى سمعه، على أنه «فائق الأهمية». وقد جعل نصب عينيه أن يحوِّل مسكنه الواقع في شارع ماريتوس، في شفابنج، الذي كانت حجرة الاستقبال فيه مزدانة بتصاوير صينية جذّابة، بالحبر الصيني والألوان «من عصر أسرة سونج!» الى ملتقى لكبار الأدمغة، أو لأولئك المتضلعين والمشاركين في الحياة الفكرية، على كثرة ما كانت مدينة مونيخ الطيبة تضم بين جدرانها منهم، وكان ينظم هناك أمسيات للرجال في أماكن متبدِّلة، وجلسات حول مائدة مستديرة، لاتزيد على ثماني الى عشر من الشخصيات، كانوا يجتمعون فيها بعد العشاء، أي في الساعة التاسعة، مثلاً، وكانت مبنيّةً على محض اللقاء العفوي وتبادل الأفكار، من دون أن يكلِّف المضيف نفسه منِّ بعدُ كثيراً من تكاليف الضيافة. ولكن لم يكن هذا، بالمناسبة، يحافظ على الدوام على حالة من فرط التوتر الذهني، بل كان كثيراً مايتحوَّل بسهولة الى جوّ الحياة اليومية المريح، والحديث الطلق المُسَلِّي، وذلك لمجرد أن المستوى الفكري للمشاركين لم يكن متساوياً الى حد ما، بسبب الميول والروابط الاجتماعية عند كريدقيس. ومنْ ذلك أنه كان يشارك في الجلسات عضوان يدرسان في مونيخ من أَسرة دوقية هيسن - ناسّادْ الكبرى، وهما شابان تربطهما علاقات صداقة برب المنزل الذي كان يسميهما بشيء من الحماسة: «الأميران الجميلان». وكان من الواجب أن يكون

لهما قدر من المراعاة في الحديث، وإن كان ذلك لمجرد أنهما كانا أحدث سناً الى حد بعيد منا جميعاً. ولاأقصد أن أقول إنهما كانا يكدِّران صفونا، فكثيراً ما كانت المحادثة ذات المستوى الأعلى تتخطى رأسَيْهما غير عابئة بهما، حيث كانا يلتزمان دور المستمعين اللذين يبتسمان في تواضع، أو المندهشين وعليهما سيماء الجدِّ أيضاً. على أن ماكان يثيرني من ذلك أنا شخصياً إثارة كبيرة إنما كان حضور فارس المتناقضات ذاك الذي بات معروفاً لدى القارئ، وهو الدكتور حاييم برايزاخر، الذي لم أكن أطيقه، كما اعترفت بذلك منذ عهد بعيد، والذي كان يبدو أن حدة ذهنه وحدسه، كانا شيئاً لايستغنى عنه في أمثال هذه المناسبات، أمّا أن الصناعيّ بولينجر كان من المدعوِّين، وأن ذلك لم يكن يبرُّره سوى شريحته الضريبيّة العالية التي كانت تمنحه الحق في المشاركة بالتشدُّق بصوته الصادح في أهمّ مسائل الثقافة، فذلك ماكان يغيظني أيضاً.

ولاأريد إلاّ أن أمضي الى أبعد من هذا، وأن أعترف بأنني لم أكن أستطيع في الحقيقة أن أَلَمْلِم أطراف شجاعتي في وجه أحد من أصحاب المائدة المستديرة، على الوجه الصحيح، ولم أستطع أن أواجه أحداً بثقة لايكدِّرها مكدِّر، - الأمر الذي استثني منه، على سبيل المثال، هلموت إنستيتوريس، الذي كان ينضم الى الحلقة أيضاً، والذي كانت تجمعني به علاقات صداقة عن طريق زوجته - إلا أن شخصه عاد يثير الآن بالطبع، من جديد تداعيات حافلة بالهموم، من نوع آخر. ولابد أن أتساءل، بالمناسبة، ماكان يمكن أن اعترض به على الدكتور أَنْروهِه، إيجون أنْروهه، وهو باحث فلسفي في المستحاثات الحيوانية. كان يجمع في رسائله، بين علم طبقات الأعماق وعلم المستحاثات، وبين التبرير

والتحقيق العلمي لتراث الأسطورة البالغ القدم، بطريقة طريفة للغاية، بحيث كان يغدو صحيحاً وحقيقياً، في نظريته الداروينية المُصَعَّدة، إذا شئنا أن نقول هذا، كل ماتوقفت البشرية المتطورة عن الاعتقاد به جدّياً منذ عهد بعيد، بل من أين جاء سوء ظني بالرجل المثقَّف وصاحب الجهد الفكري الكبير، الأستاذ جورج فوجلر، مؤرخ الأدب، الذي كان قد كتب تاريخاً للتراث الأدبي الألماني من وجهة نظر التبعية القبلية، حيث لايتمّ تناول الكاتب وتقييمه بصورة مباشرة، على أنه كاتب، ومفكِّر رُبِّي تربيةِ شمولية، بل على أنه نتاج أصيل له ارتباط بالدم والأرض، من زاوية أصله الواقعي، المحسوس، الذي يشهد على الكاتب كما يشهد الكاتب عليه. وكان هذا كله بالغ الطيب والإخلاص، والرجولة، والاستقامة، وجديراً بالامتنان من وجهة نظر النقد. أمّا عالم الفن، والباحث في دورَرْ، الأستاذ جيلجن هولتسشوهر، وكان من المدعوِّين أيضاً، فكان عندي ممن يثيرون الشك، بطريقة يصعب تبريرها، على نحو مماثل، وكان هذا ينطبق بصورة كاملة أيضاً على الشاعر الذي كان كثير الحضور، وهو دانييل تْسورْهوهِه، وهو رجل في الثلاثين يرتدي الثياب السود المغلقة حتى أعلاها، على طريقة رجال الدين، ولوجهه مظهر جانبي كوجه الطير الجارح، وله أسلوب في الكلام يدقّ المسامع كالمطرقة، إذ يقول، مثلاً: «أجل، أجل، ليس الأمر بهذا القدر من السوء، أجل، بالطبع، في وسع المرء أن يقول هذا!» وكان يظل في أثناء ذلك عصبياً، ولايفتأ يدقّ الأرض بأخمص قدمه، وكان يحلو له أن يصالب يديه فوق صدره، أو يخفي إحدى يديه في صدره على طريقة نابليون، وكانت أحلامه الشاعرية تتوجه نحو عالم تمّ إخضاعه، بالحروب الدموية، للفكر المحض،

وهو يمسك بزمامه في إطار من الفزع وألوان التهذيب الرفيع، كما سبق أن وصف ذلك في كتابه الذي أعتقد أنه الوحيد، والذي صدر قبل الحرب على ورق نفيس مصنوع باليد، بعنوان (بيانات)، وهو ثوران بلاغي - غنائي لنزعة إرهابية غنّاء لم يكن للمرء بدٌّ أن يعترف لها بقوة في الكلمات لايستهان بها. وكان الموقِّع على هذه البيانات شخصية خيالية أطلق عليها اسم الإمبراطور الأعظم، المسيح، وهي طاقة قيادية آمرة تُجَنِّد قوّات مستعدة للموت لإخضاع الكرة الأرضية، وتصدر رسائل من نوع الأمر اليومي، وتشترط شروطاً لارحمة فيها ولا هوادة، على سبيل الاستمتاع، وتنادي بالفقر والعفة، ولايمكنها أن تشبع من المطالبة، التي تقرع المسامع كالمطرقة، مع الضرب بِجُمْع اليد، بالطاعة من دون سؤال، وبلا حدود. ويُخْتَتَم الشعر بقولها: «أيها الجند إني أقدِّم إليكم، للنهبِ، العالمَ!».

وكان هذا كله «جميلاً»، وكان يجري الإحساس به، هو ذاته، بقوة بالغة، «جميلاً»، لقد كان «جميلاً» بطريقة جمالية قاسية ومطلقة، في الفكر الخالي من الصلات والعلاقات بغير حياء، والمبني على الهزل والدعابة، وعدم الشعور بالمسؤولية، على نحو مايسمح به الشعراء لأنفسهم على أية حال، - وكان هذا هو أشدُّ أشكال العبث التي عرضت لي سوءاً. وكان هلموت إنستيتوريس، يستهويه هذا بالطبع، ولكن الكاتب والمُؤَلِّف كانا يتمتعان، فيما عدا هذا أيضاً، بسمعة جدِّية، وكان نفوري من كليهما غير مؤكَّد لديهما كل التأكيد، إذ كان هذا النفور معروفاً بتأثُّره باستشارتي العامة من جراء محيط كريدفيس ونتائج أبحاثه في نقد الحضارة، وهي النتائج الحافلة بالإساءات، والتي كان

يدفعني الى الإطلاع عليها شعور فكري بالواجب، بلاريب.

وسوف أحاول إيجاز ماهو جوهري من هذه النتائج في أضيق حيِّز ممكن، وهي النتائج التي كان مضيفنا يجدها، بحق: «فائقة الأهمية»، والتي كان دانييل تسورهوهِه يُرْفِقُها بقوله: «أجل، أجل، أجل، ليس الأمر بهذا القدر من السوء، أجل، بالطبع، في وسع المرء أن يقول هذا!» على الرغم من أنهم لم يكونوا ينطلقون على وجه الخصوص لينهبوا العالم عن طريق جند المسيح الأعظم الامبراطور. وكان هذا، بحكم البدهية، مجرد شعر رمزيّ، بينما كان مايهم المؤتمر إطلالات على الواقع الاجتماعي من أجل تقرير ماهو كائن، وما سيأتي، وهي إطلالات كانت تربطها بلاريب هذه العلاقة أو تلك، بأخيلة دانييل الخاصة بفظائع الجميل - الزاهد. ولقد سجَّلت بنفسي، فيما سبق، بمحض إرادتي، أن الهزّة، والتدمير اللذين تعرضت لهما، على مايبدو، قيم الحياة الراسخة، ولاسيما عن طريق الحرب، في البلدان المهزومة، التي أتيح لها بذلك فضل سَبْق فكري معين، على الآخرين، كان يجري الإحساس بهما بحرارة بالغة. لقد كان مما يجري الإحساس به بقوة، ويُقَرَّر بموضوعية: الخسارة الهائلة التي تكبّدها الفرد من حيث هو فرد، من جرّاء الحدث الحربي، واللامبالاة التي تدوس بها الحياة على الفرد في هذه الأيام، ثم تنعكس أيضاً في صورة لامبالاة عامة، بمعاناته وضياعه، في نفوس البشر. وقد كان من الممكن أن تظهر هذه اللامبالاة، وعدم الاكتراث بمصير الفرد بمظهر محتشم عن طريق حفل التدشين الدموي الذي يرجع الى أربع سنوات خلت، ولكن الناس لم تَنْطَلِ عليهم الخدعة: فمثلما يحدث من وجهات النظر الأخرى، لم تزد الحرب هنا على أن اكتملت، واتضَّحت معالمها، وتحوَّلت الى تجربة

مجسَّدة، وهو الأمر الذي كان يُمَهَّد له من قبل زمناً طويلاً، وكان كامناً في أساس إحساس جديد بالحياة. ولكن لمّا كان هذا ليس مسألة ثناء أو ذَمّ، بل مسألة إحساس موضوعي وتقرير، ولمّا كان يكمن في الإدراك الخالي من العاطفة الجامحة، للواقعي، دائماً، شيء من الترحيب، وذلك صادر عن السرور بالمعرفة ذاتها، فكيف سيكون من الممكن ألاّ يرتبط بأمثال هذا النظرات نقدٌ متعدد الجوانب، بل شامل، للتقليد المدنيّ، الأمر الذي أقصد به قيم الثقافة، والتنوير، والأحلام الخاصة برفع مستوى الشعوب عن طريق التربية العلمية؟ أمّا أنّ أولئك الذين كانوا يمارسون هذا النقد كانوا رجال الثقافة والتعليم، والعلم، وذلك بأسلوب مَرِح، ولم يكن من النادر أن يتمَّ ذلك وسط الضحك وفي إطار من روح المرح والزُّهوُ بالنفس، - فذلك ماكان يضفي على المسألة بعدُ، سحراً خصوصياً، باعثاً للاضطراب من طريق الدَّغْدَغة، أو شاذاً الى حد ما. ولعل من نافلة القول أن يقال في هذا الصدد إن شكل الدولة الذي أتيح لنا نحن الألمان، من جراء الهزيمة، والحرية التي سقطت في أحضاننا وبكلمة واحدة: الجمهورية الديمقراطية، لم يعترف به لحظة واحدة على أنه إطار يجب أن يؤخذ مأخذ الجد للجديد الذي نهدف إليه على وجه الدقة، بل كان يُرمى به وراء الظهر، ببدهية تقوم على إجماع الرأي، على أنه شيء عابر وعديم الأهمية بصورة مسبقة، بالقياس الى واقع الأمر، بل على أنه نكتة سخيفة.

وكانوا يستشهدون بتوكڤيل (ألكسيس دي) الذي قال إنه قد انبثق عن الثورة، كأنما من مصدر مشترك، تيّاران، أحدهما من أجل البشر، للوصول الى النظم الحرة، والآخر من أجل السلطان المطلق. على أن

«النظم الحرة» ماعاد يؤمن بها أحد من السادة المشاركين في المحادثات عند كريدفِسْ، مادامت الحرية تناقض نفسها من الداخل بنفسها، ومادامت تضطر الى تحقيق ذاتها بتقييد حرية خصومها، وهذا يعني أن تزيل نفسها. وقيل إن هذا هو مصيرها. إذا لم تكن اللهجة المنبريّة الرهيبة في الحديث عن الحرية المتعلقة بحقوق الإنسان تُطْرَح جانباً، الأمر الذي يظهر هذا الزمان ميلاً إليه بدرجة أكبر كثيراً من الميل الى الإقدام على العملية الجدلية التي تجعل من الحرية ديكتاتورية حزبها. وعلى كل حال فقد كان كل شيء يفضي الى الديكتاتورية والى الطغيان. ذلك لأن تدمير الأشكال الموروثة للدولة وللمجتمع عن طريق الثورة الفرنسية أفضى الى انبثاق عصر يتوجه نحو السيادة القهرية على جماهير متساوية، محلَّلة الى ذرّات، عديمة التواصل، مشابهة للأفراد، لاحلول لها، عن وعي أو عن غير وعي، وسواء أعترفنا بذلك أم لم نعترف به.

وقال تسورهوهِه مؤكِّداً: «هذا حق بلاريب! حق بلاريب! أجل، بالطبع، ففي وسع المرء أن يقول ذلك!» وكان يضرب الأرض بقدمه بإلحاح. وكان في وسع المرء أن يقول ذلك بالطبع، ولكن كان على المرء، مادامت المسألة تتعلق بالنهاية بوصف بربرية وشيكة، حسب شعوري، أن يقوله مع قدر يسير من الزيادة في الخوف والفزع، لا مع ذلك السرور الداخلي المستبشر الذي كان في وسع المرء أن يؤمِّل منه بعدُ على وجه الخصوص، وفي كل الأحوال، أنه يتصل بمعرفة الأشياء، لا بالأشياء ذاتها. وأريد أن أرسم لنفسي صورة مجسَّدة عن هذا الاستبشار الذي يُثْقِل على قلبي. فما من أحد سيتولاّه العجب من أن كتاباً ظهر قبل سبع سنوات من الحرب أثناء الأحاديث التي كانت تدور بين أفراد هذه

الطليعة التي كانت تمارس نقد الحضارة، وهو «تأملات في العنف»(*)، لسوريل، كان يلعب دوراً له شأنه. وكان تنبؤه الذي لايرحم، فيما يتصل بالحرب والفوضى، وتمييزه أوروبا بأنها أرض جوائح الحرب، ونظريته التي تفيد أن شعوب هذه القارة لايمكنها أن تتفق، دائماً، إلاّ على فكرة واحدة وهي خوض الحرب، - وكان هذا كله يبرر أن يسمى كتاب العصر. على أن ماكان يزيد في تبريره لذلك، كان نظرته المتأنيِّة، وإعلانه اللذان كانا يفيدان أن المناقشة البرلمانية لابد أن يثبت، في عصر الجماهير، أنها ماعادت ملائمة، على وجه الإجمال، لتكون وسيلة لتكوين الإرادة السياسية، وأنه لابدّ أن يحلّ محلها في المستقبل تزويد الجماهير بالأخيلة الأسطورية التي سيكون عليها أن تؤدي، بحكم كونها صيحات حرب بدائية، الى إفلات الطاقات السياسية من عقالها وتنشيطها، وكان هذا يمثل في الواقع النبوءة الصارخة والمثيرة في الكتاب، ومؤداها أن الأساطير الشعبية، أو بالأحرى، الأساطير التي توفيّ الجماهير حقها، ستكون، منذ الآن فصاعداً، وسيلة الحركة السياسية: وهي الخرافات، والأوهام، والتصوُّرات التي هي من نسج الخيال، والتي لن يكون من الضروري أن تكون لها صلة بالحقيقة، لتكون مع ذلك مبدعة، ولكي تحدّد شكل الحياة والتاريخ، وتثبت بذلك أنها حقائق دينامية، ويرى المرء على وجه اليقين أن الكتاب لم يكن يحمل عنوانه التهديدي عبثاً، لأنه كان يتناول العنف من حيث كونه نقيضاً للحقيقة، وهو يُفْهِم القارئ أن مصير الحقيقة كان وثيق الصلة بمصير الفرد، بل كان يتطابق معه، ويقصد بذلك المصير المتعلق بالتجريد من القيمة، وقد افتتح هوّة ساخرة

(*) Reflexions sur la violence.

بين الحقيقة والقوة، وبين الحقيقة والحياة، وبين الحقيقة والمجتمع، كما يُفْهَم منه ضمناً أن هذا يستأهل المرتبة الأولى الى حد بعيد، في مقابل الحقيقة، وأنه لابدَّ لمن يريد المشاركة في المجتمع أن يكون على استعداد لأن يجعل من المجتمع هدفاً له وأن يقدم تنازلات لها شأنها، من الحقيقة والعلم مع التضحية بالعقل.

وليتصور المرء الآن (وأنتهي الآن الى الصورة الملموسة التي وعدت بتقديمها) كيف كان هؤلاء السادة، وحتى العلماء والمثقفون وأساتذة الجامعات، مثل ڤوجلر، وأنْروهه، وهو لتسشوهَر، وإنستيتوريس، وفوق ذلك برايزاخر، يتلذَّذون بواقع من وقائع الحال كان ينطوي بالقياس إليّ على كل هذا القدر من الأمور الباعثة للفزع، والتي كانوا إمّا أن ينظروا إليها على أنها مكتملة، وإمّا على أنها آتية بالضرورة. وكان يحلو لهم أن يتصوَّروا جلسة محاكمة تقف فيها كل أسطورة من تلك الأساطير الجماهيرية التي تخدم الدافع السياسي الى تقويض النظام الاجتماعي المدني موقف المناقشة، ويترتب فيها على أنصارها أن يدافعوا عن أنفسهم ضد مأخذ «الكذب» و «التزييف»، وعلى هذا يقف الفُرَقاء، من مُدَّعين ومُدَّعىً عليهم، بعضهم ضد بعض مثلما يخطئ بعضهم هدفه ضد الآخر بأكثر الطرق إثارة للضحك، ويعرِّج بعضهم في حديثه على بعض. وكان الشكل الشائه هو الجهاز الهائل الخاص بالشهادة العلمية التي بذلها القوم لكي يثبتوا أن هذا الكلام الفارغ ليس إلاّ كلاماً فارغاً، وأنه إهانة فاضحة للحقيقة، مادام هذا الخيال القصصي، الإبداعي - الدينامي، أي ذلك الخيال الخاص بما يسمى بالتزوير، كان يعني أنه لم يكن هناك على الإطلاق سبيل الى أن تُؤتى العقيدة التي

تكوِّن المجتمع، من هذا الجانب، وكان المدافعون عنها تزداد وجوههم تعبيراً عن السخرية والتفوق كلما زاد القوم من جهودهم المبذولة من أجل دحضها على صعيد غريب كل الغرابة، وبعيد كل البعد عن الصلة بالموضوع، وأعني صعيد العلم، صعيد الحقيقة الخالصة، الموضوعية! وكانت الأوصاف والتخيُّلات الدراميّة التي يقدمها أولئك المتحدثون يهيمن عليها روح هذا النداء ولهجته، ولم يكن في وسع القوم أن يشبعوا من الاستمتاع بهذا التسابق اليائس بين النقد والعقل ضد العقيدة التي لاسبيل الى المساس بها البتّة من قِبَلِهما، ولايمكن التعرُّض لها بسوء، وكانوا يعرفون كيف يصنعون العلم، بطاقاتهم المتحدة في مثل هذا الضوء الذي يوحي بعجزه المضحك الى حدٍّ بلغ منه أن «الأميرين الجميلين» نفسَيْهما كانا يتحدثان حديث المتسليّ، متألِّقَيْن، على طريقتهما الطفولية. ولم تتردد جولة المائدة المستديرة التي كان يشيع فيها جو من البهجة والسرور، في إصدار حكمها على العدالة التي لها الحق في أن تقول الكلمة الأخيرة، وأن تنسب إليها ماكانت تمارسه هي من نكران الذات. أما التشريع الذي كان يرغب في أن يكون مبنياً على إحساس الشعب ولايرغب في الانعزال عن المجتمع، فلم يكن من حقه أن يسمح لنفسه بأن تجعل من وجهة نظر مايسمى بالحقيقة النظرية المعاكسة للمجتمع، وجهة نظرها هي. وكان عليه أن يثبت أنه عصري بمقدار ماهو وطني بأحدث معاني هذه الكلمة، بأن يحترم الزيف المثمر، وأن يبرِّئ رسله، وأن يدع العلم ينسحب خائب الأمل.

أجل، بالطبع، بالطبع، أجل، بلاريب، ففي وسع المرء أن يقول هذا، ويدق الأرض مرتين.

وعلى الرغم من أنني لم أكن أشعر بأن معدتي على مايرام، لم يكن يحق لي أن أكون السبب في فساد اللعبة، وكان عليّ ألاّ أدع شيئاً من الاستياء يُلاحَظ عليَّ،، بل كان عليَّ أن أندمج في جو المسرح العام ماوسعني ذلك، مادام هذا لايصادف موافقة بهذه السهولة، بل كان يعني، الرؤيا بالصور/الكذب على الأقل، مجرد معرفة، في جوٍّ من الضحك واللهو، بما هو كائن، وبما سيأتي. بل لقد اقترحت ذات مرة، قائلا: «لو أننا عزمنا أن نكون جدِّيين لحظة من الزمان، لكي نفكر، أوَلا يحسن صنعاً ذاك المفكر الذي تهمّه محنة المجتمع حقاً، لو أنه جعل هدفه الحقيقة، لا المجتمع، مادام خليقاً أن يخدمه بالحقيقة، وحتى الحقيقة المرة، خدمة أفضل، على نحو مباشر وعلى المدى الطويل، مما يخدمه بتفكير يفترض أن يخدمه على حساب الحقيقة، غير أنه يخرِّب في الواقع، عن طريق مثل هذا الإنكار، أسس المجتمع الحقيقي من الداخل بأشد الأشكال إثارة للفزع، غير أنني لم أسجل قطُّ في حياتي ملاحظة أهملت كل الإهمال، وظلت عديمة الصدى سوى هذه، على أنني أُسلِّم أيضاً أنها كانت عديمة اللباقة، إذ لم تكن تتلاءم مع المزاج الفكري، وكانت تستوحي نزعة مثالية معروفة بالطبع، بل كانت معروفة فوق ماينبغي، ومعروفة الى حد التفاهة، ولم يكن من شأنها إلاّ أن تفسد جوّ الجديد. ولقد كان من الممكن أن أفعل ماهو أفضل كثيراً لو أنني تأمَّلت الجديد، بالاشتراك مع جولة المائدة هذه المستثارة، وتقصَّيته، وعمدتُ، بدلاً من إبداء معارضة له غير مثمرةومملة في الحقيقة، بلاريب، الى ترك تصوراتي تتماشى مع مجرى المناقشة العام، وكوَّنت لنفسي صورة عن العالم القادم، بالاستناد الى العالم الذي بات في طورالنشوء - مهما يكن من أمر الأحاسيس

الخاصة بمعدتي في هذه الأثناء.

لقد كان عالماً قديماً - جديداً، انتكاسياً بأسلوب ثوريّ، كان يجري فيه تجريد القيم المرتبطة بفكرة الفرد، مثل: الحقيقة، والحرية، والحق، والعقل، من طاقتها كل التجريد، ونبذها، أو كانت تتخذ معنى مختلفاً كل الاختلاف عن المعنى الذي كان سائداً في القرون الأخيرة، إذ كانت تنتزع من النظرية الباهتة، وتُضفى عليها الصفة النسبية بأسلوب دموي، وتُرَدُّ الى الجهة الأعلى صاحبة العنف والسلطة وديكتاتورية العقيدة - لابطريقة رجعية، مثلاً، ترجع الى الأمس أو الى ماقبل الأمس، بل بطريقة كانت تبدو معها مماثلة لردٍّ البشرية، ردّاً حافلاً بالجدّة، الى أحوال وشروط تتسم بسمات العصر الوسيط الثيوقراطي، وهذا لايمكن أن يوصف بالرجعية إلاّ بمقدار مايمكن للمرء أن يعدَّ الطريق الممتد حول كرة، والذي يدور حولها بالطبع، أي أنه يفضي بمن يسلكه الى الوراء، رجعياً. وانتهى الأمر الى هذا المأزق: فقد أصبح التراجع والتقدم، والجديد والقديم، والماضي والمستقبل شيئاً واحداً، وبات اليمين السياسي يتطابق، على نحو مطرد الزيادة، مع اليسار، وبات انعدام الشروط الأولية للبحث، والفكرة الحرة، التي كانت بعيدة عن أن تمثل التقدم، ينتميان بالأحرى الى عالم للتخلف والملل. لقد أعطيت للفكرة حرية تبرير العنف، مثلما كان العقل قبل سبعمائة سنة حراً في مناقشة العقيدة وإثباتها: إذ كانت هذه وظيفته، وكان هذا شأن التفكير اليوم، أو هو خليق أن يكون كذلك غداً. وما من شك في أن البحث كانت له شروط أوَّليّة، - ويالها من شروط! لقد كانت هذه هي العنف، وسلطة المجتمع، والحق أنها كانت كذلك بتلك البَدَهية التي بلغ منها أن العلم لم ينتَهِ أبداً الى فكرة أنه

ليس بالحر. لقد كان كذلك على نحو ذاتي على وجه الإطلاق - داخل إطار ارتباط موضوعيّ. وكان يبلغ من أصالته وطبيعيَّته أنه لم يكن يتمّ الإحساس بذلك على أنه قيد بحال من الأحوال. ولكي يوضح المرء لنفسه ماكان على وشك الحدوث، ولكي يتخلّى عن السؤال الأحمق، قبل ذلك، لم يكن عليه إلاّ أن يتذكَّر أن المُطْلَقِيَّة التي تتسم بها شروط أولية محدَّدة، وشروط بالغة القدسية لم تكن قطُّ تشكل عائقاً للخيال، وللجرأة الفردية في الفكرة، بل على النقيض من ذلك: فقد كان تقديم المتماثل أو المتشاكل والمترابط الموحَّد فكرياً، لإنسان العصر الوسيط عن طريق الكنيسة، بصورة مسبقة، على أنه بَدَهيٌّ بداهة مطلقة، يشكل على وجه الخصوص، سبباً لأن يكون إنساناً يعتمد على الخيال بدرجة أكبر الى حد بعيد، من مُواطِن العصر الفردي، وبات في وسعه أن يعتمد على مخيِّلته الشخصية في الأمور التفصيلية بدرجة أكثر أمْناً، وأبْعَدَ عن بواعث القلق.

أجل، لقد أنشأ العنف أرضاً مستقرة تحت الأقدام، وكان مناوئاً للمجرَّد، ولقد أحسنتُ صنعاً الى حد بعيد إذ صوَّرتُ لنفسي، بالتعاون مع أصدقاء كريدفيس، كيف سيغيِّر الجديد - القديم الحياة في هذا المضمار أو ذاك، تغييراً منهجيًّا. فقد كان عالم التربية يعرف، مثلاً، كيف كان يوجد حتى في هذه الأيام، في التعليم الابتدائي، الميل الى التحوُّل عن التهجئة بالتعلُّم الأوَّلي للحروف الأبجدية، والتوجه الى طريقة تعلُّم الكلمات، أو ربط الكتابة بالتأمُّل الحسّي للأشياء، وكان هذا يعني، الى حد ما، عدولاً عن كتابة الحروف العالمية المجردة، وغير المرتبطة باللغة، كما كان يعني، الى حد ما، العودة الى كتابة الكلمات

عند الشعوب البدائية، وكنت أقول في نفسي لماذا وُجِدَت الكلمات على وجه الإطلاق، ولماذا كانت الكتابة، وكانت اللغة؟ لقد كان من الواجب أن تلازم الأشياءَ موضوعيةٌ جذرية، تختص بها وحدها، وكنت أذكر أُهجية من أهاجي سويفت، حيث يقرر مثقفون مولعون بالإصلاح، من أجل وقاية الرئتين، والتخلص من العبارة اللغوية، إلغاء الكلمة، والحديث على وجه الإطلاق، والتحادُث بعَرْض الأشياء ذاتها، التي لابدّ للمرء، من أجل التفاهم، أن يطوف بها محمولةً على ظهره، كاملة العدد قدر الإمكان، وهذا الموضع مضحك جداً، على أن مايجعله مضحكاً على وجه الخصوص هو أن النساء والغوغاء والأميين هم الذين يرفضون هذا التجديد، ويصرّون على الثرثرة بالكلمات. ولكن أصحابي لم يذهبوا باقتراحاتهم، الى المدى الذي ذهب إليه مثقفو سويفت هؤلاء، بل كانوا أقرب الى أن يتخذوا سيماء المراقبين من بعيد، ورأوْا أن الاستعداد العام، الذي بات بارزاً بوضوح، يمكن أن يكون ذا أهمية فائقة في إسقاط مايسمى بالمنجزات الثقافية، بلا تردُّد، من أجل تبسيطٍ كان يجري الإحساس به على أنه ضروري، ومن مقضيات العصر، وهو تبسيط كان في وسع المرء، إذا شاء، أن يشير اليه بأنه إعادة مقصودة للحالة البربرية. أوَ كان ينبغي لي أن أصدِّق أذنيَّ؟ لم يكن لي بدٌّ أن أضحك، وانتفضت مذعوراً، بالمعنى الحرفي للكلمة، حين انتهى السادة في هذا السياق، فجأة، الى الكلام في طب الأسنان، والحديث بصورة موضوعية تماماً، عن أدريان، ورمزي الخاص بنقد الموسيقا، وهوالسن الميّت! وأنا أعتقد بالفعل أن وجهي غشيته الحمرة من فرط الانفعال في مشاركتهم بالضحك، حين كان الميل المطرد الزيادة عند أطباء الأسنان

الى اقتلاع الأسنان ذوات العصب الميت، تجري مناقشته في جوٍّ من المرح المتسم بصفاء الذهن، إذ انتهوا الى قرار يقضي بأن تُعَدَّ أجساماً غريبة مُعْدِية، بعد تطوُّر طويل، حافل بالجهد، يصل الى درجة الصقل والتكرير، لتقنية معالجة الجذور في القرن التاسع عشر. وقد لوحظ هذا بلاريب - وكان الدكتور برايزاخر على وجه التخصيص هو الذي لاحظ هذا بحدة ذهنه، ومع الموافقة العامة: إذ كان من الواجب أن يكون لوجهة النظر الصحية اعتبارها بدرجة تقل أو تكثر، من حيث كونها عقلنة للميل الموجود في المقام الأول، الى الإسقاط والتخلّي، والعدول، والتبسيط، وكانت كل شبهة مبنية على الإيديولوجيا تعدُّ واردة في محلها في إطار التبريرات الصحية. وما من شك في أن المرء سوف يبرِّر أيضاً عدم الحفاظ على المرضى على النطاق الواسع، وقتل غير المؤهَّلين للحياة وضعاف العقول، إذا ماتحوَّل الناس الى هذا ذات يوم، على أساس المبادئ المتصلة بصحة الشعوب والأعراق، على حين سيكون الأمر متعلقاً في الواقع - وماكان الناس ليرغبوا على الإطلاق في إنكار هذا، بل كانوا يؤكدونه، على النقيض من ذلك - بقرارات أعمق الى حد بعيد، بجواب بالنفي على كل أشكال التدليل للبشر، وهو ماكان يمثِّل صنيع الحقبة المدنية: إذ سيتعلَّق بقَوْلبة غريزية للبشرية من أجل عصور قاسية مظلمة تسخر من البشرية، ومن أجل عصر من الحروب والثورات الشاملة، تردُّها الى مدى بعيد وراء الحضارة المسيحية في العصر الوسيط، وتعيدها، بالأحرى، الى الحقبة المظلمة التي كانت قبل نشوئها، بعد انهيار الحضارة القديمة...

(٣٤) « خاتمة »

هل سيفهم المرء أن رجلاً يمكن أن يخسر من وزنه، أثناء معالجة أمثال هذه المستجدّات، أربعة عشر رطلاً؟ ما من شك في أنني ماكنت لأتكبَّد هذا لو لم أكن مؤمناً بنتائج الجلسات عند كريدقيس، ولم أكن مقتنعاً بأن هؤلاء السادة إنما يثرثرون بالعبث واللغو. غير أن هذا لم يكن رأيي أبداً، بل لم يكن يغيب عن بالي لحظة أنهم كانوا يضعون أصابعهم على نبض العصر بحساسية جديرة بالتقدير، وكانوا يتنبأون بالغيب تبعاً لهذا النبض، إلاّ أنني كنت خليقاً – وهذا ما لابدَّ لي أن أكرِّره – أن أكون ممتنّاً الى حد لانهاية له، وكنت خليقاً ألاّ أخسر أربعة عشر رطلاً، على الأرجح، بل ربما سبعة فحسب، لو كانوا، هم أنفسهم، أكثر فزعاً الى حد ما، من نتائج أبحاثهم، وكانوا يقابلونها بشيء من النقد الأخلاقي. لقد كان من الممكن أن يقولوا: «إن من سوء الحظ أن المسألة تبدو كما لو أن الأمور تتخذ هذا المسار وذاك، ولابد للمرء، بالنتيجة، أن يتوسَّط، وأن يحذِّر مما هو آتٍ، وأن يؤدي ماعليه للحيلولة دون مجيئه». غير أن ماقالوه، إن صح التعبير، كان قولهم: «هذا آتٍ، هذا آتٍ، وعندما يَحِلُّ سوف يجدنا في ذروة اللحظة. وإنه لمن الممتع، بل من المستحسن – وذلك من جراء كونه هو الآتي، وأن التعرُّف عليه أمر فيه مايكفي من الإنجاز ومن السرور. وليس من شأننا أن نفعل بعدُ شيئاً

ضده » - وهذا ماكان هؤلاء المثقفون يتحدثون به، خفيةً، ولكن كان هناك أيضاً دُوار من جراء السرور بالمعرفة؛ إذ كانوا يتعاطفون مع ماعرفوه، أمّا مالم يكونوا ليعرفوه أبداً من دون التعاطف فكان هو المسألة، ومن هنا كانت خسارتي لوزني من جراء الغيظ والانفعال.

ومع ذلك فكلُّ ماأقوله هنا ليس صحيحاً، وذلك أنني ماكنت لأتعرَّض، من جراء زياراتي التي يمليها الواجب لحلقة كريدفيس وحدها، والإساءات التي عرَّضت نفسي لها هناك بإرادتي، لأي هزال على الإطلاق، لابمقدار أربعة عشر رطلاً، ولابمقدار نصفها أيضاً. وما كانت تلك الأحاديث على المائدة المستديرة لتقع من نفسي موقعاً حسناً أبداً، كما كان شأنها، وما كانت لتُكَوِّن التعليق الفكري المبني على الكذبة المكشوفة، لتجعل منه تجربة ساخنة للفن والصداقة، - وأقصد: لتجربة نشوء عمل فني صديق - صديق لي عن طريق مُبْدعه، لاعن طريقه هو ذاته، إذ لايجوز لي أن أقول هذا، وكان يلائمه، من أجل ذلك، ملاءمة مفرطة، أمور باعثة للوحشة، وللخوف، بالقياس الى ذهني، - إنه عمل ينشأ وحيداً، هناك، في الركن الريفي الذي يحمل سمة الموطن الى حد مفرط، بسرعة المحموم، في توافق وانسجام خصوصيَّيْن مع ماكان يُسْمَع عن كريدفيس، وفي علاقة قائمة على التلاؤم الفكري.

أوَلم يوضع هناك، على المائدة المستديرة، نقد للتقاليد، على جدول الأعمال اليومي، كان محصِّلة تدمير قيم الحياة التي لبثت زمناً طويلاً تعدُّ راسخة لاتتزعزع، ثم ألم يكن لتلك الملاحظة وَقْعُ معبِّر - ولست أدري من أي طرف، من قِبَل برايزاخر؟ أم من قبل أنْروهه؟ أم من قبل هولتسشوهر؟ -، ومؤدّاها أن هذا النقد لابدَّ أن يعود بالضرورة على

القوالب والأنواع الفنية الموروثة، ومنها، مثلاً، المسرح الجماليّ الذي كان يقوم في وسط الحياة المدنية، وكان يمثِّل شأناً من شؤون الثقافة والتعليم؟ لقد كانت تجري الآن، أمام عينيّ، عملية إحلال القالب الملحمي محل القالب الدراميّ، وكانت الدراما الموسيقية تتحوّل الى الموشحة الدينية، ومسرحية الأوبرا الى غنائية الأوبرا، وذلك في الحقيقة، بروح، وعقلية يكمنان في الأساس، وكانا يتطابقان على نحو بالغ الدقة مع الأحكام الإنكاريّة التي كان يصدرها محاوِريّ في شارع مارتيوس، حول وضع الفرد، وكل نزعة فردية في العالم: وأقصد بذلك عقلية ماعادت تحفل بالسيكولوجيّ وتُلِحّ على الموضوعيّ، وعلى لغة كانت تعبر عن المطلق، الذي يُقَيِّد، ويُلْزِم، ويفرض، بالتالي، فرضاً قائماً على الإيثار، قيد التقوى الخاص بالأشكال الصارمة في عصر ماقبل الكلاسيكية، وما أكثر ماكنت اضطر، أثناء الملاحظة التي يحدوها التوتُّر والفضول، لفعل أدريان، الى تذكُّر الانطباع الأول الذي كنا قد تلقيناه، نحن الأولاد من معلِّمه، ذلك المتلعثم الثرثار، وهو معارضة «الذاتيّة الهارمونية» و «الموضوعية ذات الأصوات المتعددة».

وهذا الطريق الممتد حول الكرة، الذي كان ينطوي على التعذيب عند كريدڤيس، هذا الطريق الذي كان التراجع والتقدم، والقديم والجديد، والماضي والمستقبل، يغدوان فيه شيئاً واحداً، كنتُ أراه هنا متحقِّقاً عن طريق رجوع حافل بالمستجدات، يمرُّ بفن باخ وهيندل الذي بات هارمونياً، متجاوزاً إياه الى الماضي الأكثر عمقاً لتعددية أصيلة في الأصوات.

ومازلت احتفظ برسالة كتبها إليَّ أدريان في ذلك الوقت، من بفايفرينج الى فرايزينج - منطلقاً من العمل الى أنشودة الثناء على

«الزمرة الكبيرة، التي لم يكن في وسع أحد أن يعدَّها، من كل البقاع، والشعوب واللغات، واقفاً وراء الكرسيّ، وراء الحَمَل»، رسالة يطالب فيها بزيارتي، وقد وقّعها باسم «بيروتينوس ماجنوس (انظر الورقة الخامسة من أوراق دورَرْ) - نكتة تنطوي على الكثير من الدلالة، وعلى استعراف فَكِه حافل بالتهكُّم على النفس؛ ذلك لأن بيروتينوس هذا كان في القرن الثاني عشر مدير موسيقا كنيسة نوتردام، وأستاذاً في الغناء أفضت توجيهاته في التأليف الموسيقي الى تطوُّر أعلى في الفن الناشئ، فن الصوت المتعدد. وقد ذكَّرني هذا التوقيع المضحك تذكيراً شديداً للغاية بشيء مماثل لهذا، لريتشارد ڤاجنر، الذي أضاف، في أيام البارسيفال، الى اسمه، في أسفل رسالة، لقب «مستشار الكنيسة الأول». وبالقياس الى غير الفنان يعد من المسائل التي تنطوي على الدسائس مقدار الجدّية التي يفترض أن تتجلى بها للفنان أكثر الأمور جدية في بعض المناسبات، ويبدو أنه تكون كذلك، والى أي مدى يأخذ هو نفسه بالجد، ومقدار العبث والتمثيل والتنكُّر، والمُزاح الذي يلعب دوره في هذا. ولو كان هذا السؤال ليس له ما يبرره فكيف كان في وسع ذلك الأستاذ الكبير للمسرح الموسيقي أن يتخذ لنفسه مثل هذا الاسم التهكُّمي في صدد أكثر أعمال التدشين احتفاليةً؟ على أنني كنت أحس، في حالة توقيع أدريان بشيء مماثل للغاية، بل كان تساؤلي، وهمومي، وخوفي يتجاوَزْنَ هذا، ويتوجَّهْن، في سكينة قلبي، على وجه الخصوص، نحو مشروعية عمله، وحقِّه المؤقَّت في الجوّ الذي كان غارقاً فيه، والذي كان يمارس إحياءه بأقصى الوسائل وأكثرها تطوُّراً، وجملة القول أن هذا كان يوجد في الشبهة المنطوية على الحب والخوف في نزعة جمالية، أسلمت كلمة صديقي: النقيض الذي يحل محل الثقافة المدنية

ليس البربرية، بل المجتمع »، لأشد الشكوك تعذيباً.

وهنا لايستطيع أن يتابعني من لم يعانِ تجاوُز النزعة الجمالية والبربرية، والنزعة الجمالية بحكم كونها رائداً للبربرية، في روحه الخاص، مثلما عانيت ذلك، وأنا الذي لم أعان هذه المحنة، بالطبع، من نفسي ذاتها، بل بمعونة صداقتي لعَلَم من أعلام الفن، غالٍ يتعرّض لخطر جسيم. وذلك أن تجديد موسيقا العبادة بالانطلاق من عصر دنيوي مبتذل أمر له أخطاره. لقد كانت تلك الموسيقا تخدم أغراضاً كنسيّة، أليس كذلك؟ غير أنها كانت تخدم قبل ذلك أيضاً أغراضاً أقلّ تحضُّراً، تتصل بالتطبُّب والسحر: وذلك في العصور التي كان من يتولى فيها أمر الطقوس المتصلة بالعالم الآخر، أي الكاهن، مازال رجلاً من أهل الطبابة وساحراً. وهل يمكن إنكار أن هذه كانت حالة من أحوال العبادة بربرية سابقة على الحضارة، ثم هل يعد مفهوماً أم غير مفهوم أنَّ تجديد الثقافيّ في الحضارة المتأخرة، وهو التجديد الذي يطمح الى المجتمع بالانطلاق من التحليل الى ذرات، يلجأ الى وسائل ليس من شأنها أنها لاتنتمي الى مرحلة الأخلاقية الكنسية فحسب، بل تعود أيضاً الى مرحلته البدائية؟ على أن الصعوبات الهائلة التي تطرحها كل دراسة وعرض «لرؤيا» ليفركون ترتبط بهذا بعلاقات مباشرة على أية حال. فهنا يواجه المرء مجموعات تبدأ في صورة جوقات تمثيلية، ولاتتحوّل الى أشد أشكال الموسيقا الغنائية غنىً إلاّ على مراحل، على طريق أشكال الانتقال الأكثر غرابة على وجه الإطلاق؛ فهي إذاً جوقات تبدأ، مارّة بكل لُوَيْنات الهمس المتدرِّجة، والحديث المقسَّم، والغناء الجزئي، لكي تصل الى الغناء المتناهي في تعدد أصواته، تواكبها نَغَمات تبدأ في

صورة مجرد جلبة، أو قرع على الطبول ودَوِيّ أجراس سحري، متعصب، زنجيّ، وتصل الى أعلى ضروب الموسيقا. وما أكثر ماتعرَّض هذا العمل المنطوي على التهديد لِلْمَسّ والأذى في غمرة اندفاعه للكشف الموسيقي عن أكثر الأمور خفاءً، والكشف عن الحيوان في الإنسان، والكشف، أيضاً عن أكثر خلجات نفسه سُمُوّاً، من جرّاء مأخذ البربرية، كما تعرَّض لذلك من جراء الذهنية التي لادَمَ فيها! وأقول إنه تعرَّض لِلْمَسّ والأذى، لأن فكرته، وهي، الى حد ما، أن يستوعب تاريخ حياة الموسيقا، من أحوالها الابتدائية، قبل الموسيقية، والإيقاعية السحرية، الى اكتمالها المتناهي في تعقيده، تفضحه فضحاً ربّما لم يكن جزئياً فحسب بل من حيث هو كلّ، أمام هذا المأخذ.

وأريد أن أضرب مثلاً كان يؤثر في تَوَجُّسي البشري على الدوام بوجه خاص، وكان على الدوام موضوعاً للسخرية والكراهية الماثلة في نقد معادٍ لي. ولابدّ لي من التقديم لهذا: فنحن نعرف جميعاً أن الاهتمام الأول كان ينصبُّ على أولى إنجازات الموسيقا، وهي إزالة الصفة الطبيعية عن الصوت، وتثبيت الغناء، الذي لابدّ أنه كان، فيما يتعلق بالأصل، والإنسان الأول، نحيباً يشمل عدداً من درجات الصوت، على درجة وحيدة، واستخراج نظام الأصوات من العَماء. ومن المؤكد والبدهي، أن نظام قياس الأصوات الذي يخضعها للمعايير كان شرطاً أولياً، وكان التجلِّي الذاتي الأول لما نفهمه من مصطلح الموسيقا. على أن البقاء عند هذا، أي في صورة سلفية ذات نزعة طبيعية، إن صح التعبير، أو في صورة تخلُّف بربري عائد الى أيام ماقبل الموسيقا. إنما يتمثل في الغليساندو، أو الصوت المُنْزَلِق، - وهو وسيلة لابدَّ من التعامل معها

بحذر بالغ، لأسباب حضارية عميقة، وكنت أميل دوماً الى أن استخلص منها، بالسماع، نزعة شيطانية مناوئة للحضارة، بل مناوئة للإنسانية. أمّا ما كان في ذهني فهو ما لايمكن للمرء، بالطبع، أن يقول إنه تفضيل ليڤركون للصوت المنزلق (الغليساندو)، ولكن يستطيع أن يقول إنه استعماله المتواتر بدرجة استثنائية لهذا الصوت، وعلى الأقل في هذا العمل، أي «الرؤيا الخاصة بنهاية العالم» التي تشكل صورها المفزعة بلاريب، أكثر البواعث إغراءً وأكثرها مشروعية في الوقت ذاته، لاستعمال الوسيلة الجامحة. وما أشدّ الفزع الذي تحدثه، في الموضع الذي تأمر فيه الأصوات الأربعة في الهيكل بإطلاق الملائكة الأربعة الفتاكين، ويالها من خيل وفرسان، وامبراطور وبابا، وثلث البشرية، تحصده أصوات الجليسّاندو بالأبواق المعدنية، التي تمثل الموضوع هنا، - هذا العبور المدمِّر لنُظُم حركة الآلات الموسيقية السبعة، أو أوضاعها! العويل موضوعاً - ياله من فزع! وياله من رُعْب سمعيّ ينبعث من أصوات الجليساندو والموصوفة مراراً، بالطبول الكبيرة، لتأثير صوت أو جَرْس، مَكَّن منه، إذ يُوَجَّه هنا أثناء الزوبعة - قابلية ضبط الطبل الكبير الآلي على درجات الصوت المختلفة، وإذا التأثير يبلغ أقصى درجات الرهبة، غير أن مايزلزل كيان الإنسان هو تطبيق الجليساندو على الصوت البشري، الذي كان، بلاريب، الموضوع الأول لنظام الأصوات، والتحرير من الحالة الأولى للنحيب، أو العويل، المشتقة عن طريق الدرجات - أي العودة الى هذه الحالة الأولى، مثلما تنفذها جوقة «رؤيا نهاية العالم» بحل لغز الخاتم السابع، وهو اسوداد الشمس، ونزيف الدم من القمر، وانقلاب السفن، في دور البشر الذين يصرخون صراخاً مروِّعاً.

وليسمح لي القارئ هنا، إذا جاز لي أن أرجو منه ذلك، بإيراد كلمة حول معالجة الجوقة في عمل صديقي، هذا التنويع الذي لم يُجَرَّبْ قَطُّ في الجسم الغنائي الموزّع على مجموعات، والتعارض المتداخل، والحواريّ - المسرحي، والصرخات الفرديّة التي لاريب في أنها تتخذ من ضربة الجواب «بارابام!»، المأخوذة من «هوى متّى» أنموذجاً بعيداً من الطراز الكلاسيكي. وذلك أن «رؤيا نهاية العالم» تتخلّى عن المشاهد الأوركسترالية التي ترد بين الفصول، وفي مقابل ذلك تكتسب الجوقة، أكثر من مرة، سمة أوركسترالية صريحة ومدهشة: ومِنْ ذلك مايحدث في التنويعات اللحنية الخاصة بالجوقة، التي تردِّد نشيد الثناء على المختارين المائة والأربعة وأربعين ألفاً الذين يملأون السماء، حيث لايتمثل الكورالي (الخاصّ بالجوقة) إلاّ في أن كل الأصوات الأربعة تظل تجري أبداً في الإيقاع ذاته، على حين تضع الأوركسترا أغنى الإيقاعات المتقابلة الملائمة لها أو المعارضة. على أنَّ أشكال القسوة المتطرِّفة، ذات الأصوات المتعددة (البوليفونية) في هذه القطعة (وليس في هذه القطعة وحدها) تنطوي على كثير مما يبعث على السخرية والكراهية، ولكن لاحيلة في هذا، ولابدّ للمرء أن يتقبَّله، وأنا، على الأقل، أتقبَّله في دهشة تنطوي على الرضى: فالعمل بأسره يهيمن عليه هذا التناقض (إذا كان تناقضاً)، بحيث يقوم التنافر فيه مقام التعبير عن كل ماهو جليل وجدِّي وورِع وفكريّ، على حين يُحتَفَظ بالهارمونيّ والنَّغَميّ لعالم الجحيم، الذي يمثل في هذا السياق عالم الابتذال والسفاسف.

غير أني كنت أريد أن أقول شيئاً آخر. لقد كنت أريد أن أشير الى تبديل الأصوات الذي يحدث في كثير من الأحيان بين القسم الغنائيّ

وقسم الآلات الموسيقية في «رؤيا نهاية العالم». وذلك أن الجوقة والأوركسترا لاتربط بينهما علاقة كتلك التي تكون بين البشريّ والشيئيّ على نحو واضح، بل يكون كلٌّ منهما منحلاً في الآخر: فأما الجوقة فتُضفى عليها سمات الآلات الموسيقية، وأما الأوركسترا فتُضفى عليها سمات الموسيقا الغنائية، - وذلك بالدرجة، والى الغاية اللتين تبدو معهما الحدود بين الإنسان وقد زُحْزِحَت، الأمر الذي لاشك في أنه يفيد في الوحدة الفنية، مادام هذا ينطوي في ذاته أيضاً، بلاريب - بالقياس الى وجداني على الأقل - على شيء باعث للضيق والوحشة، وخطير، وخبيث: ولكي نكشف عن بعض التفاصيل: فإن صوت العاهر البابلية، المرأة على الحيوان، التي يخطب ودّها ملوك الأرض، يُعْهَد به، على نحو غريب، وبطريقة مفاجئة، لصوت السوبرانو الملوَّن الذي يبلغ من الرشاقة منتهاها، وتتلاشى مساراته الرائعة، في بعض الأحيان، بتأثيرها الذي يحاكي تأثير الناي محاكاة كاملة، ذائبةً في صوت الأوركسترا، ومن ناحية أخرى يُصْدِر البوق الذي يتم تخفيفه على درجات متباينة، صوتاً بشرياً شائهاً، وهذا مايفعله أيضاً الساكسوفون الذي يلعب دوره في العديد من الأوركسترات الصغيرة المتناثرة، التي تواكب أغاني الشيطان، والرقص الغنائي المُعيب الذي يؤديه أبناء مباءة السوء، وتغدو مقدرة أدريان على المحاكاة التهكُّمية، التي تضرب بجذورها العميقة في كآبة جوهره، مثمرة هنا في المحاكاة الساخرة لأشد الأساليب الموسيقية تبايناً، وهي الأساليب التي تسترسل فيها كبرياء الجحيم الفارغة: من نغمات الانطباعية الفرنسية، التي يذهبون فيها الى حَدّ الإضحاك الى موسيقا الصالون البورجوازية، وتشايكوفسكي، ومسرح المنوَّعات،

وأشكال تأخير النبر والتَّدَحْرُجات الإيقاعية في الجاز - ويظل هذا يروح ويغدو مثل لسع أفعى، متألقاً في تعدُّد ألوانه: حول اللغة الأساسية للأوركسترا الرئيسية، وهي اللغة التي تحظى، بجدِّيتها، وغموضها، وصعوبتها، وبصرامتها الجذرية، بالمكانة الفكرية للعمل الفني.

ولْأُتابع! فمازال في قلبي الكثير فيما يتصل بتفويض صديقي الذي لم يكد يُفْتَتَح، ويخيَّل إليّ كأنني مازلت أضع ملاحظاتي، أفضل ما أضعها، أيضاً، في إطار مأخذٍ أسلِّم بإمكان إيضاحه، إذ أنني أوثر أن أقطع لساني قبل أن أعترف بتصريحه: بمأخذ البربرية، إذ طرحه قوم ضد اتحاد الأقدم بالأحدث الذي يميِّز العمل الفني، والذي لايمثل عملاً من أعمال التعسُّف بحال من الأحوال، بل يكمن في طبيعة الأشياء: إنه يرتكز، كما أودّ أن أقول في التواء العالم الذي يدع أوَّل الأشياء وأسبقها يعود الى الظهور في آخرها، وما كانت الموسيقا القديمة تعرف الإيقاع كما باتت الموسيقا تفهمه بعدها. وكان الغناء يوزَن وفقاً لقواعد اللغة، إذ لم يكن يجري وفقاً لقياس زمني مقسَّم تبعاً للإيقاع والزمن، أو الدور، بل كان أقرب الى الالتزام بروح الإنشاد الحر. فكيف يكون الحال بالقياس الى إيقاع موسيقانا، الأحدث عهداً على الإطلاق؟ أوَلا يُعَدُّ هو أيضاً مُقَرَّباً الى نبرة اللغة، أوَليس ينحل ويذوب من جراء فرط المرونة المتبدِّل؟ وحتى عند بيتهوفن توجد جمل موسيقية تتميَّز بحرية في الإيقاع تمكِّن المرء من أن يَحْدُس ماهو آت. أما عند ليڤركون فلا يبقى سوى التخلي عن التقسيم الإيقاعي ذاته. وليس الأمر كذلك، وفي ذلك مافيه من الأسلوب المحافظ الساخر. ولكن الإيقاع يتبدَّل في الواقع من حركة الى أخرى، من دون مراعاة للتناسق أو التناظر، إذ يكون متلائماً

مع النبرة اللغوية وحدها. لقد تحدثت عن انطباعات وهناك انطباعات تواصل تأثيرها في النفس بغض النظر عما يمكن أن تبدو عليه بالقياس الى العقل، وتمارس تأثيرها الحاسم على نحو خفيّ، على أن الشكل أيضاً، والممارسة في الموسيقا على أساس من عدم المعرفة، بأسلوب المتحكِّم المستبد، عند ذلك الغريب الأطْوار، وراء البحار، الذي يحدثنا عنه غريبُ أطوارٍ آخر، هو معلم أدريان، في صبانا، وكان رفيقي يعرب عن رأيه فيه ونحن في الطريق الى البيت باستحسان ينطوي على الزُهُوّ البالغ، - وكانت قصة هذا المدعو يوهان كونراد بايْسِل تمثل انطباعاً كهذا، فلماذا كان ينبغي لي أن أتظاهر بأنني لم يسبق لي، منذ عهد بعيد، أن فكرت مراراً في المدرس الصارم، والمبتدئ الجديد في فن الغناء، في إفراتا، وراء البحار؟ إن ثمة عالماً يقع بين علمه التربويّ المنطوي على بساطة القلب، وأعمال ليفركون التي يُدْفَع بها الى حدود العلم، والتقنية الموسيقيين، والروحانية الموسيقية، ومع ذلك يلوح لي أنا العارف - الصديق، روح المبتكِر لأنغام «السادة وأنغام الخدم»، والإنشاد الموسيقي للترانيم، في صورة الشبح الذي يطيف فيها.

فهل تراني أُسْهِم، بهذه الملاحظة الحميمة، في شرح المأخذ الذي يسبِّب لي الألم البالغ، والذي أحاول شرحه، من دون أن أقدم له أدنى تنازل: ألا وهو مأخذ البربرية؟ وهو مأخذ أقرب الى أن يمت بسبب الى مسحة معينة من حداثة في الجماهير ذات ملمس جليدي في هذا العمل الخاص برؤيا دينية، والذي لايعرف اللاهوتيّ، تقريباً، إلاّ في صورة إصدار حكم وفزع، إنها مسحة من تيار الحداثة، إذا تجرَّأنا على الكلمة المنطوية على الإهانة. ولنأخذ الشاهد، الشاهد والراوي للحدث القاسي:

«أنا، يوهانيس، أي وصّاف حيوانات الهاوية، بما فيها من رؤوس الأسود والعجول والبشر، ورؤوس النسور، - هذا الدور الذي ينسب حسب التقاليد، الى صوت التينور، ولكن هذه المرة مرتفعاً ارتفاعاً يكاد يضاهي صوت الخصيان الذي يتناقض نعيقه البارد، فيما يُروى بموضوعية، تناقضاً يثير الرعدة، مع مضمون أخباره الكارثيّة. وحين شهدت «رؤيا نهاية العالم» عام ١٩٢٦، في احتفال «الجمعية الدولية للموسيقا الجديدة»، في فرانكفورت الماين، عرضها الأول والأخير في ذلك الوقت (بإشراف كليمبيرير)، تمّ أداء الجزء الصعب الى أقصى الحدود ببراعة المعلم الكبير من قبل صادح بالتّينور من أنموذج الخصيان يُدعى إرْبِه، كانت بلاغاته التي تخترق الآذان اختراقاً تتميَّز بالفعل بأنها «أحدث الأخبار عن فناء العالم. وكان هذا منسجماً على وجه الإطلاق مع روح العمل الفني، إذ كان المغني قد أدرك هذا بذكاء عظيم. - أو لنأخذ من الأمثلة الأخرى على ترف التقنية، في الفزع، والآثار التي يحدثها مكبِّر الصوت (في موشحة دينية!) وصفها المولِّف الموسيقي في مواضع شتّى، لاتحقق في العادة أبداً تدرُّجاً منشوداً من الوجهة المكانية والسمعية: وقد بلغ من ذلك أنه تمّ، عن طريق الجهاد المُقَوّي، إدخال بعض الأشياء في الصدارة وَرُدَّت أشياء الى الخفوت لتكون كالجوقة البعيدة، أو الأوركسترا البعيدة، ولينظر المرء، الى جانب ذلك، مرة أخرى، في نغمات الجاز المستخدمة لأغراض جحيميّة بحتة، وسوف يحسب المرء لصالحي ذلك التعبير اللاذع «مُعَصْرَن»، من أجل عمل فني يمتّ، بالنظر الى مزاجه الأساسي، النفسي والفكري، بالصلة الى كايسرزآشرن أكثر مما يمت بها الى النفسية المَهولة، وهو بعدُ، عمل أودّ

أن أسميه بعبارة جريئة، قِدَماً متفجِّراً.

إنه الخُلُوّ من الروح! وإني لأعلم أن هذا هو في الأساس مايقصده أولئك الذين تلوك ألسنتهم كلمة «البربرية» ضد إبداع أدريان. وهل تراهم أصغَوْا في أي يوم من الأيام، ولو كان ذلك بمجرد العين القارئة، الى أجزاء غنائية معيَّنة - أم هل يجوز لي أن أقول فحسب: لحظات؟ - من «رؤيا نهاية العالم» والى مواضع غنائية، مصحوبة بأوركسترا الحجرة يمكنها أن تستدرّ الدموع من عيني إنسان أقسى مني قلباً، إذ تمثل رجاءً حاراً يلتمس الروح؟ وأرجو المعذرة لهذا الجدل المذهبي الموجَّه الى غير وجهة معينة، غير أني أرى أن من البربرية، واللاإنسانية أن تعدَّ مثل هذه الحاجة الى الروح، أي حاجة عذراء البحر الصغيرة - خلواً من الروح!.

وأنا أدوِّن هذا في دفاع متأثِّر - وثمة تأثُّر يستحوذ عليّ: ألا وهو ذكرى جحيم الأرواح الشريرة الخاص بالضحك، الضحك الجحيميّ، الذي يشكل، بإيجاز، ولكن على نحو فظيع، خاتمة القسم الأول من «رؤيا نهاية العالم»، وإني لأكرهه، وأحبه وأخشاه، لأنني - وليغفر المرء لي هذا التعليل المفرط في طابعه الشخصي! - وكنت أخشى على الدوام من ميل أدريان الى الضحك، وأنا الذي كنت، خلافاً لروديجر شيلدكناب، أعرف على الدوام كيف أساعد فيه المساعدة السيئة، - وإني لأحس بالخوف ذاته، وقلة الحيلة ذاتها، المتسمة بالوجل والقلق حيال جهنم النكتة والمزاح الذي يمرّ عبر خمسين حركة من حركات الإيقاع، والذي يبدأ بكَرْكَرَة صوت منفرد سرعان ماينتشر، فيشمل الجوقة والأوركسترا، ويتورَّم تورُّماً رهيباً، وسط انقلاب إيقاعي وتعارضات، ونغَمَ التوتيّ

الأقوى (فورتيسسّيمو)، في استهزاء خبيث، هذه الرَّشْقة المكوَّنة من الصراخ، والنباح والزعيق والزمجرة، من ضحك الجحيم الساخر الظافر. والى هذا المدى استفظع هذه الحكاية، إذ ماأخذت في حد ذاتها، وهي التي يجري الإعلاء من شأنها بوجه خاص من طريق مركزها ضمن المجموع، هذا الإعصار من الولع الجحيمي بالضحك، التي كنت لا أكاد أستطيع التغلُّب عليه، أو التعبير عنه لولا أنه أوحى لي هو أيضاً على وجه الخصوص، من جديد، في هذا السياق، بالسر الأعمق من أسرار الموسيقا، الذي هو سر الهوية. بطريقة يتوقف القلب منها عن الخفقان.

وذلك لأن الضحك الجحيمي في ختام القسم الأول له نقيضه المقابل الذي يتمثل في جوقة الأطفال المثيرة للعجب الى حد بعيد، والتي تفتتح على الفور الجوقة الثانية، مصحوبة بأوركسترا جزئية، - إنها قطعة من موسيقا الأجواء الكونية، جليدية، صافية، شفافة كالزجاج، والحق أنها متنافرة على مرارة، ولكنها، مع ذلك، تتميّز بعذوبة في الجرس عُلْوِيّةٍ بعيدة المتناول، كما أودّ أن أقول، غريبة، تملأ القلب بشوق لا أمل معه. وهذه القطعة التي حظيت بقبول الكارهين أيضاً، وأثَّرت في نفوسهم، ونقلتهم الى حالة من الغيبوبة، هي لمن كانت له أذنان يسمع بهما، وعينان يرى بهما، ضحكات الشيطان مرة أخرى، تبعاً لجِبِلّته الموسيقيّة! وفي كل موطن يتميَّز أدريان ليفركون بالعظمة حين يجعل من المُشابِه غير مشابه، وإن المرء ليعرف أسلوبه في تعديل موضوع من موضوعات الفوغ إيقاعياً لدى الإجابة الأولى بحيث لايعود يمكن تمييزه من حيث كونه تكراراً على الرغم من المحافظة الصارمة على الفكرة الأساسية. والحال كذلك هنا - ولكن لايكون في أي مكان سواه بهذا العمق، وهذا

الخفاء، وهذه العظمة. وكل كلمة تمكننا من استشفاف معنى «الانتقال الى الجانب الآخر» وتحوُّل المعنى الصوفي، أي التبدُّل: كالتحوُّل، والتجلّي يجب الترحيب بها على أنها دقيقة. أما الهَوْل الذي يُسْمَع به من قبل فمنقول في الحقيقة، في جوقة الأطفال التي لاتوصف الى وضع مختلف كل الاختلاف، مع تعديل التوزيع الموسيقي والإيقاع تعديلاً كاملاً، ولكن لاتوجد، في أنغام الأجواء والملائك ذات الأزير والصريف، علامة موسيقية لاترد في الضحك الجحيميّ أيضاً، في تناظر صارم.

وهذا هو أدريان ليڤركون كاملاً، إنه، بأكمله، الموسيقا التي يمثلها، والصوتية في صورة المعنى العميق، والحساب الذي يُرْفَع الى مستوى السّر. وهكذا علمتني موسيقا تتميَّز بالألم أن أرى الموسيقا، على الرغم من أنني، بحكم طبيعتي الخاصة البسيطة، ربما وَدِدْت لو رأيت فيها شيئاً آخر، مختلفاً.




محمد خطاب

(٣٥)

وهذا الرقم الجديد يقوم عنواناً لفقرة يفترض أن تورد خبراً عن حادث محزن في مجال حياة صديقي، عن كارثة بشرية، - ولكن ياإلهي، أية جملة، وأية كلمة كتبتها هنا لم تكن محفوفة بالكارثيّ الذي بات هواء حياتنا نحن جميعاً؟ وأي شيء لم يكن يرتعد على نحو خفي. مثلما كانت ترتعد في كثير من الأحيان اليد التي كانت تكتبه، من جرّاء اهتزازات الكارثة التي تنزع قصتي الى سردها، وفي الوقت ذاته من جراء تلك الاهتزازات التي يعيش في ظلها العالم اليوم - وعلى الأقل العالم البشري، أو العالم المدني؟.

وهنا تتعلق المسألة بكارثة بشرية حميمة لايكاد العالم الخارجي يلاحظها، واجتمع الكثير من الأمور على تحقيقها، من انحطاط الرجال وضعف النساء، وزُهُوّ الأنثى والإخفاق المهني. لقد انصرمت الآن اثنتان وعشرون سنة منذ هلكت، أمام عينَيّ تقريباً، كلاريسّاروده، الممثلة، أخت إنيس، المعرَّضة للخطر، أيضاً على نحو ظاهر جليّ: فبعد انقضاء موسم شتاء ١٩٢١ -٢٢، في أيار، انتحرت في بفايفرنج، في منزل أمها، ومن دون أن تحسب لهذه حساباً، على عجل، وبتصميم، بالسمّ الذي كانت قد أعدته منذ وقت طويل، من أجل اللحظة التي لايعود فيها كبرياؤها يحتمل الحياة.

وأريد أن أسرد الأحداث التي أدّت الى فعلتها المفزعة، التي تهزّنا جميعاً، والتي لا تستوجب اللوم في الأساس، والظروف التي فعلت فيها تلك الفعلة، بكلمات وجيزة هنا. لقد سبقت الإشارة الى أن ألوان القلق والتحذيرات من جانب معلمها المونيخيّ أثبتت أنها وجيهة، لها مايبرِّرها، وكانت مهنة كلاريسا الفنية مازالت تأبى أن ترتقي على مدى السنين، لتخرج من قيعان الريف الى ماهو أعلى، وآهَلَ بالسمعة والكرامة، وأقبلت من إلْبِنج في بروسيا الشرقية، الى بفورتسهايم، - وهذا يعني أنها لم تتزحزح من موضعها، أو كانت قلّما تتزحزح منه، وذلك أن دور التمثيل الكبرى في الرايْش لم تكن تحفل بها، إذ كانت غير ناجحة، أو كانت غير ذات نجاح حقيقي، وذلك للسبب البسيط، الذي يعدُّ مع ذلك سبباً يصعب إدراكه بالقياس الى من يعنيه الأمر، لأن موهبتها الطبيعية لم تكن على قدر طموحها، ولم يكن ثمة دم مسرحي حقيقي يعين معرفتها وإرادتها على الوصول الى الفعالية، ويُكْسِبُها على خشبة المسرح، العقول والقلوب من جمهور جَموح، وكان يُفتَقد، في المجال الأوَّلي، الذي كانت له الآن مكانة حاسمة في كل فن، على أنه كان أوْكَد في مجال الكوميدي، سواء أكان ذلك مما يشرف الفن أم كان مما يشينه، وكان يقال في فن الكوميدي على وجه الخصوص.

على أن شيئاً آخر أضيف لكي يبعث البلبلة في حياة كلاريسا. وذلك أنها لم تكن تفرِّق، كما أشرتُ الى ذلك آسفاً، منذ عهد بعيد، بين خشبة المسرح وبين الحياة، حقَّ التفريق، وربّما كان ذلك لأنها لم تكن تعيش الحياة الحقة، حتى خارج المسرح أيضاً، وكانت الطبيعة الشخصية والجسدية لهذا الفن تفضي بها الى عَرْض لشخصها المدني مصحوب

بمواد لتزويق الوجه وقصّات للشعر منجَّدة تنجيداً، وقبعات مفرطة في الزخرفة والتنميق، في إخراج ذاتيّ فائض عن الحاجة تماماً، ويُساء فهمه إساءة كاملة، كان يحدث في مرهف الحس المنطوي على المودة أثراً مزعجاً، وفي المواطن أثراً كمن يتعرَّض للتحدي، وفي شهوانية الرجال تشجيعاً، – وكان ذلك على نحو خاطئ تماماً وخلافاً لكل نية لديها؛ إذ كانت كلاريسا هي المخلوق الرافض المتهكِّم، البارد الى الحد الأقصى. والمتعفِّف والنبيل الى الحد الأقصى، – وإن كان هذا الدرع من الكبرياء الساخرة تركيباً وقائياً يحميها من رغائب أنوثتها التي كانت تجعل منها الآن، مرة أخرى، الأخت الحقيقية لإنيس إنستيتوريس، عشيقة رودي شفيرتفيجر الحالية أو السابقة.

وعلى أية حال فقد عَرَض لها، بعد ابن الستين، ذلك المعنيّ بالحفاظ على صحته ومظهره، الذي أراد أن يتَّخذها عشيقة له، بعض الشباب من أهل الغرور، ذوي النوايا الأقل استقامة، وردُّوا عنها خائبين، وكان الواحد منهم أو الآخر يصدر عليها حكمه علانية، وكان في وسعه أن يكون ذا فائدة لها، غير أنه انتقم لنفسه من هذه الهزيمة بالازدراء الساخر لكفاءتها. ثم عاجلها القدر آخر الأمر مع ذلك، ومرَّغ أنفها في الرغام على نحو يبعث على الرثاء، وأقول «يبعث على الرثاء»، لأن الذي قهر أنوثتها لم يكن جديراً بانتصاره على الإطلاق، ولم تكن كلاريسا ذاتها تنظر إليه أيضاً، بحال من الأحوال، على أنه جدير بذلك: لحية مدبَّبة تحاكي لحية الشيطان وزير نساء، ألف العيش وراء الكواليس، والحياة في الريف، كان يعمل في بفورتسهايم محامياً، يدافع عن المجرمين، ولم يكن له مايتزوَّد به من أجل غزواته سوى المجاملات

المبتذلة التي تنطوي على ازدراء البشر، والثياب الأنيقة، والكثير من الشعر الأسود على يديه. وقد استسلمت لأسلوبه المألوف ذات مساء بعد التمثيل، وكان ذلك على الأرجح في سكرة الخمر، تلك المزوَّدة بالزُّباني والإبر، غير أنها في الأساس عديمة الخبرة، هشَّة لادفاع لها، - وكان ذلك باعثاً لأقصى درجات غضبها، وازدرائها العاصف لنفسها، لأن مُغْويها كان قد عرف كيف يتحمّل حواسَّها لحظة من الزمان، غير أنها لم تشعر تجاهه بشيء سوى الكراهية التي أثارها في نفسها انتصاره، وكانت تنطوي على اندهاش معيَّن في قلبها لأنه كان قد عرف كيف يوقع بها، أي كلاريسا روده، في فخّه. وكانت ترفض رغبته منذ ذلك الوقت على نحو مطلق، مع اقتران ذلك بالسخرية، - وكانت تراودها المخاوف دائماً، فحسب، من أنه قد يذيع بين الناس أنها عشيقته، الأمر الذي كان هذا الإنسان يهددها به، وسيلة للضغط، منذ تلك الأيام.

وفي أثناء ذلك كانت قد تفتَّحت للمعذبة، المخيَّبة الآمال، التي تعرَّضت للإذلال آفاق إنسانية ومدنية تنطوي على الخلاص. أمّا من أتاحها لها فكان صناعياً شاباً من الإلزاس، كان يأتي في بعض الأحيان، في أعماله، من شتراسبورج الى بفورتسهايم، وتعرَّف عليها في محيط أوسع، وأغرم بالشقراء الساخرة غراماً قاتلاً. أمّا أن كلاريسا لم تكن في تلك الأيام بدون التزام على الإطلاق، بل كانت ملتزمة للمرة الثانية، وإن كان ذلك على مدى أدوار من الحكايات لاتكاد تبعث على الامتنان، تجاه المسرح البلدي في بفورتسهايم، فذلك ماكانت تدين به لتعاطف كاتب مسرحيّ طاعن في السن، وشفاعته، وكان، وهو الذي يجتهد بنفسه في العمل الأدبي، وربما كان في الحقيقة لايؤمن بأنها

خلقت للمسرح، ولكنه كان يعرف كيف يقدر مكانتها الفكرية والإنسانية، التي كانت تتجاوز المكانة المألوفة في جماعة المشعوذين تجاوزاً كبيراً، يعدّ في كثير من الأحيان باعثاً للضيق. بل ربما كان يحبها، ومن يدري؟ ولم يكن إلاّ رجل خيبة الأمل والتخلي، الى حد لايمكّنه من استجماع شجاعته من أجل ميله الهادئ.

وإذاً ففي بداية الموسم الجديد لقيت كلاريسّا الإنسان الشاب الذي وعد بتخليصها من مهنة أخطأت في اختيارها، وأن يؤمِّن لها، في مقابل كونها زوجته، حياة مضمونة وادعة، بل موفورة موسرة في جوٍّ كان في الحقيقة غريباً عنها، ولكنه وثيق الصلة بأصولها المدنية، وكان تحدث أختها، وحتى أمها بسرور مفعم بالأمل لاتخطئه الملاحظة، وامتنان، بل ورقة (كانت ثمرة للامتنان). عن خطبة هنري، كما كانت تحدثهما أيضاً عن أشكال المقاومة التي كانت تصطدم بها رغائبه بصورة مؤقتة. وكان، على وجه التقريب، في مثل سن من اختارها، ابن عائلة، أو بُنَيَّها أيضاً، - أثيراً عند أمه، يعمل مع أبيه في محل تجاري، وكان يعبِّر في المنزل عن هذه الرغائب بحرارة، وعلى نحو أكيد أيضاً، بقوة إرادة، - وهي قوة إرادة ربما كان أضعافها ضرورياً لكي يتغلب، على عجل، على الحكم المسبق من قبل عشيرته البورجوازية، ضد الممثلة، جوّابة الآفاق، فوق ذلك، وكان هنري ينطوي على الكثير من التفهُّم لبواعث قلق ذويه على كرم أصله ونقائه، ولخوفهم أن يبدّد ثروته. أمّا أنه لم يفعل هذا بحال من الأحوال وهو يأخذ كلاريسا الى بيته، فذلك ما لم يكن من السهل إيضاحه لهم. وكان أفضل مايحدث من ذلك أن يقدمها شخصياً في منزل والديه، الى المحبَّيْن اللذين أنجباه، والى أخواته

الغياري، وعماته وخالاته للحكم عليها، واختبارها، وكان يعمل من أجل الحصول على الموافقة على الترتيب لهذا اللقاء منذ أسابيع. وكان يحدث المحبوبة عن خطوات تقدمه في رقاع منتظمة، في الإقامات المتوالية في بفورتسهايم.

وكانت كلاريسا واثقة من نصرها. وذلك من مسألة كونها نداً له من الوجهة الاجتماعية إلاّ أن مهنتها كانت تلقي عليها ظلالاً من الغموض، وكان استعدادها للتخلي عنها خليقاً أن يقنع أسرة هنري المتوجِّسة بلقائها شخصياً. وكانت في رسائلها، وبصورة شفهية، في زيارة في مونيخ، تستبق خطبتها الرسمية، والمستقبل الذي كانت تتطلّع إليه. على أن هذا تجلى في صورة مختلفة كل الاختلاف عن الصورة التي كانت البُنَيّة المجتثّة من جذورها، وليدة النظام الأبوي، والطامحة الى ماهو فكري وفنيّ، تحلم بها، ولكنه كان المرفأ، وكان السعادة، سعادة مدنية كانت على مايظهر تبدو لها مقبولة بدرجة أكبر، من جراء سحر الغرابة وجدّة الموطن المرتبطة بإطار الحياة الذي كان يفترض أن تُنقَل إليه، وكانت ترسم لنفسها صورة الرطانة الفرنسية التي ينطق بها أبناؤها في المستقبل.

هنالك انتصب في وجهها شبح ماضيها، شبحاً غبيّاً، لايقول شيئاً، ولا هو جدير بشيء، ولكنه وقح، لايرحم، يتصدى لآمالها، وقضى عليها في سخرية لاذعة، ودفع بالمخلوقة البائسة الى المأزق، ثم الى الموت. وكان ذلك الوغد الخبير بالقانون، الذي حظي بها في ساعة ضعف يبتزُّها بانتصاره في تلك المرة الواحدة، قائلاً إن أهل هنري، وهنري ذاته سوف يطّلعون على علاقته بها إذا لم تخضع لإرادته مجدّداً، ولابدّ، بعد كلّ

ما أطَّلَعْنا عليه فيما بعد، أن تكون حدثت مشاهد يائسة بين القاتل وضحيته. وعبثاً كانت الفتاة تتضرَّع إليه - وكانت تفعل ذلك الأمر جاثية على ركبتيها، ليرعى حرمتها، ويطلق سراحها، وألاّ يضطرها أن تشتري سلام حياتها بخيانة الرجل الذي أحبَّها وبادلته حباً بحب. على أن هذا الاعتراف استفزَّ ذلك اللئيم الى القسوة، ولم يكن يخفي على الإطلاق أنها، إذ تُسْلِم نفسها إليه الآن، لم تكن تحظى إلاّ بهذه اللحظة، مقابل السكينة التالية فحسب، وتشتري الرحلة الى شتراسبورج، والخطبة. أمّا أن يطلق سراحها فذلك ما لن يكون أبداً، بل سيظل يمسكها المرة بعد الأخرى، وفقاً لهواه، لكي تثبت عرفانها لجميل صمته الذي هو خليق أن يخرج عنه بمجرد أن ترفض الاعتراف بجميله. وقال إنها سيترتَّب عليها أن تعيش في إطار الخيانة الزوجية، - وإن هذا سيكون الجزاء العادل على تحذلقها، وعلى ما كان هذا الآدمي يسميه اندساساً في العالم البورجوازي، وإذا ماعادت الأمور تستقيم، وكشف رجلها الصغير، من دون معونته أيضاً، عن ألعوبتها، تبقَّت لها دائماً تلك المادة التي تسوّي كل شيء، والتي كانت تحفظها منذ البداية الأولى في ذلك المتاع الزخرفي، في الكتاب الذي نُقِش عليه رسم الجمجمة. ولم يكن من قبيل العبث أنه كان ينبغي لها أن تشعر بتفوُّقها على الحياة من جراء امتلاكها الذي تباهي به للدواء الأبقراطي، وأنها كانت تتهكم على الحياة شأن الموتى، - وكان تهكُّماً ينسجم مع سيماء وجهها انسجاماً أفضل من عقد السلام البورجوازي مع الحياة، وهو السلام الذي كانت تود لو رأت نفسها مستعدة له.

على أنني أرى أن ذلك الحقير كان يرمي الى ماهو أكثر من

الاستمتاع الذي يفرضه عليها، إذ كان يقصد الى موتها. وكان صلفه الدنيء يرغب في جثة امرأة على طريقه، وكان مما تشتهيه نفسه أن الآدمي إذا لم يمت من أجله على وجه الخصوص فليمت بسببه، وليمت وليهلك. ألا ليت كلاريسا تضطر الى إيلائه هذا المعروف! على أنها كانت مضطرة الى ذلك بالفعل، كما كانت تشير الى ذلك كل الأحداث والوقائع، وهو مايتبيَّن لي، ولم يكن لنا جميعاً بدٌّ أن نتبيَّنه. ونزلت على إرادته مرة أخرى، لتحظى بالسكينة الى حين، وباتت بذلك في يده أكثر مما كانت في أي وقت مضى. وكانت تبني حسابها على أنها حين تكون قد حظيت أوَّلاً بالقبول من قبل العائلة، وتزوجت من هنري، سوف تجد الوسائل والطرق لمجابهة المبتزّ (إذ ستكون، فوق ذلك، مختفية في أرض أجنبيّة)، على أن الأمور لم تنته الى هذا. ويبدو أن معذِّبها كان قد قرر ألاّ يدعها تصل الى الزواج وأدت رسالة مغفلة الاسم، من عشيق كلاريسا، تتحدث بصيغة الغائب، مهمتها داخل الأسرة في شتراسبورج عند هنري نفسه، فأرسل إليها النص لتبرِّر ذلك، إذا كان التبرير ممكناً. على أن رسالته المرفقة لم تكشف عن قوة إيمان لاتتزعزع أبداً، بالحب الذي كان يكنه لها.

وتلقَّت كلاريسا الرسالة المسجَّلة في بفايفرنج، حيث كانت، بعد اختتام الموسم المسرحي في بفورتسهايم، تقضي بضعة أسابيع ضيفة في منزل أمها، وراء أشجار الكستناء. وكان ذلك في ساعة مبكرة من بعد الظهيرة. ورأت زوجة السناتور بنيَّتها تعود أدراجها في خَطْوٍ سريع، من نزهة قامت بها وحدها بعد المائدة، وفي البهو الصغير للمنزل أسرعت كلاريسا، وعلى وجهها ابتسامة عابرة مرتبكة. عمياء، مارّة بأمها، الى

حجرتها التي دار مفتاحها في قُفْلِه وراءها دورة قصيرة وقوية. وسمعت السيدة العجوز، وهي في حجرة نومها الخاصة، الى جانب تلك الحجرة، ابنتها، تغرغر، بعد هنيهة عند المغسلة بماء، - ونحن نعرف اليوم أن هذا حدث لتبريد الحروق الكيمائية التي أحدثها الحمض الرهيب في بلعومها. ثم حل السكون، الذي دام زمناً رهيباً، حين قرعت الباب على كلاريسا بعد نحو عشرين دقيقة، زوجة السناتور، ونادتها باسمها، غير أنها لم تكن تسمع جواباً مهما ألحَّت في تكرار هذا. وجَرَت المرأة المروَّعة، بشعرها الذي ماعاد يمكن تسويته على الوجه الصحيح، وبالثغرة التي في أسنانها، نحو المبنى الرئيسي المقابل، وأبلغت بذلك السيدة شفايجشتل وهي تضغط على شفتيها، وتبعتها المرأة التي حنَّكتها التجاريب مع أجير من أجراء الأرض حطّم قفل الباب بعد النداء والقرع المتكرر على الباب. كانت كلاريسا راقدة وعيناها مفتوحتان، على الأريكة، عند نهاية موضع القدمين من السرير، وهي قطعة من السبعينات أو الثمانينات لها مسند للظهر ومسندان للجانبين، كنت أعرفها من شارع رامبرج، وكانت قد توجهت إليها حين دهمها الموت وهي تغرغر.

وقالت السيدة شفايجشتل حين أبصرت الممدَّدة في جلسة نصف معتدلة، وإصبعها على وجنتها، وهي تهز برأسها: «ماعاد يمكن عمل شيء هنا، ياعزيزتي، زوجة السناتور. ولم تُتَح لي هذه النظرة المُقْنعة الى حد مفرط، إلاّ في وقت متأخر عند المساء، حين أبلغتني قيِّمَةُ البيت بالهاتف، وأقبلت مسرعاً من فرايزنج، وضممت الأم التي كانت تُنَهْنِهُ بين ذراعيّ، متأثراً، ومواسياً، بحكم كوني من أصدقاء المنزل القدامى، ووقفت معها، ومع إلزاشفايجشتل وأدريان، الذي كان قد أقبل إلينا،

عند الجثمان.

كانت بقع زرق داكنة، من تجمُّد الدم، في يَدَيْ كلاريسا الجميلتين، وفي وجهها، ينبئن عن موت بالاختناق السريع، وعن شلل مفاجئ في مركز التنفس، من جراء جرعة من حمض السيانوجين كان في وسع المرء أن يقتل بها سريّة من الجند. وكان يقوم على المنضدة، مفرَّغاً، ذلك الجانب السفلي وقد فُكّ عنه بُزاله، ذلك الوعاء البرونزي، والكتاب الذي نُقش عليه اسم أبقراط بحروف يونانية، وكانت تستقر عليه الجمجمة. وكان يوجد مع هذا رقعة مكتوبة بقلم الرصاص على عجل، هذا نصها الحرفي(*)

«أحبك. لقد خنتك مرة واحدة، ولكني أحبك».

وحضر الشاب الجنازة التي كان الإعداد لها من نصيبي. وكان امرءاً لاعزاء له، أو كان، بالأحرى، desolé، الأمر الذي يبدو أقرب الى القول المأثور الى حد ما، بطريق الخطأ، لاريب، وليس جدّياً كل الجدية. ولا أود أن أشك في الألم الذي صاح به، قائلاً:

«ويلاه، ياسيدي، لقد أحببتها بما يكفي لكي أصفح عنها! لقد كان من الممكن أن يصلح أمر كل شيء . والآن.

أجل، comme ca. لقد كان من الممكن أن يأتي كل شيء على غير هذه الصورة بالفعل لو لم يكن ابن عائلة عاجزاً كهذا، ولو أن كلاريسا وجدت فيه مرتكزاً يمكن الاعتماد عليه أفضل من هذا.

وفي تلك الليلة كتبنا؛ أنا، وأدريان، والسيدة شفايجشتل، بينما كانت زوجة السناتور تجلس، في شقاء عميق، عند الإهاب المتجمد لبنيّتها، إعلان الوفاة الذي كان من الواجب أن يوقعه ذوو كلاريسا،

(*) في الأصل بالفرنسية.

والذي كان من الواجب أن يُضفى عليه وضوح مع الترفُّق والمراعاة، وأجمعنا على صياغة تفيد أن المتوفاة فارقت الدنيا بعد داء في القلب عضال لايرجى له شفاء. وقرأ هذا القُمُّص المونيخيّ الذي قابلته لأظفر منه بالجنازة الكنسية التي كانت زوجة السناتور ترغب فيها رغبة مُلحّة. وشرعت في هذا بأسلوب ليس بالمفرط في الدبلوماسية، إذ أقررت له بصورة مسبقة، وبأسلوب مفعم بالثقة والبساطة، بحقيقة أن كلاريسا فضلت الموت على حياة يفتقد فيها الشرف والكرامة، الأمر الذي رفض الكاهن، وهو رجل دين صُلْب، من الأنموذج اللوثري الأصيل، أن يعترف به. وأعترف بأن المسألة استغرقت هنيهة الى أن أدركت أن الكنيسة لاترغب أن ترى نفسها في الحقيقة مجردة من النشاط والفعالية، غير أنها ليست على استعداد لمباركة الانتحار المصرَّح به مهما يكن شريفاً، – وجملة القول أن الرجل الصلب العود أبى أن يعرف شيئاً سوى أنني أكذب، فخفَّفت حدة كلامي مباشرة، على نحو يكاد يكون مضحكاً، وأشرت الى هذا كله على أنه من قبيل عدم استجلاء الأمور، وأفسحت مجالاً لإمكانية أن يكون ذلك حادثاً تعيساً، وخلطاً بين القوارير، بل رأيت ذلك هو الأرجح، وتوصلت بذلك إلى أن أعلن ذلك العنيد الذي أرضاه شعوره بقدسية مؤسسته، من جراء الأهمية التي يُولونها لمشاركتها، استعداده لإجراء طقوس الدفن.

وحدثت هذه في مقبرة مونيخ، بمشاركة محيط أصدقاء آل روده بكامل عددهم، ولم يتخلّف حتى رودي شفيرتفيجر، وحتى تسينك وشبنجلر، بل شيلدكناب. وكان الحداد صادقاً، لأن كل هؤلاء كانوا يحبون كلاريسا المسكينة، الجريئة، المزهوَّة بنفسها. وكانت إنيس

انستيتوريس المكسوّة بالثياب السود الكثيفة، تتلقى التعازي بدلاً من أمها التي لم تخرج للناس، وجيدها الدقيق مائل الى الأمام، في مهابة لطيفة. ولم يكن لي بدٌّ أن أرى في المخرج المأساوي لمحاولة أختها في الحياة نذير سوء فيما يتصل بمصيرها، هي. وبالمناسبة فقد خرجت من حديثي معها، بانطباع مؤداه أنها كانت أقرب الى أن تحسد كلاريسا منها الى أن تحزن عليها. وكانت أحوال زوجها تعاني، على نحو مطرد الزيادة من جراء انهيار في العملة ناجم عن أزمات معينة، وكان الحاجز الوقائي المتمثل في الترف، هذا الوقاء من الحياة، يهدد تلك المُتَوجِّسة بالنضوب والانكماش، وكان قد بات من المشكوك فيه أن يكون في وسع الأسرة أن تظل محتفظة بالمسكن المترف عند الحديقة الإنكليزية. أما رودي شفيرتفيجر، فكان قد شيع كلاريسا، رفيقته الطيِّبة، في الحقيقة، الى مثواها الأخير، غير أنه غادر المقبرة من جديد بأسرع ماستطاع، بعد أن تقدم للعزاء عند أوائل الواقفين من أهل المتوفاة، الذين لَفَتُّ نظر أدريان الى ضآلة عددهم من الناحية الشكلية.

وكانت هذه، بلاريب، المرة الأولى التي رأت فيها إنيس العشيق مرة أخرى منذ أن قطع علاقته بها، - وأخشى أن يكون فعل ذلك مع شيء من الفظاظة، لأن فعله بطريقة لطيفة لم يكن ممكناً بلاريب مع الصلابة اليائسة التي كانت تتعلق بها بذلك. وكانت وهي تقف على قبر أختها، الى جانب زوجها المتأنِّق، امرأة مهجورة، وكانت تلك التكهنات توحي بأنها شقية الى حد مخيف. ولكن كان قد التأم حولها، للعزاء الى حد ما، جمع صغير مع النساء كانت عضواته قد حضرن، بصورة جزئية، من أجلها، أكثر مما حضرن على شرف الاحتفال بتأبين كلاريسا. وكان من

هذه المجموعة الصغيرة والثابتة، أو الجمعية، أو الهيئة، أو نادي الصداقة، أو كما ينبغي لي أن أعبِّر عن ذلك، تلك المرأة الغريبة، ناتاليا كنوتيريش، أولى صديقات إنيس المُقَرَّبات، ولكن كان فيهن أيضاً كاتبة مطلَّقة من زوجها، رومانية من أهل الجبال السبعة، مؤلفة لبعض المسرحيات الهزلية، ومالكة لصالون بوهيمي في شفابنج، ثم الممثلة في مسرح البلاط، روزا تسفتشر، وهي ممثلة تتميّز بحدّة عصبية كبيرة في كثير من الأحيان، - ومعهن بعدُ، هذه أو غيرها من الشخصيات النسائية اللواتي لانحتاج الى تمييزهن هنا، ولاسيما مادمت لست واثقاً كل الثقة بانتماء كل واحدة منهن الى المجموعة بصورة فعالة.

وكانت الآصرة التي تجمع هؤلاء هي المورفين، - وقد تَمَّ إعداد القارئ لسماع هذا: وإنها لوسيلة جمع فائقة القوة، إذ لم يكن من شأنها أن الرفيقات كانت كلٌّ منهن تساعد الأخرى بروح رفاقيّة، وبطريقة باعثة للانقباض، بالعقار المُسْعِد المُفْسِد، بل كان يوجد أيضاً، من الوجهة الأخلاقية، تضامن كئيب، ولكن لطيف أيضاً، بل كان ينطوي على التقدير المتبادل بين اللواتي يستعبدهن الداء ذاته، والضعف ذاته. وفي حالتنا كانت الخاطئات، فوق ذلك، تجمع بينهن أيضاً فلسفة، أو مبادئ معينة، كان منطلقها من قبل إنيس إنستيتوريس، وكان يجاريها في تبريرها كل صويحباتها الخمس أو الست. وذلك أن إنيس كانت تكشف عن وجهة النظر القائلة - وهي التي سمعتها بنفسي من فمها في بعض المناسبات - إن الألم شيء لايليق بكرامة الإنسان، وأن من المهانة والعار، أن يتألم الإنسان، وكانت تقول إنه بصرف النظر تماماً عن أي إذلال مادي وخصوصي يحدث عن طريق الألم الجسدي، أو متاعب

القلب، تعد الحياة نفسها، وفي حد ذاتها، أي مجرد الوجود، الوجود البهيمي، سلسلة من الأعباء، ومشقّة وضيعة، وأنه لايعد إلاّ من النُّبْل، ودواعي الفخر، وعملاً من الأعمال المرتبطة بحق الإنسان، والتفويض الفكري، أن يزيح المرء عن كاهله هذا العبء، إن صح التعبير، وأن يتخلص منه، وأن يحظى بالحرية، واليُسْر والسهولة، وبما يشبه الارتياح الجسدي عن طريق إمداد الجسم بالمادة المباركة التي تُؤَمِّن لها مثل هذا التحرر من معاناة الألم.

أمّا أن هذه الفلسفة كانت تتقبَّل مايترتَّب عليها من النتائج المدمِّرة، أخلاقياً وجسدياً، وهي النتائج المرتبطة بعادة التدليل (أو التدليع)، فذلك ماكان يعود، على مايبدو، الى نبلها، والأرجح أن وعي الهلاك المشترك كان هو الذي يهيئ الأجواء للرفيقات، من أجل مثل هذه الرقة، بل فيما بينهن. وكنت أرقُب الإشراق الذي ينمّ عن الافتتان، في نظراتهن، ومعانقاتهن وقبلاتهن التي تنمّ عن التأثُّر عندما يضمهن مجتمع ما، مراقبة لاتخلو من الاشمئزاز. أجل، إني لأعترف بضيق صدري تجاه هذا التحلُّل الذي يهبه المرء لنفسه، - أعترف به اعترافاً مصحوباً باندهاش معيَّن، مادمت لاأرتضي لنفسي في العادة، بحال من الأحوال، دور الرجل الفاضل والقاضي. وربما كان الذي أثار نفوري الذي لايُقاوَم ذلك الكذب المعين المستعذب، الذي تفضي إليه الرذيلة. أو تكون ملازمة له بصورة مسبقة. كما كنت آخذ على إنيس لامبالاتها المتهوِّرة تجاه أطفالها، وهي اللامبالاة التي أثبتتها باستسلامها لهذا العبث والمجون، والتي كشفت أيضاً عن أن كل هذا الحب المضحك لتلك المخلوقات البيض المترفة إنما هو كذب. وجملة القول، أن هذه المرأة قد

باتت بغيضة الى نفسي منذ أن عرفت، ورأيت، ما كانت تسمح به لنفسها، وقد لاحظت حقاً أنني تخليت عنها في نفسي، وقابلت إحساسها هذا بابتسامة ذكَّرتني، في خبثها المعقَّد، الثعلبي، بخبثها السابق الذي كشفت عنه حين سلخت ساعتين في مشاركتي الإنسانية في آلام حبها وملذّاته.

ويلاه، لم يكن لديها إلاّ القليل من الأسباب التي تسمح لها أن تفرح وتمرح، لأن انسلاخها من الكرامة كان بؤساً وشقاء، والأرجح أنها كانت تتناول جرعات مفرطة لم تكن تؤمِّن لها ارتياحاً وانتعاشاً، بل كانت تنقلها الى حالة لم تكن تستطيع أن يطلع الناس عليها وهي فيها.

وكان ذلك الشدو يحدُث على نحو أكثر عبقرية تحت تأثير تلك الوسيلة، وكانت ناتاليا كنوتريش ترفع بذلك مكانة سحرها الاجتماعي. ولكن كان يحدث للمسكينة إنيس. مراراً، أنها كانت تأتي الى المائدة نصف فاقدة لوعيها، وتستقر جالسة الى المائدة، وعيناها جامدتان كالزجاج، منكَّسة الرأس، الى كبرى بناتها، وزوجها المتأثر تأثُّر من يحفلِ بصغائر الأمور، على نحو مزعج مُرْبِك، وكانت مائدة الطعام مازالت تلقي العناية الحسنة، وتتوهج بالبلَّوْر. وأريد هنا أن أقِرَّ بشيء واحد: وهو أن إنيس ارتكبت لبضع سنين خلت جريمة كبرى أثارت فزعاً عاماً ووضعت لحياتها المدنية نهايتها. ولكن مهما يكن من رعدتي حيال الجريمة المنكرة فقد كنت مع ذلك، وبدافع الصداقة القديمة، أكاد أَزْهى، بل أَزْهى على نحو حاسم بأنها كانت قد وجدت، وهي في تَرَدِّيها، القوة، والطاقة الجامحة من أجل التصرُّف.


محمد خطاب

(٣٦)

أيْ ألمانيا، ها أنتذي تَهْلَكين، وأنا أذكر آمالك! وأقصد الآمال التي كنت تثيرينها (ربما من دون أن تشاطري فيها)، والتي أراد العالم أن يعلقها عليك، بعد انهيارك السابق، الهيِّن اللطيف نسبياً، بعد اعتزال مملكة الامبراطور، والتي ظللتِ، على الرغم من السلوك الحافل بالفرح والمرح، وعلى الرغم من تضخيم بؤسك الحافل بالفرح، وعلى الرغم من تضخيم بؤسك تضخماً جنونياً على نحو كامل، ويائساً يأساً جامحاً، ومقنعاً إقناعاً جامحاً، وعلى الرغم من دلك التضخُّم النقدي الذي يتصاعد، سكرانَ، حتى يبلغ السماء، تَبْدين كما لو كنت تبررين ذلك الى درجة معينة، على مدى بضع سنوات، وإنه لحق، فعبث تلك الأيام، الخياليّ، الذي يتهكَّم على العالم، والذي يُقصَد به أن يكون مفرغاً، كان هو ذاته ينطوي على الكثير من عدم قابلية التصديق، بما فيه من التهويل والتشويه، وغرابة الأطوار، ومما لم يكن بعد ممكناً قط، ومن النزعة اللاّسراويليّة الخبيثة في تمثيليتنا عام ١٩٣٣، وحتى منذ عام ١٩٣٩. غير أن سكر المليارات، هذا اللغو والتشدُّق المعبِّر عن البؤس، انتهى ذات يوم الى نهاية ما، وعاد الى جبين حياتنا الاقتصادية الشائه تعبير العقل، وحقبة الاستجمام النفسي، والتقدم الاجتماعي في إطار من السلام والحرية، والجهد الثقافي للبالغين، الذي شبّوا عن

الطوق، والمتوجهين نحو المستقبل، وكان التقريب القائم على حسن النية بين شعورنا وتفكيرنا وبين ماهو طبيعي وعاديّ، يبدو كأنه يلوح في آفاقنا. وما من شك في أن هذا كان، على الرغم من كل ألوان الضعف الفطريّ، وكراهية المرء لنفسه، بالفطرة، يمثل معنى الجمهورية الألمانية وأملها، - وأقول مرة أخرى: الأمل الذي ابتعثته في نفوس الأجانب. لقد كانت محاولة، محاولة لم تكن تخلو كلَّ الخُلُوّ من احتمالات المستقبل وآماله، من أجل تطبيع أحوال ألمانية بمعنى «أُورْبَتِها» أو إضفاء الصفة الديمقراطية عليها، وإدخالها، من الناحية الفكرية في إطار الحياة الاجتماعية للشعوب (وكانت هذه هي المحاولة الثانية، بعد محاولة بسمارك التي أخفقت، وعمله الفني في مجال التوحيد). ومن تُراه ينكر أن كثيراً من الإيمان الطيِّب بإمكانية هذه العملية في البلدان الأخرى كان حيّاً، ومن تُراه يجادل في أنه كان من الممكن أن يقرر المرء وجوداً فعلياً لحركة خالية من الأمل، في هذا الاتجاه، بين صفوفنا، في ألمانيا، وفي كل مكان من البلاد، مع استثناءات تتمثل في المعاندة الفلاحيّة.

وأنا أتحدث عن عشرينات هذا القرن، وبوجه خاص، بالطبع، عن نصفها الثاني، الذي حمل معه، بكل الجدّ، تحوُّلاً في البُؤَر الثقافية من فرنسا الى ألمانيا، والذي كان من سماته المتميِّزة بدرجة عالية أنه حدث فيه، كما ذكرنا، العرض الأول، وبعبارة أدق: العرض الكامل الأول لموشحة أدريان ليڤركون في «رؤيا نهاية العالم». ومن البدهي أن هذا حدث على الرغم من أن فرانكفورت، مكان العرض، كانت إحدى مدن الرايْش ذات السمعة الحسنة، المتميّزة بحسن المقصد، والصراحة، عرضاً

لم يخلُ من تناقض ينطوي على الغضب، ولم يخل من ارتفاع العقيرة بمأخذ التهكُّم على الفن، وبمأخذ العَدَمية، والإجرام بحق الموسيقا، أو مأخذ «البلشفة الثقافية»، إذا شئنا أن نورد في ذلك إحدى المسبّات الأكثر شيوعاً في تلك الأيام. غير أن هذا العمل، والجرأة المتمثلة في تقديمه، لقيا مدافعين أذكياء قادرين على الكلام. وكانت هذه الجرأة الطيبة التي وصلت، في صداقتها للعالم والحرية، في عام ١٩٢٧، الى ذروتها، وهذا النقيض لرد الفعل الرومانسي الوطني الفاجنري، كما كان في موطنه، على وجه الخصوص، في مونيخ، كان يشكل على وجه الإطلاق أيضاً، في حد ذاته، عنصراً من عناصر حياتنا العامة في النصف الأول من هذا العقد، – حيث تخطر ببالي في هذا الصدد أحداث ثقافية، مثل عيد الموسيقيين في ڤايمار عام عشرين، وعيد الموسيقا الأول في دوناوْإِشِنْجِن، في العالم التالي. وفي كلتا المناسبتين عرضت في غياب المؤلف الموسيقي، مع الأسف – أمام جمهور لم يكن بحال من الأحوال ممن لايتأثرون، وأقصد أن أقول إنه جمهور «ذو عقلية جماهيرية» من الناحية الفنية، الى جانب أمثلة أخرى على موقف موسيقي – فكري جديد، أعمال لليڤركون أيضاً: ففي ڤايمار عرضت «السنفونية الكونية» بقيادة برونوڤالتر الذي يمكن الاعتماد عليه في مجال الإيقاع بوجه خاص، في مكان الاحتفال، في بادن، مع اقتران ذلك بمسرح عرائس هانر بلاتْنَر الشهير، وكل القطع الخمس من (بطولات الرومان)، – وكانت تجربة تجعل النفس تتردد جيئة وذهاباً بين التأثُّر القائم على الورع، وبين الضحك، على نحو لم يسبق له مثيل قط.

غير أني أريد أن أذكر أيضاً النصيب الذي أتيح للفنانين،

ولأصدقاء الفن الألمان، في تأسيس «الجمعية الدولية للموسيقا الجديدة»، في العام اثنين وعشرين، وإنشاء هذه الرابطة بعد عامين في براغ، حيث ترددّت أصداء مقطوعات جوقات وآلات موسيقية من «رؤيا نهاية العالم» التشكيلية لأدريان أمام مستمعين يفرضون إرادتهم الى حد بعيد، من كل بلدان الموسيقا. وكان هذا العمل قد ظهر مطبوعاً في تلك الأيام، ولم يكن ذلك، في الحقيقة مثل أعمال أدريان السابقة، عند شوتّ في ماينتس، بل في إطار «الطبعة العالمية» في ڤينا، التي ظهر مديرها الذي كان مازال شاباً، لم يكد يبلغ الثلاثين. ولكنه كان يلعب دوراً مؤثِّراً في الحياة الموسيقية في وسط أوروبا، ويدعى الدكتور إيدلمن، ذات يوم، أي في موعد لم تكن فيه «رؤيا نهاية العالم» قد اكتملت (إذ كان ذلك في أسابيع الانقطاع من جراء نكسة المرض على نحو مفاجئ، في بفايفرينج، ليعرض على ضيف آل شفايجشتل خدماته في مجال النشر. وكانت للزائر علاقة معلَنة بمقالة مكرسة لإبداع أدريان كانت قد ظهرت مؤخراً في مجلة الموسيقا التقدمية الراديكالية، في ڤينا، اسمها «البزوغ»، بقلم عالم الموسيقا الهنغاري وفيلسوف الحضارة ديسيديريوس فيهَر. وكان فيهر قد عبَّر عن السموٌّ العقلي والمضامين الدينية، وعن الزُّهُوِّ واليأس، وذكاء الموسيقا الآثم، المدفوع به الى درجة الإلهاميّ وهو الذكاء الذي لفت إليه أنظار عالم الثقافة هنا، وذلك بحرارة زاد من قوتها الخجل المعترف به من أنّ الكاتب لم يكتشف بنفسه هذا الأمر الذي هو في منتهى الأهمية والإمتاع، والأكثر استحواذاً على النفوس، ولم يقع عليه بفضل قيادته الداخلية الخاصة، بل لم يكن له بدٌّ أن يتم توجيهه الى ذلك من الأعلى، من جوٍّ هو أعلى من كل علم واطلاع، هو

جو الحبّ والإيمان، والأنثويّ الخالد، بعبارة موجزة. وجملة القول أن المقال الذي لم يكن بعيداً عن الانسجام مع موضوعه، والذي كان يخلط التحليلي بالغنائي، كان يسمح، من خلال خطوط أولية بالغة الغموض، باستشفاف شكل، أو هيئة لامرأة مرهفة الحس، عارفة، تعمل في الدعوة الى معرفتها، وكانت هي ملهمته الحقيقية. ولكن لمّا كان قد ثبت أن زيارة الدكتور إيدلِمن كان الباعث إليها عملية النشر في ڤينا فقد كان في وسع المرء أن يقول إن هذه الزيارة كانت باعثاً لتلك الطاقة ولذلك الحب الباقيَيْن في الخفاء، بصورة غير مباشرة أيضاً.

أوَ كانت كذلك على نحو مباشر فحسب؟ أنا لست على يقين كامل، وأنا أرى أن من الممكن أن تكون توافرت لرجل الأعمال الشاب العامل في مضمار الموسيقا حوافز مباشرة من قبيل التلميحات والإشارات من ذلك «الجو». ومما يزيدني قوة في تكهُّني هذا حقيقة أنه كان يعلم أكثر مما كان المقال، الذي كان يسلك نهج التكتّم الى حد ما، قد تكرَّم بالإفضاء به: وهو أنه كان يعرف الاسم وقد ذكره، - لا على الفور، ولا بصورة مسبقة، ولكن أثناء الحديث، حوالي النهاية. وبعد أن رُفِض تقريباً، ولكن كان قد عرف كيف يفرض استقباله، التمس من ليڤركون أخباراً عن انتاجه الحالي، وكان قد سمع عن الموشحة الدينية - أوَّل مرة؟ أما أنا فأشك في هذا! - وينتهي الأمر الى أن يعزف له أدريان، على الرغم من معاناته من الألم الى حد العجز، أجزاء أكبر من المخطوط في قاعة إلهة النصر، وعلى أثر ذلك حظي إيدلمن بالعمل الفني من أجل الطبع، على الفور: وصدر العقد في اليوم التالي، من فندق «البلاط الباڤاري» في مو: يخ، ولكن قبل أن ينصرف سأل أدريان، وهو

يستخدم صيغة الخطاب الشائعة عند أهل ڤينا، والمأخوذة عن الفرنسية، قائلاً.

«هل تعرف، أيها الأستاذ» - بل أعتقد أنه قال: «هل تعرف، ياأستاذ، السيدة فون تولنا؟».

على أنني أوشك أن أدخل في قصتي شخصية لم يُتَحْ لكاتب روائي أن قدمها لقرائه أبداً، مادام عدم الشفافية يتناقض تناقضاً ظاهرياً مع شروط الفني، ويتناقض، بناءً على ذلك، مع السرد الروائي. غير أن السيدة فون تولنا شخصية غير شفافّة، وأنا لا أستطيع أن أضعها أمام عينَيْ القارئ، ولا أستطيع أن أعرض أدنى شاهد من شواهد مظهرها الخارجي. لأنني لم أرها قط، ولاتلقيت وصفاً لها أبداً، إذ لم يرها أحد من معارفي في أي يوم من الأيام. وأدع الآن البحث في مسألة هل كان في وسع الدكتور إيدلمن، أو كان في وسع مجرد ذلك المتعاون مع «البزوغ» الذي كان من أبناء موطنها، أن يفخر بالتعرف عليها. أمّا مايتصل بأدريان فقد أجاب في تلك الأيام عن سؤال ذلك الڤينّاوي بالنفي، إذ قال إنه لايعرف تلك السيدة، - ولكن من دون أن يسأَل من جانبه عمَّن عسى أن تكونه هذه؛ الأمر الذي حمل إيدلمن على أن ينأى بنفسه على الإدلاء بشيء من الإيضاح، إذ اكتفى بالرد بقوله:

«على كل حال فليس لك» - أو: «ليس للمعلم معجبة أكثر حرارة منها».

وكان يبدو أنه كان يأخذ «عدم المعرفة» على أنه الحقيقة المشروطة المغلّفة بالتحفُّظ، على النحو الذي كانت عليه. وكان في وسع أدريان أن يجيب، كما كان يفعل لأن المسألة كانت تفتقر الى كل لقاء شخصي في

علاقاته بالأرستقراطية الهنغارية، وأضيفُ قائلاً إنها كان يفترض أن تفتقر دائماً الى التفاهم الهادئ بين كلا الجانبين. أمّا أنه كان يتبادل معها الرسائل منذ أيام بعيدة، وأنه كان تراسُلاً أثبتت فيه أنها العارفة الأذكى والأدق على وجه الإطلاق، والمؤمنة بعمله الفني، وأنها، فوق ذلك، الصديقة الحريصة المعنيّة والمستشارة، والخادمة المطلقة لحياته، وهو الأمر الذي وصل فيه، من جانبه، الى حدود التبسُّط في الحديث والثقة اللتين كانت الوحدة تؤهِّل لهما، - فتلك مسألة أخرى. لقد تحدثت عن نفوس نسائية فقيرة افتتحت لنفسها، عن طريق التفاني البعيد عن المصلحة الشخصية، مكاناً متواضعاً في حياة هذا الرجل التي لاريب في أنها حياة خالدة. وهنا نفس ثالثة، ذات نوعية مختلفة كل الاختلاف، لاتتميز بأنها تقصِّر عن شَأْوِ تلك النفوس الأكثر بساطة في بعدها عن المنفعة الخاصة فحسب، بل تتفوَّق عليها: عن طريق التخلّي الزُّهْدي عن كل اقتراب مباشر، والمراقبة التي لاتتزعزع، للخفاء، والتحفُّظ، وعدم الإثقال والإزعاج، وبقاء المرء غير مرئي، - وهو مالم يكن من الممكن أن يستند الى الوجل الأخرق، مادامت المسألة تتعلق بامرأة من نساء العالم كانت تمثل العالم بالفعل بالقياس الى من يقيم في بفايفرينج، العالم كما كان يحبه، ويحتاج إليه، ويحتمله، العالم على مسافة، العالم الذي ينأى بنفسه بدافع المراعاة الذكية...

وأقول عن هذا العالم النادر ماأعرف. كانت السيدة دي تولنا أرملة موسرة، خلّفها من دون أولاد زوج من الفرسان من أهل المباذل والشهوات، لم تُفْضِ به رذائله، بالمناسبة، الى الهلاك بل أفضى به إليه سباق خيل انتهى الى حدث أليم، فباتت مالكة قصر في بيست، وهو

عقار فروسيّ ضخم يقع على مسيرة بضع ساعات الى الجنوب من العاصمة، بالقرب من شيولفايسنبرج، بين بحيرة بلاتّن ونهر الدانوب، والى جانب ذلك أيضاً منزل ريفي على شكل القصر عند البحيرة المذكورة، بحيرة بالاتون. وكان العقار، الذي كان يشمل منزلاً فخماً لأحد الأشراف، يرجع الى القرن الثامن عشر، قد تمّ تجديده ليكون مسكناً مريحاً، يضم، فضلاً عن حقول القمح الهائلة، مزارع واسعة للشمندر، كانت محاصيلها تعالج في منشآت للتصفية خاصة بالعقار ذاته. ولم تكن المالكة تستخدم أيّاً من أماكن الإقامة هذه لأي فترة تطول، سواء في ذلك منزلها في المدينة، أم قصرها في ذلك العقار، أم منزلها الريفي الصيفي. وكان الأرجح بصورة كاملة، كما يستطيع المرء أن يقول: أنها تكون دائماً على سفر، إذ كانت تُسْلِم أمر المواطن التي لم تكن متعلّقة بها على مايبدو، والتي كان يخرجها منها الاضطراب أو الذكرى المزعجة، لرعاية نُظّار وحُجّاب. وكانت تعيش في باريس، ونابولي، ومصر، وفي الإنجادين، تصحبها من مكان الى آخر آنسة، وموظف من الذكور كان يتخذ صفة المسؤول عن المبيت ومستشار الرحلات، وطبيب مكرَّس للخدمات التي تؤديّ إليها وحدها، مما كان يمكّن من استنتاج أن صحتها كانت تتعرّض لظروف حرجة.

ولم يكن يبدو أن مرونتها في الحركة تتأثر من جراء هذا. ومع اقتران هذا بحماسة كانت تقوم على الغريزة، والإحساس الأولي، والمعرفة الحساسة، - والله يعلم - والتعاطف المنطوي على الأسرار، وآصرة القربى بين النفوس كانت تسجِّل حضوراً مفاجئاً. وتبيَّن أن هذه السيدة كان لها حضور في كل مكان، وكانت تختلط بالجمهور على نحو لايلفت

الأنظار كلّما تجرّأ امرؤ على أن يدع شيئاً من موسيقا أدريان تتردَّد أصداؤه: في لوبك (في عرض الأوپرا الأول، الذي يتعرَّض للسخرية)، وفي زوريخ، وفي ڤايمار، وفي براغ. أما تواتر قربها الشديد، في مونيخ، وكذلك وجودها في مقر إقامته، من دون أن تدع أحداً يلاحظها، فذلك ما لا أستطيع الحديث عنه. غير أنها كانت تعرف بفايفرنج أيضاً، وكان هذا يتبيّن في بعض الأحيان على نحو خفيّ: فقد أحاطت علماً، في إطار من الهدوء، بمرابع أدريان، ومحيطه المباشر، وكان تقف، إذا لم أكن مخطئاً، تحت نافذة حجرة رئيس الدير على وجه الخصوص، ثم تبتعد من جديد، من دون أن تُرى. وهذه مسألة جذّابة بما يكفي، غير أنها تستحوذ عليَّ على نحو أكثر غرابة. على أن مما يزيدها ابتعاثاً لتصوُّر الحج أنها ارتحلت، كما تبيَّن على النحو ذاته بعد ذلك بزمن طويل، وبطريق المصادفة بدرجة تقل أو تكثر، الى كايسرزآشرن أيضاً، وأنها كانت تنطوي على معرفة بقرية أوبرڤايلر، وبمزرعة بوخل نفسها، أي أنها كانت تألَفُ فكرة التوازي التي كانت تكدِّرني في كل حين، وهو التوازي الذي كان قائماً بين مسرح طفوله أدريان، وإطار حياته اللاحق.

وقد نسيت أن أذكر أنها لم تهمل ذلك المربع القائم في جبال سابينا، وباليسترينا، وأنها لبثت بضعة أسابيع في منزل آل مناردي، وعقدت، كما بدا، أواصر الصداقة على عجل، وبحرارة، مع السنيورة مناردي، وكانت إذا ذكرت قيِّمة المنزل في رسائلها التي كانت تكتب شطراً منها بالألمانية، وشطراً آخر بالفرنسية، سمَّتْها «الأم مَناردي»، أو "Mére Manardi" وكانت تستعمل التعبير ذاته من أجل السيدة شفايجشْتِل، التي كانت قد رأتها، كما كان يتبيَّن من كلامها، من دون

أن تُرى هي أو تُلاحَظ من قبلَها. وماذا عنها هي؟ أوَ كانت فكرتها أن تنضَمَّ الى هذه الشخصيات الأمومية وتسمِّيَهن أخوات؟ وأي اسم كان يليق بها - بالقياس الى أدريان ليڤركون؟ وأي اسم كانت ترغب فيه، أو كانت تدعيه لنفسها؟ أوَ كان اسم إلهة حارسة، أم اسم النجمة إيجيريا، أم اسم حبيبة رهيبة؟ وكانت الرسالة الأولى التي وجهتها إليه (من بروكسل مصحوبة بهدية ولاء تتمثل في خاتم لم أر له مثيلاً، الأمر الذي لم يكن يفترض أن يعني كثيراً بالطبع مادام أولئك الذين يكتبون هذا قليلي الخبرة حقاً في كنوز هذا العالم، وكان جوهرة ذات قيمة لاتقدَّر، بالقياس إليّ، وذات جمال فائق. وكان الإطار المنقوش ذاته قديماً، من عمل عصر النهضة، وكان الحجر أنموذجاً فخماً مصقولاً على مساحة كبيرة، من زبرجد الأورال الأخضر الفاتح، الذي تروع العين رؤيته. وكان في وسع المرء أن يتصوَّر أن هذا الخاتم كان يزيِّن ذات يوم يد أمير من أمراء الكنيسة، - وكانت الكتابة المنقوشة عليه، ذات المضمون الوثنيّ قلَّما تفيد نقيض هذا التصوُّر، إذ نقش على الصفحة القاسية للزبرجد الكريم، أي على سطحه العلوي المصقول، بأدقّ الحروف الإغريقية، بيتان من الشعر يستطيع المرء أن ينقلهما الى العربية على النحو التالي، تقريباً:

أي زلزال سرى في حرش غار أبولّو!

فزلزل الهيكل بأسره! ألا أيها المدنَّسون فلتهربوا، ولتتواروا؟

ولم يكن من العسير عليّ أن أحدِّد موقع هذه الأبيات، على أنها مطلع نشيد لأبولّو، من نظم كاليماخوس. وهو يصف، بفزع مقدَّس، بوادر عيد الغطاس للإله في قداسته. وقد حافظت الكتابة، بضآلتها

البالغة، على حدِة كاملة، على حين بدا أكثر أمِّحاء ذلك الرمز المنقوش تحتها على شكل تصويرة يمكن تحديدها، أفضل مايمكن تحت عدسة المكبِّر، بأنها حيوان مهول على شكل الأفعوان المجنَّح الذي كان لسانه الذي ينبعث نحو الخارج يتسم بسمة سهم مكتمل الصياغة، على أن هذا الخيال الميثولوجي حملني على التفكير في جرح السهم أو جرح العضة الذهبية العاجيّة لفيلوكتيت، والتفكير فوق ذلك، في الاسم الذي يطلقه اسخيلوس ذات مرة على السهم: «الأفعى المجنَّحة التي تفحّ فحيحاً» غير أنه يطلقه أيضاً على العلاقة التي تقوم بين نَبْل الخوف وشعاع الشمس.

وفي وسعي أن أشهد أن أدريان سُرَّ سروراً طفولياً بالهدية ذات الشأن التي جاءته من المحيط البعيد الذي كان يهتم به، وقَبِلها دونما تفكير، أم هل ينبغي لي أن أقول إنه كان يمارس الطقس المتمثل في استثماره من أجل ساعات العمل، إذ كان يحمل هذه الجوهرة في يده اليسرى خلال كل العرض الخاص «برؤيا نهاية العالم»، على ما أعلم.

أتُراه كان ينظر الى الخاتم، على أنه رمز الارتباط، والقيد، بل التبعية؟ الظاهر أنه لم تكن لديه أفكار معينة في هذا الصدد، بل كان يرى في الحلقة الثمينة حلقة من سلسلة غير مرئية كان يدسُّها في إصبعه من أجل التأليف الموسيقي، ولاشيء أكثر من ارتباط وحدته بالعالم التي كانت قلّما يجري التلميح إليها بصورة شخصية، وكان يبدو أنه كان أقل كثيراً سؤالاً عنها من سؤالي أنا. وكنت أسائل نفسي، هل يوجد، في مظهر السيدة، شيء يمكن أن يتبيَّن منه المبدأ الأساسيّ لعلاقتها بأدريان، من عدم رؤيتها، وتحاشيها، وعدم اللقاء أبداً؟ لقد كان من

الممكن أن تكون دميمة، أو مشلولة، أو ذات عاهة، أو مشوَّهة من جراء مرض تعاني منه بشرتها. على أني لا أفترض هذا. بل أعتقد، بالأحرى، أنه إذا كان ثمة أذىً فقد كان ذلك يكمن في الجانب النفسي، وكان مبذولاً من أجل فهم كل نوع من أنواع المراعاة، على أن شريكها لم يحاول أبداً أن يَهُزَّ جذع ذلك التشريع، بل كان يُسْلِس قياده، في صمت، لحقيقة أنه ينبغي لهذه العلاقة أن يكون لها بقاءٌ وثبات صارمان في الفكر البحت.

على أنني لايسرُّني أن استخدم هذا التعبير المبتذل «في الفكري البحت»، إذ إنه ينطوي على شيء لالون له ولاحول ولاقوة، ولاينسجم انسجاماً حسناً مع عافية عملية معينة كانت مما يختص به هذا التفاني والرعاية البعيدان المحجوبان. وكانت ثقافة أوروبية، موسيقية وعامة، جدية للغاية، تُضْفى هناك، في الطرف المقابل، على تبادل الرسائل، كما كانت تتم العناية في أيام التحضير للعمل الفني في «رؤيا نهاية العالم»، وأثناء تدوينه مستنداً موضوعياً. وكان القوم يعرفون كيف يزوِّدون صديقي، من أجل بنيان النص في هذا العمل بحوافز، ومادة صعبة المتناول، كما ثبت فيما بعد، أن تلك الترجمة الفرنسية القديمة للشعر الخاص برؤيا بولس، إنما تهيَّأت له من «العالم» وكانت هذه تعمل عملها في خدمته بقوة وعنفوان، وإن كان ذلك يتم بطرق ملتوية، وعن طريق وسطاء، وكانت هي التي ابتعثت المقالة الظريفة في مجلة «البزوغ»، - وما من شك في أن هذا هو المكان الوحيد الذي كان من الممكن في تلك الأيام أن يجري فيه الحديث عن موسيقا ليفركون بإعجاب. أما أن سلسلة الطبعة العالمية قد أمَّنت لنفسها حق طبع

الموشحة الدينية التي كانت في طور النشوء، فذلك مايمكن أن يُعزى الى إيحائها. ففي عام إحدى وعشرين وضعت تحت تصرُّف مسرح الشخوص البلاتنري مبالغ لها شأنها، من جهة خفية، ومن دون أن يكشف النقاب عن مصدر الإعانة من أجل الإخراج الممتاز والكامل من الناحية الموسيقية لـ (الأعمال) في دونا ويشنجن.

وأودّ أن أصرَّ على هذه الكلمة وعلى الإشارة الشاملة التي ترتبط بها، أي على عبارة «الوضع تحت التصرف». ولم يكن يجوز لأدريان أن يرتاب في أنه كان يوضع تحت تصرفه ماكانت العابدة الدنيوية لوحدته تقدر عليه - ثروتها التي كانت تشكل عبئاً عليها من جراء مايحرج ضميرها، على الرغم من أنها لم تكن تعرف حياة من دونها، وما كانت لتعرف كيف تعيش مثل هذه الحياة. وكانت رغبتها التي لاتنكر هي أن تبذل من ذلك قدر ما في وسعها وأن تقدِّم ماتستطيع أن تجرؤ على تقديمه، على مذبح العبقرية. ولو شاء أدريان لأمكن تغيير أسلوب حياته بأسره، بين عشية وضحاها بحيث يتلاءم مع أنموذج الجوهرة الذي لم تره في زينته سوى الجدران الأربعة في حجرة رئيس الدير. وكان يعرف هذا مثلما أعرفه. ولست بمضطر الى أن أقول إنه كان يشتغل جدِّياً، مدة لحظة واحدة، بهذه الإمكانية. وما من شك في أنه كان يختلف عني، أنا الذي كان ينطوي على الدوام على شيء يسكره إلى حد ما، ولم يسمح لنفسه قط أن تدغدغه فكرة مؤدّاها أن ثمة ثروة عملاقة توجد تحت قدميه، ولم يكن يحتاج إلاّ الى أن يمد يده فيتناولها لكي يهيّئ لنفسه حياة كحياة الأمراء، ومع ذلك فقد تذوّق ذات مرة، حين هرب من بفايفرنج بصورة استثنائية من دون أن يكون هنا على سفر، في محاولات

عابرة، نمط الحياة الذي يكاد يكون ملكياً، والذي لم يكن لي بدٌ أن أتمناه له في سريرة نفسي، على المدى البعيد.

لقد مضى الآن على هذا عشرون عاماً، وقد حدث حين لبّى دعوة مدام دي تولنا القائمة والسارية المفعول مرة والى الأبد، مادام راغباً في ذلك، لاتخاذ مسكن له في إحدى ممتلكاتها، حين لاتكون هي حاضرة هناك. وكان في تلك الأيام، في ربيع ١٩٢٤، في ڤينا، حيث قدَّم رودي شفيرتفيجر، في صالة الشرف، وفي إطار أمسية من تلك الأمسيات التي كانوا يسمّونها «أمسيات البزوغ»، آخر الأمر، الحفلة الموسيقية بالكمان، التي كانت مكتوبة له، لأول مرة، بنجاح كبير، ولم يكن آخر ذلك بالقياس اليه هو. وأقول: «ولم يكن آخر ذلك» وأقصد «قبل كل شيء»، لأن ثمة تركيزاً معيناً للاهتمام بفن التأويل يكمن على وجه الخصوص في مقاصد العمل الفني الذي لايعدّ، مع كل مافي المخطوط الموسيقي من الوضوح والجلاء، من أعلى أعمال ليڤركون وأدعاها الى الفخر، بل ينطوي، بصورة جزئية على الأقل، على شيء من الرقّة والظرف، والتلطُّف، والأفضل أن أقول: والتفضُّل، الذي ذكَّرني بنبوءة مبكِّرة تذكَّرتها من فمه الذي أخلد في هذه الأثناء الى الصمت - لأن أدريان كان يرفض أيضاً، حين تمّ الفراغ من هذه القطعة، أن يظهر أمام الجمهور المفعم بالسرور الناجم عن الإعجاب، وكان قد غادر المنزل حين أخذ القوم يلتمسونه، ولقيناه فيما بعد، نحن الذين أقمنا الحفلة، رودي الذي كان يشع بالسعادة، وأنا، في مطعم الفندق الصغير في حارة السادة، حيث كان قد نزل، بينما كان شفيرتفيجر يعتقد أن من الواجب عليه أن يتخذ لنفسه مسكناً في فندق من الفنادق ذات الأبَّهة.

وكان الاحتفال التالي مختصراً، إذ كان أدريان يعاني من آلام الرأس، غير أني أستطيع أن أفهم مما طرأ على حياته من التلطيف والتنويع في ذلك الوقت، أنه قرر في اليوم التالي ألاّ يعود على الفور الى منزل شفايجشتل، بل يتيحَ لصديقة دنياه السرور الناجم عن زيارته لأملاكها الهنغارية. وكان شرط غيابها متوفِّراً، إذ كانت تمكث في ڤينا - غير مرئية - وقد وجّه نبأ قدومه القصير الأجل، برقياً، توجيهاً مباشراً نحو الضيعة، وعلى أثر ذلك تطايرت، كما أفترض، أشكال من التفاهم السريع بين هذه وبين فندق في ڤينا، جيئة وذهاباً. وسافر، ولم يكن رفيق رحلته أنا، مع الأسف، إذ كنت لاأكاد أستطيع أن أفرِّغ نفسي للحفلة الموسيقية، من التزاماتي الرسمية. ولم يكن الرفيق هذه المرة، أيضاً، روديجر شيلدكناب، ذا العينين المتماثلتين، الذي لم يجشِّم نفسه أبداً مشقة الرحيل الى ڤينا، كما لم يكن يمتلك الوسائل من أجل ذلك، بل كان، بطريقة يمكن تفسيرها بسهولة بالغة، رودي شفيرتفيجر الذي كان خالي الوقت للرحلة القصيرة على الفور، وهي الرحلة التي حدث فيها منذ حين تعاون فنيّ موفَّق. وكانت الثقة التي لايتطَّرق إليها الكلل، فيه، قد تُوِّجَت على وجه الإطلاق، وفي هذا الوقت على وجه الخصوص، بالنجاح الذي أثقلته العواقب المشؤومة.

وعلى هذا فقد أنفق أدريان، الذي استُقْبِل كأنه الحاكم العائد من أسفاره، اثني عشر يوماً، في جوٍّ عائلي يتسم بالأبَّهة النبيلة، في الأبهاء والحجرات العائدة الى القرن الثامن عشر، في قصر تولنا، وكذلك في رحلات بالعربات خلال منطقة الضيعة التي يبلغ حجمها حجم أمارة، والى شواطئ المرح في بحيرة بلاتِن، في رعاية خدم متواضعين، كان قسم

منهم من الأتراك، وكان يستفيد من مكتبة بخمس لغات، وجناحين رائعين على منصة قاعة الموسيقا، وأرغن منزلي، ومن كل ضروب الترف. وقال لي إن القرية التابعة لهذه السيادة وجدت الزائرين وهي في أحط دَركات الفقر، وفي مرحلة من مراحل الحياة المفرطة في القدم والبدائية، التي كانت قبل العهد الثوري. وأن دليلهما، قيِّم الضيعة ذاته، روى لهم وهو يهزّ برأسه في تعبير عن الرثاء، من غرائب مايستحق أن يُعْرَف، أن سكانها لايتاح لهم اللحم للأكل سوى مرة في العام، في عيد الميلاد، ولايتوافر لديهم حتى شمع الوَدَك ليشعلوه، بل ينامون مع الدجاج، بمعنى الكلمة الحرفي. وما من شك في أن التفكير في تغيير هذه الظروف التي هي مبعث للشعور بالعار، والتي كانت تجعل البشر عديمي الإحساس من جراء الاعتياد والجهل، ومثال ذلك أن تغيير شيء من القذارة التي لاتوصف في شارع القرية، والنقص الكامل فيما يتعلق بالصحة في مساكن الأجراء والأقنان، كان خليقاً أن يُعَدَّ عملاً ثورياً، ولم يكن من المتوقَّع أن يجشِّم امرؤ نفسه من أجل فرد واحد، وأقلُّ مايمكن أن يكون ذلك من قبل امرأة. ولكن يمكن التهكن بأن مظهر القرية كان من الأمور التي كانت تُبَغِّض الى صديقة أدريان الخفيّة الإقامة في ضيعتها.

وأنا، بالمناسبة، لست بالرجل الذي يقدِّم من هذه الحكاية الطريفة الى حد ما، في حياة صديقي الصارمة، أكثر من صورة مبنية على الوصف الموجز، فلست أنا الذي كنت الى جانبه في أثناء ذلك، وما كان من الممكن أن يكون هذا حتى لو طالبني به، وقد كان شفيرتفيجر هو الذي كان في وسعه أن يروي ذلك، ولكنه كان قد مات.

(٣٧)

لقد كنت خليقاً أن أُحْسِن صنعاً لو أنني لم أُسَلِّم لهذا الفصل برقم خاص به شأن الفصول الأخرى، بل أميِّزه بأنه استئناف للفصل السابق، وبصورة مطلقة، على أنه تابع لهذا.

ومن دون أن أواصل وقفة أعمق، سيكون الشيء الصحيح - لأن الفصل مازال يتناول «العالم» وهو فصل علاقة صديقي الخالد الذكر به، أو انعدام علاقته به، وهو عالم يعدّ هنا، بالطبع، مجرداً من كل تحفظ خفيّ، وما عاد يتجسد هنا في صورة إلهة حارسة مُحَجَّبة بحُجُبٍ وأستار صِفاق، ومُرْسِلة للرموز القيِّمة، بل يتجسَّد في أنموذج السيد شاول ڤيتِّلبرج، الذي يلحّ على الخاطر إلحاحاً ساذجاً، ولا يتهيَّب من وحدة، ويلتزم، التزاماً بسيطاً، بل يعدّ، مع هذا كله، أنموذجاً جذاباً بالقياس إليّ، وهو رجل محترف من رجال الموسيقا العالميين، ومنظم حفلات موسيقية حضر ذات يوم جميل من أيام أواخر الصيف، حين كنت أقوم لتَوّي، بزيارة لبفايفرينج في ظهر يوم من أيام السبت (وكنت أريد العودة الى البيت يوم الأحد في الصباح الباكر، إذ كان ذلك موعد عيد ميلاد زوجتي.)، ولبث يسلينا، أنا وأدريان، بحديث مضحك. ساعة من الزمان، في بفايفرينج، وعلى أثرها غادرنا، وكان خائب الأمل في الحقيقة، على قدر مايتصل ذلك بأموره وعروضه - ولكن من دون

حساسية.

وكان هذا عام ١٩٢٣ - ولايستطيع المرء أن يقول إن الرجل نهض من فراشه في ساعة مبكرة على وجه الخصوص. وعلى كل حال فإنه لم ينتظر العروض في براغ وفرانكفورت، إذ كانت هذه تعود الى مستقبل غير بعيد، ولكن العروض في ڤايمار كانت قد قُدِّمت، كما قُدِّمت العروض في دوناوإشنجن - حيث أدع جانباً عرض السويسريين لأعمال ليڤركون العائدة الى أيام صباه -، وماعادت المسألة تقتضي حدساً نبوئياً مدهشاً لكي يحسّ المرء إحساساً داخلياً بأن ثمة شيئاً هنا يجب تقديره، والدعوة إليه. كما كانت «رؤيا نهاية العالم» قد ظهرت مطبوعة، وأنا أرى أن من الممكن على وجه الإطلاق أن يكون السيد شاول كان في وضع يمكِّنه من دراسة هذا العمل.

وإذاً فقد كان الرجل على كل حال يدرك ماكان يدور في الخفاء، وكان بتمنى لو يقحم نفسه، ويبني لنفسه شهرة بإخراج عبقري الى عالم النور، ويقدمه لفضول مجتمع الدنيا الذي كان يتحرك فيه على أنه مدير أعماله. وكان التمهيد لأمثال هذا هو الغرض المقصود من زيارته، وتدخله غير المتكلِّف في هرب المعاناة المبدعة. . وكان الحدث هو هذا:

كنت قد وصلت في ساعة مبكرة من بعد الظهر الى بفايفرينج. وعند عودتنا من نزهة في الحقل قمنا بها، أنا وأدريان، بعد الشاي، أي بُعَيْد الساعة الرابعة، كان من بواعث دهشتنا رؤية سيارة واقفة في المزرعة، عند شجرة الدردار، - ولم تكن سيارة أجرة عادية، بل سيارة ذات مظهر أقرب الى مظهر السيارة الخصوصية، كتلك التي يستأجرها المرء، مع السائق، من محل للسيارات، بالساعة واليوم. أما ذلك

السائق، فكان ينمّ عن مظاهر السيادة في زيِّه. إذ كان يقف وهو يدخن، الى جانب عربته، وهو يهوّي قبعته ذات المظلة حين مرَرْنا به، وكان يبتسم ابتسامة عريضة، كانت تعود على الأرجح الى نكات الضيف العجيب الذي جاءنا به. وتلقتنا لدى باب المنزل السيدة شفايجشْتِل، وفي يدها بطاقة زيارة، وكانت تتحدث بصوت مكتوم من الفزع. وقالت لنا إنه رجل عالمي. وكانت هذه الكلمة تنطوي، بالقياس إليّ، ولاسيما حين كانت تُهْمَس، في صورة تحديد سريع لصفة إنسان لم يخالطه المرء إلاّ منذ هنيهة، على شيء رهيبٍ رهبةَ الأشباح، نَبوئي حافل بالأسرار، وربما كان يفترض أنَّ مما يفيد في تفسير هذا الوصف الدقيق أنَّ السيدة إلْزا أطلقت عليه على أثَرِ ذلك اسم البوم الغريب الأطوار. وذلك أنه كان يخاطبها بقوله «سيدتي العزيزة»، ثم يقول بعدها «الأم الصغيرة»، أمّا كليمنتين فقد قرصها في خدها. وقالت إنها كانت أوصدت حجرتها على الطفل بصورة مؤقتة الى أن ينصرف الرجل العالمي، لأنها لم تستطع أن تصرفه مادام قد جاء بالسيارة من مونيخ، وقالت إنه ينتظر في حجرة المعيشة الكبيرة.

وجعل بعضنا يناول بعضاً البطاقة التي كانت تقدم عن حاملها كل المعلومات التي يتمنّاها المرء، وعلى وجوهنا سيماء الشكّ: «شاول فيتلبرج، تنظيم حفلات موسيقية، ممثل للعديد من الفنانين اللامعين». وسرَّني أن أكون حاضراً من أجل تغطية أدريان. ولم يكن يسرني أن أتصوَّره وقد أُسلِمَ وحده لهذا «الممثِّل». وتوجهنا الى قاعة إلهة النصر.

وكان فيتلبرج قد وقف بالقرب من الباب، وعلى الرغم من أن أدريان تركني أدخل أولاً، توجَّه كل انتباه الرجل على الفور نحو ذاك:

فبعد نظرة عابرة، من خلال نظارته العاجيّة مال بالجزء العلوي من جسده المكتنز جانباً، ليتطلّع، من ورائي، نحو ذلك الذي تكبدً بسببه نفقات رحلة بالسيارة دامت ساعتين. وليس من الأعمال التي تنطوي على الفن، بالطبع، أن يفرّق المرء بين رجل رسمت ملامحه يد الملاك الحارس وبين أستاذ ثانوية بسيط. غير أن مقدرة الرجل العابرة على التوجُّه والاستهداء، والثبات اللذين أدرك بهما هامشية مكانتي على الرغم من دخولي أوَّلاَ، وثَبَت على الصحيح المقصود، كانا ينطويان مع ذلك على جانب مؤثِّر مهيب.

وشرع في الحديث بالفرنسية بفم مبتسم، ونبرة حادة، ولكن بطلاقة غير عادية، قائلاً: «أستاذي العزيز، ماأكثر مايسعدني، ويؤثِّر في نفسي لُقْياكم! وحتى بالقياس الى إنسان أفسده التدليل وقَسّى قلبه، مثلي، يظل اللقاء برجل عظيم، تجربة مؤثِّرة أبداً - وإني لمفتون بذلك ياسيدي الأستاذ»، وكان يضيف ذلك بصورة عابرة وهو يمد إليّ يده على استرخاء ليصافحني إذ قدَّمني إليه أدريان، وعلى أثر ذلك عاد الى التوجه الى العنوان الصحيح من جديد.

وقال: «إنك لخليق أن تلعن هذا المتطفِّل. ياسيد ليڤركون»، وكان يشدِّد النبرة على المقطع الصوتي الثالث في الاسم، وكأنما كان خليقاً أن يكتبها لو ڤيركون. ولكن ماكنت لأُفَوِّت على نفسي هذا، إذا جئت مونيخ ذات مرة، فهذا مستحيل مطلقاً ... آه، أنا أتحدث بالألمانية أيضاً»، وقاطع نفسه بهذا التركيب الصوتي القاسي ذي الوقع المستعذب حقاً في الأذن «على أنني لا أتقنها، ولاأتحدث بها حديثاً أنموذجياً، غير أني أتحدث بها بما يكفي للتفاهم. وأخيراً فأنا مقتنع بأنك تتقن

الفرنسية اتقاناً كاملاً، وألحانك الموضوعة لقصائد ڤيرلين هي أفضل برهان على ذلك، ولكن نحن على أرض ألمانية قبل كل شيء - على أرض يالألمانيَّتها، ويااللأسرار التي تنطوي عليها، ويالَمَضاء عزمها! وإني لمفتون بالقصيدة الريفيّة التي كنتَ، أيها الأستاذ، حكيماً بما يكفي لكي تعتزل الدنيا في أجوائها... طبعاً، بلاريب، لنقعد، شكراً، شكراً ألف مرة!».

كان رجلاً بديناً في الأربعين، بلاريب، ولم يكن ذاكَرِش، ولكنه كان متنكراً، أبيض الأطراف، له يدان بيضاوان مفتولتان، ناعم الحلاقة، ممتلئ الوجه، ذالُغْدة وحاجبين مرسومين بقوَّة، على شكل قوسين، وعينين لوزيتين تنطقان بالمرح، مفعمتان بنضرة شباب البحر المتوسط، وراء النظارة العاجية، وكانت له، مع تساقط شعره، أسنان بيض حسنة كان المرء يراها دائماً إذ كان يبتسم دائماً. وكان يرتدي ثياباً فيها أناقة الصيف، في حلة قطنيّة موشّاة عند الخصر، ذات خطوط ضاربة الى الزرقة، كان ينتعل معها حذاءً من الكتان والجلد الأصفر. وكان التمييز الذي أضفته عليه الوالدة شفايجشتل له مايبرِّره بأسلوب مرح، باللامبالاة المريحة الظاهرة في سلوكه، وهذه الخفة المريحة التي كان يتميّز بها مجمل سلوكه مثلما كان يتميَّز بها حديثه المستعجل الذي يُمَّحي بسهولة، ويظل بالغ الارتفاع دائماً، كما يبدو أحياناً بصوت من الطبقة العالية (Diskant)، وكان يشكل تناقضاً معيناً مع اكتناز شخصه، كما كان يرتبط أيضاً، بلاريب، ارتباطاً هارمونياً معه من جديد. وأنا أسميها مريحةً، هذه الخفة التي انتقلت الى لحمه ودمه، لأنها كانت تبعث في المرء بالفعل الشعور الباعث للعزاء بطريقة هزلية، بأن

الناس ليسوا في حاجة أبداً الى أن يأخذوا الحياة من جانبها الثقيل، وكان يبدو على الدوام أنها تريد أن تعبِّر عما يَرِد في نحو قولنا: «ولكن لِمَ لايكون ذلك، ياتُرى؟ وما عسى أن يكون بعد ذلك؟ إنه لايفيد شيئاً، ولايعبّر عن شيء! ألا فلْنغتبط ولْنَقَرَّ عيناً! وكان القوم يجتهدون، على غير إرادة منهم، في متابعته في هذا الروح. أمّا أنه لم يكن شيئاً أقلَّ من غبي فإن ماأريد الإفضاء به بالاستناد الى ذكرى مازالت حية حتى اليوم، عن أحاديثه لن يدع مجالاً للشك في هذا، وأفضل ماأصنعه أن أدع الكلام له وحده، إذ كان ماردّ به أدريان أو أنا، أو اعترضنا به، لايكاد يلعب دوراً. واتخذنا مجلسنا عند إحدى نهايتي المنصة الطويلة الضخمة المتينة التي كانت تشكل قطعة التجهيز الأساسية في قاعة الفلاحين: وكنت أنا وأدريان، أحدنا الى جانب الآخر، والضيف قبالتنا. ولم يمض وقت طويل قبل أن يفصح هذا عن رغائبه، ومقاصده، إذ دخل في الموضوع من دون كثير من اللّف والدوران.

وقال: «ياأستاذي، أنا أفهم فهماً كاملاً مايضطرك الى التمسك بالعزلة التي تتوافر فيها عناصر الذوق والتي اصطفيتها مُقاماً لك، – آه، لقد رأيت كل شيء الرابية، والبركة، وقرية الكنيسة، ومن ثمَّ هذا المنزل المفعم بالكرامة، بما فيه من المضيفة التي تقوم مقام الأم والتي تتميز بالهمة والعنفوان. مدام شفايجشتل! ولكن هذا يعني: أنني أعرف كيف انسحب. الهدوء، الهدوء! يالهذا من ساحر! كم لبثت تعيش ههنا حتى الآن؟ عشرسنين؟ من دون انقطاع؟ لم تكد تنقطع؟ هذا مذهل! آه، إنه مفهوم جداً! ومع ذلك، فلتتصور أنني قَدِمت لكي اخطفك، ولأغريك بخيانة عابرة، ولأمضي بك محمولاً على بساط عباءتي، عبر الأجواء،

ولأكشف لك عن ممالك هذا العالم وروعته وجلاله، بل عمّا هو أكثر من ذلك بعد: أن أضعها عند قدميك... ولتغفر لي طريقتي الفخمة في التعبير! فهي تجنح بالفعل الى المبالغة المضحكة، ولاسيما فيما يتعلّق بـ«الروعة والجلال»، إذ لم يمض وقت طويل بحال من الأحوال، وهذا ماأقوله، أنا الذي كنت ابن أناس مساكين - ولم تكن مسألة الروعة والجلال بحال من الأحوال مسألة بالغة الإثارة - إذ كنت انتمي الى بيئة مفرطة في التواضع، إذا لم أقل إنها بيئة تبعث على التشاؤم والتذمُّر، - أي أنني أنتمي الى ليوبلن، في وسط بولونيا، لأبوين من اليهود المتناهين في التواضع والمسكنة، - أنا يهودي، وهذا مالابدَّ أن تعرفه: اسمي فيتلبرج، اسم يبعث على التشاؤم الصريح الخالص، وهو اسم بولوني - ألماني - يهودي - إلاّ أنني جعلت منه اسماً لرائد مرموق السمعة من رواد الكفاح الطليعيين، وأستطيع أن أقول بحق، إنني جعلت منه اسماً لصديق لكبار الفنانين. وهذه هي الحقيقة، خالصة، بسيطة، لاتُدْحَض. أما السبب فهو أنني كنت أنزع، منذ نعومة أظفاري، الى الأسمى، الى الفكري والممتع - الى الجديد قبل كل شيء، الجديد الذي مازال فضائحياً، ولكنه الفضائحيّ المفعم بالشرف والمستقبل، والذي يصبح غداً هو مايدفع فيه الأجر الأعلى على الإطلاق، والذي يمثل الزي السائد الكبير، والفن. لمن أقول هذا ؟ في البدء كانت الفضيحة.

والحمد لله على أن ليوبلن التي تبعث على التشاؤم قد خلفتها بعيداً ورائي! فأنا أعيش في باريس مذ أكثر من عشرين عاماً، - وما عساك تصدق، فقد لبثت استمع في السوربون الى المحاضرات الفلسفية عاماً بأكمله، غير أني سئمت هذا على المدى الطويل. ولم تكن المسألة

كأنَّ الفلسفة لايمكن أن تكون فضائحية، كلاّ بل يمكنها ذلك بلاريب، غير أنها مفرطة في التجريد بالقياس إليّ. ثم تولاّني الشعور الغامض بأن المرء يفضل دراسة الميتافيزيقا في ألمانيا. وربما استصوب موقفي في هذه المسألة المحترم الذي أقابله، السيد الأستاذ، وكان الأمر التالي أنني بِتُّ أدير مسرحاً ضئيلاً للغاية، صاخباً، مخصصاً بهذه الصفة، في العاصمة، وكان بمثابة تجويف، أو كهف صغير، لمائة من الحضور، أطلق عليه اسم «مسرح المكائد اللطيفة»، أليس هذا عنواناً ساحراً؟ ولكن ماعساك تريد. لقد كانت المسألة لاتحتمل الصمود الطويل من الوجهة الاقتصادية. ولم يكن بدٌّ للأماكن القليلة أن تكون باهظة الى حدٍّ فرض علينا أن نوزعها جميعاً هدايا. وكان سلوكنا موضع الاستنكار بما يكفي، وأؤكد لك هذا، ولكننا كنا مع ذلك نرى أنفسنا من أهل المستوى الرفيع، كما يقول الإنكليز. وذلك أن المرء لايمكن أن تستقيم أموره بجمهور من أمثال جيمس جويس، وبيكاسو، وإزرا باوند ودوقة كليرمون- تونّير، وحدهم. وبكلمة واحدة: لم يكن بدٌّ للمكائد اللطيفة أن تتوقف من جديد بعد أجل جد قصير من فترة التمثيل، ولكن التجربة لم تكن عديمة الجدوى بالقياس إليّ، لأنها كانت قد وصلتني، على كل حال، بقمم الحياة الفنية الباريسية، من مصوِّرين، وموسيقيين، وأدباء، - ففي باريس، وهذا مايحق لي أن أقوله حتى في هذا الموضع، يخفق قلب العالم الحي في الوقت الحاضر - كما أنه فتح لي أيضاً، بصفتي مديراً، الباب الى العديد من الصالونات الارستقراطية التي يختلف إليها هؤلاء الفنانون...

وربما تولاّك العجب، وربما قلت: كيف صنع هذا؟ وكيف أمكن

للفتى اليهودي البائس، القادم من الريف البولوني أن يتحرَّك ضمن هذه الأوساط المصطفاة، بين الأفضل من أفضل الناس؟ أوآه، ياسادتي! ما من شيء أسهل من هذا! وما أسرع مايتعلم المرء كيف يربط لنفسه ربطة عنق التدخين، وما أسرع مايتعلم كيف يدخل صالوناً بلامبالاة كاملة، حتى وإن كان ثمة بضع درجات في الاتجاه السفلي تفضي إليه، وأن يُبْعِد كل فكرة تفيد أن ذراعيه يمكن أن يسببا له أدنى قلق. وبموجب ذلك ليس على المرء إلاّ أن يقول «سيدتي»، و «آه، ياسيدتي» و «آه، ياسيدتي، بم تفكرين؟» يقولون لي، ياسيدتي إنك متعصبة للموسيقا؟ وهذا يعد بمثابة كل شيء. فالناس يقدِّرون هذه الأشياء على البعد تقديراً هائلاً حقاً.

وفي النهاية تأتي العلاقات التي كنت أدين بها للمكائد، إذ أفادتني هذه، وتضاعفت أيضاً عندما افتتحت مكتبي لتنظيم عروض الموسيقا المعاصرة، وكان أفضل مافي الأمر أنني اكتشفت نفسي بنفسي، لأنني، كما تراني هنا، منظم حفلات مسرحية وموسيقية، وهذا شيء في دمي، وأنا أتَّصِف به بالضرورة، - وتلك متعتي ومبعث زُهُوّي، فأنا أجد إشباعاً لنزعتي وألواناً من النشوة واللذة، في استخراج الموهبة، والعبقرية، والشخصية الممتعة، وأن أقرع الطبل على ذلك، وأحمِّس المجتمع له، أو أثيره إذا لم يتحمَّس - لأن هذا هو مايبتغيه، ونحن نلتقي عند هذه الرغبة، - فالمجتمع يبتغي الإثارة، والتحدي، وأن يُنْسَف ويتمزَّق إرباً، في السبب والسبب المعاكس، ولايكون ممتنّاً لشيء امتنانه للهَرْج والمَرْج الممتع الذي يقدِّم الموضوع اللازم للرسوم الكاريكاتورية في الصحف، ولِلَّغو الذي لانهاية له، - فطريق الشهرة يفضي الى باريس

عن طريق سوء السمعة، - ولابدّ للعرض الأول لمسرحية أن يجري بحيث يقفز الحضور جميعاً، مراراً، من أماكنهم، وتزمجر الأكثرية صارخة: «هذه إهانة! هذه وقاحة! هذا تهريج معيب!» بينما يصرخ ستة، أو سبعة، من مقاعد الشرفات قائلين: «يالها من دقة! وياله من روح! هذا شيء مقدّس! هذا شيء أعلى! أحسنت! أحسنت!».

وأنا أخشى أن أروِّعكم، أيها السادة، - وإذا لم أروِّع الأستاذ لو ڤيركون فربما روَّعتُ السيد الأستاذ. غير أني أبادر أوَّلاً الى أن أضيف أنه لم يحدث بعدُ أبداً أن اضطررنا الى قطع مثل هذه الأمسية الموسيقية بالفعل قبل وقتها، - إذ لم يكن حتى أكثر الأمور إثارة للاستنكار يدعو الى مثل هذا في الأساس، بل على النقيض، إذ كانوا يرغبون في إثارة استنكارهم بعدُ مراراً، ففي ذلك تكمن المتعة التي تتيحها لهم الأمسية، وأخيراً فإن من غرائب الأمور أن هذا العدد الضئيل من المطلعين والعارفين يحافظون على سلطة متفوِّقة. على أنه لايقال، من ناحية ثانية، بحال من الأحوال، إنه لابدَّ أن تتوجه الأمور في كل حفلة توجُّهاً ذا سمة تقدمية، على النحو الذي أشرت إليه. ففي حالة التحضير الإعلانيّ الكافي، والتخويف الكافي للغباء، بصورة مسبقة، يستطيع المرء أن يضمن مساراً للأحداث لائقاً على وجه الإطلاق. وعندما يعمد المرء في هذه الأيام على وجه الخصوص الى تقديم واحد من المنتمين الى الأمة التي كانت معادية فيما سلف، أي ألماني، يمكن أن يتوقع المرء سلوكاً مهذَّباً بصورة كاملة من جانب الجمهور...

وهذا هو التخمين السليم الذي يستند إليه اقتراحي، ودعوتي. الألماني، المعاند، الذي ينتمي بعبقريته الى العالم، والذي يسير على قمة

التقدم الموسيقي! هذا مايمثل في هذه الأيام تحدِّياً ينطوي على تلميح يصل الى الحد الأقصى، للفضول، ولما في الجمهور من البعد عن الأحكام المسبقة، والصلف والتعاظم، وما يتميز به من التربية الحسنة، - ويزداد التلميح كلما قلّ طابع الفنان القوميّ، ويزداد إنكاره لقوميته الألمانية كلما ازداد مايتيحه من الفرصة لصيحة الجمهور: آه، هذا ألماني بلاريب، مثلاً! لأنك تصنع هذا، يا أستاذي العزيز، فلماذا لا أقول هذا؟ إنك تتيح هذه الفرصة في كل غَدْوَةٍ ورَوْحة، - لم تكن تفعل هذا كثيراً في بداياتك، في أيام «جوهر البحر هذا الفوسفوري» وأوپِّراك الكونية، ولكنك كنت تفعل هذا فيما بعد، على نحو مطرد الزيادة من عمل فني الى آخر. وما من شك في أنك تتصوَّر أنني أضع نصب عيني نظامك الصارم، وأنك تقيِّد فنك في إطار نظام للقواعد الصارمة والكلاسيكية الجديدة، إذ ترغمها على أن تتحرك ضمن هذه القيود الحديدية - ولئن لم يكن ذلك باللطف والرفق فهو كائن بلاريب، بالجرأة. ولكن إذا كان هذا هو ماأعنيه فأنا أعني في الوقت ذاته أكثر من هذا، عندما أتحدث عن امتيازك في الألمانية، - وأقصد، كيف أعبِّر عما في نفسي؟ - تربيعاً معيَّناً، وأقصد تثاقلاً إيقاعياً، وافتقاراً الى المرونة، وخشونة، ممّا يعد ألمانيّاً في العصر القديم - وبالنتيجة، وأقول هذا فيما بيننا، يجد المرء هذا أيضاً عند باخ. هل ستحمل نقدي على محمل السوء؟ كلاّ، فأنا على يقين من هذا! وأنت أعظم من هذا. ولكن موضوعاتك - وهي تتألف، على نحو مطلق تقريباً، من قيم روحية، وأنصاف وأرباع، وأثمان، وهي في الحقيقة متأخرة النَّبْر ومرتبطة بالجانب الآخر، غير أنها تظل، مع ذلك، تعاني من ثقل في الحركة وافتقار الى الأناقة يعملان في

كثير من الأحيان بصورة آلية، كمن يدق الأرض بقدميه، أو يضرب بمطرقة، وهذا «عناد» بدرجة ساحرة، وأرجو ألاّ تعتقد أنني أعيب هذا! إنه، ببساطة، من الأمور المميِّزة الى حد هائل، وهذه الملاحظة تعد شيئاً لايستغنى عنه البتة في سلسلة حفلات الموسيقا العالمية التي أقوم بالتحضير لها...

انظر، هاأنذا أنشر عباءتي السحرية. وسوف أذهب بك الى باريس، والى بروكسل، وأنڤرس، والبندقية، وكوبنهاجن، وسوف يستقبلك الناس بأشد الاهتمام، وسوف أضع تحت تصرفك أفضل الأوركسترات والعازفين المنفردين، وسوف تقود «الجوهر الفوسفوري»، وقطَعاً من «خاب سعي العشاق»، وسنفونيتك الكونية، وسوف تواكب، على الجناح، أغانيك تبعاً للشعراء الفرنسيين والإنكليز، وسوف يُفْتَتَن العالم كله بأن ألمانيّاً، من أعداء الأمس، يظهر رحابة الصدر هذه في اختيار نصوصه، - هذه العالمية العامة، والمتعددة البراعات! وسوف ترى صديقتي، مدام مايادي سترتسي - بيتشيش، وهي كرواتية ربما كانت اليوم تمثل أجمل صوت من السوبرانو في كلا نصفي الكرة الأرضية، أن مما يشرِّفها أن تشدو بهذه الأشياء. أما الجزء العائد للآلات الموسيقية في أناشيد كيتس فسوف أعهد به الى رباعي فلونزالي في جنيف، أو رباعي بروآرت في بروكسل. وهذا هو الأفضل على وجه الإطلاق - هل رضيت؟.

ماهذا الذي أسمعه، أنت لاتقود الأوركسترا؟ أولست تفعل هذا؟ ولاتريد أن تكون عازف بيانو أيضاً؟ وأنت ترفض أن تواكب أغانيك؟ لقد فهمت، يا أستاذي العزيز، أنا أفهمك من نصف كلمة! فليس من شيمتك التوقُّف عند المكتمل. وبالقياس إليك يتمثل تنفيذ العمل الفني

في عرضه، وبتدوينه يتمّ الفراغ منه بالقياس إليك، وأنت لاتعزفه، ولاتقوده، لأنك خليق أن تغيِّره بذلك على الفور، وتذيبه في متغيِّرات وتنويعات، وتواصل تطويره، وربما أفسدته. ماأكثر ماأفهم هذا! أهذه هي المسألة فحسب، سوف نعرف كيف نستدرك أمورنا! وسوف نبحث عن قادة أوركسترا ذوي شهرةٍ عالمية، يكونون مفسِّرين، ولن يترتَّب علينا أن نبحث طويلاً! وسوف يتولى المُواكِب الدائم لمدام دي شتروتسي بيتشيش مواكبة الأغاني، وعندما تأتي معنا، ياأستاذي، على وجه الإطلاق فحسب، وتكون حاضراً على وجه الإطلاق فحسب، وتظهر أمام الجمهور، لن تكون ثمة خسارة لشيء، وسيتم الظفر بكل شيء.

وهذا شرط بلاريب، - آه، كلاّ، لايجوز لك أن تترك لي عرضَ أعمالك غيابياً! فظهورك الشخصيّ أمر لامندوحة عنه، ولاسيما في باريس، حيث تصنع الشهرة الموسيقية في ثلاثة من الصالونات أو أربعة، وماذا يكلفك أن تقول، بضع مرات: «كل الدنيا تعرف، ياسيدي، أن حكمك في الموسيقا ضروري لايستغنى عنه»؟ إنه لايكلفك شيئاً، وسوف تجني من وراء ذلك قدراً كبيراً من السرور. أمّا من حيث كون حفلاتي تمثل أحداثاً اجتماعية. فهي تأتي، في المرتبة، مباشرة، بعد العروض الأولى للباليه الروسي للسيد دياغيليف، - إذا ماجاءت بعدها. وسوف تدعى في كل أمسية. وما من شيء أصعب، على وجه العموم، من التغلغل الى وسط المجتمع الباريسيّ النبيل، ومع ذلك فما من شيء أسهل من هذا - حتى ولو كان لايوجد إلاّ في المرحلة الأولى من مراحل الشهرة، مرحلة الكفاءات الكثيرة، الفضائحية. فالفضول يزيل كل حاجز، ويخرج كل حقوق مقصورة على جهة معينة، من الميدان...

ولكن مالي أكثر من الحديث عن المجتمع النبيل وفضوله! فأنا أرى حقاً أنني لا أوفّق الى إشعال جذوة فضولك بذلك، ياأستاذي العزيز. وأنّى لي أن أفعل ذلك أيضاً؟ فأنا لم أبادر أبداً الى القيام بهذه المحاولة. وماذا يعنيك من المجتمع النبيل؟ وأقول هذا فيما بيننا - ماذا يعنيني من هذا المجتمع؟ أما من حيث العمل فتعنيني هذه المسألة وتلك. ولكن ماذا يعنيني منه من حيث الداخل؟ لايعنيني منه الكثير. إن هذا الوسط، وبفايفرينج هذه، واللقاء معك، ياأستاذي، يسهِمْن إسهاماً غير قليل في حملي على أن أعي اللامبالاة والاستهانة اللتين أقابل بهما ذلك العالم الذي هو عالم العبث والطيش والسطحية. فقل لي إذاً: ألا تنتمي الى كايسرزآشرن على نهر الزاله؟ ياله من أصل جدي، ونسب كريم! أما أنا فأعدُّ ليوبلن مسقط رأسي، - وهي أيضاً موضع كريم يلوح عليه الشيب من الكبَر، يحمل المرء عنه الى حياته ذخيرة من الصرامة والشدة، وحالة من أحوال النفس تتميَّز بالاحتفالية وبشيء من الانحراف... كلاّ، فأنا آخر من ينزع الى أن يثني أمامك على مجتمع الأناقة. غير أن باريس سوف تتيح لك الفرصة من أجل أكثر ألوان التعارف إمتاعاً، وإثارة مع إخوانك في جبل أبولّو، وإخوانك في الطموح وأقرانك، ولاسيما أهل الموسيقا. فهؤلاء أساطين الخبرة الأوروبية والتجربة الفنية، وهم جميعاً أصدقائي، وهم على استعداد لأن يكونوا أصدقاءك. هذا جان كوكتو، الأديب، وماسّين، أستاذ الرقص، ومانويل دي فالاّ، المؤلف الموسيقي، الستة، الستة العظماء من أهل الموسيقا الجديدة، - هذا الجوّ العالي والممتع، بأكمله، جوّ الجرأة والمواجهة، لاينتظر إلاّك، وأنت منه، بمجرد أن تريد ذلك فحسب...

أو يمكن أن أقرأ مقاومة معينة لذلك في ملامح وجهك؟ ولكن هنا، ياأستاذي العزيز، يعد كل تهيُّب، وكل تحرُّج، في غير موضعه، تماماً، - حيث يمكن أن تكون لأمثال هذه المشاعر المفضية الى العزلة، أسبابها. وأنا بعيد كل البعد عن البحث عن هذه الأسباب، إذ يكفيني بصورة كاملة، الافتراضُ المبنيّ على الاحترام والتهذيب، وهو افتراض أنها موجودة. وستكون لبفايفرينج هذه، أي هذا الملاذ الغريب، المُنْزَوي، أهميته الخاصة، وحقيقته الروحية، المرتبطة ببفايفرينج. وأنا لا أسأل، بل أنظر في كل الإمكانات، وأضع في الاعتبار كل الإمكانات حتى أكثرها شذوذاً وانطواء على السوء، بصراحة، ولكن ماذا بعد؟ هل يعد هذا سبباً للتحرُّج حيال جوٍّ من الابتعاد الذي لاحدَّ له عن الأحكام المسبقة، وهو ابتعاد له أسبابه الوجيهة من جانبك؟ آه، هناك، في ذلك الوقت!.

وها أنتذا ترى الآن كيف أعرض قضيتي عرضاً سيئاً، وبأي طريقة تغدو منطوية على الغباء بصورة كاملة! على أن ملاحظتي ذلك هي كل مايشهد لصالحي. ثم إن مقصدي المتمثل في تشجيعك يفضي الى الإساءة الى كبريائك، والى أن أعمل ضد نفسي أنا وعيني شاهدة على ذلك. ذلك لأنني أقول لنفسي بالطبع إن أمثالك - ولكن لاينبغي لي أن أتحدث عن أمثالك، بل عنك فحسب، إنك تنظر الى وجودك، وقَدَرك على أنهما شيء فريد ومقدس الى درجة لايمكن معها أن يُطْرَح هذان جانباً مع مصائر آخرين. وأنت لاتعترف بالمصائر الأخرى، بل تعترف بمصيرك وحده فحسب، على أنه مصير وحيد - أنا أعرف، وأفهم. وأنت تستفظع ماينتقص من شأن المرء في كل تعميم أو تصنيف وإدراج، وتصرّ على عدم إمكان مقارنة الحالة الشخصية بحالة أخرى. وأنت تدين

بالولاء لكبرياء ترتبط بالوحدة، وتتسم بالسمة الشخصانية، وقد تكون لها ضرورتها. «هل يعيش المرء ياترى حين يعيش الآخرون؟». لقد قرأت هذا السؤال في مكان ما، ولا أعرف على وجه اليقين أين كان ذلك، ما من شك في أنه كان في وضع بارز شهير. وعلى هذا فأنتم تتساءلون هذا التساؤل بصراحة، أو فيما بينكم وبين أنفسكم، بدافع مجرد التهذيب، أو يطلع بعضكم على بعض اطلاعاً أقرب الى أن يكون محكوماً بالمظهر - عندما يحدث أن يطلع بعضكم على بعض. فقد كان فولف وبرامز وبروكنر يعيشون طوال سنين في المدينة ذاتها، أي في ڤينا، غير أن كلاً منهم كان يتفادى الآخر طوال الوقت، ولم يلق أحد منهم الآخر على قدر ما أعلم، في أي يوم من الأيام، كما أن حكم كلٍّ منهم على الآخر خليق أن يكون مضنياً أيضاً، ولم تكن على هذه الصورة الأحكامُ الصادرة عن روح الزمالة في النقد، بل كانت أحكاماً مبنية على التنكُّر، والنزوع الى التدمير، ليظل المرء منهم وحده. وكان برامز يستخف بسمفونيات بروكنر قدر الإمكان، وكان يسميها أفاعي عملاقة لاتناسق بينها. وعلى نحو معكوس، كان رأي بروكنر في برامز بالغ الاستهانة، فقد كان يرى الموضوع الأول في حفلة ري -مينور الموسيقية جيداً حقاً، غير أنه قرَّر أن برامز لن يكتب أبداً، مرة أخرى، شيئاً مقارباً لها في القيمة. وبالقياس الى ڤولف كان برامز يعني الغَمَّ الأخير، وهل قرأت في يوم من الأيام نقداً للسمفونية السابعة لبروكنر في «صحيفة الصالون» في ڤينا؟ لقد عرض الكاتب هنا رأيه في أهمية الرجل على وجه الإطلاق، وأخذ عليه «افتقاره الى الذكاء» - مع وجود بعض الأدلة، إذ كان بروكنر يمثل مايسمى بالنفسية البسيطة الطفولية، غارقاً في موسيقاه الجلالية،

موسيقا الباصّ المستمر، وكان أبله بصورة كاملة في كل أمور الثقافة الأوروبية، ولكن إذا اصطدم المرء بتصريحات معينة لڤولف حول دوستويفسكي تعد مدهشة، ببساطة، تساءل عن تركيبة عقله هو. لقد كان يطلق على النص الخاص بأوپراه التي لم تكتمل بعد ذلك، وهي أوپرا «مانويل فينيجا» التي وضعها رجل يدعى الدكتور هورنيس، اسم العمل الأعجوبة ويصفه بأنه عمل شكسبيريّ، وبأنه يمثل قمة الشعر، وكان يطول لسانه ويغدو لاذعاً عندما كان أصدقاؤه يعبِّرون عن شكوكهم في هذا. ولم يكن يكفيه آخر الأمر أنه لَحَّن نشيداً لجوقة الرجال «للوطن»، بل أراد أن يكرِّسه للامبراطور الألماني أيضاً. فكيف تجد هذا؟ لقد رُفِض الالتماس المباشر! وكل هذا يعد محرجاً الى حد ما، أليس كذلك؟ إنه اختلاط مأساوي.

مأساوي، ياسادتي، وأنا أسميه هذه التسمية، لأن شقاء العالم يستند، فيما أرى، الى عدم وحدة الفكر، والى الغباء، والافتقار الى التفهُّم، ذلك الافتقار الذي يفصل أجواءه بعضه عن بعض. وكان ڤاجنر يطعن في الانطباعية في التصوير في عصره على أنها ضرب من التلطيخ والبقع، - إذ كان الرجل ذا نزعة محافظة صارمة، في هذا الميدان، وكان لنتائجه الهارمونية الخاصة، مع ذلك، قدر كبير من الأمور المشتركة مع الانطباعية، التي تفضي إليها، وهي تتخطّى، بحكم كونها ضروباً من التنافر، ذوي النزعة الانطباعية. وكان يلعب الورقة الأخيرة ممثلة بتيتسيان ضد أهل التلطيخ والبقع الباريسيين، قائلاً إن هذا هو الأصيل الذي يرتضيه. ولكن ذوقه كان في الحقيقة أقرب الى التردُّد بين بيلوتي وماكار، مخترع باقة الأزهار الزخرفية، أما تيتسيان فكان

مسألة أقرب الى أن تعني لينباخ، الذي كان، من جانبه، يفهم من ڤاجنر فهماً بلغ من كثرته أنه أطلق اسم «بارسيفال» على حانة الموسيقا - وكان ذلك في الحقيقة في وجه الأستاذ. واعجباً، ويالهذا من شيء كئيب سوداوي، كل هذا!

ياسادتي، لقد خرجت عن مقصدي الى حد مخيف. ولكن هذا يعني: أنني عدلت عن مشروعي. فلتأخذوا نزوعي الى الثرثرة على أنه تعبير عن الحقيقة القائلة إنني تخليت عن الخطة التي جاءت بي الى هنا! لقد اقتنعت بأنها غير ممكنة التنفيذ. ولن ترتقي، يا أستاذي، عباءتي السحرية، ولن أذهب بك الى العالم مديراً لأعمالك. فأنت ترفض ذلك، وهذا خليق أن يمثل بالقياس إليّ، خيبة أمل أكبر مما هو في الواقع. وإني لأسائل نفسي مخلصاً أتُرى هذا خيبة أمل على وجه الإطلاق. وربماجاء المرء الى بفايفرينج من أجل غرض عمليّ، - غير أن هذا يظل دائماً، وبالضرورة، ذا أهمية تأتي في المقام الثاني. فالمرء يأتي، حتى وإن كان متعهداً، أو وكيلاً لرجال الفن، في المقام الأول، ليزجي التحية الى رجل عظيم. وما من إخفاق موضوعي يستطيع أن يقلل من شأن هذا السرور، ولاسيما عندما يكمن جزء لايستهان به من الاغتباط الإيجابي في أساس الخيبة. وهكذا شأن هذه المسألة، يا أستاذي العزيز. على أن من جملة مايسببه تعذُّر الوصول إليك، الاغتباط أيضاً، وذلك في الحقيقة بسبب الفهم، والتعاطف الذي أظهره تجاهك، على غير إرادة مني، فأنا أفعل هذا على كونه متعارضاً مع مصلحتي، غير أني أفعله، - إنساناً، وأقصد أن أقول، لو لم يكن هذا يمثل مقولة مفرطة في البعد، لما كنت خليقاً أن أعبِّر عن قصدي على نحو أكثر تحديداً.

وأنت لاتعرف، ياأستاذي، أبداً، كم يتسم نفورك بالسمة الألمانية، وهو النفور الذي يأتلف، إذا سمحت لي بالحديث بلغة عالم النفس، من الكبرياء ومشاعر النقص، على نحو مميِّز، من الازدراء والخوف، - وأود أن أقول إنه ضغينة الجد ضد صالون العالم. أمّا أنا، فيهوديّ، كما يجب أن تعلم، اسمي فيتلبرج، وهذا اسم يهودي على نحو جلي، والعهد القديم في جسدي، وتلك مسألة لاتقل جدية عن القومية الألمانية - وهي تهيئ في الأساس استعداداً قليلاً لجوّ الفالتس المتألِّق. والحق أن من الخرافات الألمانية أنه لايوجد في الخارج إلاّ رقص الفالتس المتألِّق، وأن الجدّ لايوجد إلاّ في ألمانيا، وما من شك في أن من شأن اليهودي أن يكون في الأساس ذا عقلية متشككة تجاه العالم، لصالح القومية الألمانية، وذلك بالطبع على الرغم من وجود خطر التعرض لأن يُداس بالأقدام جزاءً وفاقاً على ميله. على أن كون المرء ألمانيا يعني، قبل كل شيء، أن يكون شعبياً - ومَنْ تُراه كان يصدِّق بشعبية يهودي؟ ولم تقتصر المسألة على أن المرء لايصدق بتوافرها عنده، بل يلكمه بضع لكمات على أم رأسه إذا مابدرت منه صفاقة تحمله على محاولة هذا. ولدينا نحن معشر اليهود كل الأسباب التي تحملنا على الخوف من الشخصية الألمانية التي هي بالضرورة معادية للسامية، وهذا بالطبع سبب كافٍ لحملنا على التزام جانب العالم الذي نُرَتِّب له المحادثات، والأحداث المثيرة، من دون أن يفيد هذا أننا أهل لغو وجعجعة فارغة، أو يمكن أن تنطلي علينا الخديعة، ونعرف بلاريب كيف نفرِّق بين فاوست جونود وفاوست جوته، حتى عندما نتحدث بالفرنسية، وحتى عندما...

ياسادتي، أنا أقول هذا كله بدافع مجرد التخلّي والعدول، فقد

فرغنا من الحديث في الأعمال، وأنا بحكم المنصرف، وقد باتت أكرة الباب في يدي، وقد مضى وقت طويل ونحن وُقوفٌ على الأقدام وأنا أواصل الحديث لمجرد الإيذان بالوداع. ياسادتي، من تراه يأنف من فاوست جونود ؟ أما أنا فلا، وأمّا أنت فلا، كما أرى ذلك وهو مما يبعث على سروري. إنها لؤلؤة لؤلؤية، مفعمة بأكثر المبتكرات الموسيقية سحراً. دَعْني، دَعْني أفكِّر - إنها ساحرة! وكذلك يعدُّ ماسينيه ساحراً، هو أيضاً، ولابدَّ أنه كان ساحراً على وجه الخصوص من حيث كونه مربياً، - حين كان أستاذاً في المعهد الموسيقي. والناس يعرفون أقاصيص عن هذا، ويقال إن تلاميذه في مادة التلحين والتأليف الموسيقي كانوا يُدْفَعون الى الانتاج الخاص منذ البداية، بصرف النظر عما إذا كانت مقدرتهم التقنية تكفي لكتابة جملة خالية من الخطأ. إنه إنسانيّ، أليس كذلك؟ أمّا أنه ألماني فلا، ولكنه إنساني. وجاءه غلام بأغنية ملحَّنة حديثاً، - حديثة تشهد على بعض الموهبة. وقال ماسينيه: انظروا، هذا شيء ظريف حقاً. اسمع! لابدَّ أن لك صاحبة صغيرة عزيزة، فاعزف لها هذا، ولابدَّ أنه سيعجبها، وسنرى مايحدث بعد ذلك. وليس من المؤكَّد مايجب فهمه من قوله «بعد ذلك»، إنه، على الأرجح، كل ماهو ممكن، مما يمسّ الحب والفن. ألديك تلاميذ، ياأستاذي؟ ما من شك في أن هؤلاء لن يكون أمرهم على مايرام، ولكن ليس لديك تلاميذ أبداً. لقد كان لبروكنر بعض التلاميذ. وكان هو ذاته قد غالب الموسيقا وصعوباتها المقدسة منذ نعومة أظفاره، مثلما كان يعقوب يغالب الملاك، وكان يطالب تلاميذه بهذا ذاته. ولم يكن بدٌّ لهؤلاء أن يتمرَّنوا على هذا العمل اليدوي المقدس، المتمثل في العناصر الأولية للهارموني وللجملة

الصارمة، قبل أن يُسْمَح لهم أن يتغَنَّوْا بأغنية، ولم تكن لهذه النزعة التربوية - الموسيقية أدنى علاقة بصاحبة صغيرة عزيزة، وإنما يتميَّز القوم بروح طفولية بسيطة، ولكن الموسيقا تمثل بالقياس الى الواحد منهم الوحي المفعم بالأسرار والمعبِّر عن أعلى المعارف شأناً، وأنها عبادة، ومهنة تعليم الموسيقا وظيفة كهنوتية...

وما أجدر هذا بالاحترام! ليس بالإنساني على وجه الدقة، ولكنه جدير بالاحترام الى أقصى الحدود! وهل ينبغي لنا، معشر اليهود، الذين نعد شعباً كهنوتياً، حتى عندما يتزيّنون في صالونات باريس، ألاّ نشعر بالانجذاب الى القومية الألمانية، وألاّ ندع أنفسنا تتحكّم في مزاجها الموسيقا بأسلوب ساخر، تجاه العالم والفن، من أجل الصاحبة الصغيرة؟ والسمة الشعبية خليقة أن تكون بالقياس إلينا وقاحة تستفز الى اضطهاد اليهود. ونحن قوم عالميون، غير أننا موالون للألمانيّ، نحن نتسم بهذه السمة كما لايتّسم بها أحد سوانا في العالم، وذلك لمجرد أننا لانجد مناصاً من الإحساس بآصرة القربى بين دور القومية الألمانية واليهودية على هذه الأرض. إنه قياس مدهش! إذ يتعرض كلاهما، على النحو ذاته، للكراهية، والازدراء، والخوف منهما، والحسد، ويبعثان الشعور بالوحشة، كما يشعران هما بالوحشة، على النحو ذاته. ويتحدثون عن عصر القومية، ولكن لايوجد في الواقع سوى قوميَّتين، الألمانية واليهودية، وفي مقابل ذلك تعد كل القوميات الأخرى لعب أطفال، - مثلما تعد الفرنسية المفرطة عند واحد مثل أناتول فرانس مجرد نزعة حداثة وعالميّة بالقياس الى العزلة الألمانية - وبالقياس الى

التعاظم اليهودي المرتبط بالاصطفائية، أو المختاريّة(*)... وفرانس - اسم للحرب يتسم بِسمَة النزعة القومية. وما كان كاتب ألماني ليستطيع أن يطلق على نفسه اسم «دويْتشلاند»، أي ألمانيا، فبهذا الاسم يسمي المرء سفينة حربية على أقصى تقدير. ولم يكن له بدٌّ أن يكتفي بنعت «ألماني»، - وهو هنا يعطي اسماً يهودياً، آه، دونكم هذا!.

ياسادتي، هذه هي الآن أُكْرَة الباب بالفعل. لقد بتُّ الآن في الخارج. وما أنا قائل بعدُ إلاّ شيئاً واحداً. ينبغي للألمان أن يدعوا لليهود أمر الولاء للألمانيّ. وذلك أنهم خليقون أن يجرّوا على أنفسهم الشقاء بنزعتهم القومية، وكبريائهم، ولوثة الاعتقاد بعدم إمكان مقارنتهم بشعب سواهم، وكراهيتهم لإدماجهم مع الآخرين. ووضعهم على قدم المساواة مع الآخرين، ورفضهم التعرُّف على العالم، والتآلف الاجتماعي معه - سوف يجرون أنفسهم الى شقاء يهودي حقيقي، وأقسم لك على هذا. وينبغي للألمان أن يسمحوا لليهودي أن يقوم بدور الوسيط بينهم وبين المجتمع، بدور مدير الأعمال، أو متعهد الحفلات، أو وكيل القومية الألمانية - فهو خليق أن يكون، على وجه الإطلاق، الرجل المناسب لهذا، ولاينبغي للمرء أن يطرده، فهو عالميّ، وهو موالٍ للألماني... ولكن هذا عبث، وهو باعث للفساد الشديد، ماذا أقول بعد هذا؟ لقد انصرفت منذ عهد بعيد، ياأستاذي العزيز، لقد كنت مفتوناً. لقد افتقدت رسالتي، غير أني مفتون، احتراماتي، ياسيدي الأستاذ، لقد أعَنْتَني عوناً قليلاً جداً. ولاأطمع في شيء من ذلك أبداً. ألف سلام للسيدة شفايجشتل، الوداع، الوداع...».

(*) نسبة الى اعتقاد اليهود بأنهم شعب الله المختار «المترجم».

(٣٨)

يعلم قرّائي أن أدريان قد حقق ماكان رودي شفيرتفيجر يهتم به ويعمل من أجله سنين طوالاً، ويصرح به، بإصرار ومثابرة، وكتب له حفلة موسيقية بالكمان وجعل هذه القطعة المتألّقة بالكمنجة، والمعبِّرة عن الامتنان الى حد فائق، ملائمة له شخصياً، بل صحبه الى ڤينا من أجل العرض الأول، وسوف أناقش، في مكانها، الحقيقة القائلة، إنه شهد، بعد بضعة أشهر، أي حوالي نهاية عام ١٩٢٤، أيضاً، ألواناً من التكرار لها في برن وزوريخ. غير أني أودُّ قبل ذلك، في سياق يبلغ من الجديَّة منتهاها، أن أعود الى التمييز الذي ربما كان ينطوي على طول اللسان، والذي ربما لم يكن لائقاً بي، والذي أوليته فيما سبق، منذ عهد بعيد، لهذا التأليف الموسيقي، بمعنى أنه يخرج، من جرّاء طواعية معينة، مُلْزِمة منافسة رائعة في الموقف الموسيقي، قليلاً عن إطار ليڤركون المتطرف بلا هوادة، وعن مجمل العمل الخالي من التنازل. ولا أجد مندوحة عن الاعتقاد بأن العالم من بعدي سوف يقرّ حكمي هذا - ياإلهي، أنا أكره هذه الكلمة؟ - وما أفعله هنا ليس إعطاءه تأويلات نفسية لظاهرة كان المفتاح إليها خليقاً أن يُفْتَقَد في العادة.

وثمة شيء خصوصي يلوح في هذه القطعة: فهي التي كتبت في

(*) Dominante.

ثلاث جمل، ولاتحمل علائم تمهيدية، ومع ذلك فقد رُكِّبت فيها، إذا جاز لي أن أعبِّر عن فكرتي على هذا النحو، ثلاثٌ من النغميّات، سي ماجور، دو ماجور، ري ماجور، يمثل فيها الري - ماجور، كما يرى الموسيقي، نوعاً من الغالبة(*) في السلم الموسيقي، من الدرجة الثانية، بينما يلتزم الدو - ماجور الموقع المتوسط على وجه الدقة، وبين هذين النوعين من المقامات يؤدي العمل الفني عمله بأكثر الأشكال فنِّية على الأطلاق، بحيث لايسري مفعول أطول الأزمنة من بينها سرياناً واضحاً، بل يشار إلى كلٍّ منها عن طريق مجرد النِسَب بين الأصوات. وتتراكم الأصوات الثلاثة جميعاً من خلال مركبات واسعة، الى أن يتبيَّن في النهاية الدوماجور، بطريقة انتصارية، بلاريب، طريقة تبعث الكهرباء في كل جمهور حفلة موسيقية. وهنا يوجد الفصل الأول، بعنوان «الغزلية المتأنية»، وهو يتميَّزبحلاوة ورقة دائمتين تلازمان حدود التهكُّم، وتوافُق في النغم تمهيدي، ينطوي، بالقياس الى أذني، على شيء فرنسي: دو، صول، مي، سي، ري، فا (بيمول) - لا، وهو توافق صوتي، يتضمن في ذاته، بالإضافة الى «فا» العالية في الكمان، كما يرى المرء، الأصوات الثلاثية النغمية في تلك المقامات الرئيسية الثلاثة. وفيها يجد المرء روح العمل الفني إن صح التعبير، كما يجد فيها أيضاً روح الموضوع الرئيسي في هذا الفصل، الذي يُستأنَف مرة أخرى، في الفصل الثالث. إنها رشقة من الأنغام عجيبة في نوعها، ومتوالية مُسْكِرة، تنطوي، بصورة حماسية، على شيء استعراضي يمتاز بالأُبهة، وفوق ذلك على مزاج سوداوي لايفتقر الى الترفُّق والأناقة، تبعاً لفكر العازف. أمّا الجانب المميِّز - الساحر في هذا الابتكار فهو التصاعد غير المتوقَّع، والمؤكد

على نحو لطيف، في الخط اللحنيّ الذي يصل الى ذروة معينة، الى درجة صوتية أبعد، يُقاد منها بعد ذلك، بأعلى درجات الذوق، وربما بقدر مفرط من الذوق، ليتلاشى غناؤه في طوفانه العائد. إنها إحدى تظاهرات الجمال التي تحدث أثراً بات جسدياً يستغرق الرأس والكتفين، ويمس «الجانب السماويّ»، وهي نظاهرات لاتقدر عليها إلاّ الموسيقا، من دون أي فن سواها، كما ينتهي تمجيد الآلات جميعاً لهذا الموضوع ذاته في القسم الأخير من فصل التنويعات بهذا الثَّوَران الى الدوماجور المفتوحة. ويسبق هذا النجاح الباهر نوع من التحفُّز الجريء في صفة البارلاندو الدرامي، - شيء ألماني يذكر بوضوح بالتلاوة الإنشادية في الكمان الأول، في الفصل الأخير من رباعي بيتهوفن في اللاّ - مينور، إلاّ أن العبارة الرائعة هناك يتلوها شي مختلف، من حيث كونها مهرجاناً لحنياً تصبح في المحاكاة الساخرة للجذاب الجارف هوى يُقْصَد به الى الجد الكامل، ويكون له من أجل ذلك أثر باعث للخجل على أي نحو من الأنحاء.

وإني لأعلم أن ليڤركون كان قد درس بدقة، قبل أن يؤلف هذه المقطوعة، طريقة معالجة الكمان عند كل من بيريو وڤيوتامب وڤينيافسكي دراسة دقيقة، وهو يطبقها بطريقة نصفها ينطوي على التقدير والاحترام وينطوي النصف الآخر على النزعة الكاريكاتورية، - وذلك، بالمناسبة، وسط أمثال تلك التكهنات بتقنية العارف، ولاسيما في الفصل الأوسط المرح والبارع الى أقصى الحدود، في دعابة يوجد فيها شاهد من سوناتة زغرودة الشيطان لتارتيني، حيث كان على رودي الطيب أن يقدم أقصى مافي وسعه ليفي بالمقتضيات: وكانت حبات

العرق تنعقد كاللؤلؤ كلما أنجز المهمة، تحت شعره الأشقر ذي الخصلات المنتفشة، وكان بياض عينيه الجميلتين، الزرقاوين زرقة السيانوجين تنتشر فيه الشرايين الحمر، ولكن ماأكثر ماكان يتاح له من المواقف المنطوية على العزاء والتعويض، بالطبع، وما أكثر ماكان يتاح له من الفرص لـ«الغزل» بمعنى الكلمة المصعَّد، في عمل فني أطلقتُ عليه، في وجه الأستاذ، اسم (تمجيد موسيقا الصالونات) وأنا على يقين بصورة مسبقة أنه لن يحمل هذا الوصف مني على محمل السوء، بل سيتقبله بابتسامة.

ولا أستطيع أن أفكر في هذا النتاج الهجين من دون أن أتذكر حديثاً كان مسرحه مسكن الصناعيّ بولنجر في شارع ڤيدنماير، في مونيخ: في الطابق العلوي من العمارة الأرستقراطية المعدة للإيجار والمبنيّة من قبله، التي كان نهر الإيزار يمارس تحت نوافذها، في سريره الحسن التوازن والانضباط نشوته بماء الجبل الذي لم يتطرَّق إليه الفساد. وكان القوم قد أعدوا الموائد عند الرجل الغني، في الساعة السابعة لنحو خمسة عشر نفراً: وكان هذا يدير منزلاً خالياً للضيوف، مستعيناً بهيئة من العاملين المدرَّبين، وبإشراف ربة منزل ذات عادات متكلِّفة، كانت ترغب في الزواج، وكان أهل المال والأعمال يشكلون أصحابه وندماءه في معظم الأحيان. ولكن القوم كانوا يعرفون بالطبع أنه كان مولعاً بأن يزجَّ بنفسه في خضم الحياة الفكرية مُباهياً، وهكذا كانت تقام في حجراته المريحة أيضاً أمسيات كان يشهدها أناس من أهل الفن والثقافة. ولم يكن أحدٌ منهم، ولا أنا، كما أعترف، يرى سبباً للاشمئزاز مما لذّ وطاب من الطيِّبات في استقبالاته، ومن الأطر الأنيقة التي كانت صالاته

تتيحها للحديث الذي يحفز الهمم.

وكان الحاضرون هذه المرة جانيت شورل، والسيد كنوتيريش وزوجه، وشيلدكناب، ورودي شفيرتفيجر، وتْسِنْك، وشبنجلر، وخبير النُمِّيات كرانِش، والناشر رادبروخ وزوجه، والممثلة تسفيتشر وكاتبة المسرحيات الهزلية من بوكوفينا، واسمها بندر مايوريسكو، ومعهم أنا وزوجتي العزيزة، ولكن أدريان كان قد جاء أيضاً نتيجة للإقناع الحسن الذي اجتهد فيه، فضلاً عني، شيلدكناب وشفيرتفيجر أيضاً. ولست أحقق في مسألة أيّنا كان لرجائه القول الفصل، ولا أتوهَّم بحال من الأحوال أن رجائي هو الذي اتَّسم بذلك. ولما كان قد جلس الى مائدة جانيت التي كان القرب منها يبعث في نفسه الارتياح على الدوام، وكان في العادة تحيط به وجوه مألوفة لديه، فقد بدا أنه ليس بآسف على نزوله على رجائنا، بل كان يبدو أنه مرتاح كل الارتياح خلال الساعات الثلاث من مُكْثه، حيث لاحظت، مرة أخرى، بمرح هادئ، ماهية التأدُّب الذي لايمكن تبريره عقلانياً على الحقيقة إلاّ عند أقل الناس عدداً، والإجلال المتهيب بدرجة تقل أو تكثر، اللذين كان المرء يلقى بهما في المجتمع رجلاً لم يجاوز سن الثامنة والثلاثين، وأقول إن الظاهرة بعثت المرح والبشاشة في نفسي - واستحوذت على قلبي أيضاً، من جديد، بطريقة محرجة وأكثر حفولاً بالهم والقلق، ذلك لأن السبب في سلوك الناس إنما كان يتمثل في جو الغربة والوحدة التي لاتوصف، والذي كان يحيط به على نحو مطرد الزيادة، وكان الإحساس به يزداد على نحو مطرد، كما يزداد نَأياً به، وكان من الممكن حقاً أن يحمله على أن يشعر كما لو أنه قادم من بلد لايعيش فيه أحد سواه.

وفي هذه الأمسية كان يبدو عليه الارتياح، وينزع الى الحديث، وهو الأمر الذي أردُّ بعض الفضل فيه الى كوكتيل شمبانيا بولينجر المتبَّل بالأنجوستورا وخمره البفالتسيّ الرائع. وكان يحادث شبنجلر الذي كان قد ساءت أحواله حقاً (إذ كانت معاناة قد أناخت بكلكلها على قلبه) ويضحك، كما كنا نفعل جميعاً، لألوان تهريج ليوتْسِنك، الذي كان يغطي نفسه وهو جالس الى المائدة، مستنداً الى مسند ظهر الكرسي، بمنديله العملاق من الدامسقو، كأنما يغطي نفسه بملاءة سرير، حتى لقد بلغ أنفه الشائه، وكان يطوي يديه فوقها. على أن مازاد في استبشاره مهارة المهرِّج، عندما عرض بولينجر، الذي كان كثير الاستمتاع باللوحات الزيتية، في التهرُّب من كل حكم، وتوفير مثل هذا الحكم علينا نحن الآخرين أيضاً، إذ كان يتأمَّل قطعة التصوير ذات المقصد الحسن من كل جانب، بل قَلَبها ذات مرة، وهو يصيح ألف مرة هاتفاً «يايسوع!» وهي عبارة يمكن أن تعني أشد الأمور تبايناً. وبالمناسبة فقد كان هذا الاسترسال في الصيحات التي تعبِّر عن التعجُب ولاتُلْزِم بشيء، هو أيضاً تلك التقنية العائدة للرجل الذي لم يكن في الأساس مستظَرفاً، في الإسهام في الأحاديث التي كانت تتجاوز أفق مصوِّريه ومنظمي كرنفالاته، بل لقد مارس ذلك هنيهة في الحديث الذي كان يمسّ مجال أسئلة جمالية – أخلاقية كانت تدور في ذهني.

ثم خفت حدة التوتُّر على أثر ذلك بعروض موسيقية آلية قدمها لنا سيد المنزل بعد القهوة، بينما كان القوم يواصلون التدخين وشرب الخمر. وفي تلك الأيام كان ظهور أسطوانة الحاكي قد تطوّر تطوراً ينطوي على قدر كبير من التوفيق، وترك بولينجر العديد من الأشياء المتعة يصدح

من جهازه القيِّم الموضوع في الخزانة: الفالس الحسن العزف من فاوست جونود على ماأذكر، ليعرضه أولاً على بابتيست شبنجلر، قائلاً إنه، من حيث كونه لحناً لرقصة شعبية على المرج، مفرط في الأناقة والصالونيّة على نحو حاسم. واتفق القوم على أن هذا الأسلوب يعدّ أكثر ملاءمة الى حد بعيد في حالة الموسيقا الراقصة، المثيرة في السنفونية الخيالية لبيرليوز، وسألوني عن المقطوعة، ولم تكن الأسطوانة موجودة، ومن أجل ذلك جعل شفيرتفيجر يصفر اللحن بشفتين لاتخطئان، بِلُوَيْنِ صوت الكمان، صافياً وممتازاً، وضحك من تصفيق الاستحسان إذ هزَّ كتفه داخل ثيابه على طريقته، ورسم حول فمه زاوية متجهة نحو الأسفل تعبِّر عن السخط المتراكم. وللمقارنة، بعد ذلك، مع الفرنسي، طلب القوم النغم الڤينّاوي، عن لانَّرويوهان شتراوس، الأصغر، وكان مضيفنا يجود علينا من مخزونه عن طيب خاطر، الى أن لفتت نظرنا سيدة – مازلت أعرف على وجه الدقة أنها كانت السيدة رادبروخ، زوجة الناشر، الى احتمال أن يكون القوم يدخلون الملل بكل هذا المتاع المنطوي على الخفة والطيش، على نفس المؤلف الموسيقي الكبير الحاضر بيننا، ولَقِيَتْ موافقة تنمّ عن القلق، كان أدريان يستمع إليها وقد تولته الدهشة، إذ لم يكن قد استوعب السؤال، وحين كرّره القوم عليه احتج بحرارة، قائلاً: «كلا، هذا والله سوء فهم، وما من أحد يستطيع أن يجد في هذه الأشياء الممتازة في نوعها متعة أكبر مما أجد».

وقال: «أنتم تقدرون تربيتي الموسيقية دون قدرها. لقد كان لي، عند نعومة أظفاري، معلم (ورنا إليَّ بابتسامته الجميلة الرقيقة والعميقة)، متحمس، قد لُقِّح بكل أعمال الموسيقا في العالم تلقيحاً

كاملاً، حتى بات ينضَحُ بها، وكان مغرماً بكلٍّ منها فوق ماينبغي، ولكنه كان مغرماً أيضاً بكل جَلَبةٍ منظمة، غراماً أكبر من أن يتمكن المرء معه من أن يتعلّم منه أيَّ تعجرف، أو أي تقدير مفرط للنفس في أمور الموسيقا، وكان رجلاً بالغ المعرفة بما هو رفيع وصارم، ولكن الموسيقا كانت بالقياس إليه موسيقا، حين لاتكون إلاّ موسيقا، وفي مقابل ذلك كان يجد مايعترض به على كلمة جوته: (الفن يتناول الصعب والحسن)، بأن السهل صعب أيضاً عندما يكون حسناً، مما يمكن أن يجعله في مثل حُسْن الصعب. وقد ظل عالقاً بنفسي شيء من ذلك، قد أخذته عنه، ولاريب في أنني كنت أفهم عنه دائماً أنه لابدّ للمرء أن تكون له قدم راسخة للغاية في الصعب والحَسَن ليكون على النحو ذاته فيما يتعلق بالسهل».

وسرى صمت في الغرفة. وكان قد قال في الأساس إنه هو وحده الذي يحق له، دون سواه، أن يُسَرَّ بالصنائع والمجاملات التي تُعرضَ. وحاول القوم ألاّ يفهموا هذا على هذا النحو، غير أنهم كانوا يشكّون في أنه قصد ذلك، وكان شيلدكناب وأنا ينظر كلٌّ منا الى صاحبه. وكان الدكتور كرانيش يُهَمْهِم، وقالت جانيت بصوت خفيض: «رائع!»، وسمع ليوتْسِنك ينطق بعبارته التي يهيمن عليها الغباء، والموسومة بسمة الشماتة في الحقيقة «يايسوع!» وصاح شفيرتفيجر قائلاً: «إنه أدريان ليفركون، الأصيل»، وكان أحمر الوجه من جراء علاجات قديمة جمّة العدد، ولكن ليس من جراء هذه فحسب، وعرفتُ أنه كان يشعر في قرارة نفسه بالاستياء.

ومضى أدريان قائلاً: «ألا يوجد لديك، بطريق المصادفة، لحن دليلة

في ري – ماجور، من شمشون لسانت سايان، في مجموعتك؟» وكان السؤال موجهاً الى بولينجر الذي كان مما يهب له أعظم السرور أن يتمكن من الرد بقولة صائحاً:

«أنا؟ لايوجد لديّ هذا اللحن؟ ياعزيزي، أوَتظن بي هذا وذاك! ها هو ذا، – وليس هذا على الإطلاق من طريق المصادفة، كما استطيع أن أؤكد لك!».

وعلى أثر ذلك قال أدريان:

«آه، لقد أحسنت، إنه يخطر ببالي، لأن كريتشمار، وقد كان هذا معلمي، وهو عازف أرغن، ومن أهل الفوغات، كما لابدَّ لك أن تعلم – كانت له علاقة هوى جامح بهذه المقطوعة، ينطوي على نقطة ضعف حقيقية تجاهها. وقد كان في وسعه أن يضحك منها أيضاً، بصورة عرضية، ولكن هذا لم يكن يعني شيئاً فيما يتعلق بإعجابه الذي ربما لم يكن يتعلق إلاّ بالمثالي والأنموذجي في المسألة. أرجو الصمت».

ولامست الإبرة الأسطوانة، وأطبق عليها بولينجر بالغطاء الثقيل، وكان يتدفق من خلال شبكة الصوت صوت سوبرانو أوسط مزهُوٌّ لم يكن يحفل كثيراً بالنطق الحسن: وفهم القوم عبارة «إن قلبي لينفتح لصوتك» ثم ماعادوا يفهمون شيئاً بعد، ولكن الغناء الذي كانت تواكبه، مع الأسف، أوركسترا ذات صوت باكٍ الى حد ما، كان رائعاً في حرارته، ورقته، ومافيه من شكوى السعادة الغامضة. كان اللحن الذي لم يكن يبدأ، في كلتا شطرتي اللحن، ذَواتَيْ البنيان المتساوي، بمسيرته ذات الجمال الكامل إلاّ في المنتصف، ويكمِّلها ساحراً خلاّباً، ولاسيما في المرة الثانية، حيث تجر الكمنجة معها، إذ باتت الآن رنّانة صادحة

بصورة كاملة بلاريب، خط الغناء الفخم المترف على نحو حافل بالإمتاع، وتكرِّر شكلها الختاميّ في عزف تال رقيق رقة حنونة.

وكان قد غلب على القوم التأثُّر، وكانت سيدة ترقأ دمع عينها بمنديل للخروج صغير مطرَّز. وقال بولينجر عبارة مفضّلة ثابتة بين الباحثين في علم الجمال: «جميل جمالاً يذهب بالعقل!»، وهي عبارة تخيِّب الأمل في الحكم الحماسي «جميل»، بأسلوب العازف الخبير والفظ الغليظ. وربما كان في وسع المرء أن يقول، بلاريب، إنها هنا دقيقة كل الدقة، وإنها وردت في مكانها الصحيح تبعاً لمعنى الكلمة، وربما كان هذا هو مابعث البِشْر في نفس أدريان.

وصاح قائلاً وهو يضحك: «فها أنتذا تفهم الآن أن الرجل الجادّ على استعداد للصلاة للدور في برنامج فني. والحق أن هذا ليس بالجمال الروحي، بل هو جمال حسي أنموذجي، ولكن لاينبغي للمرء أن يخشى الحسّي في النهاية، ولا أن يخجل منه».

وسُمع صوت الدكتور كرانيش، مدير مكتب المسكوكات يقول: «بل ربما كان على المرء أن يخجل منه» وكان يتحدث، كالعهد به دائماً، حديثاً متميِّزاً الى حد فائق، رابط الجأش، واضحَ مخارجِ الكلمات، مفهوماً، على الرغم من أن أنفاسه كانت تحدث صوتاً كالصفير، من الربو. ومضى قائلاً: «ربما كان على المرء، في الفن، أن يخجل، بلاريب. ففي هذا المضمار يحق للمرء، أو ينبغي له، في الواقع، أن يخاف مما لايكون إلاّ حسيّاً، وأن يتولاه الخجل منه، لأنه هو المبتذل، حسب تعريف الأديب: المبتذل هو كل ما لايخاطب الروح، ولايكون شيئاً آخر سوى مايثير الاهتمام بالحسّي».

وردّ أدريان قائلاً: «كلمة نبيلة، والمرء يحسن صنعاً الى حد بعيد إذا ماتركها يتردد صداها هنيهة من الزمن قبل أن يتذكر أدنى الأمور المقابلة لها».

وقال الرجل المثقف مستفسراً: «وما الذي أنت خليق أن تتذكَّره؟».

وكان أدريان يوشك أن يهز كتفه ويحرك فمه حركة ما، ليعبِّر، على نحو تقريبي عن فكرة مؤداها: «لا حيلة لي تجاه الحقائق»، قبل أن يقول:

«المثالية يغيب عن بالها أن الفكر لايُخاطَب بالفكري وحده، بل يمكن أن يتأثر بالكآبة الحيوانية الماثلة في الجمال الحسّي أعمق التأثُّر، بل لقد قدَّم ضروب الولاء للمجون والاستهتار. ففيليني ليست في النهاية سوى عاهرة صغيرة، ولكن ڤيلهلم مايستر الذي لايبعد كثيراً عن مؤلِّفه، يوليها احتراماً يتمّ به إنكار ابتذال البراءة الحسية، بصراحة».

وردّ عالم النمِّيات قائلاً: «لِمَ ينظر الى المجاملة والصبر على الملتبس، أبداً، على أنهما أكثر السمات أنموذجية في شخصية أولمبيِّنا. وفي النهاية فإن المرء يستطيع أن يرى في ذلك، بلاريب، خطراً على الحضارة، عندما يغض الفكر النظر أمام الحسّي المبتذل، أو يغمز له بعينه».

«يبدو أن تفكيرنا مختلف فيما يتعلق بالخطر»

«فلتسمني رعديداً كالأرنب، على الفور!»

«معاذ الله! فإن فارس الخوف واللوم ليس بجبان، بل هو فارس على أية حال. وكل ماأود أن أكسر رمحاً في الدفاع عنه هو التسامح فيما يتعلق بأمور الأخلاق في الفن. والناس يستجيبون لذلك، أو يهبونه لأنفسهم، كما يبدو لي، في الفنون الأخرى، بترحيب أكبر مما يفعلون في

حالة الموسيقا، وقد يكون في هذا شرف حقيقي لهذه، غير أنه يضيِّق عليها ميدان الحياة الى حد خطير، وماذا يتبقى من مجمل الصوت والإيقاع عندما يضع المرء لهما المقياس الأخلاقي - الفكري الأشدّ صرامة على الإطلاق؟ بضعة أطياف صِرْفة لباخ. وقد لايتبقّى شيئ يُسْمَع على الإطلاق».

وأقبل الخادم بالويسكي، والبيرة وماء الصودا على لوح شاي ضخم.

وقال كرانيش من بعدُ، وربَّت بولينجر على كتفه تربيتاً مدوِّياً، استحساناً : «من ذا الذي أراد أن يفسد جوّ العزف؟ أما أنا، وهذا وذاك بين الضيوف، فقد كان تبادل الكلمات بالقياس إلينا مبارزة نشبت على عجل بين الاعتدال الصارم والخبرة العميقة القائمة على المعاناة، في الفكر، غير أني افتتحت هذا المشهد من مشاهد المجلس هنا - لا لمجرد أنني أحس إحساساً بالغ الشدة بعلاقتها بمقطوعة الحفلة الموسيقية التي كان أدريان يعمل فيها في تلك الأيام، بل أيضاً لأن أولئك ألزموني بذلك في تلك الأيام، تماماً، من أجل الفتى الذي كتبت هذه بناء على دفعه الشديد المراس، والذي كانت هذه تعني بالقياس إليه نجاحاً بأكثر من معنى.

والأرجح أن قدري ألاّ أتمكن إلاّ بصلابة وبتمحيص جاف، من الحديث بوجه عام، عن الظاهرة التي وصفها أدريان لي ذات يوم بأنها تغيير يبعث على الدهشة، ويعد غير طبيعي الى حد ما، على الدوام، في العلاقة بين الأنا واللاّ - أنا، وهي ظاهرة الحب، وكانت معوِّقات التهيُّب من السرّ على وجه الإطلاق، والتهيُّب الشخصي فوقها، يضافان

الى الأسباب التي تحملني على أن أغلق فمي إغلاقاً، أو أكون ضنيناً بالكلام عن التحوُّل الذي تحفُّ به الشياطين، الذي طرأ هنا على تلك الظاهرة التي هي في حد ذاتها نصف عجيبة، والتي تتناقض مع انغلاق الكائن الفرد. وعلى كل حال فأنا أريد أن أمكِّن القارئ من استشفاف أن المسألة كانت ذكاءً وحنكة نوعيَّيْن جاءا عن طريق فقهٍ في اللغات القديمة، - أي عن طريق خاصّةٍ كانت في العادة أقرب الى أن تحمل المرء على التبلُّد والاستغفال تجاه الحياة - وقد وضعتني هذه في الموقف الذي يُمَكِّنني من رؤية شيء هنا على وجه الإطلاق، وإدراكه.

ولايمكن أن يكون هناك شك، ويجب أن يروى، باعتدال إنسانيّ، أن ثمة ثقة لايعتريها الكلل، ولايمكن أن يردعها شيء، ظفرت بالنصر على أشد أشكال الوحدة هشاشة آخر الأمر، - وكان نصراً لايمكن أن تكون له إلاّ سمة محدَّدة، مع كون الجانبين على طرفَيْ نقيض، ولم يكن يُقصَد دائماً إلاّ بهذا المعنى، على طريقة العفاريت. ومن الواضح وضوحاً أكثر كمالاً، أن طبيعة الغزل عند شفيرتفيجر، وهي التي تتمثل بالتغلب على الوحدة عن طريق الألفة، بالشعور أو اللاشعور، كانت لها منذ البداية هذه الوجهة وهذا اللون، الخصوصيّان، وهو الأمر الذي لايُقْصَد به أن يقال إنها كانت تفتقر الى الموضوعات الأكثر نبلاً، بل على النقيض من ذلك: إذ كان طالب الودّ جاداً كل الجد عندما كان يتحدث عن مدى ضرورة صداقة أدريان من أجل استكمال طبيعته، وكيف تتولى هذه الصداقة تنميته، والارتقاء به، وتحسينه، إلاّ أنه كان مجانباً للمنطق بما يكفي حين ترك، من أجل الظفر بها، الوسائل الفطرية المتمثلة في الغزل تلعب دورها، - ثم يشعر بعد ذلك بالاستياء عندما لم ينكر الميل المنطوي على

الكآبة، الذي أثارته ملامح السخرية الشهوانية.

على أن أكثر مالفت نظري وأثّر في نفسي من هذا كله هو أنني رأيت بعيني كيف أن المَغْزُوّ لم يلاحظ أنه إنما سُحِر، بل نسب الى نفسه مبادرة كانت تعود بأكملها الى الطرف الآخر، ولكم كان يبدو مفعماً بالاندهاش الرائع لهذه المجاراة وهذا التلطُّف اللذين لم يكونا ينطويان على مبالاة، بصراحة، واللذان كانا أولى بأن يطلق عليهما اسم الإغراء. أجل لقد كان يتحدث عن أعجوبة العزم والإصرار وعدم قابلية الإرباك وإثارة البلبلة عن طريق المزاج السوداويّ والوجدان، وليس عندي إلاّ القليل من الشك في أن هذا الاندهاش كان يعود الى تلك الأمسية التي باتت بعيدة، والتي ظهر فيها شفيرتفيجر في حجرته ليرجو منه العودة الى مجلسه الذي يغدو من دونه بالغ الإملال. ومع ذلك فقد كانت، في سياق هذا الأعجوبة المزعومة، هذه الخصائص الخاصة بالشخصية. ومع ذلك فقد كان لخصائص الشخصية هذه النبيلة التي تلقى التمجيد مراراً وتكراراً، والمتّسمة بالحرية من الوجهة الفنية، وبالتهذيب، عند رودي المسكين، يد في الموضوع بالفعل، وعلى الدوام أيضاً، في سياق هذه الأعجوبة المزعومة. وثمة رسالة موجودة كتبها أدريان، على وجه التقريب، في وقت ذلك الحديث المسائي عند بولينجر الى شفيرتفيجر، وكان خليقاً أن يبدِّدها بحكم البدهية، ولكنه احتفظ بها بدافع روح التقوى من ناحية، ولتكون رمز الانتصار من ناحية أخرى، بلاريب، وأنا أرفض الاستشهاد بشيء منها، بل أريد أن أشير إليها بأنها وثيقة إنسانية فحسب، وهي وثيقة تحدث أثراً كمن يَنْكَأ جرحاً، وكان الكاتب لايرى في تجرُّد الجرح المؤلم جرأة كبيرة. ولم يكن ذلك جرأة. ولكن مامن

شك في أن الأسلوب الذي تبين به أنه ليس جرأة أسلوب جميل. وعلى الفور، وبأسرع مايُستَطاع، ومن دون أي تردُّد معذِّب، تمَّت في تلك الأيام زيارة لمتلقيّ الرسالة في بفايفرينج، وتجلت طريقة سلوك، فيها توكيد امتنان بالغ الجدية وكانت بسيطة، جريئة، لطيفة تنم عن إخلاص القلب، وتُعنى عناية المجتهد بتجنُّب كل مايبعث على الخجل... ولابدّ لي من الثناء هنا، ولا مندوحة لي من فعل ذلك، وبنوع من الاستحسان أحسب أن الإعداد للحفلة الموسيقية وإهداءها قد تَقَرَّر.

وانتهى هذا بأدريان الى ڤينا، إذ قاده ذلك الى هناك، في صحبة رودي شفيرتفيجر، في قصر المزرعة الهنغارية، وحين عادا من هناك استمتع رودولف بامتياز كان يعود إليّ على سبيل الحصر حتى الآن، منذ أيام الطفولة: فقد كان هو وأدريان يخاطب كلٌّ منهما الآخر بصيغة رفع الكلفة.




محمد خطاب

(٣٩)

يالَرودي المسكين! لقد كان انتصار شيطانيتك الطفولية الى أجل قريب، لأنه كان قد وقع في مجال قوة شيطانية أعمقَ وأشد وبالاً قصمه بأسرع مااستطاع، وأتى عليه وبدّده. وباللَهجة الخطاب غير السعيد، من دون كلفة! فلا هو جاء في صالح عدم الأهمية ذي العين الزرقاء، التي حظي به لنفسه، ولا كان ثمة مندوحة من ذلك الذي ارتضى لنفسه أن ينتقم من الإذلال الذي ربما كان باعثاً للسعادة، والذي عرض له بذلك. لقد كان الانتقام لا إرادياً، وفورياً، مقترنا بالنظرة الباردة، وحافلاً بالأسرار. وأنا أروي، وأروي.

لقد حدثت في الأيام الأخيرة من عام ١٩٢٤، في برن وزوريخ، عمليات تكرار للحفلة الموسيقية الناجحة بالكمان، في إطار حفلتين لأوركسترا الحجرة السويسرية، التي كان قائدها، السيد باول زاخَر، قد دعا إليها شفيرتفيجر بشروط جد مستحسنة، ولم يكن ذلك من دون أن يعرب عن رغبته في أن يتفضّل المؤلف الموسيقي بإضفاء سمعة خصوصية على العروض بحضوره، وكان أدريان كارهاً لذلك، ولكن رودي عرف كيف يرجو منه ذلك، وكان لخطاب رفع الكلفة الحديث العهد في تلك الأيام من القدرة ما يكفي لتمهيد الطريق لما يفترض أن يأتي هنا.

وقد أثبتت الحفلة الموسيقية التي كانت في وسط برنامج شمل الكلاسيكية الألمانية والروسية المعاصرة، بفضل تفاني العازف المنفرد الذي يبذل كل شيء، في كلتا المدينتين، أي في المعهد الموسيقي في برن وفي قاعة الموسيقا في زوريخ، خصائصها، الفكرية، والآسرة، من جديد. ولاحظ النقد شيئاً من انعدام الوحدة في الأسلوب، بل في المستوى، وتصرَّف الجمهور أيضاً تصرفاً أكثر جفافاً الى حد ما مما فعل الجمهور في ڤينا، غير أنه أعدَّ، مع ذلك، للعارضين ما لم يقتصر على التهليل والتصفيق الحادّ، بل كان يصرّ، في كلتا الأمسيتين، على ظهور المؤلف، الذي تفضَّل على مفسِّره بتقديم الشكر على الاستحسان مكرراً، ويده في يده. ولقد فاتني هذا الحدث الذي تميَّز مرتين، بتفرُّده بأنه تضحية المرء نفسه شخصياً، بحقه في الوحدة أمام الجمهور، إذ كنت قد استُبعِدْت منه. أما من شهده في المرة الثانية، في زوريخ، وحدثني عنه، فكان جانيت شورل التي كانت تقيم في هذه المدينة على وجه الخصوص ولقيت أدريان أيضاً في المنزل الخصوصي الذي كان من نزلائه المؤقَّتين هو شفيرتفيجر.

وكان هذا هو المنزل الواقع في شارع ميتِن بالقرب من البحيرة، والعائد للزوجين، السيد والسيدة رايْف، وهما زوجان موسِران، لا ولد لهما، من محبي الفن، قد تقدمت بهما السن، كانا يجدان، منذ أيامهما الأولى، متعة في تقديم ملاذ معتنى به للفنانين الجوّالين من ذوي المكانة، وتسليتهم بمجالس الأنس. أما الرجل، وهو من أرباب صناعة الحرير السابقين الذين أخلدوا الى الراحة، سويسري ذو نزعة ديمقراطية أصيلة خالصة، فكانت له عين من الزجاج كانت تضفي على ملامحه

ذات اللحية جموداً معيناً، - يتمثل في انطباع خادع لأنه كان يجنح الى مَرَح ليبرالي، ولم يكن شيءُ أحبَّ اليه من الخوض في مجالات مع نساء المسرح وبطلاته، أو مغنيات الأوپرات، كما كان يسمح لنفسه، في استقبالاته، أحياناً، بالاستماع الى التشيللو، استماعاً لابأس به، وكانت تواكبه بالبيانو زوجه التي تنتمي الى الرايْش، وكانت تمارس الغناء فيما سلف، وكانت تعوزها روح فكاهته، غير أنها كانت تمثل مواطنة بالغة الهمة والنشاط في القيام بأمر المنزل، وكانت توافق زوجها على الإطلاق، إذ راق لها أن تؤوي أهل الشهرة والمجد، وتدع روح العبقرية يسود في حجراتها. وكان في مخدعها منضدة كاملة تغطيها صور مهداة من قبل مشاهير أوروبا الذين كانوا يعدّون أنفسهم مدينون لآل رايف بكرم الضيافة.

وكان الزوجان قد دَعَوا شفيرتفيجر إليهما قبل أن يكون اسمه قد ظهر في الصحف، لأن الصناعي الطاعن في السن كان، بحكم كونه ثرياً مشجِّعاً للفنون، أوَّل من يطلع على ماهو متوقع في مضمار الموسيقا قبل الناس قاطبة، وكانا قد وسَّعا الدعوة لتشمل أدريان بمجرد اطلاعهما على مجيئه. وكان المسكن واسعاً، يتيح مجالاً رَحْباً للضيف، وبالفعل وجد القادمان من برن جانيت شورل في المكان ذاته الذي كانت تستقر فيه كل عام بضعة أسابيع، بحكم الصداقة، ومع ذلك فلم تكن هي التي اتخذ أدريان مكانه الى جانبها عند العشاء الذي جمع، بعد الحفلة الموسيقية، حلقة صغيرة من بطانته في حجرة الطعام عند آل رايف.

وكان على رأسهم رب المنزل الذي وعد بشراب خال من الكحول من قدح مصقول صقلاً رائعاً، وكان يمازح عازفة السوپرانو الدرامية في

المسرح البلدي. الى جانبه، بوجه جامد، وكانت هذه امرأة شديدة البأس، كانت كثيراً ماتضرب بقبضتها المكوَّرة على صدرها أثناء الأمسية، وكان من أعضاء الأوپرا الآخرين، الحاضرين هنا بطل صوت الباريتون، من مواليد ساحل البلطيق، وهو رجل طويل القامة ذو صوت مُرْعِد، غير أنه يتحدث حديثاً ينمّ عن الذكاء، ومنهم، بعد ذلك، منظم أمسية الحفلة الموسيقية، زاخَر، قائد الفرقة الموسيقية، ومعه الدكتور أندريبه، القائد الدائم لقاعة الموسيقا، والمستشار الموسيقي الممتاز للجريدة الزوريخيّة الجديدة، الدكتور شوهْ. وكان هؤلاء جميعاً قي صحبة نسائهن. وكان يقعد عند النهاية الأخرى للمائدة، السيدة رايف، مستجمعة الفكر، بين أدريان وشفيرتفيجر اللذين كان من جاراتهما الأخريات، عن الشمال وعن اليمين، فتاة صبية، أو مازالت صبية، تعمل في مهنة، هي الآنسة جودو، وهي سويسرية فرنسية، وعمتها، وهي سيدة مسنة طيبة القلب من الأعماق، تكاد تبدو روسية، لها شارب ضئيل، كانت ماري (وهذا هو الاسم الأول لجودو) تخاطبها «عمتي» أو «العمة إيزابو»، وكان كل شيء يشير الى أنها كانت تعيش مع ابنة أخيها نديمةً، ومدبِّرة، وسيدة شرف.

وأنا أشعر بما يحدوني الى إعطاء صورة عن هذه، إذ استقرَّت عيني عليها بُعَيْدَ ذلك. لأسباب وجيهة، وقتاً طويلاً في اختبار يحدث بين مناسبة وأخرى. وإذا جاز في يوم من الأيام أن تكون كلمة «متعاطف» كلمة لامناص منها من أجل وصف شخصية من الشخصيات، فهو جائز في وصف هذه المرأة التي كانت تحقق هذه الكلمة، من رأسها الى قدمها، وفي كل جانب من ملامحها، وبكل كلمة، وبكل ابتسامة، وبكل تعبير

عن جوهرها، المعنى غير المفرط لهذه الكلمة، مع الرضى والاطمئنان، والمعنى الأخلاقي - الجمالي. أمّا أنها كان لها أجمل عينين سوداوين في العالم، فذلك ماقدمته، كانتا سوداوين كفحم الزفت، أو كالقار، أو توت العُلَّيْق، وكانتا عينين ليستا بالكبيرتين كثيراً، ولكن كانت لهما، إذا رفعت ناظريها، ومضة صريحة، صافية في ظلمتها ونقية، تحت حاجبين كان ارتسامهما الدقيق، المتناسق، مما لايمكن لمواد التجميل أن تصنع معه إلاّ القليل، شأن حمرة الحيوية المعتدلة في الشفتين الرقيقتين. ولم يكن ثمة شيء متصنَّع، ولاتجميل يُزَجِّج، أو يؤطِّر، أو يلوِّن، في الفتاة. وكان السحر الطبيعي، الموضوعي الذي كان شعرها البنيّ الداكن، الثقيل في نحرها، والذي يدع الأذنين حُرَّتين، يرتدُّ الى الوراء من الجبهة ومن الصدغين الرقيقين، مثلاً، يضفي أيضاً على يديها طابعهما - وكانتا جميلتين على نحو مفهوم، ولم تكونا بحال من الأحوال بالغتي الضآلة، غير أنهما نحيلتان رقيقتا العظام، تشدُّهما من المعصمين، ببساطة، شرائط مزمومة لصُدَيْريّ من الحرير الأبيض، وكذلك كان العنق تحيط به ياقة ملساء ينبثق منها العنق نحو الأعلى، أهْيَفَ رشيقاً مستديراً كعمود، بل كان في الواقع يخرج منها كأنما قُدَّ بازميل، يُتَوِّجُه الشكل البيضاوي المدبَّب على نحو مستعذب، لوجهها الأبيض كالعاج، بأنفه الصغير الجميل الحسن الصياغة، الذي يلفت النظر بمنخريه المنفتحين على نحو ينم عن الحيوية. وكان ابتسامها الذي لم يكن كثير التواتر، وضحكها الأكثر ندرة، والذي كان يجر معه دائماً إجهاداً معيَّناً، مؤثراً، لقطاع الصدغين اللذين كانا كأنهما شفافان، يُعَرّي ميناء الأسنان المتراصّة والمتناسقة.

وسوف يفهم المرء أنني أحاول، بمحبة واجتهاد أن أبتعث من الذاكرة ظاهرة المرأة التي فكر أدريان هنيهة من الزمن في الزواج منها. وكنت أنا أيضاً قد رأيت ماري أول مارأيتها في ذلك الصديري من الحرير الأبيض للسهرة، الذي كان يبرز أنموذجها الداكن بلاريب، بوعي معين. ثم كنت أراها على الأغلب في زيّ بسيط من أزياء الحياة اليومية أو أزياء السفر أكثر ملاءمة لها من قماش اسكتدلندي قاتم اللون له حزام ذو طلاء لمّاع وأزرار صغيرة من الصدف، - كما كنت أراها أيضاً في صديريّ عمل ترتديه فوق هذا يبلغ الى ركبتيها، وكانت ترتديه حين تعمل في لوحة رسمها بقلم الفحم وأقلام التلوين، لأنها كانت رسّامة - وكان قد تمّ إبلاغ أدريان بذلك عن طريق السيدة رايف - وكانت فنانة ترسم وتحضر التصاميم، وتبتكر لمسارح الأوبرا والتمثيليات الغنائية الباريسية الصغيرة، مثل «الجيتيه ليريك» و «مسرح تريانون» القديم، والفيجورين والأزياء وصور المشاهد، التي كانت تفيد بعد ذلك الخياطين ورسّامي الديكور على أنها أنموذج. وبهذا العمل الذي كان يشغلها، كانت تلك المولودة القادمة من نيون، على بحيرة جنيف، تعيش مع عمتها إيزابو في الحجرات البالغة الضيق، في مسكن في حي إيل دي باري، غير أن ماعرفت به من البراعة، وموهبة الابتكار وإلمامها الموضوعي بتاريخ الأزياء، وذوقها المرهف، كُنَّ في نُمُوّ، ولم تكن لإقامتها في زوريخ خلفيّة مهنية فحسب، بل كانت تُحَدِّث جارها على المائدة، عن اليمين، أيضاً أنها ستأتي الى مونيخ خلال بضعة أسابيع، وهي المدينة التي ستعهد الى مسرحها بإخراج مسرحية كوميدية حديثة من مسرحيات الأساليب.

وكان أدريان يوزِّع انتباهه بينها وبين ربة المنزل، بينما كان رودي المتعب، قبالته، والسعيد مع ذلك، يمازح «عمتي» التي كان من السهل عليها جداً أن تذرف، لدى الضحك، دموع ذات القلب الطيب، وكانت تميل في كثير من الأحيان صوب ابنة أخيها، لتكرِّر عليها، بوجه مخضّل بالدموع، وبصوت كالنشيج، من أحاديث جارها ما كانت ترى أنه لابدّ لها أن تسمعه. وكانت ماري تومئ لها إيماءة مودة، وهي جذلانة على مايبدو بأنها كانت تجد تسلية طيبة الى هذا المدى، وكانت عيناها تتوقفان هنيهة عند واهب هذا المرح، باعتراف ينطوي على الامتنان لهذا الذي وضع نصب عينيه أن يستثير حاجة السيدة العجوز الى متابعة سرد نكاته، مرة أخرى، ومرات. وكانت جودو تتحدث الى أدريان، نازلة عند رغبته في الاستفسار حول نشاطها في باريس، وحول ضروب النتاج الفرنسي الحديث في الباليه والأوبرا الفرنسية، الذي لم يكن معروفاً لديه إلاّ جزئياً، عن أعمال بولانك، وأوريك وريتي، وحمى الوطيس في تبادل الأحاديث عن مسرحية راڤيل «افنيس وكلو» و «الألعاب» لديبوسيّ، وحول موسيقا سكارلاتي لمسرحية «النساء ذوات المزاج الطيب» لجولدوني، وسيماروزا، في «الزواج السريّ» و «التربية الناقصة» لشابرييه. وكانت ماري قد صممت لهذه أو تلك من المسرحيات تجهيزاً جديداً، وأوضحت بعض الحلول المتفرقة للمشاهد عن طريق خطوط أولية بقلم الرصاص على بطاقة مائدتها. وكان شاول ڤيتلبرج يعرف حق المعرفة - ولكن لاريب! هنا كان المكان الذي تألّق فيه ميناء أسنانها، وكان الضحك من القلب يجهد صدغيها حتى يغدوا بالغَيْ الحسن، وكانت ألمانيتها سَلِسة لاجهد فيها، مع لكنة أجنبية يسيرة، ساحرة. وكان طابع

صوتها دافئاً، جذاباً، بل كان صوت غناء، و «مادة»، بلاريب - لكي أكون دقيقاً. وكانت، فيما يتعلق بوضع الصوت ولونه، لا مشابهة لصوت إلزبيت ليفركون فحسب، بل كان يُعْتَقَد في بعض الأحيان، بالفعل، أن المرء يسمع صوت والدة أدريان عندما يصغي إليها.

ومن شأن مجلس يضم خمسة عشر نفراً على أية حال، كهذا المجلس، أن يشكّل، بعد انحلال نظام المائدة، مجموعات مختلفة، لتنويع ضروب الاحتكاك. ولم يكد أدريان يتبادل كلمة أخرى مع ماري جودو بعد العشاء. على أن السادة زاخر، وأندربيه وشوه، ومعهم جانيت شورل، تمسّكوا به وقتاً أطول ، في محادثة حول الشؤون الموسيقية في زوريخ ومونيخ، بينما كانت السيدات الباريسيات، مع المغنين في الأوپرات، يجلسون الى مائدة الزوجين المضيفين وشفيرتفيجر، وعليها أدوات المائدة النفيسة من سيڤر، وينظرون، وقد تولّتهم الدهشة، الى السيد الشيخ رايْف يفرِّغ قدحاً من القهوة الثقيلة بعد الآخر، الأمر الذي أعلن، بعبارات سويسرية لها وزنها، أنه يفعله بناءً على نصيحة طبية، لتقوية قلبه، ومن أجل نوم أخفّ، ولم يلبث الأضياف المقيمون المؤقتون أن انسحبوا على الفور بعد انصراف الأضياف الخارجيين. وأقامت الآنسة جودو بضعة أيام مع عمتها في فندق عدن على البحيرة، وحين عَبَّرَ شفيرتفيجر، الذي أراد في الصباح التالي أن يعود مع أدريان الى مونيخ، عند الوداع، بحرارة بالغة، عن أمله في أن يلقى السيدات هناك من جديد، انتظرت ماري لحظة الى أن كرَّر أدريان هذه الرغبة، ووافقت بروح من المودة.

كانت الأسابيع الأولى من عام ١٩٢٥ قد انصرمت، حين قرأت في

الجريدة أن سيدة مائدة صديقي الزوريخية الجذابة قد وصلت عاصمتنا، وأنها نزلت - لابطريق المصادفة، لأن أدريان كان قد قال لي إنه كتب إليها عنوانه - مع عمتها في النُزُل العائلي ذاته في شفابنج، حيث كان قد أقام بضعة أيام بعد عودته من إيطاليا، وهو «بنسيون جيزيللا»، وكان المسرح قد نشر الخبر ليزيد في اهتمام جمهوره بحفلة العرض الأول الوشيكة، وعلى أثر ذلك تَمَّ تأكيد الخبر لنا بدعوة من آل شلاجنهاوفن لقضاء مساء يوم السبت القادم عندهم مع فنانة التجهيز المعروفة.

على أنني لا أستطيع أن أصف توتُّر الأعصاب الذي كنت أتطلّع به الى رؤية هذا اللقاء، إذ كان التوقُّع، والفضول، والسرور، والحرج يختلطْنَ في نفسي فيتحولْنَ الى استثارة عميقة. فلماذا كان ذلك؟ ليس لأن أدريان حدثني بعد عودته من تلك الرحلة الفنية الى سويسرة، فيما حدثني عنه، عن لقائه مع ماري، وأعطاني وصفاً لشخصها تضمَّن، بحكم كونه تقريراً رزيناً، وجود شبه بين صوتها وصوت والدته، ولكنه تركني، فيما عدا ذلك أيضاً، أُنْصِت إليها. وما من شك في أن الصورة التي قدّمها لي لم تكن صورة حماسية، بل كانت كلماته، على النقيض من ذلك، هادئة وعابرة، ولم تكن ملامحه تنمّ عن التأثُّر في أثناء ذلك، وكان بصره ينظر جانباً في الفضاء. أمّا أن هذا التعارف خلّف أثره فيه فذلك ماتجلّى في مجرد أن اسم الفتاة الأول وكنيتها باتا دارجَيْن على لسانه - وإني لأقول إنه كان من النادر، في المجالس الأكبر، أن يعرف اسم من يتحدث إليه وكانت روايته تتجاوز مجرد الذكر على نحو حاسم.

ومع ذلك فقد أضيف الى هذا شيء آخر جعل قلبي يخفق من السرور والشك، وذلك أن أدريان أبدى، لدى زيارتي التالية لبفايفرينج

ملاحظات تفيد أنه ربما طال مقامه هنا حتى الآن الى أبعد مدى، وأن ثمة ضروب من التغيير في مظهر حياته ربما كانت وشيكة الحدوث، وأنه ربما جاءت نهاية لمسيرته المنفردة في الحياة عمّا قريب على أية حال، وأنه يروح ويجيء وفي نفسه رغبة في وضع نهاية لهذا، الخ... - وجملة القول أنها كانت ملاحظات لايمكن تأويلها على وجه آخر سوى أنه يزمع الزواج. وواتتني الجرأة على سؤاله عما إذا كانت تلميحاته ترتبط باحتمال اجتماعي أفضى الى إقامته في زوريخ، وأجاب قائلاً:

«من تراه يستطيع أن يحول بينك وبين القيام بتخميناتك؟ وبالمناسبة فإن هذه الحجرات الضيقة ليست أبداً بالمكان المناسب لذلك. وإذا لم أكن مخطئاً فقد كان جبل صهيون، هناك في موطننا، هو الذي فاتحتني فيه بمصارحات مماثلة فيما سلف، وكان يفترض أن نرتقي جبل الرومبوهل، من أجل حديثنا.

وليتصوَّر المرء ذهولي!.

وقلت: «ياعزيزي، هذا أمر مثير ومؤثِّر!».

ونصح لي بالسيطرة على غلياني، وقال إن مسألة بلوغه سن الأربعين فيها، في النهاية، من التذكير مايكفي لكيلا يفوِّت المرء على نفسه القطار. ولم يكن في مقدوري أن أواصل طرح الأسئلة، وكنت خليقاً أن أجيب بالإيجاب. على أنني لم أكن أخفي على نفسي سروري بأن مشروعه كان يعني التحرر من الارتباط العويص بشفيرتفيجر، وكان يسرُّني أن أفهم ذلك على أنه وسيلة واعية من أجل هذا. أمّا كيف سيكون سلوك عازف الكمنجة وعازف المزمار تجاه هذا، فكان هذا مسألة هامشية لاتنطوي إلاّ على القليل مما يبعث على القلق، إذ كان ذاك عند

هدف طموحه الطفولي، وكانت حفلته الموسيقية قد ذهبت الى غير رجعة، وبعد انتصاره تصورت أنه مستعد لكي يتبوأ في حياة ليڤركون مكانة معقولة من جديد، وكان مايجول في خاطري مجرد أسلوب أدريان الغريب في تحدثه عن رغبته، وكأن تحقيقها يتعلق بإرادته وحدها، وكَأَنْ ليس على المرء أن يحفل أبداً بموافقة الفتاة. ولَكَمْ كنت مستعداً لاستحسان اعتداد بالنفس كان يعتقد أن ليس عليه إلاّأن يختار، وأن ينطق بالكلمة الدالة على اختياره! ومع ذلك فقد كان ثمة تردُّد في قلبي حيال سذاجة هذا الاعتقاد الذي كان يأبى إلاّ أن يبدو لي، أنا، في صورة تعبير عن الوحدة والغربة اللتين كانتا تشكلان هالته، ويحملني، على غير إرادة مني، على الشك في مسألة هل خلق هذا الرجل ليجرّ على نفسه هوى النساء. وعندما اعترفت لنفسي بكل شيء شككت حتى في أنه كان هو ذاته، في الأساس، يؤمن بهذه الإمكانية، وكان عليّ أن أكافح ضد الشعور بأنه كان يقف عن قصد فحسب، موقف من يرى أن نجاحه أمر بَدَهيّ. أمّا أنَّ من وقع عليها الاختيار كان لديها مجرد شعور داخلي بالأفكار والنوايا التي كان يربطها بشخصها، فقد ظل ذلك في عالم الظلام.

كما بقي ذلك في عالم الظلام بالقياس إليّ أيضاً، بعد أمسية السهرة في شارع بريان، الذي عاد عليٌّ بمعرفة ماري جودو. أما كم راقت لي فذلك مايأخذه المرء من الوصف الذي قدمته عنها آنفاً. ولم يكن مااستحوذ عليٌّ منها مجرد الليل الرقيق في نظرتها، التي عرفت منها مقدار الحس المرهف الذي خاطبه فيها أدريان، وصوتها الموسيقي، بل إفعام كيانها بالمودة والذكاء، والموضوعية الذي يخلّف وراءه كل ما يعود

الى سجع الإناث وهديلهن، والحزم والتصميم، بل الارتباط المباشر عند المرأة ذات العمل المستقل. وكان يسعدني أن أتصورَّها رفيقة حياة لأدريان، وكنت أعتقد جازماً أنني أتفهم الشعور الذي كانت تبثُّه فيه. ألَم يتجلَّ له فيها العالم الذي كانت وحدته تُجفل منه - كما تجلى أيضاً مايمكن للمرء، من وجهة فنية - موسيقية، أَن يسميه «العالم خارج حدود الألماني، في صورة بالغة الجدية والمودة، تبعث الثقة، وتَعد بالاكتمال، وتشجع على التوحُّد؟ أولم يُحْبِبهْا حباً ينطلق من عالَم موشَّحاته، من اللاهوت الموسيقي ومن سحر الأعداد الرياضية؟ لقد كان مما يبعث في نفسي الانفعال المترع بالأمل أن أرى كلا هذين الإنسانين يضمهما المكان ذاته على الرغم من أنني لم أرها في احتكاك شخصي إلاّ بصورة عابرة. وحين جمعتنا التحوّلات الاجتماعية ذات يوم، فضمت، بطريق المصادفة، ماري، وأدريان، وأنا، ورابعاً، في مجموعة، ابتعدت على الفور تقريباً، على أمل أن يكون للرابع من العقل مايحمله على أن يمضي لوجهته.

ولم تكن الأمسية عند آل شلاجنهاوفِن مأدبة، بل استقبالاً في الساعة التاسعة، مع بوفيه مرطبات في حجرة الطعام المجاورة لصالة الأعمدة. وكانت الصورة الاجتماعية قد تغيرت تغيُّراً جوهرياً منذ الحرب، فما عاد رجل مثل البارون ريديزيل يقف هنا مؤيداً «الرشيق»، وكان رجل الفرسان الذي يعزف على البيانو قد غاب في مجاهل التاريخ، وحتى حفيد شيلر الأخير، السيد فون جلايشِنْروسقورم ماعاد له وجود، إذ أفضت به محاولة خداع تم تبريرها ببراعة جنونية، ولكنها أخفقت، وأحيلت عليه، الى إخراجه من الدنيا وجعلت منه معتقلاً بمحض إرادته تقريباً في أملاكه في باڤاريا السفلى. وكانت القضية لاتكاد

تصدَّق. وذلك أن البارون كان قد أرسل قطعة من الحُلِيّ معبَّأة تعبئة متقنة، وكانت مُؤَمَّناً عليها بمبلغ كبير يتجاوز قيمتها، لتعديلها، الى صائغ خارج البلاد لم يجد في العبوة حين وصلت، شيئاً سوى فأر ميت، وكان من نتائج البراعة أن الفأر لم يؤدِّ المهمة التي كانت مرسومة له. وكان الفكرة تتمثل، على مايبدو في أن يعضّ الحيوان القارض الغلاف ويتخلّص من محبسه، مما ينشئ وهماً مؤداه أن قطعة الحُلِيّ سقطت من جراء الثقب الذي نجم بطريقة لايعلمها إلاّ الله وضاعت، مما يجعل مبلغ التأمين واجب الأداء. وبدلاً من ذلك نفق الحيوان من دون أن يؤمن لنفسه المخرج الذي كان خليقاً أن يفسر ضياع العقد الذي لم يوضع في العبوة قط، – ووجد ملفِّق هذه الحيلة الشيطانية نفسه مكشوفاً بأكثر الطرق إثارة للضحك. ومن الممكن أن يكون التقط ذلك من كتاب في تاريخ الحضارة، وكان ضحية لمطالعاته، ولكن ربما أسهمت البلبلة الأخلاقية في ذلك العصر بوجه عام كل العموم، في خاطرته المجنونة.

وعلى كل حال فلم يكن بدٌّ لمضيفتنا، التي كانت من مواليد بْلاوْزِج، أن تتحمّل بعض التنازلات، وأن تضطر الى اسقاط موضوع الربط بين نبالة المولد والنزعة الفنية، بصورة كاملة تقريباً. وكان مما يُذكِّر بالعصور القديمة وجود أية نساء من سيدات البلاط السابقات اللواتي كن يتحدث الى جانيت شورل بالفرنسية، وكان المرء يرى، فيما عدا ذلك، الى جانب نجوم المسرح، هذا وذاك من حزب الشعب الكاثوليكي، بل كان يوجد أيضاً عضو في مجلس النواب لامع، من الديمقراطيين الاجتماعيين، وبعض كبار القياديين في الدولة الجديدة، ومنهم على أية حال، أيضاً، أناس ينتمون الى عائلات، مثل السيد فون شتنجل الذي كان من الأساس رجلاً يمتاز بالظُّرف وخفة الدم، – ولكن كان يوجد أيضاً

أناس معينون يمثلون عناصر عازفة مُعرِضة بصورة حاسمة، من حركة «الجمهورية الليبرالية» كان مشروع الانتقام للعار الألماني ووعي تمثيلهم لعالم قادم، قد كتب على جباههم بأجرأ الإشارات.

ولم يكن هذا شيئاً آخر: إذا كان المراقب خليقاً أن يراني مع ماري جودو وعمتها الطيبة الضئيلة أكثر مما كان يرى أدريان الذي لاشك في أنه أقبل من أجلها وكان قد حيّاها بسرور ظاهر في البداية الأولى ولكنه جعل يتحادث، على الأرجح الغالب مع صاحبته العزيزة جانيت، ونائب الديمقراطيين الاجتماعيين الذي كان من المعجبين بباخ ذوي الخبرة والقدم الراسخة. وسوف يجد المرء تركيزي مفهوماً، بصرف النظر تماماً عن سحر الموضوع، بعد كل ماعهد به أدريان إليّ. وكان رودي شفيرتفيجر معنا أيضاً، وكان من بواعث افتتان العمة إيزابو أن تراه مرة أخرى. وكان يحملها على الضحك في كثير من الأحيان، مثلما كان يفعل في زوريخ - ويحمل ماري على الابتسام، - ولكن هذا لم يكن يحول دون حديث رصين كان يدور حول الأحداث الفنية في باريس وميونيخ، كما كان يتطرق الى السياسة الأوروبية، والعلاقات الألمانية الفرنسية، وكان يشارك فيه، في النهاية الأخيرة تماماً، أدريان وهو واقف، بضع لحظات، إذ لم يكن له بدٌّ، أبداً، أن يدرك قطاره في الساعة الحادية عشرة، الى ڤالدسهوت، ولم تكن مشاركته في الأمسية قد استغرقت سوى ساعة ونصف. وكنا نحن الآخرين نظل وقتاً أطول الى حد ما.

وكان هذا، كما قلت، أمسية يوم من أيام السبت، وبعد بضعة أيام، في يوم الخميس، سمعت صوته بالهاتف.

(٤٠)

وكان يهتف لي في فرايزينج ليرجو مني، كما قال، أن أسدي إليه معروفاً (وكان صوته مكتوماً، وعلى شيء من الرتابة، إذ كان يحمل على استنتاج وجود آلام في الرأس عنده) وقال إنه يشعر أن من الواجب أن يُعْرَض على السيدات في نزل جيزيللا العائلي مشاهدة معالم مونيخ، وأنه قد تمّ التخطيط لعرض نزهة عليهن فيما يجاور المدينة، الأمر الذي يدعو إليه طقس الشتاء الجميل، وإنه لايدعي أنه صاحب الفكرة، بل كان منطلقها من شفيرتفيجر، غير أنه التقطها ونظر فيها، وإن فوسِّن واردة في الحسبان، مع نويْشفانشتاين. ولكن ربما كان من الأفضل أيضاً، أوپر آمَّرْجاوْ، ورحلة للتزلج من هناك الى دير إيتّال يسره هو شخصياً أن يقوم بها، مروراً بقصر ليندرهوف، وهو من المرابع التي تثير الفضول على أية حال، ويعد جديراً بالمشاهدة. وسألني عن رأيي.

وقلت إن الفكرة ذاتها لابأس بها وصحيحة، وكذلك هدف النزهة.

وقال: «ولابدَّ، بالطبع أن تأتي أنت، وزوجك، وسوف نقوم بذلك في يوم من أيام السبت، وعلى قدر ما أعلم، فأنت ليس عندك ساعات تدريس في يوم السبت، في هذا الفصل الدراسي، - فلنقل إذاً بعد بعد غد بثمانية أيام، إذا لم تأتنا الأيام بطقس بالغ السوء يذوب فيه الجليد. لقد قلت هذا أيضاً لشيلدكناب، فهو يحب أمثال هذا حباً جمّاً، ويريد أن

يشدّ قدميه على الزلاّجات».

ورأيت هذا كله ممتازاً.

ومضى قائلاً إنه يرجو مني الآن أن أفهم مايلي: الخطة صادرة في الأصل، كما قلنا، عن شفيرتفيجر، ولكنني خليق أن أتفهم رغبته، أي رغبة أدريان، في أن لايكون لدى القوم في نزل جيزيللا العائلي، مثل هذا الانطباع، وقال إنه لايريد أن يتولى رودلف الدعوة الى ذلك هناك، بل يعلق أهمية معينة على قيامه هو بذلك، - وإن لم يكن ذلك، مرة أخرى، بصورة مباشرة الى حد مفرط، وسألني هل يمكن أن أتفضّل بتدبير هذه المسألة من أجله، - وذلك بأن أقوم، قبل زيارتي التالية لبفايفرينج، أي بعد غدٍ، بزيارة السيدات في المدينة، وإبلاغهن بدعوته، على أنني رسوله، وإن كان ذلك بمجرد الإشارة أو التلميح فحسب.

وختم حديثه قائلاً بلهجة جافة غريبة: «في وسعك أنْ ترى أن سيكون لك عليّ الآن بهذه الخدمة الودية فضل كبير للغاية» وهممتُ أن أطرح أسئلة مقابلة، غير أني كَبَتُّها، ووعدته، ببساطة، بالعمل تبعاً لرغبته، مؤكِّداً بأنني مسرور من أجله ومن أجلنا جميعاً، بهذا المشروع. وكنت كذلك بلاريب. وكنت قد سألت نفسي بجد كيف ينبغي تشجيع المقاصد التي عرّفني عليها، وتوجيه الأمور في مجراها السَلِس، وبدا لي أنه ليس مما يُنصَح به كثيراً أن يُترَك أمر الفرص التالية للقائه بالفتاة التي وقع اختياره عليها للحظ فحسب، إذ كانت الظروف لاتتيح لهذا مجالاً واسعاً على وجه الخصوص، وكان تدارك الأمور بالتحضير والتدبير، والمبادرة ضروريَّيْن. وهنا كان هذان، وكان صاحبهما شفيرتفيجر بالفعل، أو أن أدريان دفعهما نحوه لمجرد شعوره بالخجل من

دور المتيَّم المُغْرَم، الذي أخذ يفكر فجأة، وخلافاً لطبيعته، ومزاج حياته، بمجالس الأنس ورحلات التزلّج؟ لقد كان هذا يبدو لي بالفعل مما يقصِّر به عن شأو كرامته كثيراً، حتى لقد وَددْت لو أنه قال الحقيقة حين جعل عازف الكمنجة مسؤولاً عن الفكرة، الأمر الذي لم يكن في وسعي معه أن أكبت كل الكبت سؤالاً يقول: هل يهتم هذا الأفلاطوني الجني حقاً بهذا المشروع.

أأردُّ بأسئلة مقابلة؟ لم يكن لديّ في الحقيقة إلاّ سؤال واحد: وهو: إذا كان أدريان يرغب أن يدع ماري تعلم أنه يتوق الى رؤيتها، فلماذا لم يتجه مباشرة إليها، ولماذا لم يهتف إليها، بل لماذا لم يرتحل الى مونيخ، ويحادث السيدات، ويُدْلِ بإشارته. لم أكن أعرف في تلك الأيام أن المسألة هنا تتعلق بميل، أو فكرة، وبمعنى ما، بتمرين مسبق من أجل شيء لاحق، بميله الى أن يرسل الى الحبيبة – وهذا هو الاسم الذي لابدّ لي أن أسمّيها به – الى أن يدع امرءاً آخر يفضي بالكلمة إليها.

وفي البداية كنت أنا مَنْ أسَرَّ إليه بهذه الكلمة، وتخفَّفتُ من عبء مهمتي عن طيب خاطر، وفي تلك الأيام حدث أنني لقيت ماري في صديريّ العمل المسحوب فوق القميص الخارجي النسائي السكوتلندي الذي لاياقة له، والذي كان لائقاً بها للغاية. ووجدتها عند لوح رسمها، وكان لوحاً من الخشب غليظاً، منصوباً على نحو مائل، وقد ثُبِّت عليه مصباح كهربائي ببُزال، ونهضت عنه لتحيَّتي. وقعدنا معاً ما لايقل عن عشرين دقيقة في حجرة المعيشة الصغيرة المستأجرة الخاصة بالسيد تين، وأظهرت كلتاهما تقبلها الحاسم للاهتمام الذي أولاهما القوم إياه، ورحَّبَتا بحرارة بخطة النزهة التي لم أقل أنا عنها إلاّ أنني لستُ مَنْ

وَضَعها - بعد أن كان علي أن أُنَوِّه بأنني في طريقي الى صديقي ليڤركون، وقالتا إنهما ما كانتا لولا هذه الريادة الفروسية، لتتعرَّفا أبداً على شيء من نواحي مونيخ الشهيرة وما جاورها، من أرض الألب البافارية، وتمّ الاتفاق على يوم اللقاء وساعته، والانطلاق، وبات في وسعي أن آتيَ أدريان بنبأ يبعث على الرضى، وقدمت إليه تقريراً دقيقاً أدخلت في ثناياه ثناء على مظهر ماري الجميل في صديريّ العمل، وشكر لي بكلمة تفوَّه بها من دون سخرية - حسبما سمعتها، قائلاً: «أنظر، إن مما ينفع المرء أن يكون له أصدقاء يمكن الاعتماد عليهم».

وكان الخط الحديدي الى باسيونزدورف الذي يعد في شطره الأكبر هو ذاته كما يكون بعد كنيسة جارميش بارتن، ولايتفرع عنه إلاّ في النهاية، يفضي الى ڤالدسهوت وبفايفرينج. وكان مسكن أدريان في منتصف الطريق الى الهدف، وهكذا كنّا، نحن الآخرين فحسب، أي شفيرتفيجر، وشيلدكناب، والضيفتان الباريسيتان وزوجي وأنا، الذين التقينا في يوم محدّد، حوالي الساعة العاشرة، في القطار في محطة مونيخ الرئيسية. ومن دون الصديق، بصورة مؤقتة، قطعنا ساعة الرحلة الأولى عبر الأرض التي مازالت منبسطة، متجمِّدة، وقصَّر من طولها علينا إفطار من أرغفة مدهونة ونبيذ تيروليّ أحمر أعدته زوجتي هيلين، وأضحكنا معه اجتهاد شيلدكناب الذي كان يظهره لكيلا يقصِّر في حملنا على الضحك الكثير. وكان يقول: «لا تُقلِّوا من العطاء لكنابي!(*) (وهذا هو الاسم الذي كان يطلقه على نفسه بعد إضفاء الطابع الإنكليزي عليه، وبات يُسمى به على نطاق عام). وكان ولعه

(*) تجد الإشارة الى وجه النكتة هنا، وهو أن كلمة كنابْ في الألمانية تعني: قليل، أو ضئيل «المترجم».

الطبيعي، الذي لايخفيه، والذي يؤكده ممازحاً، بالمشاركة في الأكل، مضحكاً الى حد لايُقاوَم. وكان يقول وهو يتأوَّه: «آه، يالمذاقك الرائع!»، بينما كان يلوك شطيرة من اللسان، وعيناه تلتمعان، وكانت نكاته مع ذلك مخصصة تماماً وعلى نحو لاتخطئه الملاحظة، للآنسة جودو في المقام الأول، وهي التي أعجبته بالطبع مثلما أعجبتنا جميعاً. وكانت تتميَّز منا تميُّزاً تتفوق به الى أقصى الحدود بحلة شتوية كانت ترتديها بلون الزيت، مزيَّنة بشرائط بنية ضيقة من الفراء، وبمتابعة معينة لشعوري - وذلك ببساطة، لأنني كنت أعلم لمن سيكون الدور من بعدُ - كنت أُفْتَتَن مرة أخرى، ومرة بعدها، بالنظر الى عينيها السوداوين، في هذا البريق الفاحم كالزفت، والمُشْرِق بشراً مع هذا، وسط ظلمة أهدابها.

وحين صعد أدريان إلينا، تحييه بلغة المجون حاشية من أناس نشيطين، في ڤالدسهوت، انتابني فزع غريب، إذا صحّت هذه الكلمة في أحاسيسي، وعلى كل حال فقد كانت المسألة تمت الى الفزع بصلةٍ ما. وذلك أنني لم أعِ إلاّ الآن أن في القسم الذي كنا نشغله، أي في مجاله (وإن لم يكن قسماً منفصلاً، بل كان هو القسم المفتوح في مقطورة نافذة من الدرجة الثانية)، كانت العيون السود، والزرق، والعيون المتماثلة ذاتها، التي تنمّ عن الجاذبية واللامبالاة، وعن الانفعال والرزانة، يجتمعن تحت ناظريه وأنهن سيظْلَلْن معاً خلال كل هذا اليوم من أيام النزهة، الذي كان مرصوداً لها بمعنى ما، لهذه الكوكبة، وربما كان عليه أن يقف فيه، بحيث يدرك المطّلع الخبير فيها فكرة النهار الحقيقية.

واتفق بالطبع، وعلى نحو صحيح، أن المنظر الطبيعي أخذ، بعد مجيء أدريان، يتميَّز في الخارج بما هو أكثر أهمية، وبات يطل علينا،

على البعد، عالم الجبال الذي كانت تتساقط عليه الثلوج. وقد تفوّق شيلدكناب حين عرف كيف يسمى هذا الجدار الجبلي وذاك باسمه، كما كان الناس يميِّزونه. ولايوجد في جبال الألب الباڤارية جبال عملاقة من المرتبة العظيمة، بين مرتفعاتها. ولكن كان هناك، بلاريب، في ثياب الثلج الخالصة. أُبَّهة شتائية، تبني نفسها جريئة وجادّة، تتعاقب بين هُوَّة الغابة والمدى الفسيح، وكنا ننطلق موغلين فيها، وبذلك كان النهار قد تمَّت تغطيته، وكان يميل الى مواصلة إسقاط الثلوج الصقيعي، ولم يكن يفترض أن يصفو إلاّ عند المساء. ومع ذلك فقد كان انتباهنا يتجه على الأغلب نحو الصور في الخارج، حتى أثناء الحديث الذي كان يتم توجيهه من قبل ماري نحو ما شهده القوم في زوريخ معاً، والأمسية في قاعة الموسيقا، وحفلة الكمان الموسيقية. وكنت أرقب أدريان في حديثه، وكان قد اتخذ مجلسه قبالتها، إذ كانت تقعد بين شيلدكناب وشفيرتفيجر، بينما كانت العمة الضئيلة تكرِّس نفسها لي ولهيلين في ثرثرة تنمّ عن طيب القلب. وكنت أستطيع أن أرى بوضوح كيف كان يترتَّب عليه أن يُحاذر من الخروج على تحفُّظه وتكتُّمه عند النظر الى وجهها وعينيها. وكان رودولف ينظر بعينيه الزرقاوين الى هذا الاستغراق، والتفكُّر، والإعراض. أوَلم يكن مما ينطوي على شيء من العزاء والتعويض أن أدريان امتدح عازف الكمنجة بتوكيد وإلحاح بالغين؟ ولما كانت قد امتنعت عن الحكم على الموسيقا في تواضع فقد اقتصر الحديث على العرض، وصرَّح أدريان مؤكِّداً أن وجود العازف المنفرد لايجوز أن يحول بينه وبين أن يعدَّ عزفه فائق البراعة، مكتملاً، وببساطة: شيئاً لايمكن أن يفوقه شيء، وعقَّب على ذلك بكلمات ثناء على تطور رودي الفنيّ بوجه

عام، ومستقبله الذي لاشك في أنه كبير.

وبدا أن المحتفى به لايستطيع أن يسمع هذا، وصاح قائلاً: «كلاّ، كلاّ، ينبغي لك أن تمسك عن هذا» مؤكّداً أن الأستاذ يبالغ مبالغة مفزعة، غير أنه كان قد أحمر وجهه من الرضى والحبور. وما من شك في أنه كان يروق له أن يتم إبرازه بهذه الصورة أمام ماري، غير أن سروره بأن هذا خرج من هذا الفم كان أيضاً سروراً لاتخطئه الملاحظة، وتجلّى امتنانه في الإعجاب بطريقة أدريان في التعبير. وكانت الآنسة جودو قد سمعت وقرأت عن العرض المتقطّع لأجزاء من «رؤيا نهاية العالم»، وسألت عن هذا العمل، فأعرض أدريان عن ذلك.

قال: دعينا من الحديث عن هذه الخطايا التي تنمّ عن الورع!»

وكان رودي متحمساً لذلك.

وقال يكرر ذلك مهلّلاً: «خطايا تنمّ عن الورع! هل سمعتِ هذا؟ أرأيتِ كيف يتحدث! وكيف يعرف كيف يستخدمها! إنه رائع، أستاذنا هذا!».

وضغط في أثناء ذلك على ركبة أدريان، كما كانت طريقته، وكان من أولئك البشر الذين لابدّ لهم، أبداً من الإمساك باليد، واللمس، والجَسّ، للعضد، والذراع، والكتف، بل كان يفعل ذلك معي، وحتى مع النساء اللواتي لايكون ذلك مما لايسرهن.

وقامت مجموعتنا الصغيرة، في أوبر آمَّرْجاو بنزهة في طول الأرض وعرضها، خلال المكان المعتنى به، بما فيه من منازل الفلاحين المثالية، الغنيّة بزخارف النقوش في قمم الأسقف، والشرفات وكنائس الرسل، والسيد المسيح وأمه العذراء. وانفصلتُ عن الأصدقاء بصورة عابرة،

بينما كانوا مازالوا يرتقون جبل كالڤاريا القريب، لكي أزور محلاً لعربات الحمولة كنت أعرفه، وأطلب زحافة للتزلّج، ولقيت الآخرين الستة من جديد عند الغداء في مطعم كان فيه أرضية زجاجية للرقص تحفُّ بها المناضد، تضاء من الأسفل، ويفترض أنها تغدو، أثناء الموسم، في أيام الألعاب، ملتقى للغرباء يُغَصُّ بهم، أما الآن، فكان من دواعي سرورنا أنه كان أقرب الى أن يكون خالياً: إذ لم يكن قد تبقى فيه سوى مجموعتين، باستثنائنا، يتناولون الطعام عند أرضية الرقص على مائدتين منتصبتين بعيداً، سيد يبدو أنه يعاني من ألم مع القائمة على رعايته، في زيِّ الممرضة، على إحداهما، ورهط من ممارسي الرياضة الشتوية على الأخرى. وكانت فرقة موسيقية صغيرة، مؤلفة من خمسة رجال تعزف للرُوّاد مقطوعات موسيقى الصالون، وكان الفنانون يخلدون الى الهدوء في وقفات طويلة لم تكن تضير أحداً، وكان مايقدمونه يتسم بالغباء، وكانوا يقدمونه أيضاً بصورة مشلولة ورديئة، حتى إن رودي شفيرتفيجر ماعاد يطيق ذلك بعد الدجاج المشويّ، وقرَّر أن يكشف عما في نفسه، بمعنى الكلمة، فانتزع من عازف الكمنجة كمنجته، وجعل يرتجل عليها، بعد أن أدارها في يده قليلاً، وقررً أصلها، بعد ذلك، بشهامة بالغة. إذ أدخل في ذلك بعض المختارات من قفلة حفلته الموسيقية. وكانت أفواه الفرقة الموسيقية فاغرة. أمّا عازف البيانو، وهو فتى متعبَ العينين لاشك في أنه كان يحلم بشيء أعلى من مهنته هنا، فسأله بعد ذلك هل يستطيع أن يواكب «الحكاية الهزلية» لدڤوراك، وعزف على آلة الفيدل المعتدلة أعذب المقطوعات قاطبة، بما فيها من ألوان الزخرف الكثيرة، والانزلاقات المستعذبة، والاختيارات المزدوجة

التزويقية، بجسارة وتألُّق بلغ منهما أنه حظي بقدر من الاستحسان من كلٍّ من كان في المطعم، مِنّا، ومن الموائد المجاورة، ومن الموسيقيين المذهولين، وحتى من كلا النادلين.

وكان ذلك في الأساس نكتة متفقاً عليها كما أَسَرَّ إليّ شيلدكناب أيضاً هامساً بدافع الغيرة، ولكنه كان دراميًا وجذّاباً بلاريب، وجملة القول أنه كان ظريفاً، بأسلوب رودي شفيرتفيجر تماماً. ولبثنا وقتاً أطول مما كنا نفكر، وبتنا آخر الأمر وحدنا تماماً، قد خَلَوْنا الى قهوتنا، وخمر الجنتيان، بل أدّينا رقصة صغيرة على اللوح الزجاجي: فكان شيلدكناب وشفيرتفيجر يتناوبان مع الآنسة جودو ومع زوجتي الطيبة أيضاً، بموجب طقس لايعلمه إلاّ الله، على هذا اللوح، تحت الأنظار المنطوية على حسن النية من قبل ثلاثة من الممتنعين. وفي الخارج كانت تنتظرنا الزَلاّقة، وهي زحّافة فسيحة يجرُّها حيوانان، مجهزة بأغطية من الفراء على نحو جيد، ولما كنت قد اخترت المكان الى جانب الحوذيّ، وكشف شيلدكناب عن مشروعه الخاص بالخروج على الزلاّجات (وكان الحوذي قد جاء معه ببعضٍ منها، فقد دخل الآخرون، خمستهم، من دون أن يزعجهم مزعج، في داخل المركبة، وكان هذا أَحْفَل أجزاء برنامج اليوم التي تمّ التخطيط لها، بالسعادة، إذا غَضَّ المرء النظر عن أن روديجر تبين له فيما بعد إن فكرته الجريئة كانت سيئة، إذ جَرَّ على نفسه، وهو يقف في مهبّ الريح الجليدية، تتقاذفه النجود والوهاد، وتكسوه ندف الثلج، بَرْداً في بطنه، ونزلة معوية ذهبت بقواه، وألزمته الفراش أياماً، ومع ذلك فقد كانت هذه تعاسة لم تتكشّف إلاّ فيما بعد، ومثلما أوثر، أنا شخصياً، الانطلاق بأعواد التزلج مع التدثُّر الدافئ، مع إيقاع الأجراس الخافت، عبر الهواء

الصقيعي النقي الشديد، كان يبدو أن القوم يستمتعون جميعاً بهذا الوضع، وحين علمت أن وراء ظهري أدريان يواجه بعينيه عيني ماري أحدث ذلك لديَّ خفقان قلب أثاره الفضول، والسرور والقلق والرغائب المستكنة في سريرة النفس.

ويقع قصر ليندَرْهوف، وهو قصر لودفيج الثاني، الصغير، من طراز عصر الروكوكو، في عزلة بين الغابة والجبل ذات جمال رائع. وما كان النفور الملكي من الناس ليجد ملاذاً أكثر أسطورية من هذا. ومن الطبيعي، مع كل الأريحية، أو المزاج الحسن اللذين يمكن أن يحدثهما سحر المكان، أن يكون الذوق الذي انطبع به الولع بالبناء الذي لايقرّ له قرار عند ذلك الهارب من العالم - هذا التعبير عن نزوعه الى تمجيد مملكته - إنما يمثل، مرة أخرى، حَرَجاً أيضاً. وتوقفنا، وذهبنا من جديد بقيادة نُظّار القصر، خلال الحجرات ذات الأُبَّهة التي كانت تشكِّل «حجرات المعيشة» في المنزل الذي صاغه الخيال، حيث كان مريض النفس ينفق أيامه التي لم يكن يملؤها سوى فكرة جلاله، وكان يدع بيلوف يعزف له، ويصغي الى صوت كايزن الخلاب. وكان من المألوف أن تكون أكبر الحجرات في قصور الأمراء قاعة العرش. أمّا هنا فلا توجد مثل هذه القاعة، بل يوجد، بدلاً منها حجرة النوم التي كانت أبعادها هائلة بالقياس الى ضآلة فترات الإقامة في النهار، وكان سريرها الاستعراضي المنصوب على نحو احتفالي يبدو قصيراً من جراء عرضه المبالغ فيه، وكأنه نعش قامت على حراسته شمعدانات من الذهب.

وباهتمام مخلص، ونحن نهز برؤوسنا هزة لانخفيها، أحطنا بأبصارنا بكل شيء، ثم استأنفنا، مع انقشاع السحب، رحلتنا الى

إيتّال، التي كانت تتمتع من جراء ديرها البنيديكتينيّ وكنيستها العائدة إليه، من عصر الباروك، بسمعة طيبة في فن العمارة. وأذكر أن الحديث أثناء استئناف الرحلة، ثم في الفندق المواجه للأماكن الدينية على نحو منحرف، والمعتنى بنظافته، حيث تناولنا طعام الغداء، كان يدور دائماً حول شخص الملك «الشقيّ»، كما يقولون (ولماذا كان شقياً في الحقيقة) الذي تعرَّضنا لشيء من الاحتكاك بجوّ حياته الغريب. على أن المناقشة لم يقطعها إلاّ مشاهدة الكنيسة، وكانت في جوهرها مناقشة حادة بيني وبين رودي شفيرتفيجر حول مايسمى بالجنون، وعجز الحكومة، والخلع عن العرش، وإعلان لودفيج قاصراً، وكان من بواعث الدهشة البالغة عند رودي أنني رأيت هذا كله ليس له مايبرره، وعدَدْتُه من قبيل ضيق الأفق الفظ، كما عددته آخر الأمر عملاً من أعمال السياسة والمصالح المتعلقة بخلافة العرش.

وذلك أن ذاك كان يتخذ وجهة النظر التي لم تكن شعبية بمقدار ماكانت بورجوازية ورسمية، والقائلة إن الملك كان «مجنوناً كل الجنون»، كما عبَّر عن ذلك، وأن إسلامه الى أطباء النفس ورعاة المجانين، وتعيين حكومة من الأوصياء سليمة من الناحية العقلية كان ضرورة مطلقة من أجل البلاد، - ولم يكن يدرك على الإطلاق كيف يمكن أن يكون هناك تناقض في المسألة على وجه الإطلاق. ومثلما كانت عادته في أمثال هذه الحالات، أي عندما تكون وجهة نظر معينة جديدة عليه كل الجدَّة، كان يركِّز عينيه الزرقاوين، في عيني اليمني وعيني اليسرى، على التناوب، مع انفتاح شفتيه في استياء وغيظ، بينما كنت أتكلم. ولابدّ لي أن أقول إن الموضوع جعلني بليغاً على الرغم من أنه لم يكد يشغلني حتى

الآن. ووجدت مع ذلك أنني كنت قد كوَّنت في ذلك رأياً حاسماً، إذ كنت أناقش قائلاً إن الجنون مفهوم كثير التذبذب حقاً يستعمله المحدود الأفق استعمالاً موافقاً لهواه الى حد بعيد، تبعاً لمقاييس مشكوك فيها. ففي وقت مبكر للغاية، وفي موقع ملتصق به هو تماماً وبمجتمعه، وضع مثل هذا حدَّ السلوك العقلاني. وما يخرج على هذا الحد فهو مجنون. غير أن صيغة الحياة الملكية، من حيث ماتتميز به من السيادة، وما يحيط بها من الخضوع والولاء، والنقد والمسؤولية، متحررة من هذه القيود الى حد بعيد، وهي تتوصل في صدد تكريس مكانتها الى أسلوب يمتنع حتى على أغنى الناس العاديين، وتتيح لميول أصحابها الخيالية، وحاجاتهم العصبية، ومنكراتهم وأهوائهم المدهشة، ورغائبهم مجالاً للعبث من السهل جداً أن يفضي استغلاله الكامل والمتعجرف الى ناحية الجنون. وأيُّ واحد من الفنانين يتاح له أن ينشئ لنفسه مرابع للعزلة ذهبية في نقاط منتقاة من روائع المناظر الطبيعية، مثلما فعل لودفيج؟ وقلت إن هذه القصور معالم الوَجَل الملكي من البشر، بلاريب. ولكن إذا كان لايكاد يباح، في حالة الصفات المتوسطة في نوعنا البشري، أن يؤخذ الهرب من البشر بوجه عام على أنه عَرَض من أعراض الجنون، - فلماذا يفترض أن تعد هذه الإباحة موجودة على وجه الخصوص عندما يمكن أن يتجلّى هذا الوجل في أشكال ملكية؟

ولكن ستة من أطباء الجنون المختصين الذين يُعتَمَد عليهم كانوا قد قرَّروا جنون الملك الكامل وأن اعتقاله ضروري!.

لقد كان هؤلاء العلماء المطاوعون خليقين أن يفعلوا ذلك لأنهم دُعوا إليه، وكانوا خليقين أن يفعلوه من دون أن يروْا لودفيج في أي يوم من

الأيام، ومن دون أن «يفحصوه» تبعاً لطرائقهم، ومن دون أن يكونوا تحدثوا إليه بكلمة واحدة. وما من شك في أن حديثاً معه حول الموسيقا والشعر كان خليقاً أن يقنع هؤلاء المحدودي الأفق بجنونه. وبالاستناد الى كلمتهم سحب القوم من هذا الذي خرج عن المعيار بلاريب، ولكنه مازال غير مجنون على الإطلاق، إمكانية التصرف في نفسه، ونزلوا به الى مستوى المريض النفسيّ، واحتجزوه في قصر في البحيرة له مزاليج نُزعت بُزالاتها، ونوافذ مسوَّرة. على أنّ عدم احتماله لهذا، والتماسه الحرية أو الموت، وأنّه جرَّ الى الموت معه مدير سجنه الطبي، شاهد على إحساسه بالكرامة، لا على صحة تشخيصه بأنه مجنون، كما لايشهد بذلك أيضاً سلوك أهل محيطه الذي تعلّقوا به الى درجة الاستعداد للقتال، كما يشهد بذلك أيضاً الحب الحماسيّ من قبل أهل الريف لملكهم «كيني». وقد كان هؤلاء الفلاحون خليقين، إذا مارأوه في الليل وحده تماماً، متدثراً في فرائه، على ضوء المشاعل، على عودَيْ التزلُّج الذهبيَّيْن، مع طلائع الفرسان، ينطلق خلال جباله، ألاّ يروه مجنوناً بل يَرَوْا فيه ملكاً كما تتصوره قلوبهم الحالمة، ولو وُفِّق الى العَوْم فوق البحيرة، كما كان ينتوي على مايبدو، لكانوا خليقين أن يدافعوا عنه في الجهة المقابلة بشوكات التبن ومدقّات الدراسة ضد الطب والسياسة.

غير أن ولعه بالتبذير ولع مرضي على نحو مفروغ منه، وكان قد عاد شيئاً لايحتمل بعد، وكان عدم مقدرته على الحكم قد نجم، ببساطة عن تأفُّفه من الحكم: فبات يحلم بالحكم مجرد حلم بعد، غير أنه رفض ممارسته بموجب معايير معقولة، ولايمكن لدولة أن تعيش بذلك.

ويلاه، كل شيء عبث، يارودولف، فرئيس الوزراء ذو التكوين

الطبيعي يستطيع وحده أن يحكم دولة اتحادية حديثة، وإن كان الملك مفرطاً في الحساسية الى حد يحول دون أن يحتمل وجهه ووجوه زملائه. وما كان إقليم باڤاريا لينهار، حتى ولو واصل القوم ترك لودفيج وشأنه فيما يتعلق بغرامياته، والولع بالتبذير عند الملك لايفيد شيئاً على الإطلاق، بل هو مجرد عبارة دارجة، وخداع، وذريعة. وذلك أن المال ظل في البلد. ولقد أثرى أهل تقطيع الحجر والمُذَهِّبون من تقطيع الحجر ومن التذهيب. وفوق هذا فإن القصور خليقة أن تكون عوّضت تكاليفها عن طريق رسوم الدخول التي يمكن للمرء أن ينتزعها لقاء مشاهدتها، منذ عهد طويل، مرات ومرات، من جراء الفضول الرومانسيّ الذي يكون بين عالمين. ولقد كنا نحن أنفسنا خليقين اليوم أن نسهم في تحويل الجنون الى عمل طيب...

وصحت قائلاً: «أنا لا أفهمك، يارودولف، وهذا فمك ينتفخ من الدهشة لدفاعي، غير أنني أنا الذي يحق له أن يتولاه العجب منك، وألاّ يفهم، كيف أنك، أنت على وجه الخصوص... وأقصد بحكم كونك فناناً، وباختصار، أنت على وجه الخصوص...» وطفقت أبحث عن كلمات تعبِّر عمّا يوجب عليَّ أن أتعجَّب منه، ولكن لم أعثر على كلمة، غير أن الأمور كانت تختلّط عليّ أيضاً من أجل ذلك، إذ كنت أشعر طوال هذا الوقت أنه ليس من حقي أن أمسك بزمام الحديث على هذا النحو في حضور أدريان. وقد كان خليقاً أن يتحدث، - ولكن كان من الأفضل بلاريب أن أفعل ذلك، إذ كان يعذبني القلق من احتمال أن يكون على استعداد لأن يجعل الحق الى جانب شفيرتفيجر، ولم يكن لي بدّ أن أحتاط لذلك، بأن أتحدث، بدلاً منه، من أجله، وبروحه الحقيقي، وكان

يبدو أيضاً أن ماري جودو كانت تفهم دخولي في المناقشة على هذا النحو، وكانت تنظر إليّ، أنا الذي أرسلني إليها من أجل هذا اليوم، على أنني الناطق بلسانه، لأنها كانت ترسل بصرها إليه وأنا أجتهد في المناقشة، أكثر مما كانت ترسله إليّ - وذلك على وجه الخصوص، كأنها كانت تصغي إليه، ولاتصغي إليَّ، أنا الذي كانت ملامح وجهه تتهكّم على حماستي وحُمَيّاي على نحو متواصل، مع اقتران ذلك بابتسامة غامضة كانت بعيدة عن أن تكون مؤكِّدة لنيابتي عنه بالضرورة.

وقال آخر الأمر: «ماالحقيقة»، وسرعان مااستصوب كلامه روديجر شيلدكناب، إذ ادَّعى أن الحقيقة لها جوانب مختلفة، وأن الجانب الطبي - الطبيعي في حالة كهذه قد لايكون هو الأعلى في الحقيقة، ولكن لايمكن بلاريب أن يرفض على أنه غير ذي قيمة على الإطلاق. وأضاف قائلاً، إن مما يلفت النظر في النظرة الطبيعية الى الحقيقة أن يتحدّ المتبذل مع السَوْداوي، الأمر الذي لايُقْصَد به أن يكون هجوماً على «صاحبنا رودولف»، الذي لايعدّ سوداوياً على أية حال ولكنه يمكن أن يُعدَّ سمة مميِّزة لحقبة بأكملها، حقبة القرن التاسع عشر الذي كان يتميَّز بوجود ميل حاسم فيه الى الانقباض من المبتذل. وأطلق أدريان ضحكة مجلجلة، لامن جراء المفاجأة، بالطبع. وكان يخالج المرءَ في حضوره على الدوام الشعور بأن كل الأفكار ووجهات النظر التي ارتفع صوتها حوله، كان متجمِّعة فيه، وأنه، إذ يصغي إصغاء ساخراً، ترك لكل حالة من الحالات البشرية على حدَة، مسألة الإعراب عنها وتمثيلها، وكان يتمّ الإعراب عن الأمل في أن يولِّد القرن العشرون في صباه مزاجاً من أمزجة الحياة يتسم بفكر أكثر بشاشة وإشراقاً. وفي مناقشات متقطعة لمسألة هل يوجد

علائم على ذلك أم لا ، انقسم محور الحديث، وانتابه الكلل، وكانت عواقب الإرهاق قد ظهرت بعد كل هذه المسافات التي قطعناها في هواء الجبال الشتوي مصحوبة بالهمة والنشاط، كما أن جدول مواعيد السفر أدلى بكلمته، فنادى القوم الحوذي، وانتهت بنا الزلاّقة، تحت سماء أشرقت نجومها متألقة، الى المحطة الصغيرة التي انتظر قطار مونيخ على سُلّمها الخارجي.

ومضت رحلة العودة بما هو أقرب الى السكون، لمجرد مراعاة العمة الضئيلة التي داهمها النعاس، وكان شيلدكناب يحادث ابنة أخيها بصوت مكتوم. وتأكدّت في الحديث مع شفيرتفيجر من أنه لم يحمل شيئاً على محمل السوء، وكان أدريان يسأل هيلين عن أمور الحياة اليومية. وخلافاً لكل التوقُّعات، لم يغادرنا في ڤالدسهوت، وأبى إلاّ أن يصحب ضيوفنا من السيدات الباريسيات وكان قطار الساعة الحادية عشرة المعتاد هو الذي حمله عائداً به الى مُعْتَزَله المتواضع، حيث أفهم بقدومه، وهو بعدُ، على البعد، بالصفارة الصغيرة ذات الصوت الفائق الارتفاع، كلبه الشارد المتسكّع كاشبرل – سوسو.



(٤١)

أيْ قرّائي وأصدقائي المهتمين - ها أنذا أواصل الحديث . وها هو ذا الهلاك ينهال بضرباته على ألمانيا، وفي أنقاض مدننا تسكن الجرذان التي سَمِنَت من الجثث، ورعد المدفعية الروسية يزحف على برلين، أما عبور الراين من قبل الأنجلوساكسون فكان لعبة أطفال. وإرادتنا الخاصة التي تتحد مع إرادة العدو، يبدو أنها هي التي دفعته الى ذلك، والنهاية آتية، الآن تأتي النهاية. لقد بزغت وتجلت، وها هي ذي تتفجَّر من ثمّ فوق رأسك، ياساكن البلد. غير أني أواصل حديثي، عمّا حدث بعد يومين فحسب من النزهة التي وصفت، والتي هي جديرة بالذكر عندي، بين أدريان ورودولف شفيرتفيجر، وكيف حدث. وإني لأعلمه وإن اعترض امرؤٌ عشر مرات بأنني لايمكن أن أكون عالماً به، إذ لم أشهده. كلاّ، أنا لم أكن حاضراً فيه، غير أن من حقائق الروح اليوم أنني كنت حاضراً، لأن من عاش قصة، ثم عاناها من جديد، كما عشت هذه هنا، جعلت منه علاقته الحميمة الرهيبة شاهداً بأم عينيه، وبأمّ أذنه، حتى على أطوارها الخفيّة.

لقد التمس أدريان من رفيق رحلته الهنغاري بالهاتف المجيء إليه في بفايفرينج، ورجا منه أن يأتي بأسرع مايستطيع لأن المسألة التي يترتَّب عليه الحديث معه فيها، مسألة ملحة. وكان رودولف يأتي على

الفور دائماً. وكان الاتصال الهاتفي في الساعة العاشرة صباحاً، خلال فترة عمل أدريان، وهي واقعة خصوصية في حد ذاتها، - ومنذ الساعة الرابعة من بعد الظهر كان عازف الكمنجة قد حضر، وكان عليه فوق ذلك أن يعزف في المساء في حفلة بالاشتراكات لأوركسترا تسابفنشتوسر، وهو الأمر الذي لم يكن أدريان يفكر فيه.

وقال رودولف يسأله: «لقد استدعيتني، فما وراءك؟».

ورد أدريان قائلاً: «آه، حالاً، لقد حضرت، وتلك هي المسألة الرئيسية، قبل كل شيء، وإنه ليسرني أن أراك، وإنه لسرور أكثر مما تعودت. فلتحتفظ بهذا في ذاكراتك!».

وردّ رودولف قائلاً بلفتة جميلة على نحو مفاجئ: «سوف يكون لما لديك مما تقوله لي، خلفية من ذهب».

واقترح أدريان نزهة، قائلاً إن الحديث يغدو أفضل في المسير، ووافق شفيرتفيجر بسرور، غير أنه أسف على أنه لم يكن لديه الكثير من الوقت، إذ كان عليه أن يكون في المحطة من جديد من أجل قطار الساعة السادسة لكيلا يُفَوِّت وقت عمله، وضرب أدريان على جبهته بيده، ورجا منه الصفح عن شروده، قائلاً إنه ربما وجد ذاك شروده مفهوماً بعد الاستماع إليه.

وكان قد جاء طقس ذوبان الثلوج، وكان الثلج يَنزُّ وينضح بالماء حيث كان قد جُرِف جانباً، وأخذت الطرق تغدو سلسة. وكان الأصدقاءَ ينتعلون أحذية خارجية، ولم يكن رودلف قد خلع سترته القصيرة المصنوعة من الفراء، ولا ارتدى أدريان معطفه المحزوم بالحزام، من شعر الجمل، وذهبا الى بركة كلامَر، وسارا على ضفتها، وسأل أدريان عن

برنامج اليوم. أكان، مرة أخرى، مقطوعة برامز «الأولى»، مقطوعة المقاومة؟ مرة أخرى على أنها «السنفونية العاشرة»؟ الآن فَلْتقرَّ عيناً، ففي الأداجيو توجد أمامك ألوان من الأشياء المنطوية على المجاملات والزلفى يترتَّب أن تقولها»، ثم حدثه أنه حين كان غلاماً، على البيانو، وقبل وقت طويل من اطلاعه على شيء من برامز، ابتدع موضوعاً يكاد يتطابق مع موضوع البوق الرومانسي العالي في الفصل الأخير، والحق أن ذلك كان من دون الحيلة الإيقاعية، مع الثُمن المنقوط بعد الواحد على ستة عشر، غير أنه كان بالروح ذاتها من حيث اللحن.

وقال شفيرتفيجر: «هذا مثير للاهتمام، وممتع».

والآن، ماالقولُ في نزهة يوم السبت؟ وهل تسلّى ذاك، وهل يظن بالمشاركين الآخرين الظنَّ ذاته.

وقال رودولف: «ماكان من الممكن أن تسير الأمور على أحسن من هذا» وقال إنه على يقين أن رهطه يحفظون جميعاً ذكرى لهذا اليوم مفعمة بالسرور، باستثناء شيلدكناب، بلاريب، إذ حمَّل هذا نفسه فوق طاقتها، وهو يرقد مريضاً. ويظل أبداً مفرطاً في الطموح في مجتمع النساء». فإنه، أي رودولف، ليس لديه سبب ليرثي له، إذ كان روديجر مفرطاً في التطاول عليه.

«إنه يعرف أن لك دراية بالمزاح».

«وهذا هو حالي أيضاً، ولكن ما كان في حاجة الى أن يداعبني بعدُ مثل هذه المداعبة حيث كان سيرينوس قد غطّاني بولاء كولاء الرعية للملك».

«هذا معلّم، ولابدّ للمرء أن يدعه يعلّم ويلقّن، ويصحّح».

«أما بالحبر الأحمر فنعم. وفي اللحظة الراهنة بات كلا الأمرين عندي سيّان، الى أقصى الحدود، - حيث أنا هنا، وأنت لديك ماتقوله لي».

«صحيح تماماً. ومادمنا نتحدث عن النزهة، فقد دخلنا في الموضوع في الحقيقة، وهو موضوع قد أكون فيه مديناً لك بفضل كبير عليَّ».

«مديناً لي؟ وبماذا؟»

«قل، ماهو رأيك في ماري جودو؟»

«الآنسة جودو؟ لابدّ أن تحظى بإعجاب كل امرئ! وما من شك في أنها تعجبك أنت أيضاً؟»

«الإعجاب ليس بالكلمة الصحيحة تماماً. أريد أن أعترف لك بأنها تشغلني على نحو جدّي، وأنه يصعب عليَّ أن أفهم اللقاء بها على أنه مجرد حكاية، وأن فكرة تركها تنسحب في المرة التالية، من جديد، واحتمال ألاّ أراها بعد ذلك أبداً، هي فكرة يصعب احتمالها، وإني ليخيّل إليّ أنني أودّ أن أظل أراها دائماً. وأن تكون حواليّ دائماً، ولابدّ لي من ذلك»

وظل شفيرتفيجر واقفاً ينظر الى من كان يتحدث بهذا الحديث، في عينه الأولى أولاً، ثم في عينه الأخرى.

وقال وهو يطرق برأسه، ويستأنف المسير من جديد: «أوَحقاً؟»

وقال أدريان موكِّداً: «إنه كذلك، وإني لعلى يقين، أنت لاتستاء مني للثقة التي أهبها لك، على أن هذه الثقة إنما تكمن في أنني أعدُّ نفسي في مَأمْن»

وغمغم رودولف قائلاً: «فلتكن في مأمن!»

وقال أدريان من جديد: «انظر الى كل شيء بعين الإنسانية! لقد تقدمت بي السن أخيراً! وبلغت الأربعين آخر الأمر. هل يمكنك أن تتمنّى لي، وأنت الصديق، أن أنفق بقية حياتي في هذه الصومعة؟ أقول: أنظر إليَّ إنساناً يمكن أن يَعْرُضَ له أن يرغب، حين ينتابه خوف معيَّن من فَوْتِ القطار، أو فوات الأوان، في بيت أكثر دفئاً، وجوار رفيقة حياة مناسبة بأكمل معاني هذه الكلمة، وباختصار، في جو حياة أكثر رقة وإنسانية، - لا من أجل الراحة فحسب، أي من أجل فراش أكثر ليونة، بل، قبل كل شيء أيضاً، لأنه يمنّي نفسه، مقابل حبه لعمله وطاقة العمل عنده، والمضمون الإنساني لعمله المستقبلي، بما هو طيّب وعظيم».

ولبث شفيرتفيجر صامتاً خلال بضع خطوات، ثم أفصح عما في نفسه في اكتئاب:

«لقد قلت الآن أربع مرات: إنسان»، و «إنساني»، ولقد كنت أعدُّهُن. الصراحة في مقابل الصراحة: إن ثمة شيئاً يتقبَّض في نفسي عندما تستخدم هذه الكلمة، تستخدمها في صدد نفسك، إنها تتميَّز بكونها غير ملائمة الى حد لايُصدَّق، بل وباعث للشعور بالعار، إذ تخرج من فمك، وأرجو المعذرة إذ أقول ذلك! أوَ كانت موسيقاك مجانبة للإنسانية حتى الآن؟ إذاً فهي تدين بعظمتها في النهاية للاإنسانيَّتها، ولتغفر لي هذه الملاحظة الساذجة! فأنا لاأحبّ أن أسمع منك عملاً يستلهم نزعة إنسانية»

«لاتريد؟ أتُراك لاتريد هذا على الإطلاق، أبداً؟ وقد عزفت حتى الآن ثلاث مرات واحداً منها أمام الناس وتركتها تُهدى إليك؟ أنا أعلم أنك لاتهدف إلى أن تدلي إليَّ بألوان من القسوة، ولكن أفلا تجد أن من

القسوة أن تدعني أعلم أنني لست ما أنا عليه إلاّ بسبب اللا إنسانية، وأن الإنسانية شيء لستُ أهلاً له؟ قاسٍ، وشارد العقل، - مثلما تنجم القسوة دائماً عن شرود العقل؟ أمّا أنني امرؤٌ لا أمتُّ بسبب الى الإنسانية ولايجوز لي أن أمتَّ لها بسبب، فذلك مايقوله لي من أدخلني في المعسكر الإنساني بصبر يبعث على الدهشة، ونقلني الى عالم الأخوة والبساطة، ذلك الذي وجدت لديه أول مرة في حياتي دفئاً إنسانياً»

«يبدو أن هذا كان علاجاً مؤقتاً، عابراً»

«وماذا إذا كان كذلك؟ إذا كان تمرُّساً بالإنساني، وكان يتعلق بمرحلة تمهيدية له، لاتفقد شيئاً من قيمته الخاصة من جراء كونها مرحلة تمهيدية؟ لقد كان في حياتي امرؤٌ يكاد المرء يقول إن صبره واحتماله الحازمين تغلبا على الموت، وقد حرَّر الجانب الإنساني عندي، ولقَّنني مبادئ السعادة، وقد لايطَّلع المرء على شيء من ذلك، أو لايكتبه في سيرة من السير، ولكن هل ينتقص هذا شيئاً من فضله، أو ينال من الشرف الذي يستحقه فيما بينه وبين نفسه؟».

«أنت تعرف كيف توجه الأمور لصالحي بأسلوب بالغ التزلُّف»

«أنا لا أوجهها، بل أصفها كما هي!»

«ولكن الحديث ليس عني في الحقيقة، بل عن ماري جودو، ولكي تراها دائماً، وتكون حواليك دائماً، كما تقول، لابدَّ لك أن تتخذها زوجة».

«هذه هي رغبتي، وذلك أملي»

«ربّاه! وهل اطلعت على أفكارك؟»

«أخشى ألاّ تكون مطّلعة عليها، وأخشى ألاّ تتوافر لديّ وسائل

التعبير للإفضاء إليها بمشاعري ورغباتي، ولاسيما في حضور آخرين، إذ أستحيي الى حد ما من تمثيل دور خاطب الودّ، والشرقيّ الغيور».

«ولماذا لاتزورها؟»

«لأنني أكره أن أباغتها على نحو مباشر باعترافاتي وعرض الزواج الذي لاتخطئ أدنى خطأ في تقديره، بفضل ارتباكي، على الأرجح. وأنا مازلت في عينيها، ببساطة، الوحيد، الذي يثير الاهتمام، وأخشى اضطرابها وخروجها عن طورها، والجواب الرافض، الذي ربما كان متهوِّراً، والذي يمكن أن ينجم عن ذلك».

«لماذا لاتكتب إليها؟»

«لأنني أَحْسَبُ أنني خليق أن أزيدها بذلك حرجاً، فلو فعلتُ لكان لابدَّ لها أن تجيب ولست أدري أهي من ربّات القلم، وأي مشقة كانت خليقة أن تتجشّمها لتراعي شعوري إذا لم يكن لها بدٌّ أن تقول لا! وكم سيكون مقدار إيلام مراعاتها المنطوية على تكلُّف الجهد! على أنني أخشى أيضاً ما في مثل هذا التبادل للرسائل من التجريد، فقد يغدو خطراً على سعادتي، كما يخطر ببالي، وليس مما يسرني أن أتصوَّر ماري، وحيدة، تتولى أمور نفسها بنفسها، لاتؤثر فيها انطباعات شخصية، بل أوشك أن أقول: وسائل الضغط الشخصية -، كما أنني أتهيَّب من الطريق البريدي أيضاً».

«فأي طريق ترى إذاً؟»

«لقد قلت لك إن في وسعك أن تبعث لدي الارتياح الى حد بعيد في هذه المسألة العويصة. أنا أودُّ أن أبعث بك إليها».

«أنا؟»

«أنت، يارودي، هل سيبدو لك من قبيل العبث أن تسدي هذا الجميل من أجلي - أنا أشعر بما يغريني بأن أقول: من أجل خلاص نفسي، - هذه الخدمة التي قد لا يعلم بها العالم الذي يأتي من بعدنا، وربما علم بها، - إذا ماأدَّيتَها أداءً كاملاً، بأن تقوم بدور الوسيط، والمترجم بيني وبين الحياة، ودور شفيعي الى السعادة؟ هذه فكرة مني، وخاطرة كتلك الخواطر التي تخطر للمرء عند التأليف الموسيقي. ولابدّ للمرء دائماً أن يفترض بصورة مسبقة أن مثل هذه الخاطرة ليست بالجديدة كل الجدّة. وأي شيء يعد جديداً كل الجدة بموجب النوطات! ولكن قد يكون ماكان هنا، على نحو مااتفق حدوثه، في هذا المقام، وفي هذا السياق، وفي هذا الضوء، جديداً بلاريب، جديداً في مضمار الحياة إن صح التعبير، وأصيلاً وفريداً»

«أمّا الجدّة فهي آخر ماأحفِل به، وماتقوله جديد بما يكفي ليذهلني، وإذا كنت أفهمك حق الفهم فمن المفروض أن أقوم لك بدور الخاطب، الذي يطلب يدها من أجلك؟»

«لقد فهمتني حق الفهم، وما كنت لتسيء فهم ماتسمع عني، والسهولة التي تفهمني بها تشهد على طبيعية المسألة»

«أهذا ماتراه؟ - فلماذا لاتبعث بصاحبك سيرينوس؟»(*)

«أتراك تريد، أن تتهكّم على صاحبي سيرينوس. ومن الواضح أن مما يمتعك أن تتصور صاحبي سيرينوس رسول غرام. لقد كنا نتحدث منذ هنيهة عن الانطباعات الشخصية التي يفترض ألاّ تستغني عنها الفتاة كل الاستغناء عند اتخاذها للقرار، ولاتعجب إذا تخيلت أن ميلها الى

(*) هو سيرينوس تسايتبلوم، الذي تروى هذه الرواية على لسانه «المترجم».

الإصغاء الى كلامك سيكون أكثر من ميلها الى الإصغاء الى كلام امرئ جامد الملامح كهذا »

« أمّا النكات فإن نفسي لاتميل إليها على الإطلاق، ياأدْري، وذلك لمجرد أن هذا مما يمسّ قلبي، ويجعل مزاجي ذا طابع احتفالي بمعنىً ما، مهما يكن الدور الذي تخصِّصه لي في حياتك، حتى تجاه العالم الذي يأتي من بعد، لقد سألت عن تسايتبلوم لأنه صديقك منذ عهد أطول - »

« أجل، منذ عهد أطول »

« لابأس، إذاً منذ عهد أطول فحسب، ولكن ألا تظن أن عبارة « فحسب » هذه يمكن أن تجعله أكثر ملاءمة لهذا ؟ »

« اسمع، مارأيك لو ضربنا صفحاً عنه آخر الأمر؟ فأنا أرى فيه امرءاً لايمت الى أمور الحب بصلة، وأنتَ من فوَّضت إليه أمري، والذي يعرف الآن كل شيء، والذي فتح أشد الأوراق خفاء في كتاب قلبي، كما قالوا فيما سلف، فإذا انطلقت الآن إليها، فدعها تقرأ فيه هي أيضاً، وحَدِّثْها عني، وأحْسِن القول عني، واكشف لها، بحذر، عن الأحاسيس التي أكنُّها لها، وعن أمنيات الحياة التي تماثل هذه ! ولتأخذها بالرقة والإيناس، بأسلوبك اللطيف، لتعرف - فلنقل ذلك - لتعرف هل يمكن أن تحبّني! فهل أنت فاعل؟ ليس من الواجب عليك أن تأتيني بموافقتها الكاملة، معاذ الله. ويكفيني بِضْعَةٌ من أمل، على وجه الإطلاق، لأختتم بعثتك، ويكفي أن تعود إليَّ بفكرة مؤداها أن مشاطرتها إيايَ حياتي ليست بغيضة إليها على نحو كامل ومطلق، وليس مهولة، - ثم تَأْزِفُ ساعتي، وعندها أعتزم الحديث معها ومع عمتها الضئيلة بنفسي».

وكانا قد غادرا مرتفع الرومبوهِل عن شمالهما، ومضيا خلال حرش

الشربين الواقع وراءه، والذي كان الماء يقطر من أغصانه. ثم سلكا الطريق على حافة القرية الذي عاد بهما الى حيث كانا. وكان هذا العامل اليومي، أو ذاك الفلاح الذي يلقيانه، يحيى نزيل آل شفايجشتل القديم مع ذكر اسمه. وعاد رودلف الى الحديث بعد أن أخلد الى الصمت هنيهة.

«سوف تصدقني إذا قلت إنه سيكون من السهل عليَّ أن أُحْسِن القول فيك هناك، بل سيكون ذلك، ياأُدْري، أسهل من إحسانك القولَ فيَّ أمامها. غير أني أريد أن أكون صريحاً معك كل الصراحة، - على قدر ماكنت صريحاً معي. عندما سألتني عن رأيي في ماري جودو سارعت الى الجواب قائلاً إن هذه لابد أن تروق لكل امرئ، وأريد أن أعترف لك أن هذا الجواب كان فيه أكثر مما كان يُعَرف منه ببساطة. وما كنت لأعترف لك بهذا أبداً لولا أنك حملتني على أن أقرأ في كتاب قلبك على حد قول الشعراء القدامى»

«أنت تراني مُشوقاً شَوُقاً صادقاً الى اعترافك»

«لقد سبق أن سمعت ذلك. هذه البنت - وأنت لاتحب هذا التعبير، - أي الفتاة، ماري، ليست بالتي لا ألقي لها بالاً، أيضاً - وعندما أقول: ليست بالتي لاألقي لها بالاً، لا أكون بذلك قد قلت ماهو صحيح حقاً بعد، فالفتاة هي أظرف مالقيت في باب الأنوثة في أي يوم من الأيام، وأحبُّه إليّ. ومنذ كنا في زوريخ - وكنت قد عزفت - كنت قد عزفت لك، وكنت على شيء من الحرارة، وراق لي العزف، فَتَنَتْني. وهنا، - وأنت تعرف ذلك - اقترحت النزهة، وكنت أراها فيما بين ذلك أيضاً، وهذا ما لاتعرفه، وشربت معها ومع العمة إيزابو الشاي في نُزُل جيزيللا

العائلي، وكان بيننا حديث ظريف الى حد رهيب... وأكرر، يا أدري[*]، أنني لاأورد هذا إلاّ من أجل الصراحة المتبادلة بيننا.».

وأمسك ليڤركون هنيهة، ثم قال بصوت كان يتهدَّج على نحو مميِّز يشير الى أكثر من معنى:

«كلاَّ، هذا أمر لم أكن أعرفه، لاعن مشاعرك، ولا عن الشاي، ومن المضحك أنني نسيت فيما يبدو أنك أيضاً مخلوق من لحم ودم، ولست ملفوفاً بالأميانط ضد سحر الجميل والظريف. فأنت تحبها إذاً، أو لنقل إنك مغرم بها. ولكن دعني الآن أسألك عن شيء واحد: هل تتخذ المسألة بيننا شكلاً تتقاطع معه مقاصدنا، بحيث كنت تزمع أن ترجو منها أن تكون زوجتك؟»

وبدا شفيرتفيجر يفكر، وقال:

كلا، لم أفكر في ذلك، بعد.

«كلاَّ؟ فهل كنت تفكر إذاً في إغوائها، ببساطة، مثلاً؟»

«كيف تقول هذا، ياأدريان! لاتقولَنَّ هذا! كلاً، حتى هذا لم أفكر فيه»

«إذاً فدعني أقول لك إن ذاكرتك، ذاكرتك الصريحة، والتي تستحق الشكر، أقرب كثيراً الى أن تتماشى مع تمسُّكي برجائي منها الى أن تحملني على الإحجام عنه»

«ماذا تقصد؟»

«أنا أقصد هذا بمعنى ما، لقد اصطفيتك من أجل هذه الخدمة الغرامية، لأنك أقرب إليها، الى حد بعيد، في معدنك، من رجل مثل

(*) اختصار اسم أدريان «المترجم».

سيرينوس تسايتبلوم، لأن شيئاً ينبعث منك يفتقر هو إليه، وأراه أنا مما يواتي رغائبي وآمالي. هذا على كل حال. على أنك تشاطرني الآن حتى أحاسيسي بدرجة معينة، من دون أن تشاطرني مع ذلك، مقاصدي، كما تؤكد لي. وسوف تتحدث بالاستناد الى أحاسيسك الخاصة - من أجلي ومن أجل مقصدي، ويستحيل عليّ أن أتصوَّر خاطباً أكثر كفاءة، ومرغوباً فيه أكثر منك- »

«إذا كنت ترى المسألة في هذا الضوء»

«لاتعتقدَنَّ أني أراها في هذا الضوء فحسب! بل أراها أيضاً في ضوء التضحية، وأنت تستطيع حقاً أن تطالب بأن أراها على هذا النحو. فلتطلب ذلك فحسب! أطلبه بكل التوكيد والإلحاح! لأن هذا يعني أن تعترف بالتضحية تضحيةً، وتريد أن تقدمها. وأنت تقدمها بروح الدور الذي تلعبه في حياتي، تحقيقاً للفضل الذي حظيتَ به من أجل إنسانيَّتي، والذي ربما بقي سراً بالقياس الى العالم، وربما لم يبق سراً أيضاً، فهل تلبّي طلبي؟.

وأجاب رودولف قائلاً:

«أجل، أريد أن أذهب، وأعمل من أجل قضيَّتك بأفضل ما أقدر عليه»

وقال أدريان: «إذاً فلنتصافح على هذا، وليكن هذا لك عند الوداع»

وكانا قد عادا الى حيث كانا، وبقي لشفيرتفيجر بعدُ وقت لكي يتناول في قاعة إلهة النصر مع الصديق وجبة إنعاش صغيرة، وكان جيريون شفايجشتل قد شدّ له خيل العربة، ولكن على الرغم من رجاء

رودولف له ألاّ يجشِّم نفسه جهداً، اتخذ أدريان معه مكاناً في العربة الصغيرة ذات النوابض القاسية، ليأتي به الى المحطة.

وقال: «كلاّ، بل يجب هذا، هذه المرة على وجه الخصوص تماما».

ودخل القطار، متطامناً بما يكفي ليتوقف في بفايفرينج، وتبادلا المصافحة من خلال النافذة التي أرْخي مصراعها الى الأسفل.

وقال أدريان: «ماعاد ثمة مزيد من الكلام، حفظك الله، ومع السلامة!»

ورفع ذراعه قبل أن يتوجه للانصراف. أمّا ذلك الذي انزلق هنا فلم يره أبداً مرة أخرى، ولم يتلقَّ منه إلاّ رسالة رفض أن يجيب عنها أية إجابة.




محمد خطاب

(٤٢)

وحين كنت في زيارته في المرة التالية، بعد عشرة أيام أو أحد عشر يوماً، كانت هذه الرسالة في يديه، وأبلغني بقراره الأكيد، أن يسكت عنها، وكان يبدو شاحباً ويحدث انطباعاً مؤداه أنه إنسان تلقى ضربة فادحة، وكان يحدث هذا الانطباع على وجه الخصوص من جراء أن ميلاً كنت لاحظته لديه بالطبع منذ بعض الوقت، وهو أنه كان يدع رأسه وجذعه الأعلى كالمتدلِّيَّيْن بعض الشيء، أخذ يبرز على نحو أكثر لفتاً للنظر. ومع ذلك فقد كان هادئاً كل الهدوء، أو كان يتظاهر بذلك، بل كان يتظاهر بالبرود، ويبدو كأنه في حاجة الى أن يعتذر إليَّ عن هذه الطمأنينة اللامبالية التي تنظر نظرة الازدراء الى من ارتكبت الخيانة بحقه.

وقال: «أحسَب أنك لم تكن تنتظر مني انفجارات استياء وغضب أخلاقية. صديق غير مخلص. وماذا بعد ذلك؟ أنا لاأتذمَّر كثيراً من مجرى الأحداث في الدنيا، والحق أنها مسألة مريرة، والمرء يتساءل بمن عساه يثق بعد ذلك عندما ترتد يمنانا على صدرنا، ولكن ماذا تريد؟ هذا شأن الأصدقاء الآن. وما تبقّى لي هو العار - وإدراكي أنني أستحق الجَلْد».

وأردت أن أعرف ممَّ كان عليه أن يشعر بالعار.

وأجاب قائلاً: «من سلوك بلغ من حمقه أنه ذكَّرني تذكيراً بالغ الحيوية بتلميذ مدرسة بلغ من فرحه بعش طير عثر عليه أنه أراه لآخر، - ويذهب هذا إليه يسرقه منه»

وماذا كان عليَّ أن أقول سوى قولي:

«لن تجرَّ على نفسك خطيئة، ولا عاراً، من جراء الثقة. فهاتان الخصلتان إنما توجدان عند اللص»

وهل كان في وسعي أن أقابل ألوان تقريعه لنفسه بمجرد المزيد من الإقناع. ولم يكن لي بدٌّ في هذه الأثناء من تأييدها في قلبي، لأن سلوكه، هذا التدبير كله، بما فيه من مسألة الوساطة، والخطبة، عن طريق رودولف بالذات، دون سواه، كان يبدو لي مقصوداً، مفتعلاً، يستوجب العقوبة، ولم أكن في حاجة إلاّ الى أن أتصوَّر أنني أرسلت فيما سلف، من أجل زوجتي هيلين، بدلاً من استعمال لساني، صديقاً جذّاباً، ليكشف لها عمّا في قلبي، - لكي أدرك العبثية الكاملة، الحافلة بالألغاز، في طريقة تصرُّفه. ولكن فيمَ تأجيج نار الندامة، إذا كان هذا الذي تنطق به كلماته وملامح وجهه، ندامة. لقد فقد الصديق والحبيبة دفعة واحدة، بذنبه هو، وهذا ما لم يكن بدٌّ للمرء أن يقوله، - إذا كان المرء، - إذا كنت أنا على يقين كامل فحسب، أن المسألة هنا تتعلق بذنب بمعنى الخطأ اللاشعوري، أو بمعنى فقدان للتعقل الى حد خطير! هذا لو أن الشك لم يكن يظل يتسلل الى أفكاري المرة بعد الأخرى فحسب، في أنه كان يتنبأ بما سيحدث، بدرجة تقل أو تكثر، وأنه قد كان حدث بإرادته! أوكان من الممكن أن يتوقَّع المرء بصورة جدية على الإطلاق أن تكون لديه فكرةٌ مفادها أن يُتْرَك ما كان ينبعث من رودولف، وهو

الجاذبية الشهوانية التي لاسبيل الى إنكارها عند هذا الانسان، ليحدث آثاره من أجله هو، وليخطب له. وهل كان يجوز للمرء أن يصدق أنه كان يبني على أساسه؟ وفي بعض الأحيان كان ينبثق في ذهني تكهُّن مؤداه أنه هو الذي وصف المسألة كما لو كان هو يكلف الآخر بتقديم تضحيه، واختار لنفسه أكبر التضحيات، - أي أنه أراد أن يؤلِّف، عامداً، مَنْ كانت تجمع بينهما خصلة المؤانسة، لكي ينسحب هو ذاته، متخلِّياً، الى عزلته، غير أن هذه الفكرة كانت تبدو لي أَشْبَهَ بي مِنْها به. لقد كان مما يمكن أن يتلاءم معي، ومع تبجيلي له أن يكون للخطأ الظاهري، أو الغباء المزعوم الذي زعم أنه اقترفه، على أساس من باعث من نوع بالغ الوهن ينطوي على طيب القلب الى حد الإيلام! وكان يفترض في الأحداث أن تكون وضعتني وجهاً لوجه مع حقيقة هي أشد بأساً، وأكثر بروداً، وإيلاماً من أن يكون طيب قلبي نداً لها، ومِنْ أن تتجمَّد في ارتعاد جليدي من جراء ذلك - وهي حقيقة غير ثابتة، خرساء، لاتكشف عن نفسها إلاّ من خلال نظرتها الجامدة التي يمكن أن تظل ثابتة على الخَرَس، إذ لستُ بالرجل الذي يعطيها الكلمات.

وإني لعلى يقين أن شفيرتفيجر توجّه الى ماري جودو، على قدر ماكان يعلم، بأفضل النوايا وأصحِّها، ولكن من المؤكد بالقدر ذاته أن هذه النوايا لم تكن، بصورة مسبقة، قائمة على قدم راسخة، بل كانت معرَّضة، من الداخل، لخطر التفكُّك، والانحلال ولم يكن ماكان أدريان قد رسَّخه في ذهنه حول أهمية شخصه بالقياس الى حياة الصديق وإنسانيته، قد ظل من دون تأثير على غروره يتملَّق مشاعره، ويَحْفز همته، وكان قد أخذ الفكرة القائلة إن بعثته الراهنة إنما نجمت عن هذه

الأهمية، عن مُؤَوِّل للأشياء متفوِّق. غير أن الإساءة المتصلة بالغيرة، في صدد تغيير رأي المَغْزُوَّة، وفي صدد كونه ماعاد يفترض فيه بعدُ سوى أن يكون طيباً من حيث كونه وسيلة وآلة، كانت تحدث آثارها تجاه هذه المؤثِّرات، وإني لأعتقد حقاً أنه كان يشعر في سريرته أنه حر، وهذا يعني: أنه غير ملتزم بأن يقابل عدم الوفاء المرتبط بكثرة المطاليب، بالوفاء. وهذا واضح عندي الى حد بعيد، كما أن من الواضح عندي الى حد بعيد أيضاً أن السير على طرق الحب من أجل امرئ آخر يمثّل تحولاًينطوي على الإغراء، - ولاسيما بالقياس الى واحد من أهل الحماسة للغزل. ولابدَّ أن يكون في مجرد وعيه أنه خرج من أجل مشروع للغزل أو وثيق الصلة بالغزل، شيء من الاسترواح أو تخفيف حدة التوتُّر في أعصابه.

وهل يشك أي امرئ في أنني استطعت أن أسرد ماحدث بين رودولف وماري بالحرفية ذاتها التي سردت بها الحديث الذي دار في بفايفرينج؟ وهل يشك أحد في أنني كنت «حاضراً» أثناءه؟ لا أحسب ذلك. غير أني أحسب أيضاً أن تفصيل القول الدقيق في الحدث ماعاد مطلوباً بالقياس الى أحد، أو مرغوباً فيه فحسب. ولم تكن نتيجته المنطوية على الوبال، على كونها مَرِحة، كما كانت تبدو أول الأمر، - لا بالقياس إليّ، بل بالقياس الى الآخرين، وسيفترض المرء هذا الافتراض، ثمرة مجرد إقناع. وكان ثمة افتراض ضروري من أجل ذلك، كان رودولف يُدفع إليه عن طريق الأسلوب الذي كانت ماري قد ودّعته به بعد. وكانت العمة إيزابو هي التي اصطدم بها عند دخوله دهليز النزل العائلي الصغير. وسأل عن ابنة أخيها، ورجا منها أن يُتاح له أن يتبادل

بعض الكلام مع هذه على انفراد، لمصلحة طرف ثالث. وأومأت له السيدة العجوز الى حجرة المعيشة وحجرة العمل، بابتسامة كان مافيها من المكر ينمّ عن عدم تصديقها إياه بصدد حديثه عن الطرف الثالث. ودخل على ماري التي حيّته تحية المودة البالغة، وكأنما فوجئت وارتسمت على وجهها ملامح تشير الى أنها تريد إبلاغ عمتها، الأمر الذي جعلها تصريحه بأن هذا أمر لا لزوم له تزداد اندهاشاً، وإن كان اندهاشاً ينم عن المرح والاستبشار. وقال إن العمة تعلم بوجوده هنا، وسوف تحضر عندما يكون قد فرغ من الحديث معها في مسألة بالغة الجدية، والجمال. وبماذا ردَّت؟ بأكثر الأشياء ارتباطاً بالحياة اليومية الى حد النكتة، بلاريب، إذ قالت: «هذا ما أنا مشوقة إليه»، أو شيئاً من هذا القبيل، وأنها ترجو السيد أن يتخذ مجلساً مريحاً من أجل حديثه.

وجلس إليها، في مقعد كان قد سُحِب الى لوح رَسْمِها. وما من إنسان يستطيع أن يقول إنه حنث بوعده، بل ثبت عليه، وأنجزه بإخلاص، وحدثها عن أدريان، وأهميته وعظمته التي لم يلاحظها الجمهور إلاّ ببطء، وعن إعجابه هو، أي رودولف، بالرجل الفائق وتفانيه فيه، وحدثها عن زوريخ، وعن اللقاء مع آل شلاجنهاوفن، وعن اليوم الذي قضوه في الجبال، واعترف لها بأن صديقه يحبها، - كيف يصنع المرء هذا؟ وكيف يعترف المرء لامرأة بحب آخر؟ هل يميل المرء إليها؟ وهل ينظر في عينيها؟ وهل يتناول يدها راجياً وهي اليد التي يصرِّح المرء بأنه يودّ لو يضعها في يد الطرف الثالث؟ لست أدري، إذ لم يكن لدي ما أُبَلِّغه سوى الدعوة الى نزهة، ولم يكن عليّ إبلاغ عرض زواج. وكل ما أعرفه أنها سحبت يدها على عجل، سواء من إحاطة يده بها، أو من

حضنها، حيث كانت راقدة، فحسب: وأنَّ حمرة عابرة هبت كالنسيم على الشحوب الجنوبي في وجنتيها، وأن الضحك توارى من ظلمة عينيها. ولم تكن تفهم، ولم تكن بالفعل على يقين أنها تفهم. وسألت هل تراها تفهم على الوجه الصحيح أن رودولف عرَّجَ عليها من أجل السيد الدكتور ليڤركون. وقال: أجل، أنا أفعل هذا بحكم الواجب، وبدافع الصداقة، ومن أجل ذلك رجاني أدريان بدافع شعور مرهف، وكان يعتقد أنه لايجوز أن يُرفض له ذلك. على أن جوابها البارد الى حد يلفت النظر والتهكُّمي الى حد يلفت النظر، بقولها إن هذا جدٌّ جميل منه، لم يكن موضوعاً للتخفيف من وطأة شعوره بالحرج. وكان مافي وضعه ودوره من الشذوذ والغرابة قد دخل الآن فحسب في حيِّز وعيه، وتخوُّفه من احتمال أن يكون في ذلك ماينطوي على الإهانة أو يشوبها، بالقياس إليها، وكان سلوكها، هذا السلوك المستغرب الى حد فائق يفزعه في الوقت ذاته ويسره في قرارة نفسه. وكان يجتهد في تبرير سلوكه مع اقتران ذلك ببعض التلعثم، هنيهة أخرى. وقال إنها لاتعلم كم يصعب على إنسان كهذا أن يُرَدَّ له طلب، كما أنه كان يشعر بالمسؤولية، بمعنى ما، عن الانعطاف الذي ستتخذه حياة أدريان عن طريق هذا الشعور، لأنه كان هو الذي دفعه الى الرحلة الى سويسرا، وأدّى بذلك الى اللقاء بها، أي بماري، وكان مما يلفت النظر بما يكفي أن حفلة الكمان الموسيقية أهديت إليه، ولكنه كان في النهاية الوسيلة الى تمكينها من رؤية المؤلف الموسيقي، وإنه يرجو منها أن تفهم أن ذلك الشعور بالمسؤولية كان له إسهام كبير في استعداده لتحقيق رغبة أدريان.

وهنا حدث سَحْب جديد، قصير، لليد التي كان قد حاول الإمساك

بها عند رجائه، وأجابته بما يلي: أجابته بأنها ترجو ألاّ يجشِّم نفسه مشقةً بعد هذا، وأنه لاشائبة في فهمها للدور الذي تولى أداءه، وأنها يؤسفها أن تضطر الى إحباط آماله الوديّة، ولكن من البدهي أنها إذا كانت غير متأثِّرة بشخصية من كلَّفه بهذه المهمة، فإن التقدير الذي تُوليه لهذا ليس له علاقة بالأحاسيس التي يمكن أن تشكل الأساس للارتباط الذي عُرِض عليها بقدر بالغ من الفصاحة، وأن التعرُّف على الدكتور ليڤركون كان شرفاً لها ومن بواعث سرورها، ولكن من المؤسف أن القرار الذي لابدّ لها أن تبلغه به الآن يستبعد كل لقاء آخر على أنه أمر مُحْرِج، وأنها تأسف مخلصة لاضطرارها أن تفهم المسألة على أن هذا التغيير في الأمور يمسّ أيضاً رغبات الناقل والمناصر غير المتحققة. وما من شك في أن من الأفضل، والأسهل بعد الذي حدث، ألاّ يرى أحد منهما الآخر مرة أخرى، وأنها تودعه بذلك وداعاً ودياً. «الوداع، ياسيدي!».

وقال يرجوها: «ماري!» غير أنها لم تزد على أن عبَّرت عن دهشتها من معرفته باسمها الأول، وأنه مطَّلع عليه، وكررت الوداع الذي مازال يطن في أذني بوَقْع صوتها «الوداع، ياسيدي!».

وانصرف، كالكلب الذي صُبَّ عليه الماء صبّاً، إذا مانظر المرء إليه من الخارج، ولكنه كان في قرارة نفسه راضياً مَحْبوراً الى حد السعادة. لقد ثبت أن فكرة أدريان الخاصة بالزواج هي العبث الذي كانته، وأنه قَبِل أن يعرضها، ويتقدَّم بها إليها، وأنها حملتها على محمل السوء الى حد بعيد، - وكانت حساسة تجاهها الى حد شعوره بالسرور البالغ، ولم يسارع الى كتابة تقرير الى أدريان حول المخرج الذي انتهت إليه زيارته، - ولكم كان سعيداً بأنه غطّى نفسه أمامه باعتراف صادق مؤدّاه

أنه هو ذاته لم يكن بارداً حيال مفاتن الفتاة! أمّا ما فعله فهو أنْ قعد وحرَّر رسالة الى الآنسة جودو قال فيها إنه لايستطيع، بقولها «وداعاً، ياسيدي!» أن يعيش، ولا أن يموت، وأنه لابدّ، من أجل حياته وموته، أن يراها مرة أخرى، وذلك ليطرح السؤال الذي يوجهه إليها بجُماع روحه: أتراها لاتفهم أن ثمة رجلاً يضحي بمشاعره الخاصة بدافع تقديره لرجل آخر، ويمكنه أن يتجاوزها بأن يجعل من نفسه محامياً، عن رغبات الآخر، متجرداً عن المنفعة الخاصة، ثم لاتفهم، مِنْ بَعْدُ أن المشاعر الصادقة المُسيطَر عليها يمكن أن تنتهي الى انبثاق حر، بل مهلِّل مبتهج بمجرد أن تبيَّن أن الآخر ما عاد له أمل في الاستماع الى كلامه، وقال إنه يرجو منها الصفح عن خيانة لم يرتكبها بحق أحد سوى نفسه ذاتها، وأنه لايمكن أن يندم عليها، غير أنه يسعده أيّما سعادة أنه حين يقول لها إنه يحبها، فإن ذلك ما عاد يعني خيانة لأحد.

وبهذا الأسلوب. ولم يكن بعيداً عن البراعة مطلقاً، وكان مجنَّحاً بالحماسة للغزل، ولم تكن الرسالة، على ما أعتقد، مكتوبة مع اقتران ذلك بالوعي الواضح، أن إعلان الحب، بعد خطبته إياها لأدريان، كان مرتبطاً بعرض الزواج الذي لم يخطر أبداً في رأسه المفعم بالغرام. وقرأت الرسالة العمة إيزابو على ماري التي أبت أن تقبلها، ولم يتلقَّ رودولف جواباً عنها، ولكن حين أبلغ عن قدومه، بعد يومين فحسب، عن طريق خادمة الغرفة في منزل جيزيللا العائلي، لدى العمة، لم يُرْفَض، إذ كانت ماري في المدينة. وكشفت له السيدة العجوز، وهي تلومه لوماً خبيثاً، عن أنها ذرفت كثيراً من الدموع على صدرها بعد زيارته السابقة. الأمر الذي أرى أنه كان مختلقاً. وأكّدت العمة ذاتها اعتداد ابنة أخيها

بنفسها، قائلة إنها فتاة ذات حساسية عميقة، ولكنها مزهوَّة بنفسها وقالت إنها لاتستطيع أن تتيح له أملاً محدّداً في الفرصة الملائمة لحديث جديد، ولكنماينبغي له أن يعرفه هو أنها لا يزعجها أن تكشف لماري عما في سلوكه من الصدق والاستقامة.

وحضر بعد يومين. وتوجهت مدام فيربلا نتييه - وكان هذا اسم العمة، إذ كانت أرملة - الى الداخل، نحو ابنة أخيها، ولبثت هناك وقتاً طويلاً، ومع ذلك فقد أقبلت في النهاية من جديد وأتاحت له الدخول بغمزة مشجعة من عينها، وكان يحمل أزهاراً بالطبع.

ماذا ينبغي أن أقول بعد ذلك؟ لقد بلغت من العمر، وأصابني من الحَزَن، ما لا أستطيع معهما أن أرسم مشهداً لايمكن أن تثير تفاصيله اهتمام أحد. كان رودولف يتقدم بخطبة أدريان - لنفسه هذه المرة، على الرغم من أن الرجل الغَزِل كان يصلح للحالة الزوجية مثلما أَصْلُحُ أنا لحالة دون جوان. ولكن من العبث الذي لا طائل تحته أن ينعم المرء النظر في مستقبل ارتباط ما وفي آفاق السعادة فيه، إذا لم يكن مستقبلاً على وجه اليقين، بل كان ذلك الذي يُفتَرض أن يقضي عليه على وجه السرعة قدر جبّار. وقد تجاسرت ماري على أن تحب محطِّم القلوب بـ «الصوت الرقيق» الذي أعطيت ضمانات دافئة لقيمته الفنية ومسار حياته المضمون، من جانب جدّي، وكانت واثقة من مقدرتها على الإمساك به، وإلجامه، وتأهيل العفريت الشقيّ فيه. وكانت تدع له يديها، وتتقبّل قبلة، ولم يكد الأمر يستغرق أربعاً وعشرين ساعة حتى سرى النبأ البهيج في كل محيط المعارف، بأن رودي بات أسيراً، وأن قائد الحفلة الموسيقية شفيرتفيجر وماري جودو عريسان، واستُدرِك ذلك

بقولهم إنه يريد أن ينهي عقده مع أوركسترا تسابفنشتوسَّر، وأن يتزوّج في باريس وأن يضع خدماته هناك تحت تصرف مؤسسة جديدة، في طور التأسيس، موسيقية أيضاً، هي «الأوركسترا السنفونية».

وما من شك في أنه كان هناك موضع الترحيب، وما من شك أيضاً في أن مفاوضات إنهاء العقد في مونيخ كانت تتقدم ببطء فحسب، حيث كان القوم لايسمحون له بالانسحاب إلاّ على مضض. وعلى كل حال فقد فهم القوم مشاركته في الحفلة الموسيقية التالية لتسابفنشتوسر، وكانت هذه هي الأولى بعد تلك التي عاد إليها في اللحظة الأخيرة من بفايفرينج - على أنها نوع من العرض الوداعي، ولمّا كان قائد الفرقة، الدكتور إدشميدت قد اختار، لهذه الأمسية فوق هذا، على وجه الخصوص برنامجاً يملأ القاعة، لبرليوز وڤاجنر، فقد حضرت مونيخ بأسرها، كما قيل. وكانت تطل من الصفوف وجوه معروفة بأعداد جمة، وكنتُ إذا نهضت قائماً كان عليّ أن أزجي التحية من وجوه عديدة: الى آل شلاجنهاوفن والضيوف الدائمين في استقبالاتهم، وآل راد بروخ مع شيلدكناب، وجانيت شورل، والآنسة تسفيتشر والآنسة بيندر مايوريسكو، وآخرين فوقهم، ممن جاؤوا جميعاً برغبات ليس آخرها أن يرَوْا رودي شفيرتفيجر، في الأمام الى اليسار على منصته، عريساً. ولم تكن خطيبته حاضرة بالمناسبة - إذ كانت قد عادت الى باريس كما كنا نسمع. وانحنيت بالتحية لإنيس انستيتوريس وكانت وحدها، وهذا يعني: في صحبة آل كنوتيريش، من دون زوجها الذي لم يكن يهوى الموسيقا، وكان يحب أن يقضي الأمسية في نادي أللوتريا. وكانت تقعد من الصالة في مقعد بالغ البعد الى الخلف، في ثوب لم تكن بساطته

بعيدة عن الفجاجة - وعنقها الضئيل مائل الى الأمام، وقد ارتفع حاجباها، وفمها الصغير مدبَّب في خبث ينمّ عن الخطورة. ولم يكن في وسعي، حين ردَّت على تحيتي بهذا الأسلوب، أن أغالب الانطباع المزعج، الذي يوحي بأنها مازالت تبتسم في انتصار خبيث يتمثل في أنها استغلت، في ذلك الحديث المسائي الطويل، صبري، واهتمامي، استغلالاً بالغ البراعة.

أمّا شفيرتفيجر فقد كان وهو يعلم حق العلم مقدار العيون الفضولية الكثيرة التي سيلقاها، قلّما ينظر في القاعة خلال الأمسية كلها. وكان في الأوقات التي كان يحب أن يفعل ذلك فيها، يصغي الى آلته، أو يقلب أوراق نوطاته. أمّا خاتمة التقدمات فكانت تشكلها الآن مقدمة أستاذ الغناء، وهي تعزف، مسهبةً، تتسم بالمرح، وتصاعُدِ الاستحسان الذي كان على كل حال يُجَلْجِل، على نحو يلفت النظر، حين أوعز فرديناند إدشميت الى الأوركسترا بالوقوف على الأقدام، وصافح مدير حفلته الموسيقية شاكراً. وكنت، حين حدث هذا الفصل، قد وصلت الممر الأوسط، وقد تولاّني القلق على ثيابي التي استلمتها وسط زحام كان مايزال ضئيلاً في أماكن حفظها. وكان مقصدي أن أقطع على الأقل جزءاً من طريق عودتي، أي من ذلك الطريق الى منزلي في شفابنج، على قدَميّ. والتقيت أمام مبنى الحفلة الموسيقية برجل من حلقة كريدفيس، هو الأستاذ جيلجن هولتسشوهر، من هواة دورَرْ، كان في القاعة أيضاً، وورَّطني في حديث بدأ من جانبه بنقد برنامج مساء اليوم، وبدأ بقوله: «هذه التركيبة المؤلفة من برليوز وڤاجنر وبعض الأساتذة الأعاجم والألمان البارعين، خالية من الذوق، وهي تنطوي، فوق هذا، على مَيّل سياسي

خبيث فحسب، وهي تبدو مفرطة في نزوعها الى التفاهم الألماني الفرنسي، وحب السلام، مثل هذا الجمهوري المدعو إدشميدت والمعروف بأنه امرؤ لايوثق به من الناحية الوطنية. وقال إن هذه الفكرة ظلت تكدِّره طوال الأمسية، وإن من المؤسف أن كل شيء بات اليوم مطبوعاً بطابع السياسة، وما عاد هناك نقاء فكري، ولابد، من أجل تقويم هذا الاعوجاج، من أن يكون على رأس الفرق الموسيقية الكبيرة رجال أولو عقلية ألمانية لايرقى إليها الشك.

ولم أقل إنه هو الذي يُسَيِّس الأمور، وإن كلمة «ألماني» اليوم لاتعد بحال من الأحوال مترادفة مع النقاء الفكري، بل هي شعار حزبي، وكل ما أثبتُّه هو أن قدْراً لابأس به من العباقرة، سواءً أكانوا من الأعاجم أم لا، هم بلاريب أيضاً من المتمرسين فيما يتعلق بفاجنر، على المستوى العالمي، ثم صرفت انتباهه برفق، إذ أتيت على ذكر مقالة حول مشكلات النِسَب في فن العمارة القوطي كان قد نشره مؤخراً في مجلة «الفن والفنانين». وكانت ألوان المجاملة التي قلتها له في هذا الصدد تسعده كل السعادة وتجعله ليِّن العريكة، بعيداً عن السياسة، بشوشاً، واستغللت حالته المتحسِّنة هذه لأنفصل عنه، وأسلك طريقي ناحية اليمين، بينما سار هو نحو الشمال.

وسرعان ما وصلت، قادماً من شارع الأتراك الأعلى، شارع لودفيج، وتابعت السد الترابي العملاق الساكن (الذي تمّ تزفيته بالطبع منذ سنين) على جانبه الأيسر نحو باب النصر. وكان المساء غائماً ولطيفاً غاية اللطف، وكان معطفي الشتوي يُثْقِل عليَّ بعض الشيء على المدى الطويل، ولبثت واقفاً عند موقف الحافلة الكهربائية في شارع

تيريزيا لكي أنتظر سيارة أي خط من الخطوط التي تؤدي الى شفابنج، ولست أدري لماذا طال بي الطريق الى حد غير عادي، الى أن وردت إحداها. على أن أشكال التعثُّر والتأخر في المواصلات كثيرة الورود، وكانت العربة التي اقتربت آخر الأمر من الخط رقم ١٠، مقبولة عندي تماماً. ومازلت أراها وأسمعها مقبلةً من قاعة القائد، وعربات الحافلات المونيخية الزرق البافارية هذه مبنيّة بوزن ثقيل جداً، وهي تحدث جلبة كبيرة، سواء أكان ذلك راجعاً الى هذا الثقل أم الى صفات خاصة في الأرضية السفلية. وكانت نار الكهرباء تختلج على الدوام تحت عجلات العربة، كما كانت تختلج اختلاجاً أشد في الأعلى عند عمود التوصيل الذي كانت تتطاير منه ألسنة اللهب هذه الباردة، وهي تصفر في أسراب كاملة من الشرر.

وتوقفت العربة، وتوجهت من الرصيف الأمامي، حيث ركبت، الى الداخل. وعند الباب الذي ينزلق جانباً، والى اليسار من مدخلي، وجدت مكاناً خالياً كان يبدو أن راكباً من الذين نزلوا قد غادره لتوِّه. وكانت الحافلة مشغولة المقاعد تماماً، بل كان يقف عند الباب الخلفي سيدان في الممر وهما يمسكان بالشريط الجلدي، وربما كان الجزء الأكبر من الركاب من روّاد الحفلة الموسيقية العائدين الى بيوتهم. وكان يقعد بينهم، في وسط المقعد الطويل، شفيرتفيجر، وقد نصب صندوق كمنجة بين ركبتيه. وما من شك في أنه رآني وأنا أدخل، غير أنه تفادى نظرتي، وكان يرتدي تحت معطفه شالاً أبيض كان يغطي ربطة عنق حلة الفراك. غير أنه كان بدون قبعة، على عادته. وكان يبدو وسيماً، شاباً، بشعره الأشقر الجَعْد المنتصب وقد زاد في شدة لون وجهه ما أنجز من العمل، حتى لقد

كانت عيناه الزرقاوان تبدوان متورمتين الى حد ما في هذه الحُمَيّا ذات السمعة الحسنة. ولكن هذا أيضاً كان يناسبه، مثلما كانت تتلاءم معه الشفتان المنفرجتان قليلاً، اللتان كان يعرف كيف يصفِّر بهما تصفير المعلم البارع. ولست بالسريع الإحاطة بجوانب الأمور، ولم يتبيَّن لي إلاّ شيئاً فشيئاً أن ثمة آخرين من المعارف يوجدون في العربة. وتبادلت التحية مع الدكتور كرانيش الذي كان قد اتخذ مكانه إلى جانب شفيرتفيجر، ولكن بعيداً منه، لدى الباب الخلفي، وجعلتني انحناءة عارضة ألاحظ، في مفاجأة لي، إنيس إنستيتوريس التي كانت تقعد في الجانب ذاته، مثلي، على بعد عدد من الأماكن أمامي، في المنتصف تقريباً، مقابل شفيرتفيجر في اتجاه منحرف. وأقول: في مفاجأة لي، لأن طريق عودتها الى بيتها لم يكن هذا. ولكن لما كنت قد لاحظت، مرة أخرى، صديقتها، السيدة بندر - مايوريسكو، على بعد بضعة أماكن أخرى، وهي التي كانت تقطن في مكان بعيد في الخارج، وراء «المصيف الكبير» أيضاً، فقد قَدَّرت أن إنيس تفكر في تناول شاي المساء عندها.

غير أني أدركت الآن لماذا كان شفيرتفيجر يدع رأسه الجميل موجهاً صوب اليمين في الغالب، بحيث لم يكن يظهر لي منه سوى مسقطه الجانبي البعيد عن الإرهاف الى حد ما. ولم يكن عليه أن يتجاهل الرجل الذي ربما كان يعده «أنا» أدريان الأخرى فحسب. وكنت أنحي عليه باللائمة فيما بيني وبين نفسي، لأنه لم يكن له بدٌّ أن يرتحل الآن بهذه العربة على وجه الخصوص، وكانت مآخذي غير منصفة على الأرجح، إذ لم يكن يقال إنه ركبها مع إنيس في وقت واحد. وكان من الممكن أن تكون دخلتها بعده، مثلي، وإذا كان الأمر على النقيض من هذا، فإنه ما

كان في وسعه أن يفزع الى الهرب عند رؤيتها.

ومررنا بالجامعة، وكان الجابي قد وقف لتوه أمامي في جزمته ذات اللبّاد ليتلقى مني القروش العشرة ويدفع في يدي تذكرة الخط الكامل، حين حدث الذي لايصدَّق، وكان غير مفهوم البتة مثلما يكون ما لم يكن متوقَّعاً أبداً، إذ انطلقت طلقة في العربة، وكانت انفجارات منبسطة، حادة، ساحقة، إحداها إثر الأخرى، ثلاثة، أربعة، خمسة، في سرعة جامحة، تصمُ الآذان، وفي الجانب المقابل هَمَد شفيرتفيجر وصندوق كمنجته بين يديه، ساقطاً أول الأمر على كتف السيدة القاعدة على يمينه، ثم في حضنها، فمالت مبتعدة عنه مثلما فعلت القاعدة على يساره أيضاً، إذ تولاّها الفزع، بينما كان ينشأ صخب عام، أقرب الى أن يكون هرباً ورعباً مقترناً بالزعيق منه الى أن يكون تدخُّلاً يتجلى فيه حضور البديهة، وقد ملأ الصخب العربة، وأقبل سائق العربة في المقدمة، لسبب لايعلمه إلاّ الله، على الجرس، في ضغط قوي ومجنون على حد سواء، ربما لكي ينادي على شرطي، ولم يكن ثمة أحد على مسمع الأذن بالطبع، ونشأ زحام يكاد يشكل خطراً في العربة التي انتهت الى التوقف، إذ كان بعض الركاب يريدون التماس الخلاء، وكان آخرون يندفعون من الأرصفة، يحدوهم الفضول أو الولع بمتابعة الأحداث. وكان كلا الرجلين قد طرح نفسه على إنيس، معي، وكان ذلك بعد فوات الأوان بالطبع، ولم نكن في حاجة الى أن ننتزع منها المسدس، إذ كانت قد تركته يسقط أو طرحته عن نفسها بالأحرى، وذلك باتجاه ضحيتها. وكان وجهها أبيض كصفحة من ورق مع بقع شديدة الاحمرار تحدها حدود حادة على عظام الوجنتين. وكانت تغمض عينيها وتبتسم كالمجنونة،

ممطوطة الفم.

وأمسك القوم بها من ذراعيها، أمّا أنا فهُرِعت الى رودولف الذي كان القوم قد مدّدوه على المقعد الطويل الذي بات خالياً تماماً، وكانت ترقد على المقعد الطويل الآخر السيدة التي كان قد سقط عليها، تنزف، وقد أُغْمِي عليها، والتي كانت قد أصابتها، كما تبيَّن، طلقة سطحية غير ذات ضرر، في ذراعها. وكان يقف عند رودولف عدد من الناس، كان بينهم الدكتور كرانِش، الذي كان يمسك بيده.

وقال: «يالها من فعلة مفزعة، طائشة، مجنونة!»، وكان شاحب الوجه، يتحدث بطريقة لفظ واضحة حسنة المراعاة لمخارج الحروف، وكانت تظهر فيها مع ذلك آثار الربو، إذ كان ينطق كلمة مفزعة (ent-setzlich) كما ينطقون بها في كثير من الأحيان، وكما تُسْمَع من الممثلين أيضاً، إذ تستبدل الزاي بالتاء والسين. وأضاف قائلاً: «لم يسبق لي أبداً أنْ أسفت لأني لم أكن طبيباً، بل كنت مجرد مختص بالنُميِّات، وكان علم المسكوكات يبدو لي بالفعل في هذه اللحظة أقل العلوم غناءً، بل كان يبدو أقل جدوى من الفيلولوجيا، وهو الأمر الذي لايمكن الإصرار عليه بحال من الأحوال. وبالفعل لم يكن هناك طبيب في المكان، ولا واحد بين الكثيرين جداً من روّاد الحفلة الموسيقية، على الرغم من أن الأطباء دأبوا على الولع بالموسيقا، وذلك لمجرد أن بينهم الكثيرين جداً من اليهود. وانحنيت على رودولف وكانت تصدر عنه إشارات حياة، غير أنه كان مصاباً إصابة فظيعة، إذ كان تحت إحدى عينيه مدخل طلقة ينزف، وكانت طلقات أخرى قد اخترقت، كما تبيَّن، عنقه، ورئته والأوعية التاجية للقلب. ورفع رأسه محاولاً أن يقول شيئاً،

ولكن فقاعات من الدم ظهرت على الفور بين شفتيه، بدت كثافتها الرقيقة لي دفعة واحدة جميلة جمالاً مؤثراً، وزاغ بصره، وسقط رأسه مرتداً على الخشب بقسوة.

ولا أستطيع أن أصف ماهية الرحمة الحافلة بالتفجُّع على هذا الإنسان، اللذين تخللاّ قلبي فكادا يستحوذان عليه. وكنت أشعر أنني كنت أحبه دائماً بطريقة ما، ولابدّ لي أن أعترف أن اهتمامي به كان أكثر حميمية الى حد بعيد من اهتمامي بابنة الشؤم والنحس التي لاشك في أنها كانت جديرة أن آسى عليها في تردّيها، والتي كانت مهيّأةً، من جراء المعاناة، والرذيلة التي تخدِّر المعاناة، وتجرد المرء من التهذيب والخلق، لأشد الأعمال شناعة. وصرحت بأنني ممن يعرفون كلا هذين حق المعرفة، وأشرت بأن يحمل ذو الإصابة الفادحة الى الجامعة، حيث يمكن للمرء عند حاجبها أن يهتف للصحة وللشرطة، وحيث يوجد كما أعلم، أيضاً محطة للحوادث، وأمرت بأن تؤخذ الفاعلة، على النحو ذاته، الى هناك.

وحدث هذا كله. وأخرجنا، أنا وشاب ذو نظارة من أهل الهمة، رودولف المسكين الى عربة الحافلة التي كان قد احتشد وراءها اثنتان أو ثلاث من العربات. ومن إحدى هذه العربات هُرِع الآن، إلينا، مع ذلك، طبيب معه حقيبة صغيرة للأدوات وجعل يدير عملية حَمْلِ المصاب إدارة فائضة عن الحاجة الى حد بعيد، كما أقبل مراسل صحفي يتقصى الخبر. وتعذبني الذكرى، فيما يتصل بالجهد الذي اقتضاه إخراج الحاجب من مسكنه في الطابق الأرضي بقرع الجرس. وحاول الطبيب، وهو شاب قدم نفسه للحاضرين جميعاً، أن يقوم بالإسعافات الأولية حين أرقد القوم

الغائب عن الوعي على أريكة. ووصلت عربة الإسعاف الى المكان بسرعة مفاجئة. ومات رودولف، كما عبّر لي عن ذلك الطبيبُ بعد المعاينة مباشرة بأنه هو الأرجح، مع الأسف، في الطريق الى مستشفى المدينة.

أمّا أنا فانضممت الى موظفي الشرطة الذين وصلوا فيما بعد، وإلى معتقلتهم التي كانت تنشج الآن في تشنُّج، لأعرف المفوَّض على حقيقة أمرها وأؤيّد إدخالها الى مستشفى الطب النفسي، ومع ذلك فلم يجر إقرار هذا بعدُ في ليلة اليوم.

وكانت أجراس الكنائس تدق مؤذنة بحلول منتصف الليل حين غادرت هذه الدائرة، وتوجهت الى مسيرة متبقِّية مريرة: الى ذلك الذي في شارع برنتس ريجنت، إذ كنت أرى أن من واجبي أن أبلغ الزوج الضئيل بما حدث مع مراعاة مشاعره قدر الإمكان. ولم تتح لي فرصة المسير إلاّ حين عادت المسألة تستحق انتهازها. ووجدت باب المنزل موصداً، ولكن قرعي الجرس أفضى الى إيقاد نور السلالم، ونزل إليّ إنستيتوريس نفسه - ليجدني، الآن، بدلاً من زوجته أمام الباب. وكان له أسلوب يفتح به فمه ليلتقط أنفاسه، ويشدّ في أثناء ذلك شفته السفلى الى أسنانه بإحكام.

وقال متلعثماً: «رباه، ماوراءك؟ أهذا أنت؟ ماالذي جاء بك... ألديك فيما يتصل بي...».

ولم أقل شيئاً تقريباً وأنا على السلالم، غير أني رويت له هناك، في حجرة معيشته، حيث كنت تلقيت اعترافات إنيس الباعثة للانقباض، ماشاركت في مشاهدته، بعد بعض الكلمات التمهيدية. وكان قد وقف وقعد على عجل في أحد المقاعد المصمّمة على شكل سلة، حين فرغت من حديثي، غير أنه كشف بعد ذلك عن رباطة جأش رجل

كان يعيش زمناً طويلاً في جوّ ينطوي على تهديد رهيب.

وقال: «هذا إذاً ماكان يفترض أن يأتي» وكان يُفْهَم منه بوضوح أنه كان ينتظر كيفية مجيء هذا على خوف، فحسب.

وقال وهو ينهض قائماً: «أريد أن أذهب إليها، وآمل أن يُسمَح لي بالحديث معها هناك» (وكان يقصد سجن الشرطة).

ولم يكن في وسعي أن أمنحه الكثير من الأمل بالنسبة الى ليلة اليوم، غير أنه قال بصوت واهٍ، إن واجبه أن يحاول ذلك، ودس نفسه في المعطف، وخرج من المسكن مسرعاً.

ولكن في الحجرة التي كان يتميَّز فيها تمثال إنيس النصفي، مُطِلاً ببصره إطلالة القضاء المحتوم كانت أفكاري تذهب الى حيث طالما كانت تذهب في الساعات الأخيرة، كما سوف يصدِّقني المرء، على نحو متواصل. وكان ثمة إبلاغ مؤلم مازال من الواجب القيام به، كما بدا لي. ولكن جموداً خصوصياً سيطر على أعضائي، بل سَرى حتى بلغ عضلات وجهي، حال بيني وبين أن أرفع سمّاعة الهاتف وأطلب الاتصال ببفايفرينج، ورفعتها، قائلاً إن هذا غير صحيح، وتركتها منكَّسة في يدي، وسمعت في الخط صوتاً مكبوتاً يأتي من تحت البحر، هو صوت الآنسة العاملة في دوامها يعلن عن نفسه. ولكن تصوراً نجم عن إرهاقي الذي بات مرضياً، ومؤداه أنني أوشك أن أُقْلِق منزل آل شفايجشتل، من غير جدوى على الإطلاق، في وقت الليل، وأنه ليس من الضروري أن أسرد لأدريان مشاهداتي، وأنني خليق أن أجعل من نفسي بذلك مضحكاً بطريقة ما، هذا التصور أحبط مشروعي، وأعدت السماعة الى حمّالتها.


محمد خطاب

(٤٣)

هاهي ذي قصتي تسارع الى نهايتها - وهذا شأن كل شيء، فكل شيء يزحف ساعياً الى نهايته، والعالم يوشك أن يبلغ أجله، وتلك هي حاله على الأقل بالقياس إلينا معشر الألمان الذين يصبُّ تاريخهم الذي يرجع الى ألف عام، مدحوضاً، إذ يُساق الى العبث، ويضل سبيله، أو يخطئ هدفه من حيث كونه مشؤوماً، ويثبت أنه طريق ضلال أو متاهة، من خلال هذا الحدث، في اللاشيء، في اليأس، في إفلاس لامثيل له، وفي رحلة الى الجحيم تتراقص حواليها ألسنة اللهيب المُرْعِدة، وإذا صح مايهدف القول المأثور الألماني الى جلائه وهو أن كل طريق يفضي الى هدف صحيح فهو صحيح أيضاً في كل بعد من أبعاده كان من الواجب أن نقرّ أن الطريق الذي أفضى الى هذا الفساد، وأنا أستعمل هذه الكلمة بأشد معانيها صرامة وألْصَقِها بالدين، - إذ كان الفساد في كل شيء، وفي كل نقطة من نقاطه وفي كل منعطف من منعطفاته، مهما يكن من مرارة إقرار هذا المنطق بالقياس الى الحب. على أن الاعتراف الذي لامندوحة عنه، بالفساد، ليس مرادفاً لإنكارِ الحب. ولقد أحببتُ، وأنا الألماني البسيط، والمثقَّف، كثيراً من الخصال الألمانية، بل كانت حياتي غير ذات الشأن، والمؤهَّلة، مع ذلك للافتتان والتفاني، مكرَّسة للحب، المروَّع في كثير من الأحيان، والخائف أبداً، ولكنه وفيّ الى الأبد،

لإنسانية وفنيّة ألمانية لها خطرها، لاتقدر نزعتها الى الخطيئة ووداعها المفزع على شيء فوق هذا الحب الذي ربما كان مجرد انعكاس لبريق الرحمة، ومن يدري؟.

وها أنذا معتزل، في انتظار الطامّة التي لايقدر الإنسان على أن يتجاوز بتفكيره تحقُّقَها، أحبس نفسي في صومعتي هذه الفرايزنجية، وأتجنَّب النظر الى مونيخنا المجهّزة أفظع تجهيز، والى التماثيل الصغيرة التي أُسْقِطت، والى واجهات المباني التي تطل من المحاجر الخاوية التي تمثل اللاشيء الذي يتثاءب من ورائها، غير أنها تبدو كأنها تميل الى فعل ذلك بصراحة، إذ تزيد من الأنقاض التي تغطي حجارة رصف الشوارع، ويتشنج قلبي من التعاطف مع نفوس أبنائي المتبالهة، التي آمنت، شأن جمهور الشعب، وهلّلت، وضحَّت، وكافحت، وقد باتت الآن تتذوق، منذ عهد بعيد، مثل الملايين ممن هم على شاكلتها، بعيون جامدة، الصحوة من السكر، التي قُدِّر لها أن تتحول الى حيرة أخيرة، والى يأس شامل. أمّا أنا، الذي لم يكن في وسعه أن يؤمن إيمانها، أو يشارك في سعادتها فلن تزيد في قربي منها أزمتها الروحية، كما أنهم سيلقون عبء هذه الأزمة على عاتقي أيضاً، وكأن الأمور كانت خليقة أن تسير على غير هذه الصورة لو أنني شاركت في رؤية حلمهم المنحطّ. فليساعدهم الله. وأنا وحيد مع زوجي العجوز هيلين التي تعنى بأمور جسدي، والتي أتلو عليها في بعض الأحيان فقرات تتماشى مع بساطتها، من هذا العمل الكتابي الذي يتجه كل تفكيري الى إنهائه في غمرة هذا الانهيار.

وقد ترددت أصداء نبوءة النهاية، المسماة «رؤيا نهاية العالم

التشكيلية» على نحو لاذع وعظيم، في شباط عام ١٩٢٦، في فرانكفورت /الماين، وذلك بعد عام من الأحداث المفزعة التي يترتب عليَّ سردها، وقد تكون لها علاقة جزئية بحالة الانكسار الذي خلفته هذه الأحداث في نفس أدريان، حتى إنه ماعاد يغالب نفسه لكي يخرج على تحفُّظه المعتاد ويشهد الحدث المتميز بقدر كبير من الإثارة، وإن كان مصحوباً أيضاً بالكثير من الصراخ الخبيث والضحك العديم الذوق. ولم يكن قد سمع أبداً العمل الفني، وهو أحد المَعْلَمين الرئيسيَّيْن في حياته المريرة والفجّة والمتميِّزة بالزهوّ بالنفس - الأمر الذي لا يسمح أبداً، بالإكثار من الشكوى منه بعد كل ما دأب على قوله بصدد «السماع»، وباستثنائي أنا، الذي عرفت كيف أفرِّغ نفسي للرحلة، لم يذهب من حلقة معارفنا إلاّ العزيزة جانيت شورل التي سافرت الى العرض في فرانكفورت على الرغم من وسائلها الضئيلة، وتحدثت في ذلك بعدئذ الى الصديق بلهجتها الشخصية جداً، والمؤلفة من مزيج من البافاريّة والفرنسية. وكان يسرّه على وجه الخصوص في تلك الأيام أن يرى عنده الفلاّحة الأنيقة: إذ كانت تتمتع، بالقياس إليه على أية حال، بحضور يبعث على الطمأنينة والارتياح، وبنوع من الطاقة الحامية ولقد رأيته بالفعل معها في ركن من أركان حجرة رئيس الدير، قاعدين، ويَدُ كلٍّ منهما في يد الآخر، صامتين، كالمستخفَيْين. ولم تكن مسألة يده في يدها من طبعه، بل كانت تمثل تغيُّراً لاحظته بتأثُّر، بل بسرور، ولكن من دون أن يخلو ذلك من التوجُّس.

وفي ذلك الوقت كان يحب أيضاً، أكثر مما أحبَّ في أي وقت مضى، أن يكون حوله روديجر شيلدكناب ذو العينين المتماثلتين، والحق

أن هذا كان يضنُّ بنفسه حسب أسلوبه القديم، ولكن كان إذا وُجِد، وهو السيد النبيل المهلهل، كان على استعداد للمسيرات الطويلة، في الريف، التي كان أدريان يحبها، ولاسيما حين لايكون في وسعه أن يعمل، والتي كان روديجر يتبِّلها له بالأسلوب الهزلي المرير والشائه. ولَمّا كان فقيراً كالفأر في الكنيسة، فقد كان في تلك الأيام كثير الاشتغال بأسنانه المهملة والمتداعية، ولم يكن يتحدث عن شيء سوى أطباء الأسنان الذين لا إخلاص عندهم، والذين كانوا قد تظاهروا بأنهم يعالجونه بدافع الصداقة، ولكنهم طرحوا بعد ذلك، فجأة، مطاليب باهظة، وعن نظم التسديد، والمواعيد المُفَوَّتة التي كان يضطرُّ بعدها الى التماس مسعف آخر وهو يعلم حق العلم أنه لن يتمكن من إرضائه، ولايريد إرضاءه أبداً، مع المزيد من أمثال ذلك. وكانوا قد ضغطوا له، في غمرة ألوان من العذاب، جسراً ضخماً على جذور متبقية مؤلمة سرعان ما أخذ يتذبذب تحت وطأة حمولته، حتى لقد أسفر الانحلال الرِّمّي(*) للبنيان المصطنع عن عقد التزام بديون جديدة ماكان من الممكن أن يتم تسديدها أبداً. وأعلن قائلاً في فزع وهَوْل: «إنه ينهار»، غير أن المسألة لم يكن من شأنها أنه لم يكن لديه اعتراض عندما ضحك أدريان من ذلك البؤس حتى ذرف الدموع فحسب، بل كان يبدو كأنما كان هو ذاته يهدف الى ذلك، وبات يحني ظهره، هو ذاته من فرط الضحك الصبياني.

وكان مجلسه المصحوب بالفكاهة المريرة، السوداء، ملائماً في تلك الأيام للرجل الوحيد على وجه الخصوص، وكنت أنا، الذي لم أكن، مع

(*) نسبة الى الرِمّة، أي الجثة.

الأسف موهوباً في مضمار تقديم المضحك إليه أقوم بدوري في تأمين هذا المجلس له، بتشجيع روديجر على زيارات لبفايفرينج، إذ كانت حياة أدريان في هذه السنة كلها خالية من العمل: إذ كان الافتقار الى الأفكار، وخمول الفكر، اللذان أصيب بهما يعذبانه الى أقصى الحدود، ويذلاّنه ويبعثان في نفسه الخوف، كما كان يتبيّن من رسائله إليّ، وكانا يشكلان، كما بيَّن لي أنا على الأقل، سبباً رئيسياً لرفضه الذهاب الى فرانكفورت، إذ قال إن من غير الممكن أن يرضى المرء بما أنجز من قبلُ، في حالة عجزه عن الإتيان بما هو أفضل، وأن الماضي لايكون محتملاً إلاّ عندما يشعر المرء أنه متفوق عليه بدلاً من أن يضطر الى الاندهاش منه كالأبله في وعيه لعجزه الراهن. وكان يقول عن حالته إنها مجدبة، تكاد تتسم بالبَلَه» كما جاء في رسائل وجهها إليّ في فرايزينج، وإنها «حياة كلاب» أو حياة نبات ساكنة سكوناً لايطاق يعد سَبُّها هو الإنقاذ الوحيد، البائس، للشرف، وهي حياة يمكن أن تنتهي به الى أن يتمنى حرباً جديدة أو ثورة جديدة، أو نحو ذلك من أمثال ذلك الصخب الظاهري، لمجرد أن ينتزع نفسه من تبلُّد الحسّ، وإنه ماعاد لديه أدنى تصوّر عن التأليف الموسيقي، بالمعنى الحرفي لهذه الكلمة، وماعاد لديه أوْهَن ذكرى عن الكيفية التي يصنع بها المرء هذا، وإنه يؤمن إيمان الواثق أنه لن يدوّن أبداً بعد هذا نوطة موسيقية. «فلترحمني الجحيم، صَلِّ من أجل نفسي البائسة!»، كانت أمثال هذه العبارات تتردد في وثائقه التي مهما كان من التكدير الذي أفعمتني به فقد كانت ترتقي بي أيضاً من جديد، إذ كنت أقول لنفسي إنني بِتُّ الآن، حقاً، الوحيد، أنا، رفيق الصبا، ولا أحد غيري في الدنيا، يمكن أن يكون متلقّي هذه الاعترافات.

وكنت أحاول، في إجاباتي، أن أواسيه بالإشارة الى مقدار مايصعب على الإنسان أن يتجاوز بتفكيره حالته الراهنة، التي يجنح دائماً الى أن ينظر إليها، بحكم الشعور، وإن كان هذا مخالفاً للعقل، على أنها نصيبه المقسوم الدائم، إذ يكون غير قادر، إن صح التعبير، على أن يطل ببصره على الزاوية المجاورة، - وهو الأمر الذي ربما كان ينطبق على الأحوال السيئة أكثر مما ينطبق على الأحوال المُوَفَّقة، وإن حالة الهمود والخمود عنده لايمكن تفسيرها إلاّ بخيبات الأمل القاسية التي عانى منها مؤخراً. وقد كنت ضعيفاً، و «شاعرياً» بما يكفي لمضاهاة بوار فكره ببوار الأرض التي تستريح في الشتاء، والتي تواصل الحياة حركتها الخفيّة في حضنها، إذ تعدّ العدة لإنبات جديد، وهي صورة، كما كنت أشعر أنا، تنم عن طيب قلب غير مسموح به، وكانت سيئة التلاؤم مع تطرُّف حياته، والتناوب بين الانعتاق الإبداعيّ والشلل التكفيريّ الذي كان خاضعاً له، كما كان ثمة عمق جديد لصحته، يعمل عمله مرافقاً لها أكثر مما يعمل عمله علةً وسبباً، جنباً الى جنب مع حالة الركود في طاقاته الإبداعية: إذ كانت نوبات الشقيقة الثقيلة تحبسه في الظلام، وكانت النَزْلات التي تصيب المعدة والشعب الرئوية والبلعوم تضنيه وتقض مضجعه بمعنى الكلمة أثناء شتاء عام ١٩٢٦، على التناوب. وكانت خليقة أن تكفي وحدها لتحول بينه وبين الرحيل الى فرانكفورت، مثلما حالت دون رحلة أخرى أكثر إلحاحاً من الوجهة الإنسانية، ولايعترض عليها أحد، وهي واضحة جلية، وناشئة عن كلمة الطبيب الإلزامية.

ففي حوالي نهاية العام، وفي اليوم ذاته تقريباً، وكان هذا من

غرائب الأمور، فارق الدنيا الفانية ماكس شفايجشتل ويوناتان ليڤركون، وكلاهما في الخامسة والسبعين، - وهما والد أدريان وناظره، ومضيفه على مدى سنين طويلة في باڤاريا العليا في تلك المضافة، ووالده هو، هناك، في مزرعة بوخل. ووصلته برقية أمه التي أبلغته بالرحيل الوادع لصاحب التأمُّل والنظر، عند محفة ذلك الذي كان يتسلى بالأفكار في هدوء، بلهجة أخرى، والذي خلّف عبء الإدارة والتدبير منذ عهد بعيد، وعلى نحو مطرد الزيادة، لولده الوارث جيريون، مثلما يمكن أن يكون ذاك قد خلفها لولده جورج، ثم نزل الآن عنها له بصورة نهائية. وكان في وسع أدريان أن يكون على يقين أن إلزْبيت ليڤركون تقبَّلت الأمر، برباطة الجأش الهادئة ذاتها، وبالرضى بالقضاء المبنيّ على التفهم، ذاته، فيما هو إنساني، كما فعلت شفايجشتل الوالدة، ولم يكن من الممكن التفكير في رحلة الى زاكسن - تورنجيا للدفن مع حالته في تلك الأيام، ولكن على الرغم من أنه كان محموماً في يوم الأحد، وكان يشعر بضعف شديد، أصرَّ، خلافاً لتحذير الطبيب، على المشاركة في مراسيم الدفن التي حضرها أناس من المنطقة بأسرها، في جمع غفير، لمضيفه في كنيسة قرية بفايفرينج، كما قمت أنا أيضاً بتشييع الراحل، الى مثواه الأخير وأنا أشعر أنني أشيع في الوقت ذاته ذلك الآخر، وعدنا أدراجنا مشياً على الأقدام معاً، الى منزل شفايجشتل، متأثرين على وجه الخصوص من الملاحظة التي كانت قليلة الإثارة للتعجب حقاً، وهي أنه على الرغم من تواري الشيخ كانت النكهة الخاصة بالتبغ الصادرة عن غليونه تنبعث من حجرة المعيشة المفتوحة، كانت تشحن الجوّ بها من قبل ومن بعد، إذ تُشَرِّب جدران الممرّ تشريباً عميقاً.

وقال أدريان: «هذا أمر يدوم، حقبة بأسرها، بل ربما دام مادام المنزل قائماً، كما أنه يدوم في بوخل أيضاً. على أن حقبة دوامنا بعد ذلك، سواء أكانت أقصر قليلاً، أم كانت أطول قليلاً، يسمّونها الخلود».

وكان هذا بعد عيد الميلاد، - وكان كلا الوالدين قد خلف العيد وراء ظهره جزئياً، وقد بات عالم الدنيا غريباً عنه، وقد قضاه مع أهله. ومثلما يتنامى الضوء، في صباح اليوم الأول من العام الجديد، كانت حالة أدريان تتحسَّن على نحو واضح، وانقطعت سلسلة ألوان عذاب الأمراض التي كانت تكبته، وبدا، من الناحية النفسية، كأنه تغلَّب على إخفاق مخططات حياته وما كان يرتبط بها من خسائر تُزَلْزِلُه. وانبعث فكره، - وربما كان يجد الآن بعض الجهد في الحفاظ على رزانته ورَويِّته وسط عاصفة الأفكار المتزاحمة، وأصبح هذا العام، أي عام ١٩٢٧، عام النتاج العالمي والعجائبي في مضمار موسيقى الحجرة: فكان هناك أولاً موسيقى المجموعة المخصصة لثلاثٍ من الآلات الوترية، وثلاثة من الأبواق الخشبية، وبيانو، في مقطوعة أودّ أن أقول إنها تتسم بالشرود ذات موضوعات مفرطة في الطول، تمارس التخيُّل، تتمّ معالجتها من وجوه عديدة، ويتم حلُّها من دون أن تعود صريحة من جديد في أي وقت من الأوقات. ولكم أحب ذلك الشوق الذي يزحف في عَصْفِه قدماً الى الأمام، وهو العصف الذي يشكل سمته الخاصة، أي الجانب الرومانسي في نغمته! - مادام يتم العمل فيه بأشد الوسائل الحديثة صرامة - وذلك من حيث الموضوع في الحقيقة، ولكن مع تبدُّلات يبلغ من شدتها أنه لاتوجد أشكال حقيقية من التكرار. ويطلق على الفصل الأول اسم «الفانتازيا» بصراحة، أمّا الثاني فهو الأداجيو الذي يتعالى في تصاعد

قويّ، وأما الثالث فهو الخاتمة التي تُعزَف بسهولة، تكاد تكون كاللعب، وتتكاثف على نحو مطرد الزيادة في طباق، وتتخذ صفة الجدّ المأساوي على نحو مطرد الزيادة، الى أن تنتهي الى تعقيب يتسم بالاكفهرار والكآبة، يشبه اللحن الجنائزي. ولايكون البيانو أبداً آلة ملء هارمونية، ويعد دوره منفرداً كما يكون هذا في حفلة موسيقية بالبيانو - وفي هذا يخلّف أسلوب الحفلة الموسيقية بالكمان آثاره. وربما كان ماينال إعجابي الى أعمق مدى تلك البراعة الفائقة التي يتمّ بها حلّ مشكلة التأليف بين الأصوات. وما من موضع تغطي فيه الآلات النفخية على الآلات الوترية، بل تفسح هذه لها على الدوام مجالاً صوتياً وتتناوب معها. ولا تجتمع الآلات الوترية والآلات النفخية، في عزف جماعي، إلاّ في مواضع قليلة للغاية، وإذا كان لي أن ألخص هذا الانطباع: فالمسألة كأنَّ المرء يُغرى بالانطلاق من مخرج ثابت ومألوف الى أقاليم تزداد بُعداً على نحو مطرد - وكل شيء يجري خلافاً لما هو متوقع. وقال أدريان: «لم أكن أريد أن أكتب لنفسي سوناته، بل رواية».

وهذا الميل الى «النثر الموسيقي» يصل الى ذروته في الرباعي الوتري، الذي هو عمل ليفركون الأشدُّ تقوقعاً على الإطلاق، وربما كان هو الذي يلي مقطوعة المجموعة مباشرة. وإذا كان من شأن موسيقا الحجرة في العادة أن تمثل المرتع الخصب للعمل المتميز بنغمة أساسية وفكرة رئيسية، فقد تمّ اجتناب هذا من باب الاستفزاز على وجه الخصوص. وليس هناك على الإطلاق علائق فيما يتصل بالنغم الأساسي، أو تطوُّرات، أو أشكال من التنوُّع، ولا أشكال من التكرار، بل يلي ذلك الجديد، في غير انقطاع، وبطريقة غير مقيدة على مايبدو،

إذ يمسك به تشابه النغم، أو الإيقاع، أو ماهو أكثر من ذلك بعد، وهو أشكال التضاد. وليس هناك أثر من القوالب الموروثة. وتبدو المسألة كأن الأستاذ في هذه المقْطوعة التي تبدو فوضوية كان يسحب نفساً عميقاً من أجل غنائية فاوستوس، أكثر أعماله تقيُّداً والتزاماً. أما في الرباعيّ فقد ترك المسألة لأذنه فحسب، أي للمنطق الداخلي للخاطرة، وبذلك تتعرض البوليفونية للتصعيد الى أقصى الحدود، ويكون كل صوت في كل لحظة، مستقلاً كل الاستقلال، كما يتحقق النطق بالمجموع من خلال سرعات بالغة الوضوح بعضها تجاه بعض، على الرغم من أن من الواجب عزف الأجزاء من دون مقاطعة. أما الأول، وهو الموديراتو، فيحاكي حواراً يتميز بعمق التفكير، وإجهاد الذهن، وخروجاً للتشاور معاً، بين الآلات الأربعة، وتبادلاً ذا مسار جدي وهادئ، يكاد يكون من دون تغيّر ديناميّ، ويلي ذلك قسم البريستو، الذي تعزفه الآلات، والذي يُهمَس همساً كما يحدث في حالة الهذيان مع كاتمات الصوت، ثم يأتي فصل بطيء، ثم فصل أقصر تحمل الڤيولا أو الكمنجة القديمة فيه الصوتَ الرئيس، مصحوباً بالتدخل من جانب الآلات الأخرى، بحيث يتم تذكير المرء بمشهد غنائي. وفي الألّيجرو تتمتع البوليفونية بحياتها الكاملة في سطور طويلة، ولست أعرف شيئاً أكثر إثارة من الخاتمة، حيث تكون المسألة كما لو أن ألسنة من اللهيب تتراقص من كل الجوانب الأربعة: توليفة من أشكال العَدْوِ والزغاريد، تحدث انطباعاً كأن المرء يسمع أوركسترا كاملة. وبالفعل يتمّ عن طريق استغلال المواقع البعيدة للآلات والإمكانات الصوتية الأكثر امتيازاً في كل آلة، الوصول الى صوت جهوري ينسف الحدود المألوفة لموسيقا الحجرة، ولست أشك في أن النقد

سوف يعارض الرباعي على وجه الإطلاق بقوله إنه عمل مقنَّع من أعمال الأوركسترا، وسيكون على غير الحق. على أن دراسة النوطة الموسيقية تعلمنا أن أكثر التجاريب دقة في فصل الرباعي الوتري قد تم استغلالها. وقد أعرب لي أدريان بالطبع، مراراً عن رأيه الذي يفيد أن الحدود القديمة لموسيقا الحجرة وأسلوب الأوركسترا لايمكن الالتزام بها، وأنه منذ تحرر لون كل منهما تداخل مع لون الآخر، على أن الميل الى ما يرجع الى أصلين، والى المزج والتبديل، كما يتجلى منذ معالجة الغنائي والآلاتي في «رؤيا نهاية العالم» كان عنده في تصاعد ونموّ بالطبع ولقد قال: «لقد تعلمت في كلية الفلسفة، أن مجرد وضع الحدود يعني تخطيها، ولقد التزمت بذلك على الدوام». وما قاله كان نقد هيجل لكانط، وهذا القول المأثور يبيّن مدى عمق تأثر إبداعه بالجانب الفكري، وبالانطباعات المبكرة.

وفي النهاية يأتي الثلاثي للكمان، والفيولا، والفيولونسيل، الذي لايكاد يمكن عزفه، ولايمكن فرضه في الواقع إلاّ من قبل ثلاثة عازفين من أهل البراعة الفائقة، من الناحية التقنية، على كل حال، وكذلك من خلال إثارة الاهتمام البناء الذي يحدثه، والانجاز الفكري الذي يمثله، والإدهاش عن طريق الألوان المختلفة من مزج الأصوات الذي لم يسبق تصوُّره، والأذن التي ترغب فيما لم يُسمَع من قبل، والخيال التوليفي من النوع الخصوصي، المستخلص من ثلاثٍ من الآلات. «إنها مستحيلة، ولكنها تستحق الامتنان» هكذا ميَّز أدريان، وهو في مزاج حسن، المقطوعة، التي كان قد شرع في تدوينها أثناء نشوء الموسيقا الجماعية، والتي كان قد حملها في ذهنه، واستكمل تشكيلها، مشحوناً بالعمل

في الرباعي الذي كان المرء خليقاً أن يتصور أنه كان لابد له أن يستهلك وحده الطاقات التنظيمية لإنسان على المدى الطويل والى آخر مافيه. وكان تداخلاً حافلاً بالايحاءات، والمطاليب، وألوان تحقيق المطاليب والندب لمهمات، وجملة صارخة من المشكلات انقضّت مع حلولها، - وقال أدريان: «ليلته التي لايسودها الظلام من كثرة البروق».

وأضاف قائلاً: «إنه نوع من الإضاءة على جانب من الخشونة، يتسم بالتململ، وأي شيء في هذا، فأنا نفسي متململ قَلِق، ولقد أمسك الشيطان بتلابيبي، وهو يذهب معي الى مدى ترتعد عنده كل جثتي، والخواطر، ياصديقي العزيز، حثالة غير مستحسنة، لها وجنات ساخنة، وهي تسخِّن وجنتيك أنت بأسلوب ليس بالمستحب تماماً. وقد ينبغي للمرء، بلاريب، أن يفرِّق في كل وقت، تفريقاً نظيفاً بين السعادة والعذاب، على أنه صديق حميم لواحد من أهل النزعة الإنسانية» وتبيَّن أنه لايعرف في بعض الأحيان ألا يعدُّ العجز الوداع الذي كان يعيش فيه منذ حين، حالة أجدر بأن يرغب المرء فيها بالقياس الى حالة التعرُّض للعذاب، الراهنة.

وعاتبته على نكران النعمة. وكنت أقرأ وأسمع في الخفاء، من أسبوع الى آخر، وقد تولتني الدهشة، ودموع السرور في عينيّ، وبفزع ينطوي على المحبة أيضاً، مادوَّن على الورق من تدوين موسيقي، دقيق، نظيف، بل مزوَّق لم يكن عليه أثر من آثار القلق أو الاضطراب، مما أوحى إليه به، - كما عبَّر هو، روحه و ديكه الرومي (وكان يكتب كلمة الديك الرومي محرَّفة) - أو طلبه منه. وفي نَفَس واحد، وبعبارة أفضل، في حالةٍ من اللُّهاث، دوَّن المقطوعات الثلاث التي كانت واحدة منهنَّ

خليقة أن تكفي لكي تجعل سنة نشوئها خالدة الذكر، وشرع بالفعل بتدوين الثلاثي في اليوم ذاته الذي أتمّ فيه «لينتو» الرباعيّ الذي تمّ تأليفه مؤخَّراً. وكتب إليّ، حين لبثت ذات مرة أربعة عشر يوماً لا أستطيع المجيء إليه، يقول: «تسير المسألة وكأنني درست في كراكوفي»، وهذا تعبير لم أفهمه على الفور، الى أن تذكرت أن جامعة كراكوفي كانت هي التي يُدَرَّس فيها السحر علانية في القرن السادس عشر.

وأستطيع أن أؤكد أنني كنت أصغي باهتمام بالغ الى أمثال هذه الصياغات الإنشائية في تعبيره، التي كان في الحقيقة يحبها دائماً، والتي باتت تظهر الآن على نحو أكثر تواتراً من ذي قبل - أم هل ينبغي لي أن أقول: «في كثير من الأحيان». وسرعان ماقُدِّر لي أن أتبيَّن السبب. كانت الإشارة الأولى بالقياس إليّ حين وقعت عيني ذات يوم، على منصة عمله، على ورقة نوطة كان قد كتب عليها بريشة عريضة، الكلمات التالية:

«كان الحزن يدفع الدكتور فاوستوس الى تدوين نُواحه»

ورأى مارأيت، وأبعد الورقة عن عيني وهو يقول: «ماذا يفعل السيد والأخ هنا، أتراه استبدّ به الفضول» وكان يكتم عني وقتاً طويلاً بعدُ ماكان يفكر في تنفيذه بهدوء وصمت، من دون مساعدة إنسان، غير أني بتُّ أعرف ماعرفته منذ هذه اللحظة. على أن مما لايرقى إليه الشك أن عام موسيقى الحجرة، وهو عام ١٩٢٧، كان أيضاً عام التخطيط لمشروع «نُواح الدكتور فاوستوس». وكان الأمر يبدو غير جدير بالتصديق الى حد بعيد: في الصراع مع الواجبات، كما كان يبدو بالغ

التعقيد الى حد أن المرء لايستطيع أن يتصور التمكن منه إلاّ بأقصى أشكال التركيز وأشدها استبعاداً لما عداه، كان فكره في حالة من النَظَر المترقب، المجرِّب، المتلمِّس، في أجواء الموشَّحة الدينية، - هذا السَّحْق - الذي كان يفترض في حدث عارض من أحداث الحياة أن يصرفه عنه بالتالي، بما يتسم به من الظرف، وبما بفعله من تمزيق نياط القلب.



(٤٤)

كانت أورسولا شنايديڤاين، أخت أدريان في لانجنزالتسا، قد اعتلّت رئتاها بعض الاعتلال على أثر الولادات المتعاقبة عاماً بعد عاماً، لأطفالها الثلاثة الأوائل، واضطرت الى قضاء بضعة أشهر في مَرْبَع للاستشفاء في جبال الهارتس، وكان يبدو عندئذ أنها تماثلت للشفاء مع النزلة الرئوية الحادة، وخلال العقد الذي انقضى حتى ظهور أصغر أطفالها، الصغير نيبوموك، كانت أورسولا عند ذويها زوجة ناشطة وأمّاً خالية البال، وعلى الرغم من أن فترة الجوع أثناء الحرب وبعدها لم تفسح المجال من أجل ازدهار حقيقي لصحتها، فإن حالات البرد المتواترة، التي بدأت بمجرد العطاس، ثم أخذت تهبط، على نحو مطّرد، الى الشُّعَب الرئوية، فأصابتها. وظل مظهرها (الذي كان من الممكن أن يُغَرَّ المرءُ عنه بملامح تنمّ عن السرور مع طيب القلب وعن الرزانة) ينمّ عن الهشاشة والشحوب، إذا لم يكن ينمّ عن المعاناة.

وكان يبدو أن الحمل في عام ١٩٢٣ أقرب الى أن يرفع من شأن حيويتها، منه الى أن ينال منها، واستعادت صحتها بعد الولادة بشق النفس بالطبع، وتجددت أشكال الاختلال الحُمَّوي التي أفضت الى الإقامة في مربع الاستشفاء قبل عشر سنين، وكان الحديث يدور في مثل تلك الأيام عن قطع متجدد لحياة ربة المنزل من أجل الرعاية النوعية، ولكن

تحت تأثير الارتياح النفسي، وسعادة الأم وسرورها بولدها الصغير، الذي كان أكثر الأطفال في الدنيا وداعة ومودة، وأجدرهم بالمحبة، وأسهَلَهم رعاية، عادت الأعراض الى الظهور من جديد، وظلت السيدة الشجاعة محافظة على صلابة عودها طوال سنين حتى آيار ١٩٢٨، حين أصيب نيبوموك ذو الخمسة أعوام، والعنيف حقاً، بالحصبة، وتحوّلت الرعاية المشوبة بالخوف والقلق للطفل المحبوب على نحو استثنائي، في الليل والنهار، الى عبء ثقيل على طاقاتها، وكانت هي ذاتها تعاني من نوبة من نوبات المرض لم تكن تجانبها فيها تذبذبات درجة الحرارة، والسعال. اقترح من أجلها الطبيب المعالج إقامةً في المستشفى قدرها بصورة مسبقة، بنصف عام، بصورة إلزامية ومن دون تفاؤل خاطئ.

وجاء هذا بنيبوموك الى بفايفرينج، وذلك أن أخته روزا، ذات السبعة عشراً حولاً، (وحزقيال، الأصغر منها بمقدار عام، والعامل في تجارة البصريات، بينما كان ريموند ذو الخمسة عشر عاماً مازال يذهب الى المدرسة) كان عليها الآن أن تتابع المهنة الطبيعية المتمثلة في إدارة منزل والدها في غياب أمها، وكانت خليقة، بموجب كل التوقعات، أن تكون أكثر انشغالاً من أن تتمكن من أن تأخذ على عاتقها رعاية الأخ الصغير. وكانت أورسولا قد وضعت أدريان في الصورة، وكتبت إليه كيف أن الطبيب خليق أن يجد في ذلك حلاً موفَّقاً للغاية إذا ماأتيح للنقاهة الطفولية أن تقضي بعض الوقت في أجواء الريف في باڤاريا العليا، ورجت منه أن يوجه تفكير مضيفته لكي تقوم، حيناً من الزمن، مقام الوالدة أو الجدة بالنسبة للصغير، وكانت إلزا شفايجشتل مستعدة بسرور، وزادها في ذلك إقناع كليمنتينا. وبينما كان يوهانيس

شنايديڤاين يصحب زوجته الى جبال الهارتس، الى المصح ذاته، بالقرب من سوديروده باتجاه الجنوب، التي كانت قد أفادتها ذات مرة من قبل، كانت روزا ترتحل مع أخيها الصغير نحو الجنوب وتأتي به الى حضن خالها، في منزل والديه الثاني.

ولم أكن حاضراً عند وصول الأخوين الى المزرعة، ولكن أدريان وصف لي المشهد، حين أحاط بالصغير أهل المنزل بأسرهم، من والدةٍ، وابنةٍ، وولدٍ وارثٍ، وخادمات، وأجراء، في افتتان جليّ، يضحكون من السرور، وماعاد في وسعهم أن يشبعوا من هذا القدر البالغ من الظُرف، ولاسيما النساء، بالطبع، إذ خرجت العاملات في الخدمة ذوات السمعة الشعبية، الأكثر بعداً عن التحفُّظ، كلُّهن قريباً، من المنزل الصغير، وانحنين وقد تشابكت أيديهن، على الرجل الصغير، وقعدن القرفصاء عنده، وطفقن يدعون يسوع وماريا وجوزيف من أجل الغلام الجميل، مع اقتران ذلك بابتسامة متسامحة من أخته الكبرى التي لاحظ القوم أنها لم تكن تتوقع شيئاً آخر، وأنها اعتادت الولع العمومي بأصغر الأولاد في منزلها.

وكان نيبوموك، أو نيبو، كما كان يناديه ذووه، أو إيشو، كما كان هو يسمي نفسه مُذْ بدأ يتأتئ، مع غياب عجائبيّ للحروف المرافقة، يرتدي ثياباً صيفية بالغة البساطة لاتكاد تتسم بسمة لباس أهل المدن، قميصاً صغيراً على شكل سترة من القطن أبيض، قصير الأكمام، وسروالاً صغيراً قصيراً للغاية، من الكتان، وحذاءً من الجلد أبلاه المشي على القدمين العاريتين. وعلى الرغم من ذلك لم يكن يخيَّل الى المرء عند رؤيته شيء آخر سوى أنه يرى أميراً صغيراً من عالم الجن. وكان

الاكتمال المزوّق للقامة الصغيرة، مع الساقين الصغيرتين المشوقتين ذواتَيْ التكوين الحسن، والسحر الذي لايوصف في الشعر الأشقر المسترسل في فوضى الرأس الصغير الذي يغطيه، والذي كانت ملامحه، على مافيها من سمات الطفولة، تنطوي على شيء من النضج والأهمية، وحتى فتحة العين ذات الأهداب الطويلة، والزرقة البالغة الصفاء، - حتى هذا كله لم يكن هو الذي ابتعث ذلك الانطباع الذي يوحي بأسطورة، بزائر من عالم الصغار الظريف الفاتن. وكان يضاف الى ذلك وقفة الطفل وسلوكه وسط عالم الكبار الذين أَحْدَقوا به، يضحكون، ويطلقون صيحات التهليل الخافتة، مثلما يطلقون تنهُّدات التأثُّر، وابتسامته التي لم تكن خالية تماماً، بحكم البدهية من الدَلّ ومعرفته بسحره، وإجابته وتفسيره اللذين كانا ينطويان على شيء تعليمي، وتبليغيّ مستحب، والصوت الضئيل الفضيّ الصادر عن الحنجرة الصغيرة، وهذا الصوت الصغير من الكلام الذي مازال يختلط بحروف طفولية خاطئة، إذ تحل السين محل الشين، والنبرة السويسرية الموروثة عن الأب، والمأخوذة عن الأم في مرحلة مبكرة، في تَأنٍّ يسير، وتمهُّل احتفالي سهل، له دلالته، مع حرف الراء الهادر(*) في سلسلة من المقاطع الصوتية المتعثِّرة على نحو مضحك، في نحو قوله (stut - zig) و (schmut - zig)، والتي كان الرجل الصغير يواكبها، كما لم أرَ ذلك قط عند الأطفال، بحركات إيضاحية حافلة بالتعبير الغامض، من ذراعيه، ويديه العابثتين الصغيرتين، كانت تمحو، في كثير من الأحيان،

(*) على غرار الراء العربية الواضحة التي يرتَجُّ بها اللسان، وخلافاً للراء الألمانية التي هي أقرب الى الغين «المترجم».

أثر كلماته، لأنها لم تكن مناسبة لذلك، وكانت تبعث على الشعور بالغرابة، كما كانت مع ذلك بالغة الظرف.

وهذا هو الوصف العابر لنيبو شنايديڤاين - كما كان القوم جميعاً يسمونه على الفور على مثاله، أو وصف إيشو، على قدر ماتقدر على ذلك الكلمة المقاربة على إعطائه، لمن لم يره. وكم من كاتب قبلي تنهَّد أسفاً على عدم صلاحية اللغة للوصول الى تجسيد الرؤية، أي ابتعاث صورة للفرد دقيقة بالفعل! لقد أنشئت الكلمة للمديح والثناء، أما هو فتضفى عليه للإعجاب، والمباركة، ولتمييز التجليّ من خلال الشعور الذي يثيره، ولكن لا ليستحضره ويقدمه من جديد. والأرجح أنني أفعل ذلك بدرجة أكبر مما أفعله حين أحاول أن أرسم صورة من أجل موضوعي العزيز، إذ أعترف بأن الدموع تجول في عيني اليوم، بعد سبعة عشر عاماً كاملة، عندما أذكره، وهي الذكرى التي تملأ نفسي في الوقت ذاته ببِشْرٍ غريب من الأساس، أثيريّ، ليس من هذه الدنيا تماماً.

وكانت الأجوبة التي أعطاها، وسط التمثيل الإيمائي الساحر، على أسئلة عن أمه، ورحلته، وإقامته في مدينة مونيخ الكبيرة، تتميَّز، كما قلت، بلهجة سويسرية واضحة، وتدل، من خلال صوته الصغير، ونوعيّته، على كثير من اللهجة العامية، مثل Hüsli، بدلاً من Haus، و "Uppis Fens" بدلاً من "Etwas Feines" و "es bitali" بدلاً من "ein bisschen"، وكان مما يلفت النظر إيثاره كلمه «إذاً - also» في حالات ربط مثل قوله: «كان هذا إذاً لطيفاً» وأمثال هذا كثير»، كما كان يرد في حديثه عدد مما تبقى في اللغة ورسب فيها من لغة أقدم، محافظاً على مكانته، كقوله، مثلاً، عن شيء ماعاد يستطيع تذكُّره: «لقد سقط هذا من ذهني»، وكما قال في النهاية: "-Mehr neue Zi

"tig" بدلاً من "Zeitung"، بمعنى: «لاأعرف أخباراً بعد هذا»، ولكن لوحظ أنه لم يقل هذا إلاّ لأنه كان يهدف الى فك حلقة الحصار حوله، إذ صدرت بعد ذلك عن شفتيه الرقيقتين رقة النحل الكلمات التالية:

«إيشو لا يرى أن من اللائق أن يظل وقتاً أطول من ذلك خارج البيت، بل يحسن به أن يذهب الى البيت، ليلقي التحية على الخال».

وبهذه الكلمة مدّ يده الصغيرة الى أخته لكي تذهب به الى هناك، ولكن في هذه اللحظة خرج أدريان الذي كان قد استراح وأنجز أعماله في أثناء ذلك، بنفسه، الى ساحة الدار ليرحب بابنة أخيه.

وقال، بعد أن حيّا الفتاة الصبية، وأفاض في الحديث عن مشابهتها لأمها: «وهذا هو رفيق منزلنا الجديد؟».

وأمسك بيد نيبوموك، ونظر وقد عاد الى استغراقه بسرعة، في نجمتَيْ هاتين العينين اللتين تفتّحتا نحوه في ابتسامة لازوردية.

ولم يزد على أن قال وهو يومئ لجالِبَتهِ، ببطء: «والآن، الآن» ثم عاد الى النظر. ولم يكن من الممكن أن تفوت حركته أحداً، حتى ولا الطفل، وبدلاً من أن يقرع الجرس بجسارة، كان لديه شيء يداري على أساس من المراعاة، ويهدّئ ثائرة النفس بإخلاص، وينتهي بالمسألة إلى التسوية وإلى تفسير ودّي، حين قرّر إيشو، ببساطة، وكانت هذه الكلمة الأولى التي قالها لخاله: «أليس كذلك، ها أنتذا يسرُّك أنني أتيت».

وضحكوا جميعاً، حتى أدريان.

وردّ قائلاً: «هذا ما أردت أن أقوله، وآمل أن يكون سرَّك أنت أيضاً أن تتعرف علينا جميعاً».

وقال الصبي الصغير، بأسلوب مثير للعجب: «إنه لقاء ممتع».

وهمّ الواقفون أن ينفجروا بالضحك، ولكن أدريان وضع إصبعه على فمه إيعازاً بالسكوت، وهو يهز برأسه تجاههم.

وقال بصوت خفيض: «يجب على المرء ألاّ يربك الطفل بالضحك، ثم إنه لاداعي للضحك، ما رأيك، أيتها الوالدة؟» واتجه نحو السيدة شفايجشتل.

وأجابت قائلة بصوت حازم الى حد مبالغ فيه: «لاداعي على الإطلاق، ورفعت طرف صديريِّها الى عينها».

وقال يفصل في المسألة: «إذاً فلندخل» وتناول يد نيبوموك من جديد ليقوده «لاشك في أنك أعدَدْتِ لضيوفنا بعض المنعشات».

وكان هذا قد حدث. ففي قاعة إلهة النصر قُدِّمت الى روزا شنايديڤاين القهوة والى الصغير اللبن مع الجاتو، وجلس خاله معه الى المائدة، وجعل يرنو إليه أثناء الوجبة التي تناولها برشاقة، ونظافة بالغتين، وتحدث أدريان بعض الحديث في أثناء ذلك الى ابنة أخيه، غير أنه كان سيىء الإصغاء الى ماقالت، إذ كان مشغولاً بتأمّل الجني، كما كان مشغولاً، بالقدر ذاته، بالتكتُّم على تأثُّره لكيلا يثقل عليه ذلك ويخفق فيه، - وكان هذا قلقاً لا لزوم له، بالمناسبة، إذ بدا أن إيشو ماعاد في وسعه، منذ وقت بعيد، أن يعمل شيئاً من جراء الإعجاب الصامت والنظرات المشدوهة. وقد كان تفويت رفع طرفه الساحر للشكر على قطعة من الجاتو أو مناولة شيء من المخلل، خطيئة على كل حال.

وأخيراً نطق الرجل الصغير بمقطع صوتي، هو "habt"(*)، وكان، كما شرحت ذلك أخته، منذ البداية الأولى، يمثل التعبير عن الشبع،

(*) هذا الاشتقاق يقابله في الانكليزية اسم المفعول had، وبالفرنسية اسم المفعول eu «المترجم».

والاكتفاء، وعدم الرغبة في المزيد، وهو اختصار طفولي مبكر للعبارة الأصلية التي تفيد الحصول على مايكفي، والتي ظل يحتفظ بها حتى اليوم. لقد قال "habt"، وحين أرادت الأم شفايجشتل أن تلزمه بشيء من المزيد بدافع كرم الضيافة، قال، بعقل متفوق معين:

«إيشو يفضل النوم»

وجعل يفرك عينيه بقبضتيه الصغيرتين في إشارة الى نعاسه. وجاؤوا به الى السرير، وكان أدريان يحادث أثناء نعاسه أخته روزا في حجرة عمله. ولم تبق إلاّ حتى اليوم الثالث، إذ كانت واجباتها في لانجنزالتسا تشدُّها الى بيتها. وعند رحيلها بكى نيبوموك قليلاً، غير أنه وعد بأن يكون «لطيفاً» الى أن تعود لتأخذه. ربّاه!، لَكَأنّه كان خليقاً ألاّ يفي بوعده! وكأنه كان قادراً على ألاّ يلتزم بكلمته! لقد أدخل شيئاً يضاهي السعادة، أدخل دفئاً دائماً مستبشراً، رقيقاً في القلوب، لا في المزرعة فحسب، بل في القرية، وحتى مدينة ڤالدسهوت، – وكان آل شفايجشتل من الأم وابنتها، يأخذونه معهم حيثما ذهبوا، طامعين في أن يُرَوْا معه، في تَوَقُّعٍ للافتتان ذاته في كل مكان، لينطق، عند الصيدلي، وعند البقال، وبائع الأحذية، بأبياته الصغيرة من الشعر، مع التمثيل الساحر بحركات اليد، ومع التوكيد الذي يمطّ الكلمات بأشد الأشكال تعبيراً: عن بولين الصغيرة، المتوقِّدة حماسة، من كتاب «ذو الشعر الأشعث»، أو من قصة يوخن، الذي يأتي من اللعب الى البيت في قذارة فظيعة تتولى الدهشة منها السيدة بطة والسيد بَطّوطه، وحتى الخنزير تتولاّه الدهشة. أمّا قس بفايفرينج، الذي تلا أمامه، ويداه معقودتان – إذ كان يجعلهما على مستوى وجهه الصغير، على مسافة معينة، صلاة،

وكانت في الحقيقة صلاة قديمة غريبة، بدأت بالكلمات التالية: «ما من شيء يجدي أمام الموت الذي أزفت ساعته»، – فلم يستطع إلاّ أن يقول في غمرة تأثُّره: «بَخٍ، بَخٍ، ياابن الرب الصغير، أيها المغبوط!» ومسح على شعره بيد الكاهن البيضاء، وأهدى إليه على الفور صورة ملوَّنة للحَمَل. وأما المعلِّم فقد رأى، كما قال فيما بعد، «شيئاً مختلفاً كل الاختلاف»، من خلال الحديث معه، وأما في السوق فكان كل طرف ثالث يريد أن يعرف من «الآنسة كليمنتين!» ومن الوالدة شفايجشتل من هذا الذي هبط عليهم هنا من السماء. وكان الناس يقولون مشدوهين: «ربّاه، انظروا أي شيء هذا! هلاّ نظرتم!» أولا يقولون مايختلف كثيراً عن قول السيد القس: «واعجباً لك، أيها الولد الحبيب، المبارك الكامل!»، وكانت النساء يظهرن ميلاً الى الجُثُوِّ على رُكَبِهنّ أمام نيبوموك.

وحين قمت في المرة التالية بزيارة للمزرعة، كان قد انقضى بعد وصوله أربعة عشر يوماً وكان قد تأقلم هناك وبات معروفاً في المنطقة المحيطة به. ونظرت إليه أول الأمر عن بعد: إذ أرانيهُ أدريان من ركن المنزل وهو قاعد وحده تماماً في الجانب الخلفي من حديقة الخضار على الأرض، بين توت الأرض وأحواض الخضار، قد بسط إحدى ساقيه الصغيرتين ورفع الأخرى رفعاً جزئياً، وخصلات شعره المقسَّمة على جبينه، وكما كان يبدو، يتأمَّل كتاباً مصوَّراً بإعجاب المراقب عن بُعْد، كان خاله أهداه إليه. وكان يضعه على ركبتيه، ويمناه على هامشه، غير أن الذراع واليد اللتين كان قد قلّب بهما الورقة لبثتا متمسكتين بحركة التقليب دونما شعور، في تصرُّف رشيق الى درجة لاتُصَدَّق، ويده

الصغيرة مبسوطة، في اتجاه جانبي من الكتاب، في الهواء حتى لقد خُيِّل إليّ كأنني لم أر من قبلُ أبداً طفلاً يقعد بمثل هذه الجاذبية (إذ لم يُؤْتَ طفلي ولا في الحُلُم أن يقدم للعين أمثال هذا!)، وكنت أقول في نفسي إنه لابدّ أن تكون الملائك هناك في الأعالي، تقلّب كتب الشكر.

وذهبنا إليه لكي أتعرَّف على الرجل الصغير الأعجوبة، وفعلت ذلك، متماسكاً من الوجهة التربوية، وقد عقدت العزم على أن أقرر أن كل شيء هنا يحدث من دون أن يكون فيه لَبْس أو شيء، وصممت على أن لاأدع شيئاً يُلاحَظ عليَّ، وأن لا أجامل أحداً. ومن أجل هذه الغاية جعلت على وجهي ثنيات تنمّ عن الخشونة، واتخذت لنفسي صوتاً عميقاً حق العمق، وخاطبته بالأسلوب الصوتي المعروف الذي ينمّ عن خشونة المنعم المتفضل - إذ يقول: «والآن، ماذا ياولدي؟! هل كنت طيباً على الدوام؟! ماذا تصنع هنا؟!» - غير أن هذا بدا لي، وأنا أدير المسألة في ذهني، مضحكاً الى حد لايوصف، وكان السيىء في الأمر أنه لاحظ هذا، وكان يشاطرني أيضاً الشعور الذي كنت أبثُّه في نفسي، على نحو ظاهر للعيان، وقد تولاّه الخجل نيابة عني، ونَكَّس رأسه، وهو يوجه فمه نحو الأسفل، كمن يغالب الضحك، غير أن ماأخرجني عن طوري الى هذا المدى أنني لبثت وقتاً طويلاً لاأقول شيئاً.

وكان لمّا يبلغ السن التي يترتَّب فيها على الفتى أن ينهض واقفاً لتحية الكبار وينحني لهم في تواضع، وإذا كان هذا يتاح لأي مخلوق، فقد كانت تتهيّأ له الامتيازات اللطيفة، والتقديس الخالي من المطاليب، ماثلة أمامه، وهي الامتيازات التي يُقرّ بها المرء في هذه الدنيا لمن هم جُدُد، أو أنصاف غرباء، وغير متمرِّسين. وقال لنا إنه ينبغي لنا أن

«نقعد» باللهجة السويسرية (حيث يقول السويسري absitzen و ab-liegen، بدلاً من sich setzen و sich legen) وكذلك فعلنا، وجعلنا الجنيَّ بيننا على العشب، ورحنا ننظر معه في كتابه الذي كان بين أدب الأطفال المعروض في المحلّ مايزال من أكثر الكتب قبولاً: إذ كانت فيه أشكال من الوصف على الذوق الانكليزي، ونوع من أسلوب كيت - غريناواي، وقوافٍ ليست على الإطلاق مما يعد غير مستقيم، كان نيبوموك (وكنت أسميه دائماً بهذا الاسم، ولا أسميه إيشو، الأمر الذي كان يبدو لي، بطريقة حمقاء، من قبيل التوهين الشاعري) يحفظها كلها تقريباً عن ظهر قلب، وجعل «يتلوها» علينا، بينما كانت أنملته تتابع السطور في موضع خاطئ تماماً.

وكان مايلفت النظر هو أنني مازلت، أنا أيضاً أحفظ هذه «القصائد» عن ظهر قلب، لمجرد أنني سمعتها مرة - أو ربما بضع مرات، بصوته الطفولي وبنبراته الخاصة بالخرافات. وما أحسنَ ما أظل أعرفُ بعدُ قصيدة رجال الأرغن الثلاثة الذين التقوا عند ناصية شارع، وكان كل واحد منهم ناقماً على الآخر، فلم يفارق أحد منهم هذه البقعة، وكان في وسعي أن أتلوها على كل طفل، ولكن مع البعد الشديد عما كان يفعل إيشو. الأمر الذي لم يكن بدٌّ للجيران أن يحتملوه في حالة هذه المأدبة السماعية، كانت الفئران تصوم، والجرذان تخرج من جحورها! وكان يرد في الختام:

أمّا من سمع الحفلة الموسيقية الى نهايتها،
فكان كلباً صغيراً،
وحين عاد الكلب الى بيته



لم يكن في صحة وعافية

ولم يكن للمرء بدٌّ أن يرى هزّة الرأس المهمومة التي كان الصغير يعبِّر بها عن سوء حال الكلب إذ يغضّ من صوته محزوناً، أو لم يكن للمرء بدٌّ أن يلاحظ المهابة والوقار المزوَّقين اللذين يتلقى بهما تحية سيدين ضئيلين غريبَيْ الأطوار على شاطئ البحر:

صباح الخير، ياصاحب السعادة!

اليومَ لاتحسُنُ السباحة.

ويرجع هذا الى أسباب عِدّة: أولها لأن الماء مفرط في النَّداوة، ولاتبلغ درجة حرارته سوى خمس درجات رئومور، ثم لأن ثلاثة من الضيوف من السويد موجودون هنا-

سمك السيف، وسمك المنشار، وسمك القرش

يسبحون، ثلاثتهم، على مسافة جد قريبة

وكان يورد هذه التحذيرات المألوفة بأسلوب مضحك للغاية، وكان يَعُدُّ الضيوف غير المرغوبين وعيناه مفتوحتان على أوسع مايمكن أن تكونا، ثم يقع في الرهيب اللطيف عند سماع خبر يفيد أنهم يسبحون في مكان جد قريب، حتى لقد انفجر كلانا بالضحك، وكان في أثناء ذلك ينظر في وجوهنا، ويرقب مَرَحنا بفضول ماكر، ولاسيما مَرَحي أنا، كما كان يبدو لي، إذ كان يريد أن يرى هل تنحل نزعتي التربوية الجافة والخشنة، والخالية من الذوق، لصالحي.

ياالهي الطيب، لقد نزعتي التربوية تفعل هذا أيضاً، إذ ماعدتُ، بعد المحاولة الغبية الأولى، إلاّ أنني كنت الوحيد الذي يخاطب الرسول الصغير القادم من أرض الأطفال والجن، على الدوام، بصوت ثابت،

يقول: «نيبوموك»! ولا أسمّيه إيشو إلاّ عندما أتحدث عنه مع خاله الذي التقط هذا الاسم مثلما فعلت النساء. وفي هذه الأثناء سوف يفهم المرء أن المربي والمعلم فيّ ظل مهموماً ومضطرباً، بل مُحرَجاً حيال ظُرْف جدير بأن يُصلىً له بالطبع، ولكنه كان متروكاً للزمن، وكان مكتوباً له أن ينضج، ويقع فيما هو دنيويّ. وفي أجل قريب ستكون الزرقة السماوية البسّامة في هاتين العينين قد ضيَّعت نقاءها الأصيل من جهة أخرى، هذه الملامح الملائكية ذات السمة الطفولية الصريحة على وجه الخصوص، مع الذقن المنفصم بقدر يسير، والفم الساحر الذي كان يزداد اكتنازاً عما يكون عليه في حالة الراحة حين يكشف عن أسنانه اللبنية اللّماعة، والذي كان ينساب من زاويتيه، ابتداء من الأنف الصغير الدقيق، خطان مستديران استدارة ليّنة، يعزلان جزء الفم والذقن على الوجنتين، سوف يتحول الى وجه صبيّ مألوف بدرجة تقل أو تكثر، سوف يضطر المرء الى أن يمسَّه مسّاً خالياً من السِّكْر والشعر، ولن يتوفَّر له سبب يجعله يقابل مثل هذه المعاملة بالسخرية التي كان نيبو يرقب بها محاولتي التربوية، وما من شك في أنه كان هنا شيء كان يجعل المرء عاجزاً عن الإيمان بالزمن وعمله المبتذل، وسلطانه على هذا المظهر الفاتن، - وكان هذا التهكم الجنيّ يبدو أنه هو التعبير عن المعرفة بذلك، كما كان هذا يمثل انغلاقه الغريب على نفسه، وصحته من حيث هو ظاهرة الطفل على الأرض، والشعور بحالة النزول، وأكرر ذلك، بحالة الرسالة العزيزة التي توحي بها، وبالعقل الذي تهدهده أحلام خارج المنطق، وتلوِّنه مسيحيتنا بألوانها. وما كان في وسع هذه الظاهرة أن تنكر حتمية النموّ، غير أنها أنقذت نفسها في جوٍّ تصورٍ للأسطوري العديم الزمن، والمتزامن،

والموجود بعضه الى جانب بعض، حيث لاتشكل صورة الإنسان الخاصة بالرب تناقضاً مع الطفل على ذراع أمه الذي يكونه هو أيضاً، والذي هو كائن دائماً، والذي يرفع يده الصغيرة أمام القديسين المصلين ليرسم علامة الصليب.

وسيقول المرء: يالها من حماسة، غير أنني لا أستطيع أن أفعل شيئاً آخر سوى أن أروي تجربتي، وأعترف بالحيرة العميقة التي وضعتني فيها حياة الطفل العائمة بقدر يسير، على الدوام. لقد كان ينبغي لي أن أضرب مثلاً - وقد حاولت ذلك أيضاً - من سلوك أدريان الذي لم يكن معلماً، بل فناناً، وكان يتناول الأمور كما هي، وكان يفعل ذلك، كما هو ظاهر للعيان، من دون أفكار فيما يتعلق بقابليتها للتقلّب، وبعبارة أخرى: كان يضفي على التحوُّل الذي لاسبيل الى وقفة صفة الوجود، وكأن يؤمن بالصورة، وكان هذا عقيدة تتميز بطمأنينة معينة وراحة للبال (كما كان يبدو لي على الأقل)، وكان، وهو الذي اعتاد على الصورة، لايسمح لأكثر الصور مجانبة للدنيوي أن تخرجه عن اعتداله ورزانته. لقد كان إيشو، أمير الجن، قد جاء، - فليكن ذلك، لقد كان من الواجب على المرء أن يعامله تبعاً لطبيعته، ولايكثر من القول في هذا من بعد ذلك، وكان هذا يبدو لي أنه هو موقف أدريان. وقد كان بالطبع بعيداً بعداً شاسعاً عن الملامح المصطنعة وأشكال الابتذال في اللفظ، مثل: «والآن، ياولدي، هل كنت طيباً دائماً؟». ولاشك في أنه كان يدع، من ناحية أخرى، الوجد المتمثل في قولهم «واعجباً لك أيها الولد المغبوط» للناس البسطاء في الخارج. لقد كان سلوكه تجاه الصغير يتميز برقة باسمه في تعقُّل أو رقّة جدية أيضاً، من دون مجاملة ولا تأنيب، بل ومن

دون تلطُّف. وأنا لم أره، بالفعل، أبداً يداعب الطفل بأية طريقة، وكنت لا أكاد أراه يمسّ شعره، سوى أنه كان يسره أن يتنزه معه في الحقل ويده في يده، هذا صحيح. أمّا أن أتحيَّر في ملاحظة تفيد أنه كان يحب ابن الأخت حباً رقيقاً، وأن ظهوره في حياته يمثل حقبة مشرقة، فذلك ما لا يُمَكِّنني منه سلوكه بالطبع. لقد كان مما لاتخطئه الملاحظة أبداً ذلك العمق والحرارة، والسعادة، اللواتي كان السحر العبقري للطفل الحلو، الخفيف، الذي يسير كَأنْ ليس له من أثر، ويتقلد مع ذلك كلمات لها وزنها ووقارها، يشغله بهن ويملأ أيامه، على الرغم من أنه لم يكن له وجود حواليه إلاّ على مدى ساعات، وأن رعاية الصبي الصغير كانت من شأن النساء بحكم البدهية، وأن هذا كان متروكاً له ذاته في كثير من الأحيان في المكان الآمن، إذ كان لدى الأم وابنتها الكثير مما يترتب عليهما تدبيره من الأمور الأخرى.

وكان قد تبقى لديه من داء الحصبة حاجة شديدة الى النوم، مثلما يكون ذلك عند الأطفال الصغار كثيراً، وكان يستسلم لها في النهار، وحتى خارج حدود ساعات بعد الظهيرة المخصصة للراحة، حيث كان ينام دائماً على وجه الخصوص. وقد دأب على أن يقول «ليل!» حين ينتابه النعاس، مثلما كان يقول ذلك في المساء عند الذهاب الى الفراش، ولكن كانت هذه تحية الوداع على وجه الإطلاق: فقد كان يقولها في كل وقت من أوقات النهار حين ينصرف، أو ينصرف امرؤ آخر، إذ يقول: ليل! بدلاً من قوله «وداعاً»، وكانت هذه هي المقابل لكلمة "habt!" التي كان يغادر بها على الدوام كل مايستمتع به، وكان يصافح أيضاً بيده الصغيرة عندما يقول «ليل!»، قبل أن يغفو، على العشب أو في

الكرسي، وقد وجدت أدريان جالساً على مقعد طويل صغير مؤلف من ثلاثة ألواح من الخشب قد ضُمَّ بعضُها الى بعض بالمسامير، يحرس نوم إيشو عند قدميه. وروى قائلاً: لقد صافحني قبل ذلك حين عرفني وهو يرفع طرفه، لأنه لم يلاحظ اقترابي.

أمّا ماروته لي إلزا وكليمنتين شفايجشتل فهو أن نيبوموك ألطف الأطفال الذين عرضوا لهما في أي يوم من الأيام، وأطْوَعهم، وأكثرهم بُعْداً عن تكدُّر المزاج، - وهو الأمر الذي يتطابق مع الأخبار حول أولى أيامه، ولقد رأيته بالفعل، يبكي إذا ماسبَّب لنفسه ألماً، ولكني لم أره ينوح قط، ولا يُعْوِل، أو يزمجر، شأن الأطفال في حالة المشاكسة، وكانت أمثال هذه الحالات عنده شيئاً لايمكن تصوُّره البتّة. أمّا ضروب اللوم، والحظر، فيما يتعلق، مثلاً، بالذهاب مع الأجير الى الخيل، أو مع ڤالتبورج الى حظيرة الأبقار، فكان يتقبَّلها بتلطُّف مؤكَّد، وينطق بكلمات مواسية في أثنائها قائلاً: «فيما بعد، قليلاً، في الصباح، ذات مرة» وهي كلمات كانت تبدو أقل فائدة لتهدئة نفسه منها لمواساة أولئك الذين منعوه رغبة من رغائبه، على مضض بلاريب. أجل، لقد كان من عادته أن يداعب مَنْ مَنَعه رغبته، مع قوله: «لاتجعل ذلك في قلبك! ففي المرة التالية لن تكون مضطراً الى احتمال قسر، وسيتاح لك أن تحقق لي هذا».

وهكذا كان الحال أيضاً، حين لم يكن يباح له أن يدخل حجرة رئيس الدير، على خاله، وكان كثيراً مايشعر بما يجتذبه الى هذا، وكان من الواضح، منذ تعرفت عليه، بعد أربعة عشر يوماً خلت بعد وصوله، أنه تعلّق بأدريان على نحو استثنائي، وكان يطمح الى صحبته، وذلك على

وجه اليقين لأن هذه الصحبة هي الخصوصية والمتعة، على حين تتسم صحبة راعياته بأنها المألوفة. وكيف كان يفترض أن يغيب عن باله، وبالمناسبة، أن هذا الرجل، الذي هو شقيق والدته، كان يتبوّأ بين مواطني الريف في بفايفرينج، مكاناً فريداً في نوعه، ومُقَدَّراً، بل ينظر إليه بوجل!.

وربما كان هذا الوجل من قبل الآخرين يشكل حافزاً لطموحه الطفولي الى أن يباح له أن يكون مع خاله، غير أن المرء لايستطيع أن يقول إن أدريان كان ينزل على نزوع الصغير بغير حدود، إذ لم يكن يراه أياماً بأكملها، أو لم يكن يسمح له بالدخول عليه، وكان يبدو أنه يتجنّبه، ويحظر على نفسه المنظر المحبوب، بلاريب. ثم إنه كان ينفق بالطبع ساعات طوالاً معه، وكان يأخذ يده الصغيرة، كما قلت، لنزهات يصل اتساعها الى مايُظَن بالرفيق الرقيق أنه قادر عليه، ويتجوّل معه، في صمت من الجانبين، أو في حوار قصير، خلال فصل التشبُّع بالرطوبة الذي جاء فيه إيشو، وروائح الشجر المتعطّن والليْلَك، ثم الياسمين، في طرقاتهما، أو يدع ذلك الخفيف يمشي أمامه على الدروب الضيقة، بين جدران من الذرة التي نضجت وباتت صفراء في مقابل الأرض الحصيد، بسنابلها التي أحنت هاماتها، وبلغت مثل طول نيبوموك منذ خرجت من التراب.

وقلت: «من مملكة الأرض»، مصححاً، لأن هذا ماقاله الصغير وهو يعلن سروره بأن المطر "Rein" قد أنعش مملكة الأرض في هذه الليلة.

وقال خاله يسأله: «أتقول: der Rein، ياإيشو؟»، وقد أسقط هنا الكلمة الدالة على فعل الإنعاش (erkickt) على أنها من لغة الأطفال.

وقال رفيق طريقه مؤكِّداً بشيء من التفضيل، أجل، -der Rei" "gen، ولم يشأ أن يسترسل في مزيد من المناقشات.

وقال أدريان يحدثني في المرة التالية وقد ارتسمت الدهشة في عينيه: «تصوَّر أنه يتحدث عن المطر المنعش «erkickendem Rein»، أليس هذا غريباً؟».

واستطعت أن أعلِّم صديقي أن المطر في لغتنا الألمانية الوسيطة، كان يعبَّر عنه، على مدى قرون، بكل من الكلمتين Rein و Reigen، الى أن باتت الكلمة في القرن الخامس عشر هي Regen، وأن الألمانية الوسيطة كانت فيها الكلمات الثلاث erkicken، أو erkucken الى جانب erquicken.

وأومأ أدريان موافقاً وقد تولاه شيء من الدوار: «واعجباً، هذا يذهب الى مدى بعيد للغاية»

وكان يأتي الغلامَ بهدايا من المدينة عندما يضطر الى الرحيل إليها: من حيوانات شتى، فمنها قرد يقفز خارجاً من العلبة، ومنها قطار يختلج عليه ضوء وامض، خفّاق عندما يسرع على خطه البيضاويّ، وصندوق سحري كانت القطعة ذات التقدير فيه قدحاً فيه خمر أحمر لايندلق إذا ما قلبه المرء رأساً على عقب، وسُرَّ إيشو كثيراً بهذه الهدايا، ولكن سرعان ما كان يقول "habt"، أي شبعت، عندما يكون قد لعب بها، وكان يفضل الى حد بعيد أن يريَه خاله الأشياء الخاصة باستعماله الخاص ويشرحها له -الأشياء ذاتها دائماً، ومن جديد دائماً، لأن المثابرة، والرغبة في التكرار عند الأطفال عظيمان في أمور المحادثة، ومنها سكين الورق المصقول من عاج الفيل، والكرة الأرضية التي تدور على

محورها المائل بما فيها من كتل البلدان المقطَّعة، والخلجان الطويلة المدببة، والأنهار والبحيرات ذات الأشكال الغريبة، والمحيطات الزرق التي تغطي المكان الفسيح، وساعة المنضدة الرملية التي يستطيع المرء أن يلف ثقليها بذراعٍ للتحريك، من جديد، من العمق الذي تكون قد هبطت إليه، وكانت هذه هي الخصوصيات التي كان الصغير يرغب في فحصها ومعاينتها عندما دخل، ممشوق القامة، ظريفاً مهذَّباً، على مالكها وسأله بصوته الضئيل:

«هل تستاء من مجيئي؟»

«كلاً، ياإيشو، لا أستاء على وجهه الخصوص، ولكن نابضَيْ الساعة لم ينزلا بعد إلاّ نصف المسافة». وفي هذه الحال يمكن أن تكون علبة الموسيقا هي التي يرغب فيها. وكانت هذه إسهامي، إذ كنت قد جئته بها: صندوق صغير بنيّ يمكن فتح آلته من جانبه السفلي. ثم تدور الأسطوانة المغطاة بحَلَمات معدنية صغيرة على أسنان مشط مضبوطة على ترتيب معين، وعزفت، في رشاقة مسرعة في البداية ثم بدرجة أبطأ، متعبة، ثلاثة ألحان هارمونية صغيرة من طراز البيدر ماير كان إيشو يصغي إليها وهو مسحور على نحو متصل، بعينين كان يختلط فيهما الاستمتاع، والاندهاش والأحلام ذات النظر العميق بطريقة لاتنسى.

وكان يسره أيضاً أن يتأمل مخطوطات خاله، هذه المخطوطات، حول نظم الخطوط التي تتناثر عليها حروف رونية(*) بيض وسود، تترابط فيما بينها بأقواس وأشرطة، وكان يدعه يشرح دلالة الإشارات التي يدور

(*) أبجدية اسكاندينافية الأصل صممت بالاستناد الى أشكال العيدان في أرض الغابة.

حولها الحديث: - من قِبَله، فيما بيننا، وأود أن أعرف هل استنتج هذا بطريق الإحساس الداخلي، أم كان يُقْرَأ في عينيه أنه كان بستنتج ذلك من شروح الأستاذ: لقد كان يباح لهذا الطفل، قبلنا جميعاً، أن يلقي نظرة على مخطوطات النوطات الموسيقية لأغاني آرييل من «العاصفة» التي كان ليڤركون يعمل فيها في الخفاء في تلك الأيام: فكان يجعلها في وحدة، إذ كان يضم الأغنية الأولى، الحافلة بالأصوات الطبيعية المتناثرة كالأشباح الجوّالة، وهي أغنية «تعالَ الى هذه الرمال الصُّفْر» الى الأغنية الثانية، المحبوبة حباً خالصاً، وهي «حيث تمتص النحلة، أمتصّ أنا» في وحدة، من أجل السوبرانو، والسيليستا، والكمان المخفَّف، والأوبو[*]، ومن أجل الترومبيت الخفيض، وأصوات الفلاجوليت للجُنُك، وبالفعل، فإن من يسمع هذه الإيقاعات التي تراود الخيالَ بظُرفها، حتى ولو بمجرد أذُنِ فكره، عند القراءة يمكنه بلاريب أن يسأل مع صاحب المقطوعة: «أين هي الموسيقا بربّكم؟ أفي الهواء؟ أم على الأرض؟». ذلك لأن الذي ركَّبها لم يقتنص في نسيجها العنكبوتيّ الهامس الخفة العائمة، الظريفة ظُرفَ الأطفال، والتي تبعث الارتباك والاختلاط - عن صاحبي آرييل الممتع - فحسب، بل أدخل عالم الجن بأسره، من تلال، وجداول، وأحراش، كما كان شأنها، في وصف بروسبيرو، بحكم كونها من صغار الأساتذة، وأنصاف العرائس، أن تمارس تسليتها الضئيلة، على ضوء القمر، حيث يطوِّقون الخروف بالعلف الذي يتجنَّبه، ويستنبتون أنواع الفطر في منتصف الليل.

وكان إيشو يظل يريد أن يرى، المرة بعد الأخرى، في النوطات، تلك

(*) آلة نفخ خشبية، فرنسية «المترجم»

المواضع التي يقول فيها الكلب «هَوْ، هَوْ» والديك «كي كي، كو كو».
وكان أدريان يحدثه في ذلك عن الساحرة الماكرة، سيكوراكس وخادمها الصغير الذي تحشره في شقّ شجرة شربين، لأنه كان جنّياً يبلغ من الرقة مايجعله غير مؤهل للإصغاء الى توجيهاتها الوضيعة، ويقضي في هذا الوضع القسري اثني عشر عاماً باعثة للحسرة والأسى الى أن يأتي أستاذ السحر الطيب ويحرره. ورغب نيبوموك أن يعرف كم كان عمر الجني الصغير حين حُشِر في الشق، وكم كان عمره، بعد اثني عشر عاماً، حين أتيح له أن يتحرر، ولكن خاله قال له إن الصغير لم يكن قد حَظِيَ بعمر بل ظل دائماً، من قبل الأسْرِ ومن بعده، ذلك الطفل الظريف نفسه، ابن الأجواء، الأمر الذي بدا أنه أرضى إيشو.

وروى له سيد حجرة رئيس الدير حكايات أخرى على قدر ما كان يتذكر منها: ، عن رومتيلشتيلْتسشن، وفالادا، ورابونتْسِل، والشبل الذي يغني ويقفز، وكان الصغير يريد فوق ذلك بالطبع أن يقعد على ركبتي خاله بصورةٍ جانبية وهو يطوق عنقه في بعض الأحيان بذراعه الصغير. وكان يقول: «هذا شيءٌ يَحْدُثُ إذاً سكراً على نحو عجيب» إذ كان كلما انتهت حكاية أغفى قبل ذلك ورأسه مدفونٌ في صدر الراوي. وكان هذا يظل قاعداً زمناً طويلاً بغير حراك وذقنه مستندة الى شعر الطفل الذي أخذه النعاس، الى أن تأتيّ واحدةٌ من النساء وتأخذ إيشو.

وكان أدريان يدع الغلام الصغير بعيداً عنه، كما قلت، في كل يوم إما لأنه كان مشغولاً أو لأن الشقيقة تضطره الى التزام السكون، بل الظُلمة، أو لأي سبب كان. ولكن بعد يوم لم يكن رأى فيه إيشو على وجه الخصوص دخل مسروراً في المساء بعد أن كان القوم قد أرقدوا

الطفل في سريره بهدوء، ولم يكد يلاحظه أحد، ليشهد صلاة النوم التي كان يؤديها وهو راقد على ظهره وقد شبك يديه الصغيرتين المبسوطتين أمام صدره، مع واحدةٍ من راعياته أو مع كليهما، السيدة شفايجشتل وابنتها وكانت أدعية غريبة، تلك التي كان يتلوها وقد فتح زرقة عينيه السماوية غطاءً لها، على نحوٍ معبرٍ الى أقصى الحدود. وكان تحت تصرفه مختارات كاملة منها بحيث كان لايكاد يستخدم في أي وقتٍ من الأوقات الدعاء ذاته في أُمسيتين متتابعتين. ويجب أن يلاحظ أنه كان يلفظ كلمة Gott (الله) كأنها (Got)، أي ممطوطة وكان يحب أن يضيف الى مطالع عددٍ من أسماء الاستفهام حرف (S)، إذ كان يقول:

من كان يعيش في وصايا الله،
كان الله فيه وكان هو في الله
وعليه أتوكل
وسوف يعينني على راحةٍ حقيقية. آمين
أو: ما أكبر إساءات الإنسان
ومع ذلك فرحمة، الرب أكبر
وخطيئتي غير ذات وزنٍ كبير،
والرب يبتسم من فيض رحمته. آمين

أو، على نحو يلفت النظر الى حد بعيد، بسبب التلوين الذي لاتخطئه الملاحظة، للصلاة، بنظرية القضاء المكتوب:

ما من أحد لايقترف الخطيئة،
ولكنه يؤدّي، بلاريب، أيضاً، بعض الحسنات.
وما من أحد يضيع حُسْنُ صنيعه



إلاّ أن يكون مولوداً للجحيم
فليجعلني الله، أنا، ومن (أحب)
مخلوقين للسعادة الغامرة! آمين
ثم يأتي أيضاً، في بعض الأحيان، قوله:
الشمس ترسل نورها على الشيطان
ثم تخلّفه وراءها، نقيةً، بلاريب
فلتحفظني طاهراً، في وادي الأرض
الى أن أقضي أجلي. آمين
أو، أخيراً:
فلتذكروا، أنّ من صلى لأجل الآخر
فقد حرَّرَ نفسه وأعتقها بذلك
وإيشو يصلي من أجل العالم كله
عسى أن يضمه الرب بين ذراعيه. آمين

وقد سمعت هذا القول المأثور بنفسي، منه، بأقصى قدر من التأثر، من دون أن يشعر بحضوري على ما أعتقد.

وقال أدريان يسألني في الخارج: «ماقولك في هذا التأمل اللاهوتي؟ إنه يصلي كأنما لكل الخليقة، وذلك، بصراحة، ليكون هو متضمَّناً فيها. فهل ينبغي للتقيّ الورع أن يعلم أنه إنما يفيد نفسه عندما يصلي من أجل الآخرين؟ وذلك أن الإيثار يزول بمجرد أن يلاحظ المرء أنه مفيد».

وردَدْت قائلاً: «الى هنا أنت على حق، غير أنه يوجه المسألة نحو مايقوم على الإيثار حين لايصلي من أجل نفسه فحسب، بل يفعل ذلك

من أجلنا جميعاً».

وقال أدريان بصوت خفيض: «أجل، من أجلنا جميعاً».

ومضيت قائلاً: بالمناسبة نحن نتكلم عنه وكأنه هو الذي ابتدع هذه الأشياء. هل سألته في أي يوم من الأيام من أين جاء بهذا؟ من أبيه أم مِمَّن؟».

وكان الجواب:

«كلا، بل أفضل أن أدع المسألة ترتكز على ذاتها، وأفترض أنه ما كان ليفيدني بجواب».

وكان يبدو أن نساء آل شفايجشتل يرَيْن هذا الرأي، ولم يسبق لهن، أيضاً، أن سألن الطفل أبداً، على قدر ما أعلم، عن الكيفية التي وصلت إليه بها أقواله المسائية المأثورة. ولديَّ منهن تلك الأقوال التي لم أشارك بنفسي في سماعها عن بعد، بل تركتهن يُرْوَيْن لي من قبلهن حين ماعاد نيبوموك شنايديڤاين حيّاً بيننا.



(٤٥)

لقد انتزع منا، هذا المخلوق الفاتن الغريب أُخِذ من الدنيا، واعجباً، ياالهي، أية كلمات طيبة ألتمسها من أجل القسوة الفاجعة الى أقصى الحدود التي كنت شاهداً عليها في أي يوم من الأيام، والتي مازالت تعزي القلب حتى اليوم بالشكوى المريرة، بل بالثورة، لقد أُمْسِك به ببطش وغضب مفزعين، وفتكت به العلة في أيام قلائل، وكانت علة لم ترد لها حالة في المنطقة منذ عهد بعيد، ولكن الدكتور كوربيس، الطبيب، الذي أصابه بالصدمة الكاملة اندفاع ظهورها، قال لنا إن الأطفال يكونون عرضة للإصابة بها أثناء النقاهة من الحصبة أو السعال الديكي. ومع أخذ السمات المميزة الأولى في الحسبان، كان كل شيء يحدث فيما لايكاد يبلغ الأسبوعين اللذين كان أولهما هو الذي لم يدع أحداً يقدر، على ما أعتقد، مايوشك أن يحدث على نحو مفزع، وكان الوقت منتصف آب، وفي الخارج الحصاد مع مافيه من القوى العاملة الإضافية. وعلى مدار شهرين كاملين كان نيبوموك بهجة المنزل. ثم كدرً عطاسٌ صفاءَ عينيه الحلو - وكان بلاريب أيضاً مجرد هذه العدوى الثقيلة التي حرمته شهوة الأكل، وجعلته معتلّ المزاج، وزاد في وطأة الوَسَن الذي كان يميل إليه مُذْ عرفناه، وكان يقول "habt" (أي شبعان) لكل ما كان يُقَدَّم إليه، من غذاء ولعب وتقليب صور، وسماع حكايات،

كان يقول "habt" وقد تقلصت ملامح وجهه الصغيرة تقلُّصاً مؤلماً، وأعرض بجانبه، وسرعان ماظهر لديه عدم تحمُّل للضوء والأصوات، فكان أكثر إزعاجاً من تكدُّر المزاج الذي كان حتى الآن. وكان يبدو أنه يحسّ بجلبة عربة تسير في المزرعة، وبوقع أصوات الناس، إحساساً فوق الإحساس العادي، وكان يرجو من الناس أن يتحدثوا بصوت خفيض، وكان يهمس بنفسه كأنما ليقدم للناس مثالاً على ذلك، وكان يأبى حتى أن يسمع علبة الموسيقا ذات العزف الرقيق، إذ لايلبث أن يقول كلمته التي تنمّ عن العذاب «شبعت، شبعت!»، وكان يقف الآلة بيده، ثم يبكي بمرارة. وهكذا كان يهرب من ضوء الشمس في أيام ذروة الصيف تلك في المزرعة وفي الحديقة، ويلتمس الحجرة، ويقعد هناك قابعاً يفرك عينيه. وكان من الصعب على المرء أن يرى كيف كان ينتقل من واحد كان يحبه الى آخر، يلتمس الشفاء، ويعانقه، لكي يعود بسرعة، مُعْرِضاً عن هؤلاء، دونما عزاء. ومِنْ ذلك أنه تعلّق بالأم شفايجشتل، وبكليمنتينا، وبالخادم ڤالتبورجيس، وجاء، بالدافع ذاته، مراراً، الى خاله، وكان يلتصق بصدره، ويرفع الطرف إليه، مصغياً الى مواساته الرقيقة، كما كان يبتسم ابتسامة واهنة، غير أنه كان ينكِّس رأسه الصغير على عمق مسافات، وأعمق من ذلك، ويغمغم قائلاً: «ليل!»، - وعلى أثر ذلك ينسلّ ماشياً على قدميه، ويغادر الحجرة وهو يترنّح.

وأقبل الطبيب ليراه، وأعطاه قطرات للأنف، وكتب له وسيلة مقوِّية، غير أنه لم يتحفظ في تكهنه بأن هناك مرضاً أكثر جدية يمكن أن يكون على وشك الظهور، كما أعرب عن قلقه هذا لمرضاه المتقدمين في السن في حجرة رئيس الدير.

وقال أدريان يسأله، وقد شحب وجهه: «أترى ذلك؟»

وقال الطبيب: «هذه المسألة مشكوك فيها عندي»

«مشكوك فيها!؟»

وتكرَّرتِ العبارة بلهجة تعبِّر عن فزع بالغ وتكاد تكون مفزعة الى درجة جعلت كوربيس يسأل نفسه، الى أي مدى كانت رميته قد تجاوزت الهدف.

وردّ قائلاً: «أجل، بالمعنى الذي قلته، وربما كان في وسعك أنت أن تترقَّب ذلك وتنقِّب عنه، ياسيدي المحترم. هل تمت بصلة قرابة وثيقة الى هذا الصبي؟»

وقال عندئذ: «أجل، إنها مسؤولية، أيها الطبيب، لقد وضع الطفل هنا تحت رعايتنا في الريف تدعيماً لصحته».

وردّ الطبيب قائلاً: «إن صورة المرض، إذا كان في وسع المرء أن يتحدث عن مثل هذه الصورة على وجه الإطلاق، لاتقدم في الوقت الحاضر دليلاً مادياً على تشخيص لايبعث على السرور، وسأعود غداً»

وفعل هذا، واستطاع الآن أن يقدم تحديده للحالة بيقين بالغ، قائلاً إنه أصيب بقيء من النوع الوثيق بالطفح، مفاجئ، وبدأت، في الوقت ذاته، مع الحمى ذات الدرجة المتوسطة بالطبع، آلام رأس تصاعدت، خلال ساعات قلائل الى الحد الذي لايطاق على مايبدو. وكان الطفل قد جيء به الى الفراش حين أقبل الطبيب، وكان يمسك برأسه الصغير بين يديه، ويطلق صرخات كانت تطول حتى البقية الأخيرة من نَفَسه، وكان القوم خليقين أن يسمعوها في أرجاء المنزل كله، وكان هذا عذاباً لكل من يسمعه. وكان فيما بين ذلك يمد يديه الى أولئك الذين يحيطون به

وينادي: «الغوث! الغوث! ياالألم الرأس، ياالألم الرأس!» ثم يداهمه إقياء جامح جديد لم يكن يفضي منه إلاّ الى همود في غمرة الاختلاجات.

وقام كوربيس بفحص عيني الطفل اللتين كانت حدقتاهما تقلصتا حتى باتتا صغيرتين جداً، وكانتا تظهران ميلاً الى الحَوَل، وكان النبض سريعاً، وكان تقبُّض العضلات وبدء الجمود في القفا واضحين. كان التهاباً في السحايا دماغياً وشوكياً، أي التهاباً في قشرة الدماغ، - ونطق الرجل الطيب، وهو يحرك رأسه نحو كتفه في إشارة الى الحرج والانزعاج، باسم العلة، على أمل ألاّ يكون القوم على بيِّنة من أمرهم فيما يتعلق بالعجز الكامل تقريباً، الذي يترتَّب على عمله أن يعترف به أمام هذا التعرُّض. وكان ثمة إشارة الى ذلك تتمثل في اقتراحه أن يتولى القوم إبلاغ والدي الطفل برقياً، إذ إن وجود الوالدة على الأقل سيكون له أثر مهدئ على المريض الصغير، كما طلب استدعاء طبيب داخلي من العاصمة يرغب في مشاطرته المسؤولية عن الحالة التي لاتعدّ، مع الأسف، غير جدية. وقال: «أنا رجل بسيط، وأمامي هنا جهد يقتضي مرجعاً أعلى، وأعتقد أن ثمة سخرية كانت تنمّ عن التكدُّر، في كلماته، وقال إن بزل النخاع الشوكي ضروري على كل حال على الفور من أجل تأكيد التشخيص، ومن أجل تخفيف الوطأة عن المريض، ومادام ذلك هو الوسيلة الوحيدة فهو يتجرأ على القيام بها بنفسه، بلاريب، وكانت السيدة شفايجشتل، الشاحبة، والصلبة العود، مع ذلك، والمخلصة لكل ماهو إنساني كالعهد بها دائماً، تمسك الطفل الذي كان ينهنه محنيّ الظهر في سريره حتى لقد كانت ذقنه تكاد تلامس ركبته،

وكان كوربيس يغرس إبرته بين الفقرات المتباعدة الى أن وصلت الى القناة الشوكية التي كان يخرج منها السائل قطرة فقطرة. وعلى الفور تقريباً خفَّت حدة آلام الرأس غير المعقولة. وقال الطبيب: «إذا عادت – وكان يعرفها أنها لابدَّ أن تعود بعد بضع ساعات، مادام التجويف الدماغي لاتدوم خفة حدة الضغط فيه إلاّ بسحب السائل من التجويف الدماغي فعلى القوم أن يعطوه، فضلاً عن كيس الثلج الذي لابدّ منه، دواء الكورال الذي وصفه له، والذي جيء به من عاصمة المركز.

وحين أخرج نيبوموك من نوم الإرهاق الذي كان قد راح فيه بعد البَزْل، إقْياءُ جديد، وتشنجات في جسده الصغير، وآلام تنسف الجمجمة نسفاً، شرع نيبوموك من جديد في ولولته التي تمزّق نياط القلوب، وصراخه الذي يصكُّ المسامع، – وكانت هذه هي الصرخة الخاصة بالماء في الرأس، التي كانت عقلية الطبيب تتفهمها الى حد كاف. وذلك أن ماهو أنموذجي يدع الإنسان بارداً، ولايخرجنا عن طورنا إلاّ مايُفْهَم على أنه فرديّ، وهذه هي راحة العلم، وهي راحة لم تكن تمنع تلميذها الريفي أن ينتقل من مستحضرات البروم والكورال في أمره الأول، خلال وقت جد قصير، الى المورفين الذي بدا أنه أفضل. ومن الممكن أن يكون قد قرر ذلك بالقدر ذاته من أجل سكان المنزل – حيث أضع نصب عيني في هذا الصدد واحداً منهم على وجه الخصوص – مثلما يمكن أن يكون ذلك بدافع الرحمة بالطفل المعذَّب. ولم يكن يجوز تكرار عملية انتزاع السائل إلاّ كل أربع وعشرين ساعة ولم يكن تخفيف وطأة العلة يستمر ويتواصل إلاّ خلال ساعتين من هذه الساعات. اثنتان وعشرون ساعة من العذاب الصارخ لطفل، وهذا الطفل الذي يكوِّر يديه الصغيرتين

المرتجفتين ويقول متلجلجاً: «إيشو يريد أن يكون عاقلاً، إيشو يريد أن يكون مهذَّباً»، وأضيف الى ذلك وأقول إنه بالقياس الى أولئك الذين كانوا يرون نيبوموك، ربما كان هناك عَرَض جانبيّ هو الأشد إثارة للفزع على الإطلاق، وكان هذا هو الاستنفاد الحَوَليّ المطرد الزيادة لزرقة عينيه السماويَّتين، الذي يمكن تفسيره بالاستناد الى شلل عضلات العينين الذي كان يسير جنباً الى جنب مع تصلُّب النُّقرة، وهو أمر يشيع الوحشة في الوجه الجميل على نحو بالغ الفظاعة، وكان يحدث عند ذلك الذي ابتُلِي به، ولاسيما مع اقترانه بصريف الأسنان، انطباعاً يوحي بالجنون.

وفي عصر اليوم التالي، أقبل من ڤالدسهوت، إذ جاء به جيريون شفايجشتل المرجع الاستشاريّ من مونيخ، وهو الأستاذ فون روتنبوخ، وكان أدريان قد اختاره بسبب سمعته بناء على ما اقترحه كوربيس. وكان رجلاً فارع الطول ذا توجُّه اجتماعي، حصل على لقب النبالة أيام الملكية، كثير الزوّار، باهظ التكاليف، له عين نصف مغمضة كأنما للفحص الطبي الدائم. واعترض على المورفين لأنه يمكن أن يوهم وجودَ الغيبوبة التي «لمّا تأتِ بعد أبداً»، وسمح بالكوديئين فحسب. وكان يبدو أن مايهمه هو تعاقب أطوار الحالة على الوجه الصحيح من دون أن تمحّي مراحلها أو تتداخل. وفيما عدا ذلك أيّدَ، بعد المعاينة، أوامر زميله الريفيّ، المتزلِّف له للغاية: أيْ حجبَ ضوء النهار، والحفاظ على درجة عالية من تبريد الرأس، وتوخّي أقصى درجات الحذر في مَسّ المريض الصغير، ورعاية بشرته بمسحها بالغَوْل، والغذاء المركَّز الذي قد يكون من الضروري، على الأرجح، إدخاله بأنبوب عن طريق الأنف. وكانت ألوان مواساته من النوع الصريح الذي لا لَبْس فيه، وذلك، بلاريب، لأنه

لم يكن في منزل والدَيْ الطفل، وقال إن تكدُّر الوعي الذي هو أصولي وليس سابقاً لأوانه، وناجم عن المورفين، لن يطول انتظاره، وسوف يتعمَّق بسرعة، وسوف تقل معاناة الطفل ثم لن تعود هناك معاناة بعدُ على الإطلاق. وقال إنه لاينبغي للمرء أن يفرط في تتبُّع آثار الأعراض الجسمية، لهذا السبب، وبعد أن تفضَّل بتنفيذ عملية البزل الثانية بيده ودَّع القوم بمهابة ووقار، ولم يعد مرة أخرى.

أمّا أنا فكنت أحصل، عن طريق الأم شفايجشتل، يومياً على الأخبار حول الأحداث الفاجعة، بالهاتف، ولم أحضر في بفايفرينج إلاّ في اليوم الرابع بعد الانبثاق الكامل للمرض، في يوم سبت، حين كانت الغيبوبة قد بدأت في غمرة تقلُّصات جامحة كان يبدو أنها وتَّرت الجسد الصغير ونصبته للتعذيب، وجعلت مقلة عينيه ترجع الى الأعلى، وتوقَّف صراخ الطفل، وما عاد هناك بعد إلاّ صريف الأسنان.

واستقبلتني السيدة شفايجشتل، وعليها مظهر المؤرَّقة المسهَّدة، وقد تورَّمت عيناها من البكاء، عند باب المنزل، وأوصتني بإلحاح أن أذهب على الفور الى أدريان، وقالت إن في وسعي أن أرى الطفل الذي بات أبواه عنده، بالمناسبة، منذ ليلة الأمس، في وقت مبكر بما يكفي، وقالت: ولكن السيد الطيب يحتاج الى تشجيعي، فحالته ليست على مايرام، وقالت، إنه، فيما بيننا، يبدو في بعض الأحيان كأنه يخطئ في الحديث.

وتوجهت إليه وقد تولاّني الخوف. وكان يجلس الى مكتبه، ولم يكن ينظر إلاّ نظرة عابرة عند دخولي، وكانت نظرته كأنما تنطوي على الاستهانة. وكان شاحباً الى حد مفزع، وكانت عيناه محمَّرتين، شأن كل

سكان المنزل، وكان يحرك لسانه وفمه مغلق، بصورة آلية، في مكان ما، جانبيٍّ، في داخل فمه، تحت الشفة السفلى، جيئة وذهاباً.

وقال حين تقدمت منه ووضعت يدي على كتفه: «أنت أيها الرجل الطيب، ماذا تريد هنا؟ هذا ليس بمكان لك. ارسم صليبك على الأقل، هكذا، من الجبين الى الكتفين، كما تعلمت هذا لحمايتك وأنت طفل!»

وتعلمت عندئذ بضع كلمات للمواساة وبث الأمل -

وقاطعني قائلاً بخشونة: «وَفِّر على نفسك أوهام الإنسانيين: إنه يأخذه[*]، ولقد أراد أن يختصر المسألة! وربما كان لايستطيع أن يختصرها أكثر من ذلك بوسائله البائسة».

ووثب قائماً، واستند الى الجدار، وضغط قفا رأسه على الكسوة الخشبية للجدار.

وصاح قائلاً بصوت حزّ في نخاعي: «خذه، أيها الفزاعة، خذه أيها الوغد، ولكن عجِّل قدر ماتستطيع إذا كنت تريد أن تصبر على هذا أيضاً، أيها الشقي!» واتجه إليَّ فجأة، في ثقة وصوت خفيض، وخطا الى الأمام ونظر إليَّ نظرة تائهة، لن أنساها أبداً، وقال: «لو أنه ترك هذا، هذا، بربك، ولكن كلاً، ومن أين يأتي بالرحمة، وهو البعيد عن الرحمة، وهذا على وجه الخصوص لابدَّ أن يدوس عليه بغضب كغضب الماشية، خذه!» كذلك كان يصرخ، وخطا بعيداً عني كأنه عند الصليب، وقال: «خذ جسده، الذي لك عليه سلطان! ولكن سيكون عليك أن تدع لي روحه الجميلة، راضية سعيدة، وهذا هو عجزك، والجانب المضحك عندك، الذي أريد أن أتهكم به عليك آباداً من الزمن. ولو بُسِطَت بين

(*) ضمير الغائب هنا يعود على الشيطان، كما يتبيّن في الصفحات التالية «المترجم».

مكاني ومكانه آباد من الزمن فسأعرف بلاريب أنه هو، هناك.

وكان يغطي وجهه بيديه. ودار على عقبيه، وأسند جبينه الى الخشب.

ماالذي كان ينبغي لي أن أقول؟ وما العمل؟ وكيف أردّ على أمثال هذه الكلمات؟ «ياعزيزي، هدّئ من روعك، فأنت خارج عن طورك، والألم يعكس لك أشياء عبثية». هذا مايقوله الناس على وجه التقريب، وإن كان ذلك بدافع الخوف من الجانب الروحي، ولاسيما عندما تتعلق المسألة بإنسان كهذا، لابتهدئات جسدية وأشكال من الازدراء، ولا بالتفكير في البرومورال الموجود في المنزل.

ولم يجب على مواساتي المنطوية على الرجاء إلاّ بما يلي:

وفِّر على نفسك هذا، وفِّر على نفسك هذا، وارسم صليبك! فالأمور تسير سيرتها هناك في الأعالي، لاترسم صليبك من أجلك وحدك، بل ارسمه أيضاً لي ولذنبي! - أي ذنب، وأية خطيئة، وأية جريمة» - وعاد الآن الى القعود الى مكتبه، وصدغاه بين يديه المضمومتين. - المسألة أننا تركناه يأتي، وتركته بالقرب مني، وسرَّحت طرفي فيه! يجب عليك أن تعلم أن الأطفال مجبولون من مادة لطيفة، وهم مستعدون أيَّما استعداد لتقبُّل المؤثرات السامة...».

وكنت الآن أنا الذي صرخ حقاً، وحَظَرَتْ عليه الكلمات ساخطاً.

وصحت قائلاً: «كلاّ، ياأدريان، ماهذا الذي تفعله بنفسك، مالك تعذِّب نفسك بهذه الاتهامات العبثية، لنفسك، من جراء قضاء أعمى كان في وسعه أن يعاجل الطفل العزيز الذي ربما كان عزيزاً فوق ماينبغي بالقياس الى هذه الأرض، حيثما كان! وقد يمزِّق نياط قلوبنا، غير أنه لاينبغي أن يسلبنا عقولنا. وأنت لم تفعل تجاهه إلاّ ماهو مستحب،

وحَسَن...».

وِلم يزد على أن لوَّح بيده تلويح المُعْرِض. ولبثت قاعداً عنده ساعة، وكنت أحادثه من حين الى آخر بصوت خفيض، وكان يغمغم على أثر ذلك بأجوبة كنت لا أكاد أفهمها. ثم قلت إنني أريد أن أعود مريضنا.

وردّ قائلاً: «هلاّ فعلت ذلك فحسب» وأضاف قائلاً بقلب قاس:

«ولكن لاتخاطبه كما كنت تفعل في تلك الأيام، بقولك: «والآن، ياولدي، هل كنت دائماً طيباً، ونحو ذلك، فهو، أولاً، لايسمعك، ثم إن هذا خليق أن يكون مجافياً للذوق الإنساني على وجه الإطلاق».

وهممت بالانصراف، غير أنه استوقفني، وهو ينادينى باسم عائلتي: «تسايتبلوم!» الأمر الذي كان له في أذني وقع بالغ القسوة، وقال حين التفتُّ إليه:

«لقد وجدت أن هذه المسألة ينبغي ألاّ تكون»

«ماذا يعني ياأدريان، ألاّ تكون»

وأجابني قائلاً: «الخير والنبل، ومايطلق عليه الناس اسم البشري، على الرغم من أنه حَسَن ونبيل، وما كافح البشر من أجله، واقتحموا من أجله الحصون، وما أُعْلِن عن تحقيقه بالتهليل، هذا لاينبغي أن يكون. سوف يعود. وأنا أريد أن استعيده»

«أنا لاأفهمك كل الفهم ياعزيزي، ما الذي تريد أن تستعيده؟»

ورد قائلاً: «السنفونية التاسعة»، ثم لم يكن يصدر مزيد على ذلك مهما انتظرت.

وتوجهت الى الدورو العلوي وفد تولاني الارتباك والهم، الى حجرة القدر، وكان جو حجرة المريض عابقاً بروائح الأدوية، خانقاً، وكان النقاء والوحشة يسودان هناك على الرغم من أن النوافذ كانت مفتوحة، ومع

ذلك فقد كانت المصاريع مجذوبة الى الأسفل حتى لم يبق منها إلاّ شق ضيِّق، وكان سرير نيبوموك يقف حواليه عدد من الشخوص صافحتهم بينما كانت عيناي لاتتجهان إلاّ صوب الطفل المحتضر. وكان يرقد على جانب السرير، مُحْدَوْدِباً وقد انشدَّ مِرْفَقُه الى ركبته. وكان يتنفس ذات مرة تنفساً عميقاً، وقد احمرت وجنتاه احمراراً شديداً، ثم يترتَّب على المرء أن ينتظر النَّفَس التالي وقتاً طويلاً، ولم تكن العينان مغمضتين تماماً، ولكن لم تُرى بين الأهداب زرقة القزحية، بل كان يرى سواد فحسب، إذ كان هذان البؤبؤان قد باتا أكبر حجماً على نحو مطرد، وإن كان حجم كل منهما مختلفاً عن الآخر، وكانا يكادان يلتهمان نجمة اللون، ومع ذلك فقد كان الأمر خليقاً أن يكون حسناً بعدُ إذا مارأى المرء سوادهما المنعكس. وفي بعض الأحيان كان يسود البياض في الشق. وعند ذلك كان الذراعان الصغيران يضغطان بقوة أكبر على خاصرتي الطفل، وكان التشنج المقترن بصريف الأسنان يلوي الأعضاء الصغيرة، وكانت رؤيته تكشف عن قسوته وإن كان غير مقترن بالمعاناة بعد.

وكانت الأم تنشج، وكنت قد صافحتها مرة أخرى. أجل، لقد كانت هنا، أورسِل، ابنة مزرعة بوخل ذات العينين البنِّيتين، وأخت أدريان، وكانت تتجلّى لي، من الملامح البريئة لتلك التي باتت الآن في الثامنة والثلاثين، بدرجة أقوى مما كانت عليه في تلك الأيام، ملامح يوناتان الألمانية القديمة، المأخوذة عن أبيها، مما كان باعثاً لتأثُّري، وكان معها زوجها الذي كانت البرقية قد ذهبت إليه، والذي كان قد جاء بها من سوديروده. وكان يوهانيس شنايديفاين رجلاً طويلاً، وسيماً، بسيطاً، بلحيته الشقراء، وله عينا نيبوموك الزرقاوان، وطريقة الكلام ذات

الدلالة والاستقامة، التي أخذتها أورسولا عنه في مرحلة مبكرة، والتي عرفنا إيقاعها في إيقاع صوت الجنيّ، في إيشو.

أمّا مَنْ كان موجوداً عدا ذلك، فضلاً عن السيدة شفايجشتل، الرائحة والغادية فكانت كونيجونده روزنشتيل ذات الملابس الصوفية، التي كانت قد تعرفت على الصبي الصغير في زيارة أتيحت لها، وفتحت له قلبها المحزون بهوى جامح. وكانت قد كتبت في تلك الأيام، بالآلة الكاتبة، على أوراق رسائل من مؤسستها ذات الخشونة، وبعلامات تنقيط تجارية، رسالة مطوّلة بألمانية أنموذجية، حول انطباعاتها، الى أدريان. وأتيح لها الآن، بعد أن أخرجت ناكيدي من الميدان، أن ترسخ قدميها، وأن تحل محل آل شفايجشتل، وأخيراً محل أورسل شنايديڤاين في رعاية الطفل، فكانت تبدِّل كيس ثلجه، وتغسله بالغَوْل، وتحاول أن تسقيه الدواء، والعصارة المغذية، وكانت لاتترك مكانها الى جانب سريره في الليل، لامرئ آخر إلا على مضض، وفي حالات نادرة...

وكان لنا، أنا، وآل شفايجشتل، وأدريان، وأقرباؤه، في قاعة إلهة النصر عشاء قلَّ الكلام معه، وكانت إحدى النساء تنهض عنه في كثير من الأحيان، لتتفقّد المريض. ومنذ ضحى يوم الأحد لم يكن لي بدٌّ أن أغادر بفايفرينج، على صعوبة ذلك على نفسي، وفي يوم الأحد كان عليّ أن أصحِّح رزمة كاملة من أوراق الواجبات المدرسية في اللغة اللاتينية. وفارقت أدريان، وأمنيات طيبة على شفتيّ، وحين تركني كان أحبّ إليّ مما كان حين استقبلني بالأمس. وبنوع من الابتسامة نطق بالكلمات التالية بالإنكليزية.

«ثُمَّ الى العناصر. فلتتحَّررْ، والوداع لك!»
ثم انفتل معرضاً عني على عجل

ورقد نيبوموك شنايديڤاين، أو إيشو، الطفل، حب أدريان الأخير، رقدته الأخيرة بعد ذلك باثنتي عشرة ساعة، وأخذ الوالدان التابوت الصغير معهما الى موطنهما.




محمد خطاب

(٤٦)

ولبثت أربعة أسابيع لا أواصل الكتابة في هذه المذكرات، وقد عاقني عن ذلك، أوّلاً، استنفادُ نفسيٌ للطاقة، بعد تذكُّر ماسبق، ولكن عاقني عنه في الوقت ذاته الأحداث اليومية التي باتت تتلاحق الآن، والتي كان يجري التنبؤ بها تبعاً لمجريات الأحداث المنطقية، والتي كانت النفوس تتوق إليها بطريقة ما، والتي تعرَّض لها شعبنا المنكود، الذي أضنته الفواجع والفزع، وبات غير قادر على الإدراك، فبات يسترسل في نزوع بليد الى الإيمان بالقضاء المكتوب، والتي تعرضت لها أيضاً نفسي التي باتت مرهقة من الحزن القديم ومن كل فزع.

لقد أخذت مقاومتنا، منذ نهاية آذار – ونحن نكتب ٢٥ نيسان، من هذا العام المصيري، ١٩٤٥ – في غربي البلاد، في الانحلال الكامل على نحو واضح للعيان، والجرائد العمومية تسجِّل الحقيقة، بعد أن أفلتت من عقالها جزئياً، والشائعة التي تغنيها أنباء العدو المبثوثة في الإذاعة، من حكايات عن الهاربين، لاتعرف رقابة، وتحمل الحالات الفردية من الكارثة التي تنتشر بسرعة في المناطق التي لم تُلْتَهَم من قبلها بعد، ولم تُحَرَّر، من الرْايش، الى أن تصل الى صومعتي. وماعاد هناك توقُّف، فكل الناس يستأسرون، ويتفرقون بعضهم عن بعض، ومدننا المدمَّرة، المستنزفة تسقط كالتينة الناضجة، لقد ذهبت

دارمشتات، وفورتسبورج، وفرانكفورت، وحتى مانهايم وكاسِّل، بل باتت منستر ولايبتسج تصغي الى كلام الأجانب. لقد وقف الإنكليز ذات يوم في بريمن، والأمريكان في بلاط فرانكونيا العليا، واستسلمت نورنبرج، مدينة قلعة الدولة التي كانت ترفع أصحاب القلوب الخالية من الذكاء الى مكانة عالية، ويْسْتَحرُ الانتحار بين كبار رجال النظام الذين كانوا يتقلّبون في أجواء السلطة، والثروة والظلم، ليكون عبرة لسواهم.

أما الفيالق الروسية التي باتت، عن طريق الاستيلاء على كوينجزبرج وڤينا، مؤهَّلة لتشديد قبضتها على نهر الأودر، فقد زحفت، بجيش بلغ الملايين، على عاصمة الرايْش التي باتت أنقاضاً، وأخلتها كل دوائر الدولة، وأكملت، بمدفعية ثقيلة، ماتمّ تنفيذه من الجو منذ عهد بعيد، وهي تقترب في الوقت الحاضر من قلب المدينة.

أما الرجل البشع الذي أفلت في العام الماضي من ضربة الوطنيين اليائسين الذين كانوا يفكرون في إنقاذ رأس المال الأخير بحياتهم، على أنها لم تكن بالطبع إلاّ كوميض شمعة تخفق تائهة ترفرف قبل أن تخمد، فقد أمر جنده بأن يغرقوا الهجوم على برلين في بحر من الدم، وأن يطلقوا النار على كل ضابط يتحدث عن التسليم، وقد اتُّبِع هذا من وجوه عديدة. وفي الوقت ذاته تتيه ألوان من الإرسال الإذاعي الغريب، الذي ماعاد، على النحو ذاته، يتمتع بوضوح في الفكر، من الألسنة الألمانية، في أجواء الأثير، سواء أكانت من أولئك الذين يوصون المنتصر بالرفق بالسكان، بل حتى بزبانية شرطة الدولة السرية، على أنهم أناس مطعون فيهم كثيراً من باب الاغتياب والظلم، أم كانوا من أولئك الذين يعرفون كيف يبلّغون عمَّن عُمِّدوا باسم حركة الحرية التي تحمل اسم

ڤيرفولف، وهي عصابة من الأولاد المجانين الذين يختبؤون في الغابات، ثم يخرجون منها في الليل، وقد أسدوا خدمة للوطن بإقدامهم على عمليات قتل تتسم بالشجاعة. يالها من صورة شائهة تحمل طابع الفاجعة! هكذا تُستحضَر حتى اللحظة الأخيرة الأسطورة الفجّة الخام، ورواسب الحكايات المنطوية على السخط، في قلوب الشعب، ولاتُقدم صدىً ينطوي على الثقة.

وفي هذه الأثناء يوعز قائد من قواد ماوراء الأطلسي بأن يستعرض سكان ڤايمار المحارق الملحقة بمعسكرات الاعتقال هناك، ويعدُّهم، هل أقول بغير حق؟ - أقول يعدُّ هؤلاء المواطنين الذين كانوا يتابعون أعمالهم في إطار من الشرف الظاهري، ولم يحاولوا أن يعرفوا شيئاً، على الرغم من أن الريح كانت تحمل نَتَن اللحم البشري المحروق من هناك الى أنوفهم، - مشاركين في الوزر المتعلق بالفظائع التي باتت الآن مكشوفة، وإجبارهم على توجيه عيونهم نحوها - وإني لأنظر معهم، وأدع نفسي أُدْفَع معهم بروح أرتالهم البليدة أو المُقْشَعِرّة أيضاً. وقد اقتُحِمت أقبية التعذيب ذات الجدران السميكة التي تحوّلت إليها السيادة على ألمانيا، تلك السيادة التي لاتساوي شيئاً، والتي استحضرت منذ البداية من أجل العدم، وبات عارنا مكشوفاً لأعين العالم، لِلَّجان الأجنبية التي تُعرَض عليها هذه الصور التي لاتصدَّق في كل مكان، والتي تتحدث في موطنها: ومارأته يفوق في فظاعته كل ماتستطيع طاقة التصوُّر البشري أن ترسمه. وأقول: عارنا، لأن مما يعد من قبيل مجرد توُهم وجود المرض أن يقول المرء لنفسه إن كل ما يمت بصلة الى القومية الألمانية، وحتى الروح الألماني، والفكرة الألمانية، قد

أصيب من جراء هذه التعرية التي تجرِّد من الشرف، وأنه قد أطيح به في غيابة تفاهة عميقة؟ وهل يعد من قبيل انكسار النفس المَرَضي أن يطرح المرء على نفسه سؤال: كيف ستسمح ألمانيا لنفسها بعد، في المستقبل، وفي أي ظاهرة من ظاهراتها، على وجه الإطلاق، بأن تفتح فمها لتتحدث في المسائل الإنسانية؟.

ولنسلك هذا في سلك الإمكانات المظلمة الكامنة في الطبيعة البشرية على وجه الإطلاق، والتي تتجلّى هنا، - أناس من الألمان، عشرات الألوف، ومئات الألوف، هم الذين اقترفوا ما تقشعر منه البشرية، وكل من عاش في الجو الألماني يقف هنا بغيضاً، ومثالاً للشر. وكيف سيكون الأمر إذا ما انتسب المرء الى شعب يحمل تاريخه في ذاته هذا الإخفاق الفظيع، الى شعب بات تائهاً ضالاً في حق نفسه، ومفلساً من الناحية الروحية، ويائساً، باعترافه، من حكم نفسه بنفسه، ومازال يرى أن الأفضل أن يتحوَّل الى مستعمرة للدول الأجنبيّة، الى شعب سوف يضطر الى أن يعيش منغلقاً على نفسه، مثل يهود الجيتّو، لأن كراهية سَرَت على نحو رهيب من حوله، لن تتيح له أن يخرج من حدوده، - شعب لايستطيع أن يكشف عن وجهه للناس؟.

اللعنة، اللعنة، على المفسدين، الذين أدخلوا في مدرسة الشر نوعاً من البشر طيّباً في الأصل، ذا عقلية تؤمن بالحق، إلاّ أنه نجيب الى حد مفرط، ويسرّه الى حد مفرط أن يعيش من النظرية! وما أكثر ماتبعث اللعنة الارتياح، وما أكثر ما هي خليقة أن تبعث عليه، عندما تتصاعد من صدر حر غير مقيَّد بشرط! غير أن حبّاً للوطن ينزع بجرأة الى أن يزعم أن الدولة الدموية التي نشهد اليوم ألمها الباعث للغيظ، يحمل في

عنقه الجريمة التي لاتقدَّر، وهي أن يتحدث باللغة اللوثرية، وهو الذي ترنحت الجماهير منه سكرى بفيض السعادة الذي جرَفَها عند إعلاناتها التي شطبت حقوق الإنسان، وسارت تحت راياته ذوات الألوان الصارخة شبيبتُنا تلتمع عيونها في زهوّ جليّ، وفي إيمان راسخ، كانت شيئاً غريباً على الإطلاق عن طبيعة شعبنا، ومفروضاً عليه، وكانت فيه شيئاً لاجذور له، - ومثل هذا الحب للوطن خليق أن يبدو لي أعلى همة مما كان يبدو لي شيئاً ينطوي على الوجدان والضمير. أوَلم يكن هذا السلطان، بموجب أقواله وأفعاله، مجرّد التحقُّق الشائه، والمحوَّل الى الصفة الغوغائية، الى الصفة الكريهة المقوته، لعقلية ما، ولإدانة للعالم لابدَّ للمرء أن يُقِرَّ لها بأصالة الشخصية، والتي يجدها الإنسان المسيحي - الإنساني، على نحو لايخلو من الوجل، مطبوعة بملامح عظمائنا، بطابع أكثر أشكال تجسيد القومية الألمانية شموخاً في شكلها؟ أنا أسأل - وهل تراني أكثر من الأسئلة؟ واعجباً، إنها، بلاريب، أكثر من سؤال يواجهه الآن، هذا الشعب المضروب، من أجل ذلك على وجه التحديد، تائه النظرة، أمام العدم، لأن محاولته الأخيرة، والقصوى، للعثور على القالب السياسي الخاص به انتهت الى إخفاق بالغ الفظاعة كهذا.

*

ألا ما أشدَّ الخصوصية التي تجتمع بها العصور الآن - يجتمع بها ذلك العصر الذي أكتب فيه مع ذلك ما يشكل مجال هذه المسيرة! ذلك لأن السنوات الأخيرة من الحياة الفكرية لبطلي، هاتان السنتان ١٩٢٩ و ١٩٣٠، بعد إخفاق خطة زواجه، وخسارة صديقه، وانتزاع الطفل

الأعجوبة الذي أقبل إليه من يده، كانتا قد أصبحتا تنتميان الى صعود ما استحوذ بعد ذلك على البلاد، واستفحاله، حتى باتت البلاد الآن غرقى في الضياع، والدم، وألسنة اللهيب.

لقد كانت، بالقياس الى أدريان ليڤركون، سنوات نشاط إبداعيّ هائل يتسم بالإثارة العالية، على أن المرء يجد مايغريه بالقول إنها سنوات نشاط جبار يجرف الجار المهتمّ ذاته في نوع من السكر، ولم يكن من الممكن أن يغالب المرء انطباعاً كأن هذا يعني أجراً وتعويضاً مقابلاً عن الحرمان من سعادة الحياة وإتاحة الحب الذي كان قد وقع فيه. وأنا أتحدث عن سنتين، ولكن بغير حق، إذ يكفي منها جزء فحسب، النصف الثاني من الأولى، وبضعة أشهر من الأخرى، ليعطي هذا العمل شكله الأخير، والتاريخي الى حد ما، ومظهره الخارجي الأقصى في الواقع: ألا وهو الغنائية السنفونية «نُواح الدكتور فاوستوس» التي يرجع مخططها، كما سبق أن كشفت عن ذلك، الى ماقبل إقامة نيبوموك شنايديڤاين في بفايفرينج، والتي أريد الآن أن أكرس لها كلمتي المتواضعة.

ولايجوز لي، بادئ ذي بدء، أن أقصِّر في إلقاء ضوء على الأحوال الشخصية لمبدعها، الذي كان في تلك الأيام في الرابعة والأربعين، وعلى مظهره وأسلوب حياته، كما كانت هذه تتجلّى دائماً لملاحظتي المتشوِّقة. على أن مايجري على قلمي أول الأمر هو الحقيقة التي سبق أن مهَّدت لها في هذه الصحائف في وقت مبكر وهي أن وجهه الذي كان يحمل، مادامت حلاقته ناعمة، شبهاً بأمه كان يبدو واضحاً للعيان، كان قد تغيَّر منذ عهد قريب من جراء نموّ لحية داكنة اللون مختلطة بالرماديّ، وكانت نوعاً من الشارب المفتول تتدلى منه لحية صغيرة تضم الشفة

العليا، وكانت عند الذقن أشدَّ كثافة الى حد بعيد، إذا لم يترك وجنتيه خاليتين أيضاً، ولكنها كانت هنا، مرة أخرى، أشدَّ على جانبي الوجنتين مما كانت في الوسط، أي أنها لم تكن لحية مدبَّبة. وكان المرء يتحمّل الشعور بالغرابة الذي كانت تحدثه هذه التغطية الجزئية لملامح الوجه، لأن اللحية كانت هي التي تضفي على محياه شيئاً يدلّ على الصبغة الفكرية، وعلى المعاناة، بل على شيء من سمة المسيح، وذلك، بلاريب، بالاشتراك مع ميل مطَّرد الزيادة الى أن يجعل رأسه مائلاً نحو كتفه. ولم يكن لي بدٌّ أن أحب هذا التعبير، وكنت أعتقد أنني سأكون بذلك أجدر بأن أهب له تعاطفي، إذ لم يكن على مايبدو يشير الى ضعف، بل كان يمشي بهمّة قصوى وصحة وعافية لم يكن الصديق يعرف كيف يفخر أمامي بخلُوِّها من كل شائبة، بما يكفي. وكان يفعل ذلك بطريقة الكلام المتباطئة، والمترددة في بعض الأحيان، والرتيبة الى حد ما، أحياناً، وهي طريقة قررتُها مجدداً فيه، وكان يسرُّني أن أفسِّرها بأنها آية على الرزانة المثمرة وعلى رباطة الجأش في وسط معترك أخّاذ من ألوان الخواطر. وكانت ألوان العنت الجسدي التي ظل زمناً طويلاً ضحية لها، وهي النزلات المعدية، وإصابات البلعوم، وهجمات الشقيقة الحافلة بصنوف العذاب، قد زايلته، وبات النهار وحرية العمل لاشك فيهما عنده، وكان هو نفسه يعلن أن صحته على مايرام، وأنها رائعة، وكانت طاقة الرؤيا التي ينهض بها كل يوم الى عمله، بطريقة كانت تملأني بالزهوِّ، وتبعث في نفسي الخوف مرة أخرى من النكسات، تُقْرَأ في عينيه، وهما عينان كانتا فيما مضى يحجبهما الجفن العلوي على الغالب في نصف إغماضة، غير أن الشق بين الجفنين بات الآن أوسع، بل بات مفتوحاً

فتحة واسعة الى حد يكاد يكون مبالغاً فيه، حتى لقد كان المرء يرى على بشرة قوس قزح شريطاً من بشرة العين البيضاء. وقد كان من الممكن أن ينطوي هذا على شيء من التهديد، وكان يزيد من ذلك عمّا هو في النظرة الموسَّعة على هذا النحو، نوع من الجمود، أم هل ينبغي لي أن أقول إنه كان يلاحظ نوع من الركود ظللت وقتاً طويلاً أحار في تخمين طبيعته، الى أن انتهيت، الى أنه يستند الى ثبات البؤبؤين اللذين لم يكونا مستديرين كل الاستدارة، بل كانا ممطوطين في الطول على نحو غير مطَّرد الى حد ما، في الحجم ذاته دائماً، وكأنهما غير قابلين للتأثُّر بأي تبدُّل في الإضاءة.

وأنا أتحدث هنا عن تعذُّرللحركة خفي وداخلي نوعاً ما، لابدَّ أن يكون من يلاحظه من ذوي العناية البالغة. وكان ثمة ظاهرة أخرى، تلفت النظر كثيراً، وهي أكثر ظاهرية، تتناقض مع هذه، - وكانت هذه قد لفتت نظر جانيت شورل العزيزة، وبعد زيارة لأدريان أومأت لي الى هذا، دونما ضرورة. وكان هذا هو العادة المكتسبة منذ عهد قريب، وهي تحريك مقلة العين على عجل، جيئة وذهاباً، وذلك في الحقيقة الى مسافة جد بعيدة في كلا الاتجاهين، في لحظات معينة، عند التفكير، مثلاً، أي، كما يقولون، «دحرجة العينين» كالكرة، الأمر الذي يمكن للمرء معه أن يتصورَّ أنه خليق أن يفزع بعض الناس. ومن أجل ذلك، وإذا كان هذا سهلاً عليَّ أيضاً - ويخيَّل إليَّ أنه سهل عليَّ، يجب أن أردَّ أمثال هذه السمات الطريفة النادرة، بالقياس إليّ، الى العمل الفني الذي كان يحتمل وطأة التوتر الهائل المتصل به - فقد كان من بواعث تخفيف الوطأة عن كاهلي، في الخفاء، أنه لم يكد يرى هذا أحد سواي، - وذلك

لأنني كنت أخشى أن يفزع الناس. وكانت كل زيارة اجتماعية في المدينة مستبعدة الآن بالقياس إليه، وكانت الدعوات تُرفَض عن طريق مضيفته الوفيّة، بالهاتف، أو تظل أيضاً بغير جواب. وحتى الرحلات العابرة ذات الغرَض، الى مونيخ، من أجل عمليات التسوُّق، ألغيت وكان في وسع المرء أن يعدّ أولئك الذين كانوا يتولّون تأمين الألعاب للطفل المتوفى، آخر هؤلاء. وكانت قطع خزانة الملابس التي كانت تفيده فيما مضى إذا ما خرج مع الناس، أو شارك في حفلات المساء والاحتفالات العامة، تظل معلّقة في الخزانة بغير استعمال، وكانت ملابسه هي الأبسط على الإطلاق بالنسبة للمنزل - ولم يكن يرتدي معطف النوم الذي لم يكن يحبه قط، ولا في الصباح، إلاّ عندما يغادر فراشه في الليل، ويقضي ساعة أو ساعتين في كرسيه. غير أن الجاكيت الفضفاض من النسيج القطني السميك، المغلق حتى أعلاه، بحيث يغني عن ربطة العنق، كان يمكن ارتداؤه مع أي سروال، وواسع مثله، ذي مربعات صغيرة، وكان في هذا الوقت حلته الدائمة التي كان يقوم فيها أيضاً بنزهاته المعتادة التي لايستغنى عنها لتوسيع الرئتين، وكان في وسع الناس أن يتحدثوا عن إهماله لمظهره الخارجي إذ لم يكن مثل هذا الانطباع محفوظاً في الخلفية من الذهن عن طريق التمييز الطبيعي الصادر عن الجانب الفكري، لمظهره.

ومن أجل مَنْ كان ينبغي له أن يفرض على نفسه القسر؟ لقد كان يرى جانيت شورل التي كان يراجع معها مقطوعات من موسيقا القرن السابع عشر كانت قد جاءت بها (وأتذكر هنا مقطوعة بعنوان شاكون لياكوبوميلاني تأخذ موضعاً من تريستان بنصه الحرفيّ). وكان يرى من

حين الى آخر روديجر شيلدكناب، ذي العينين المتماثلتين، الذي يشاركه الضحك، حيث لم يكن في وسعي أن أمتنع عن إبداء الملاحظة الكئيبة الخاوية، ومؤداها أن العينين المتماثلين بقيتا الآن وحدهما، غير أن السوداوين والزرقاوين تواريتا... ورآني أخيراً عندما حضرت عنده في نهاية الأسبوع، - وكان هذا كل شيء، ويضاف الى ذلك أنها لم تكن سوى ساعات قصيرة كان من الممكن فيها أن يحتاج الى المجالسة على وجه الإطلاق، لأنه كان يعمل ثماني ساعات في اليوم من دون أن يسقط يوم الأحد (إذ لم يكن يقدسه أبداً) ولما كان قد تمَّ إدخال أوقات راحة بعد الظهيرة في الظلمة، فقد كنت أظل في زياراتي لبفايفرينج متروكاً لنفسي كثيراً، وكأني كنت خليقاً أن أندم على هذا! وكنت قريباً منه، وقريباً من نشوء العمل الفني المحبوب، في غمرة الآلام والهزة والرعدة، وهو العمل الذي كان قد لبث الآن راقداً هنا عبر عقد ونصف من الزمان، قيمةً عليا ميتة، مكروهة، مكتومة، وكان تجدُّده ممكن التحقيق عن طريق التحرر المدمِّر، الذي نحتمله، وكانت هناك سنوات كنا نحلم فيها، نحن أبناء السجن، بنشيد تهليل، «بالفيديليو»، وبالسنفونية التاسعة، احتفالاً صباحياً بتحرر ألمانيا، بتحررها الذاتي، أمّا الآن فلا يمكن أن يغنىَّ لنا، معشر الأتقياء إلاّ هذا، وهذا وحده سوف يُغَنّى لنا من الروح: نُواح ابن الجحيم، أكثر المناحات البشرية والربانية رهبة، من بين كل تلك المناحات التي جرى الترنّم بها، على الأرض انطلاقاً من الذات، ولكن مع توسُّعها الدائم، وكأنها تستحوذ على الكون.

النُّواح، النواح! نواح من الأعماق يعده اجتهادي المحبّ نواحاً لامثيل له، ولكن ألم ير، مع ذلك، من وجهة النظر الإبداعية، وسواء من

وجهة نظر تاريخ الموسيقا، أم من وجهة نظر الاكتمال الشخصي، حقيقة مُهَلِّلة، مظفَّرة الى أقصى الحدود، مع هذه الأعطية التي تثير الرعدة، أعطية التعويض، وموقف البراءة. أولًا يعني هذا «الاختراق» الذي كان الحديث يدور عنه بيننا عند ما كنا نناقش مصير الفن، وحالته الراهنة وساعته، ونفكر فيه، في كثير من الأحيان على أنه مشكلة إمكانية متناقضة، هي مشكلة الظفر به من جديد. ولا أودّ أن أقول ذلك، وأقوله لمجرد الدقة بلاريب: إنه إعادة بناء التعبير، المخاطبة الأعلى والأعمق للوجدان على مستوى من الدقة وصرامة القوالب، التي لابدَّ من بلوغها، لكي يكون من الممكن أن يتحوّل هذا التغيير من البرود الحسابي الى صوت الروح التعبيري، والى الحرارة المخلوقية، الى حدث؟. وأن أُلْبِس ثوب الأسئلة ما لايُعدّ أكثر من وصف واقعة تجد تفسيرها في الموضوعي مثلما تجده في الشكليّ فنياً. وذلك أن النواح - والمسألة تتعلق بالطبع بنواح دائم له نبرة لاتنفد وإيماءة بالغة الإيلام تتعلق بالإنسان المتوَّج بإكليل الشوك -، والنواح هو التعبير ذاته، ويستطيع المرء أن يقول بجرأة إن كل تعبير يعد نواحاً في الحقيقة، مثلما هو حال الموسيقا، بمجرد أن يغدو من الممكن أن تفهم على أنها تعبير، في بداية تاريخها الحديث، إذ تتحول الى نواح «دعوني أموت»، الى نواح أدريان، الى غناء عرائس البحر النُّواحيّ الخافت الذي تتردّد أصداؤه. ولم يكن من قبيل العبث أن تتصل غنائية فاوستوس، من الناحية الأسلوبية اتصالاً وثيقاً الى هذا المدى، وعلى نحو لاتخطئه الملاحظة، بمونتڤيردي، والقرن السابع عشر، الذي كانت موسيقاه - ولم يكن ذلك عبثاً، مرة أخرى - تفضّل تأثير الصدى تفضيلاً يصل بها الى التأثر السلوكي أحياناً: فموضوع

الإيشو (أو الصدى)، أي إعادة الصوت البشري على أنه صوت طبيعي، والكشف عنه، صوتاً طبيعياً، هو في جوهره نواح، إنه صوت الطبيعة الكئيب القائل «أوّاه!» عن الإنسان، والإعلان التجريبي عن عزلته، - مثلما يعدّ نواح عرائس البحر، على نحو معكوس، من جانبهن، وثيق الصلة بالصدى، ولكن هذا التصميم المفضل في إبداع ليڤركون الأخير والأعلى، والعائد الى عصر الباروك، يعدُّ، في كثير من الأحيان وثيق الصلة بتأثير كئيب الى حد لايوصف.

وأقول إن عملاً جباراً من أعمال النواح كهذا، هو بالضرورة عمل تعبيري، عمل من أعمال التعبير، وهو بذلك عمل من أعمال التحرير، شأنه في ذلك شأن الموسيقا المبكرة التي انضمت إليه على مدى القرون، وكانت تنزع الى أن تكون تحريراً باتجاه التعبير، إلاّ أن العملية الجدلية التي يتمّ عن طريقها، في مرحلة التطوُّر التي يستغرقها هذا العمل، التحوُّل من الارتباط المتناهي في صرامته الى لغة الوجدان الحرة، وولادة الحرية من الارتباط، تبدو أكثر إثارة للدهشة والذهول، وأكثر روعة الى حد لا نهاية له، في منطقها، مما كانت عليه في أيام المادريجاليين(*)، وأريد هنا أن أحيل القارئ الى الحوار الذي دار ذات يوم بات بعيداً، بيني وبين أدريان في يوم زواج أخته في بوخل في نزهة بحذاء حوض البقر، وضع لي فيه تحت وطأة آلام رأسه، فكرته عن «الجملة الصارمة» مشتقة من الأسلوب الذي يتحدَّد به اللحن والهارموني في أغنية «يافتاتي العزيزة، ما أسوأك» بالاستناد الى نغم أساسيّ مؤلف من

(*) نسبة الى المادريجال (Madrigal). وهي في الأصل أغنية رعوية وجيزة من القرنين السادس والسابع عشر، في جوقة من خمسة أصوات على الأغلب، ومن دون آلة. «المترجم»

خمسة أصوات، من الرموز (h e a e es)، وتركني أنظر الى «المربع السحري» في أسلوب، أو في تقنية يطوِّران من بعدُ أقصى تعدُّد في الجوانب ابتداءً من مواد سبق تقرير أنها متماثلة، ولا يعود فيها شيء ليس من قبيل الفكرة الرئيسية، ولاشيء مما لايمكن أن يثبت أنه تنويع لشيء واحد بذاته أبداً. وهذا الأسلوب، وهذه التقنية، كما قيل، لم يكونا يسمحان بصوت، ولا واحد لايؤدي وظيفته النغمية في التركيب الإجمالي، - وإلاّ لما وجدت نوطة حرة بعد ذلك.

والآن، ألَم أُشِرْ، حين حاولت أن أرسم صورة لموشحة ليفركون الدينية الرؤيوية، الى التطابق في المادة بين الأكثر سعادة على الإطلاق والأكثر فظاعة على الإطلاق، والى التطابق بين الرتابة الداخلية في جوقة أبناء الملائكة وبين الضحكات الجحيمية؟ فهنا توجد مدينة فاضلة شكلية هي من بواعث الفزع الصوفي عند الملاحِظ، تحققها معقولية تثير الرعدة، تغدو شاملة في غنائية فاوست، وتستحوذ على العمل بأسره، وتجعل مايتصل بالفكرة الرئيسية يلتهمه كله فلا يدع منه بقية، إذا جاز لي هذا التعبير. فهذا لحن اللاّمنتو (الذي تبلغ مدته نحو خمسة أرباع الساعة) يعد غير دينامي أبداً في الحقيقة، وخالياً من التطوُّر، ومن دون دراما، شأن الدوائر المتحدة المركز اللواتي تتشكل كلٌّ منهن حول الأخرى، في المدى البعيد، من جراء حجر يلقى به في الماء، وهي ذاتها دائماً. وثمة عمل تنويعي هائل من أعمال النُّواح - يعد ذا صلة سلبية، بهذا الاعتبار، بخاتمة السنفونية التاسعة، بما ينطوي عليه من تنويعات للتهليل - ينتشر في حلقات تجتذب كلٌّ منهن الأخرى إليها على نحو لاتوقف معه: جمل موسيقة، وتنويعات كبرى تتماشى مع وحدات النص

أو فصول الكتاب، ولاتعد في ذاتها، مرة أخرى، شيئاً آخر سوى سلاسل التنويع، غير أنها تعود جميعاً، حين تعود الى الفكرة الرئيسية، الى قِوام أساسيّ من الأصواتِ تصويريٍّ الى أقصى الحدود يتم تقديمه عن طريق موضع محدد من النص.

والقارئ يذكر بالطبع أن الكتاب الشعبي يروي حياة كبير السحرة وموته، وهو الكتاب الذي عمد ليڤركون الى ضم فقراته مع لمسات قليلة ذات عزم ومَضاء، ليتخذ منها أساساً لفصوله، وذلك أن الدكتور فاوستوس، حين تنتهي ساعته الرملية من إفراغ رملها، يدعو أصدقاءه وأجراءه المقربين (من طلاب الماجستر والبكالوريوس) وسائر الطلاب، الى قرية ريمليش، بالقرب من ڤيتنبرج، ويقوم هناك على ضيافتهم بسخاء طوال النهار، ويتناول في الليل أيضاً معهم «شراب يوحنا» ويعلن إليهم بعد ذلك، في خطبة تنمّ عن نفس منكسرة ولكنها كريمة، عن مصيره، وأن تحقُّقَه بات الآن وشيكاً وفي هذه «الكلمة الموجهة من قبل فاوست الى تلاميذه» يرجو منهم أن يدفنوا جسده في الأرض برحمة إذا ما وجدوه ميتاً أو مخنوقاً، لأنه فيما يقول، يموت مسيحياً شريراً وطيِّباً، فهو طيب بسبب ندامته وتوبته، ولأنه يظل، في قلبه، يؤمِّل الرحمة لروحه، وهو شرير على قدر مايعلم ، لأن نهاية فظيعة تذهب به، والشيطان يريد أن ينال جسده، ولابدّ له من ذلك - على أن قوله: «لأنني أموت مسيحياً شريراً وطيباً» يشكل الفكرة الرئيسية العامة في العمل التنويعي، وإذا عدّ المرء عدد مقاطعه الصوتية فهي اثنا عشر مقطعاً، وقد أعطيت كل الأصوات الاثني عشر من السلّم الملوَّن لها، وكل الفواصل التي يمكن تصوُّرها فيها تجمع بينها صلة قربى، وهي

متوافرة من الوجهة الموسيقية منذ عهد بعيد وفعّالة، قبل أن تُتلى نصّاً، في مكانها من قِبَل مجموعة جوقة تمثل الغناء المنفرد - ولايوجد غناء منفرد في «فاوستوس»، - لتصعد حتى تبلغ المنتصف، ثم تهبط في الروح وفي النبرة العائدة الى لامنتو مونتفيردي. وثمة شيء يكمن في أساس كل مايَرِنّ، وبعبارة أفضل إنه يكمن، في صورة مقام موسيقي تقريباً وراء كل شيء، وينشئ التطابق فيما هو الأكثر تعدُّداً في أشكاله وقوالبه على الإطلاق، - وهو ذلك التطابق الذي يسود بين جوقة الملائك الكريستالية وصراخ أهل الجحيم في «رؤيا نهاية العالم»، والذي بات الآن شاملاً: لإقامة شكل ينطوي على أقصى قدر من الحدة، ولايعرف بعدُ شيئاً مما هو مجانب للفكرة الأساسية، ويغدو فيه نظام المادة شمولياً، وتقع في إطاره فكرة الفوغ في العبث، وذلك، أيضاً، بسبب عدم وجود نوطة حرة بعد ذلك، ومع ذلك فهو يخدم الآن غرضاً أعلى، وذلك - وياللعجب من نكتة الشياطين العميقة - لأن الموسيقا تتحرر من حيث كونها لغة، من جراء اكتمال الشكل. ويعمل العمل ناجزاً بمعنى معين، أكثر تقريبية واتصالاً بمادّة الصوت قبل أن يبدأ التأليف الموسيقي مجرد بدء، وهذا مايمكن أن يتم الآن على نحو طليق تماماً، أي أنه يُسْلِم نفسه للتعبير، من حيث كون هذا التعبير واقعاً وراء التركيبي أو يُستعاد من جديد داخل إطار صرامته ذات الكمال المتناهي. ويستطيع مبدع نواح فاوست، في المادة المسبقة التنظيم، أن يُسلم نفسه للنزعة الذاتية، دونما عائق، غير عابئ بالتركيب المعطى من قبل، وبذلك يكون هذا هو أكثر أعماله صرامة، فهو عمل ينطوي على أقصى قدر من الحساب، وهو في الوقت ذاته تعبيري صرف. على أن العودة الى

مونتڤيردي وأسلوب عصره هي أيضاً هذا الذي سميته «إعادة تركيب التعبير»، - التعبير في ظهوره الأول وظهوره الأصلي، التعبير من حيث هو نُواح.

والآن تتم تعبئة كل وسائل التعبير في تلك الحقبة التحرريّة، التي ذكرت منها تأثير الصدى، ولاسيما بموجب عمل فني تنويعي على وجه الإطلاق، قائم، الى حد ما، يعدُّ فيه كل قلب للشكل بمثابة الصدى، حتى لما تقدَّم، ولاتفتقد التتِّمات من النوع الخاص بالصدى، وألوان تكرار عبارة الخاتمة التي تفضي الى مابعدها في فكرة رئيسية ناجزة في وضع ممكن السماع، ويتم التذكير الخافت بنبرات نُواحِيّة أورفيّة(*) تجعل من فاوست وأورفيوس أخوين، من حيث كونهما مستحضرَين لمملكة الظلال: في تلك الحكاية التي يستصرخ فيها فاوست هيلين التي ستلد له ولداً، وتحدث مئات الإشارات الى صوت المادريجال وروحه، وتُكْتَب جملة كاملة، هي مواساة الأصدقاء في مأدبة الليلة الأخيرة، في قالب المادريجال الصحيح.

ولكن تتم التعبئة، بمعنى التلخيص على وجه الخصوص، لأكثر لحظات الموسيقا التي يمكن تصوُّرها من حيث حَمْلُها للتعبير على وجه الإطلاق: لامن حيث كونها محاكاة آلية، ولا من حيث كونها عودة، وهذا مايفهم من تلقاء نفسه، بل هي مثل اعتماد واعٍ بلاريب على مجمل طبائع التعبير التي استقرت في أي يوم من الأيام من تاريخ الموسيقا، والتي تتم هنا بَلْوَرَتُها في نوع من عملية تقطير سيميائية لتتحوّل الى نماذج أساسية للدلالة الوجدانية، بالتضحية. ويصادف المرء

(*) نسبة الى أورفيوس.

هنا التنهُّدة المسحوبة بنفس عميق، مع كلمات مثل: «واعجباً لك، يا فاوست، أيها القلب الجريء، الذي لايساوي شيئاً، ويحك، أيها العقل، أيها الجرأة، والجسارة، والإرادة الحرة...» إنه التشكيل المعقَّد للعتاب، وإن كان ذلك مازال في صورة مجرد وسيلة إيقاعية، والتلوين اللحني، والصمت الإجمالي الخائف أمام بداية عبارة، وأشكال من التكرار، كتلك التي في «دعوني»، ومَدّ المقاطع الصوتية، والفواصل القاطعة، والإنشاد النازل - في وسط موثِّرات تضادٍّ هائلة، مثل التوظيف التراجيدي للجوقة، بأعلى قدرةٍ لها، تبعاً لتعدد الجوانب الأوركسترالي، من حيث كونه موسيقا باليه عظيمة، وخَبَباً يتسم بالتنوع الإيقاعي الرائع في رحلة فاوست المفترضة الى الجحيم، - وهو انفجار نُواحيّ غَلاّب، بعد ليلة حمراء حافلة بالاستمتاع الجحيمي.

وهذه الفكرة الجامحة عن السَّوْق الى الحضيض، من حيث كونها رقصة الغضب الوحشية، تذكِّر بعدُ، أكثر ما تذكِر، بروح رؤيا نهاية العالم، التشكيلية، - والى جانب ذلك، مثلاً، بالمقطوعة الهزلية الفظيعة، التي لاأجرؤ على النطق بها: وهي المقطوعة الهزلية الساخرة، للجوقة، التي يلفِّق فيها «روح الشر لفاوست المتكدِّر أحاديث هزلية غريبة تهكمية، وأمثالاً» - بهذه العبارة الباعثة للخوف «ومن أجل ذلك فلتسكت، ولتعانِ، ولتتجنَّب، ولاتشك شقاءك الى إنسان، لقد فات الأوان، ولتيأس من الله، فشقاؤك يقبل عليك في كل يوم». ولكن فيما عدا ذلك لايوجد إلاّ القليل مما هو مشترك بين عمل ليفركون المتأخر وعمله في سنوات الثلاثينات، فهو أنقى أسلوباً من هذا، وأكثر قتامة في اللحن من حيث هو كل، كما أنه يخلو من المحاكاة الساخرة، ولايعد

أكثر محافظة في توجُّهه الى الوراء، ولكنه ألطف، وأحفل بالألحان، وفيه من أشكال الطباق أكثر مما فيه من البوليفونيّة، - الأمر الذي أريد به أن أقول، إن الأصوات الجانبية، في استقلاليتها تراعي الصوت الرئيسي الذي يجري في كثير من الأحيان في أقواس لحنية طويلة، والذي يشكل نواته التي يتطوَّر منها كل شيء، هذه العبارة ذات الأصوات الاثني عشرة (Denn ich ster be als ein bö ser und gu ter christ)[*] حيث يقول: لأنني أموت مسيحياً شريراً وطيباً). لقد سبق أن قلنا قبل وقت بعيد في هذه الصحائف إن ذلك الرمز الحرفي يوجد أيضاً في فاوست، وهو الذي لاحظته أنا أوّلاً، في شخصية هيتيرا إزميرالدا التي تسيطر في كثير جداً من الأحيان على اللحنيّة وعلى الهارمونية: أي حيثما يرد الحديث عن الخطأ في الكتابة وعن الخطأ في الكلام، أي عن تراجع الدم (Blutrezess).

وتتميز غنائية فاوست قبل كل شيء، عن «رؤيا نهاية العالم» بالمعزوفات الأوكسترالية الكبيرة بين الفصول، التي كأنها تقول «هذا واقع الحال»، إذ تكتفي في بعض الأحيان بالإشارة العامة الى موقف العمل الفني من موضوعه، كما هو موقف موسيقا الباليه في رحلة الجحيم التي تثير الرعدة، حتى بالقياس الى أجزاء من الحدث. وتتألف عملية إضفاء الصفة الأوركسترالية على هذا الرقص المفزع من مجرد أبواق فحسب ونظام مواكَبَة مستمر مؤلف من جُنكَيْن، وسمبالو، وبيانو، وسيليستا، ومُصَلْصِلة، وآلة إيقاعية، تقوم مقام الصوت القاعِديّ، الذي يتخلَّل العمل الفني، إذ يظل يظهر المرة بعد الأخرى. ولاتكون مقطوعات

(*) الخطوط المرسومة تحت الكلمات تشير الى كل مقطع صوتي على حدة «المترجم».

الجوقة المتفرِّقة إلاّ مصحوبة بهذه. وفي المقطوعات الأخرى تضاف إليها الأبواق، وفي مقطوعات أخرى غيرها تضاف الآلات الوترية، وفي مقطوعات سوى هذه تكون هناك مُواكَبَة أوركسترالية. أما الخاتمة فأوركسترا صرفة: جملة أداجيو سنفونية تنتقل فيها جوقة النُّواح الآخذة في المسير بقوة، ويَعْدو الخَبَب، الى الجحيم، شيئاً فشيئاً، والمسألة تشبه الطريق المعكوس في «أغنية الى السرور»، أي الوجه السلبي، المتجانس في التفكير لذلك الانتقال السنفوني الى التهليل الغنائي، إنها الاستعادة...

أي صديقي، البائس، العظيم! ماأكثر ما فكرت، وأنا أقرأ في عمل مخلّفاته، وانهياره، الذي يسبق الكثير جداً من الانهيار، عن طريق التنبُّؤ، في الكلمات المؤلمة التي قالها لي عند موت الطفل، وهي قوله: لاينبغي لهذا أن يكون، الخير، والسرور والأمل، هذا لاينبغي أن يكون، سوف تتم استعادته، ولابدَّ للمرء أن يستعيده! وما أكثر ماتحاكي عبارة «كلاّ، هذا لاينبغي أن يكون!» توجيهاً موسيقياً تقريباً، أو لائحة من اللوائح. وكيف تهيّأ الوصول الى قرار حول جمل الجوقة والأوركسترا في نُواح الدكتور فاوست، وفي كل وَقْع سرعة، وفي كل نبرة من نبرات الصوت في مقطوعة «أغنية الى الحزن» ما من شك في ذلك، بالنظرة الى سنفونية بيتهوفن التاسعة، من حيث كونها القطعة المقابلة بأكثر معاني هذه الكلمة كآبة، كما دُوِّن ذلك. ولكن المسألة لم تكن تتمثل في أنها كانت توجهها الى السلبيّ مراراً، وتستعيدها الى السلبيّ: فهناك أيضاً سلبيةٌ للدينيّ، - وهي سلبية لا أستطيع أن أقصد بها نفيه. فالعمل الفني الذي يتناول المُغْوين، والارتداد، واللعنة، ماذا يفترض فيه

أن يكون سوى عمل دينيّ؟ وما أعنيه عمليه قَلْب وعكس، قَلْب للمعنى يتسم بالمرارة والزُّهُوّ، كما أجده، أنا على الأقل، مثلاً، في «الرجاء الودّي» للدكتور فاوستوس من غلمانه في الساعة الأخيرة، وهو أن يتوجَّهوا الى فراشهم، وأن يناموا بهدوء، وألاّ يسمحوا لأنفسهم بالتعرُّض لإغواء، وسيجد المرء أن من العسير عليه ألاّ يتبيَّن، في إطار هذه الغنائية، في هذا التوجيه، النقيض المقصود والمتعمَّد لعبارة «اسْهَروا معي!» في «الجثمانية». ومرة أخرى: فإن «شراب يوحنا» الذي يشربه الراحل المفارق مع الأصدقاء له طابع طقسيّ على وجه الإطلاق، ولكن يرتبط بذلك قَلْبٌ لفكرة الإغواء بحيث يرفض فاوست فكرة الإنقاذ على إنها إغواء، – ولم يكن هذا بدافع مجرد الإخلاص الشكلي للاتفاقية، ولأن «الأوان فات»،بل لأنه يزدري إيجابية الدنيا التي يودُّ القوم أن ينقذوه ويردّوه إليها، ويزدري أكذوبة السعادة في الله، من أعماق روحه. وهذا يغدو أوضح كثيراً، كما يجري إبرازه أكبر كثيراً بعدُ في المشهد مع الطبيب الشيخ الطيب، والجار، الذي يدعو فاوست إليه ليمارس معه محاولة شاقة لإعادته الى حظيرة الدين بدافع الورع، والذي تُرسَم صورته في الغنائية بقصد واضح على أنه شخصيةٌ مُغْوية. ويتم التذكير، على نحو لاتخطئه الملاحظة، بمحاولة الشيطان إغواء يسوع، كما أن مما لاتخطئه الملاحظة كلمة النفي المتواصلة اليائسة والمزهُوَّة: لا! موجهة ضد المواطنة في الله، تلك المواطنة الزائفة والباهتة.

ولكن ثمة قَلْباً آخر، أخيراً، وأخيراً حقاً، للمعنى، يترتَّب النظر فيه، ومن أعماق القلب، للنواح اللانهائي في خاتمة هذا العمل، بصوت خفيض، متفوِّق على العقل، وناطق بما لاسبيل الى التفوُّه به، وهو الذي

لم يُعْطَ إلاّ للموسيقا، يمسُّ الوجدان. وأقصد الجملة الختامية في الغنائية التي تتلاشى فيها الجوقة، وتبدو مثل نُواح من قبل الرب على ضياع عالمه ومثل عبارة مفعمة بالهم تقول: «لم أكن أريد ذلك» على لسان الخالق. وهنا، حوالي النهاية، كما أجد، يتم بلوغ أقصى لهجات الحزن، ويغدو اليأس الأخير هو التعبير، وهو خليق، وهذا ما لا أودُّ أن أقوله - أن يعني خلوّ هذا العمل الفني من التنازل عن أمر أو خُلُوَّه من إقرار بأمر ما، وإن المرء لخليق أن يمسَّ أَلَمه الذي لاسبيل الى شفائه إذا ما أراد أن يقول إنه يقدم، حتى في آخر نَوْطة له أيَّ عزاء آخر سوى ذلك الذي يتاح له من خلال التعبير ذاته، وفي انتشاره وذيوعه، أي أنه يكمن في أن المخلوق أُعْطِي صوتاً، من أجل ألمه، على وجه الإطلاق، كلاً، فهذه القصيدة الموسيقية القاتمة لاتسمح بعزاءٍ حتى اللحظة الأخيرة، ولا بمصالحة ولاتجلٍّ أو إشراق. ولكن كيف يكون الأمر عندما يكون التناقض الفني المتمثل في ولادة التركيب الإجمالي من التعبير، التعبير من حيث كونه نُواحاً، متماشياً مع التناقض الديني المتمثل في أنّ استحالة الشفاء المتناهية في العمق، ينبت منها الأمل، وإن كان كل ذلك أيضاً سؤالاً بصوت متناهٍ في خُفوته؟ إنه خليق عندئذ أن يكون الأمل الكامن وراء فقدان الأمل، أي تسامي اليأس واستشرافه - ألا فلتسمعوا الخاتمة فحسب، اسمعوها معي: مجموعة آلات تنسحب بعد الأخرى، ومايتبقّى مما يغيب فيه العمل هو «الصول» العالية في آلة التشيللو، الكلمة الأخيرة، الصوت الأخير السابح في الهواء، متلاشياً رويداً رويداً في علامة توقُّف طويلة بالغة الرقة. ثم لايعود هناك شيء، - صمت وليل، ولكن النغم يظل محلّقاً من بعدُ، ومعلّقاً في الصمت، الذي ماعاد له

وجود ، والذي ماعاد يصغي إليه إلاّ الروح، والذي كان نهاية الحزن، ماعاد موجوداً، فهو يبدِّل فِكْرَه، ويلوح ضوءاً في الليل.



(٤٧)

«اسهروا معي!» ربما كان أدريان قد وجّه في العمل الفني، الكلمة المعبِّرة عن المحنة البشرية الإلهية الى الأكثر رجولة في وحدته، والمزهوّ بنفسه، الى قول من قال «ناموا بهدوء، ولا تدعوا أحداً يغويكم!» الى صاحبه فاوستوس، وما من شك في أن الإنساني تتبقّى، الرغبة العزيزة، في الوجود مع البشر، إن لم تكن في مساندتهم، والرجاء القائل: «لاتَدَعوني! كونوا حولي في ساعة أجَلي!».

ومن أجل ذلك يدعو ليڤركون، حين كان العام ١٩٣٠ قد بلغ منتصفه على وجه التقريب، في شهر أيار، من طرق عديدة، رهطاً من الناس إليه في بفايفرينج، كلَّ أصدقائه ومعارفه، وحتى أولئك الذين كان قليل التعرُّف عليهم، أو لم يكن تعرَّف إليهم أبداً، وكانوا جمعاً من الناس، يناهزون الثلاثين، دعا فريقاً منهم ببطاقات مكتوبة، وفريقاً عن طريقي، حيث التُمسَ من أفراد من المدعوين أن يبلغوا الدعوة، مرة أخرى، الى آخرين دَعَوْا أنفسهم، مرة أخرى بدافع الفضول الموضوعي، أي التمسوا الإذن بالمجيء عن طريقي أو عن طريق أي عضو من محيط المقربين، لأن أدريان كان قد أبلغهم على بطاقاته أن يرغب في أن يقدم لجمع مناسب من الأصدقاء صورة عن عمله الجديد، السنفوني - الكوراليّ المكتمل لتوِّه، وذلك عن طريق عَرْضٍ بالبيانو لبعض أجزاء منه

ذات سمات مميِّزة، ولذلك اهتم للأمر أيضاً بعض الشخوص الذين لم يكن ينوي دعوتهم، مثل البطلة تانيا أورلاندا، ومغني التينور السيد كيويبلوند اللذان طلبا الدخول عن طريق آل شلاجنهاوفن، ثم الناشر رادبْروخ الى جانب زوجته التي كانت تستكنّ وراء شيلدكناب، وكان قد وجه الدعوة بخط يده بالمناسبة، أيضاً الى بابتيست شبنجلر على الرغم من أن هذا، كما كان من الواجب على أدريان أن يعرف ذلك في الحقيقة، ماعاد بين الأحياء منذ شهر ونصف، وكان هذا الرجل الظريف الذي لم يجاوز منتصف الأربعينات قد راح ضحيةلمرضه في القلب.

أمّا أنا، وأعترف بذلك، فلم أكن أشعر بالارتياح في صدد هذا الحفل بأسره، أمّا لماذا فذلك مايصعب عليَّ بيانه. وذلك أن هذا الاجتذاب لعدد كبير من الناس الذين كان معظمهم بعيدين عنه سواء في الظاهر أم في الباطن، الى مكان اعتزاله بهدف إطْلاعهم على أغرب أعماله الفنية، لم يكن يتلاءم في الأساس مع أدريان، ولم يكن هذا باعثاً لضيق صدري في حد ذاته بمقدار ماكان يضيق صدري به لأنه بدا لي طريقةً في السلوك غريبة بالقياس إليه، - كما كنت أجد في نفسي مقاومة لذلك أيضاً. ومهما يكن السبب الآن - وأنا أقصد أنني أشرتُ له، الى السبب، - وقد كان أحبَّ إليَّ، في قلبي، أن أدعه يعرف وحده، في ملجأه - لايراه إلاّ من يفكِّر على شاكلته، ومضيفوه الذين يتعلّقون به مع الاحترام، ونحن القلائل، شيلدكناب، والعزيزة جانيت، والسيدات المعجبات: روزنشتيل وناكيدي، وأنا، - مِنْ أن تكون الآن عيون جمع من الناس مختلط لم يألفه، موجهة نحو ذلك الذي هجر الدنيا. ولكن ماالذي بقي لي سوى أن أساعد في المشروع الذي كان قد مهَّد له الى حد

بعيد، وأن أتّبع توجيهه، وأستخدم هواتفي؟ ولم يكن هناك أجوبة سلبية، بل على النقيض، كما قلت، إذ لم يكن يرد سوى التماسات إضافية للسماح بالمشاركة.

ولم تكن المسألة أنني لم أكن قرير العين بهذا الحفل: فأنا أريد المُضِيَّ في اعترافي وأن أسجِّل أنني حاولت أن أنأى بنفسي عن ذلك شخصياً، ومع ذلك فقد كان يقف في طريق هذا شعور بالواجب حافل بالقلق، وبالإحساس بأن عليَّ أن أكون حاضراً لا محالة، شئتُ أم أبيت، وأن أسهر على كل شيء. وهكذا توجهت عصر ذلك اليوم، يوم السبت، مع هيلين، الى مونيخ، حيث أخذنا قطار الركاب ڤالدسهوت، جارمِش، واقتسمنا المقصورة مع شيلدكناب وجانيت شورل وكونيجونده روزنشتيل، وكان سائر الرهط موزَّعاً على ماتبقى، باستثناء الزوجين شلاجنهاوفن فحسب، والمتقاعد الشيخ المترهِّل، المولود باسم فون بلاوزيج، الذين قاموا بالرحلة مع أصدقائهم من المغنين في سيارتهم، وقد أدَّت هذه التي وصلت قبلنا، عند الوصول الى بفايفرينج، خدمات طيبة، إذ كانت تجري جيئة وذهاباً بين المحطة الصغيرة ومزرعة شفايجشتل، مراراً، وتنقل الضيوف الذين لم يُؤْثِروا المشي على الأقدام (وكان الطقس قد ظل جميلاً على الرغم من أن عاصفة كانت تتربَّص عند الأفق بهدوء، حانقة متجهِّمة) زرافات الى هناك، إذ لم يكن قد تمّ تأمين شيء لنقلهم من المحطة الى المنزل. وأعلنت لنا السيدة شفايجشتل التي زرناها، أنا وهيلين، في المطبخ، حيث كانت تُحَضِّر، مستعينة بكليمنتين بأقصى السرعة، وجبة خفيفة لعدد كبير، مؤلفة من القهوة، وقطع الخبز المقسَّمة شرائط مع الزبدة، وعصير التفاح البارد، بذهول غير قليل، أن أدريان لم

يمهِّد لهذا العمل الخارج على المألوف بكلمة.

وفي هذه الأثناء كان النباح الغاضب للكلب المسّن سوسو أو كاشبرل في الخارج، الذي كان يتواثب أمام وكْرِه، يصلصل في سلسلته، يأبى أن ينتهي. ولم يسكن إلا حين ما عاد ثمة ضيوفٌ يصلون. واجتمع القوم كلهم في قاعة إلهة النصر التي زادت الخادم وأجير المزرعة في إمكانات القعود فيها عن طريق الكراسيّ التي سحبوها إليها من حجرات المعيشة العائدة الى الأسرة وحتى من حجرات النوم العليا، وأذكر فضلاً عن الشخصيات التي سميتها، من الحاضرين، كيفما اتفق، وبالاستناد الى الذاكرة: الثري بولنجر، والمصور ليوتسنك، الذي لم نكن نحبه لا أنا، ولا أدريان، في الحقيقة، والذي كان ذاك قد دعاه مع شبنجلرالمتوفّى، وهلموت انستيتوريس الذي بات الآن نوعاً من الأرمل، والدكتور كرانيش ذو اللفظ المتميِّز بوضوح مخارج الحروف، والسيدة بِندَرْ مايور يسكو، وآل كنوتيريش، ونوتيبوم رسّام اللوحات الشخصية الذي يمارس إلقاء النكات بوجنتيه الضامرتين الى جانب زوجته التي جاءت معها بإنستيتوريس. وأضيف الى ذلك سكتوس كريدفيس ورهط المناقشة عنده، أي الباحث في طبقات الأرض الدكتور أونروهه، والأساتذة فوجلر وهولتسشوهر، والشاعر دانييل تسورهوهه في ثوب أسود مغلق. وكان من بواعث غيظي أنه جاء حتى حاييم برايْزاخَرْ المولع بالتلاعب بالألفاظ وتأويلها. وكان العنصر الموسيقي المتخصص مُمَثَّلاً بفرديناند إدْشميدت وقائد أوركسترا تسابفنشتوسَّر. أمّا من حضر وكان باعثاً على المفاجأة الكاملة عندي، وليس عندي وحدي، أيضاً، فهو البارون جلايشنْروسفورم الذي كان كل ماأعرفه عنه، منذ قصة الفأر أنه كان يُرى هنا أول مرة

على الصعيد الاجتماعي، منذ قصته مع الفأر، من جديد مع زوجته الممتلئة، والأنيقة مع ذلك، وهي نمساوية. وتبين أن أدريان كان قد أرسل إليه قبل ذلك بثمانية أيام، دعوة في قصره، وكان الأرجح أن حفيد شيلر الذي كان قد تعرَّض للفضيحة على نحو غريب، سُرَّ أيّما سرور بهذه الفرصة الفريدة لإعادة وَصْلِ ما انقطع من أواصره الاجتماعية.

ويقف كل هؤلاء الناس الآن، وعددهم نحو الثلاثين، كما قلت، بصورة مؤقتة، في قاعة الفلاحين ينتظرون هنا وهناك، ويتعارفون فيما بينهم، ويتبادلون مظاهر الفضول. وأرى روديجر شيلدكناب في حلته الرياضية التي يرتديها أبداً تحيط به النساء اللواتي يوجد منهن عدد جم، وأسمع أصوات المغنين المسرحيين التي تطغى، بجرسها الجميل، وحديث الدكتور كرانيش الواضح المفهوم مع تأثره بالربو، ومباهاة بولنجر، وتأكيد كريدفيس أن هذا الاجتماع ومايَعِدُ به شيءٌ بالغ الأهمية، بلكنةٍ فرنسية، وموافقة تسورهوهه الذي يضيف الى ذلك، وهو يضرب بقدمه الهواء، عبارته المتعصبة: «أجل، أجل، هذا شيء يستطيع المرء أن يقوله!» وكانت البارونة جلايشن تروح وتغدو هنا وهناك تلتمس التعاطف من أجل سوء الحظ المبهم العويص الذي أصيبت به هي وزوجها، وكانت تقول هنا وهناك، أنتم تعلمون حقاً أننا قد انتابنا هذا الهم - وقد لاحظت منذ البداية أن كثيراً من الناس لم يكونوا يلاحظون أن أدريان كان في الغرفة منذ وقت بعيد وكانوا يتحدثون، كأنهم مازالوا في انتظاره، وذلك، ببساطة، لأنهم لم يدركوا وجوده. وكان يقعد وظهره الى النافذة، وثيابه كالعهد بها دائماً، الآن، في وسط القاعة، الى المنضدة البيضاوية الثقيلة التي كنا قد جلسنا إليها ذات يوم مع ذلك

المدعو شاول فيتيلبرج. ولكن كثيراً من الضيوف سألوني من يكون هذا السيد هناك، وكانوا يستجيبون لإشارتي المتعجبة في البداية بقولهم: «آه، هذا إذاً!» إذ يُسمع منهم تبيُّنٌ مفاجئ، وعلى أثر ذلك كانوا يبادرون الى تحية المُضيف وما أشد ما كان لابد أن يكون طرأ عليه من التغير تحت عينيّ حتى أمكن أن يحدث هذا! ولاريب في أن الشارب المفتول كان يُشكل قدراً كبيراً من هذا، وهذا ما كنت أقوله أيضاً لأولئك الذين لم يكن من الممكن أن يدخل في عقولهم أنه هو هذا، وكانت تقف الى جانب كرسيه وقتاً طويلاً منتصبة القامة، كالحرس، روزنشتيل ذات الثياب الصوفية، وكان هذا هو السبب الذي جعل ميتاناكيدي تظل متواريةً على أبعد مسافة ممكنة في ركنٍ من أركان الغرفة، وكان لدى كونيجونده من الولاء مع ذلك مايكفي لكي تخلي مكانها بعد هنيهةٍ، فاحتلته على أثر ذلك على الفور تلك النفس الأخرى المعجَبة وكان يوجد على قَمَطْر بيانو المائدة المفتوح عند الجدار، النوطة الموسيقية لـ «نُواح الدكتور فاوستوس».

ولما كانت عيني لاتفارق الصديق حتى أثناء الحديث مع هذا أو ذاك من الضيوف فإنه لم يفتني أن أدرك الإشارة التي وجَّهها إليَّ برأسه وأهدابه، والتي كانت تفيد أن عليّ أن أحث المجتمعين على احتلال مقاعدهم. وفعلت ذلك دونما تأخير إذ التمست هذا ممن يليني، بهذا المعنى، وأشرت الى الواقفين بعيداً، بل غالبت نفسي لكيلا أصفق بيدي لأحظى بالصمت لكي أبلغهم أن الدكتور ليڤركون يرغب في الشروع في عرضه. ومن شأن الإنسان أن يشعر ويُحس عندما يكون الشحوب يغشى وجهه إذ يحمله على الإحساس بذلك برودة معينة في ملامحه تنمّ عن

فقدان المرء رشده كما أن قطرات العرق التي يمكن أن تظهر على جبينه تتسم بهذه البرودة أيضاً. وكانت يداي اللتان كنت أضرب احداهما بالأخرى ضرباً ضعيفاً فحسب، ترتعدان في تحفظ، مثلما ترتعدان الآن وأنا أهم بتدوين هذه الذكرى المفزعة.

وامتثل الجمهور في فورية ٍبالغة. واستتب الهدوء والنظام على عجل. وكان الوضع بحيث كان يجلس مع أدريان الى المنصّة الزوجان شلاجنهاوفن ومعهما جانيت شورل، وشيلدكناب وزوجتي، وأنا. وكان الباقون في جانبي الغرفة في نظام غير مطَّرد، على أثاث متباين النوع، من كراسيٍّ خشبية مطليَّة، ومقاعد ذات مساند مكسوّة بشعر الخيل، موزعةً تجاه الأريكة. وكان بعض الرجال يستندون أيضاً الى الجدران، وكان أدريان لمَّا يظهْر عليه بعدُ مايُشير الى تحقيق التوقع العام، وتوقعي أنا أيضاً، ولم يتوجه الى البيانو ليعزف. وكان يقعد ويداه مضمومتان ورأسه مائلٌ الى جنبه، وعيناه ساهمتان لاترتفعان إلا قليلاً، وشرع الآن، بالهدوء الكامل، وبطريقة الحديث الرتيبة بعض الشيء، والمتعثرة الى حدٍ ما، التي كنت أعرفها فيه، يوجه الكلمة الى المجتمعين - ليكون ذلك بمثابة حديث تحية، كما بدا لي في البداية، وكان الأمر من هذا القبيل أيضاً في البداية. وأنا أغالب نفسي، لكي أضيف أنه كان يمني نفسه مراراً في حديثه - وكان ذلك من بواعث عذابي، إذ كنت أغرس أظفاري في راحة كفّي - بمحاولة إصلاح الخطأ ثم يقع في خطأ جديد، ومن أجل ذلك ماعاد يلقي بالاً بعد ذلك إلى أمثال هذه الأشكال من الأداء الخاطئ وكان يضرب صفحاً عنها. وما كان لي، بالمناسبة، أن يتولاّني الهمّ الى هذا المدى من جراء ضروب شتى من الخروج على القواعد في طريقته في

التعبير، لأنه كان يستخدم في الحديث، كما كان يسره دائماً أن يفعل ذلك في الكتابة أيضاً، بصورةٍ جزئية، نوعاً من الألمانية القديمة. وكان له في هذا الصدد، فيما يتعلق بالنقائص وبنيان الجملة غير المكتمل، على الدوام شأن ينطوي على الشك والخلاف الذي يمكن أن يغتفر له، فما أقرب العهد الذي شبَّت منذ حلوله لغتُنا عن طَوْق البربرية وتم تنسيقها من الوجهة النحوية ومن الوجهة الإملائية على المستوى المتوسط!.

وبدأ الحديث بصوتٍ جد خافت وهو يغمغم بحيث لم يكن يفهم حديثه إلا أقل الحاضرين عدداً، ولا كوَّنوا صورةً عن شيء منه، أو كانوا ينظرون إليه، فيما عدا ذلك على أنه عبارة مجاملةٍ هزلية، كان نصها على وجه التقريب كما يلي:

«انتبهوا ياإخواني واخواتي الأعزاء على وجه الخصوص»

ثم أخلد الى الصمت هنيهة، كأنما يفكر وقد أسند وجنته الى يده المنتصبة على مرفقها. أما ما أعقب ذلك فقد أصبح على النحو ذاته تمهيدياً مزاجياً، يُفهم على أنه من قبيل الهزل أو يدعو إليه. وعلى الرغم من أن افتقار لسانه الى مرونة الحركة ونظرته المتعبة وشحوبه كن يتناقضن مع هذا، كانت تنطلق هنا بعدُ ضحكةٌ مترفِّقة، في سهولةٍ من خلال الأنف، أو قهقهةٌ للسيدات، في أنحاء القاعة.

وقال: «أولاً أريد أن أشكركم، شكراً تستحقونه مني، لما أبديتم من المعروف والصداقة اللتين أوليتموهما إياي بمجيئكم مشياً على الأقدام، وبالسيارة، إذا كتبت إليكم من الأرض القفر في هذا الركن المنزوي، ودعوتكم، وناديتكم، وأوعزت بدعوتكم عن طريق مساعدي الوفي المخلص وصديقي الخصوصي الذي مازال يعرف كيف يذكرني بحياتنا

المدرسية أيام الصبا، حين كنا ندرس في هالّه معاً، وكيف بدأ الكبرياء والويلات منذ هذه الدراسة، ليواصلا زحفهما الى كلمتي».

وهنا نظر إليَّ كثير منهم وهم يبتسمون ابتسامة الرضى، وأنا الذي لم يكن في وسعه أن يبتسم من فرط التأثر، إذ لم يكن يبدو على الصديق الغالي، أبداً، كأنه يتذكرني بهذه الذكرى الواهية، ولكن حين رأوا الدموع في عينيّ، كان هذا على وجه الخصوص باعثاً لإمتاع معظمهم. وإني لأذكر باشمئزاز أن ليوتْسِنك هزّ أنفه الكبير الذي كان يتهكَّم عليه كثيراً، في منديل جيبه، ليرسم صورة كاريكاتورية لتأثُّري الواضح، الأمر الذي عاد عليه من جديد ببعض القهقهة، وبدا أن أدريان لم يلاحظ هذا.

ومضى قائلاً: «ولابدَّ لي أن أعتذر إليكم باديءَ ذي بدء» (وأصلح لفظة كلمة «أعتذر») وأرجو منكم ألاّ تستاؤوا لأن كلبنا «المُهاب»، الذي يسمى سوسو، ولكن اسمه في الحقيقة «المهاب»، قد تصرف تصرفاً بالغ السوء ونبح في وجوهكم وعَوى الى حدٍ فظيع أمام آذانكم، إذ تجشمتم مثل هذا الجهد والمشقة من أجلي، وكان يحس بنا أن نسلِّم كل واحد منكم صفارة صغيرة ذات صوت فائق الارتفاع، لايسمعها إلا الكلب، بحيث كان خليقاً أن يفهم عن بعد أنه لايأتي إلا أصدقاء طيبون مدعوون تحدوهم الرغبة في أن يسمعوا مني ماصنعته في حراسته، وكيف كنت أمارس هذا في كل هذه السنين».

وانطلق الضحك الى حدٍ ما بأسلوبٍ مهذب على الصفارة الصغيرة، من جديد، ومن بعض الجهات وإن كان ذلك مقترناً بالشعور بالوحشة. غير أنه مضى قائلاً:

«والآن لديّ رجاءٌ منكم، مسيحيٌّ وديّ، ينبغي لكم ألا تتلقَّواْ ماأعرضه لكم بقبولٍ سيىء بل ينبغي أن تفهموه أحسن الفهم لأني أُحس برغبةٍ حقيقية في أن أقدم إليكم شيئاً طيباً وبريئاً وإذا لم يكن بعيداً عن الخطيئة فهو بلاريب مجرد خطيئةٍ مألوفةٍ ومحتملة أنا أزدريها من أجل ذلك من كل قلبي غير أني أحسُدُها بحرارةٍ بالغة إذ تصنع ذاكرةً تنطوي على التعاطف الكامل مع الإنسان مادامت الساعة الرملية تنتصب أمام عيني، وهي الساعة التي لابد أن أواجهها عندما تكون قد سَرَّبت آخر الذرات الدقيقة عبر المضيق، وسوف يدركني هو الذي اخطأت في الكتابة ضدهُ بدَمي كتابةً باهظةً أريد معها أن أكون تابعاً له بجسدي وروحي الى الأبَد وأن أسقط بين يديه، وأسقط بعنف، متى تسرَّب الرمل كله من الساعة الرملية، ويكون الزمن الذي هو بضاعته قد جرى الى نهايته».

وهنا سُمِعت مرة أخرى ضحكات من خلال الأنف ولكن كان هناك أيضاً بعض التَمطق باللسان والحلق الى جانب هز الرأس كما يفعل المرء حيال الخروج عن اللياقة، وبدأ بعضهم يلقي نظرةً فاحصةً متجهمة.

وقال الذي على المنصة: «فلتعلموا إذاً، أيها الأخيار والأنقياء، الذين تستريحون بخطيئتكم المعتدلة في الرب» (وصحح مرة أخرى لفظ الجلالة، غير أنه عاد بعد ذلك الى القالب الآخر) «أنتم الذين تستقرون في رحمة الله ورعايته لأنني طالما أخطأت في طباعة ذلك عندي غير أني لاأريد أن أتصرف بَعدُ على هذا النحو معكم، وأنا مستعد كل الاستعداد منذ عامي الحادي والعشرين إذ تزوجت من الشيطان وعرضت نفسي عن علمٍ، للخطر، بدافع الجرأة والزهو والجسارة التي فكرت فيها فأطلت التفكير لأنني أردت أن أصل الى مجدٍ في هذه الدنيا، وأنشأت

وعداً وتحالفاً معه، على أن يتحقق بمعونته كل ما قدمت لنفسي خلال مهلتي الأربعة وعشرين عاماً، وهو ماينظر إليه الناس بحق نظرةً تنطوي على سوء الظن، وهو من عمل الشيطان، وقد سَبَكَهُ ملاك السم. ذلك لأنني كنت أقول في نفسي: من يريد أن يلعب لعبة الكيجل فلابد له أن يراهن ولابد للمرء اليوم أن يبايع الشيطان لأن المرء لايمكن أن يحتاج من أجل عملٍ كبير الى أحد سواه، ولايمكن أن يحظى بغيره».

وساد الآن سكون متوتر الى حدٍ مزعج في القاعة، ولم يكن هناك إلا القلائل ممن كانوا يصغون وهم بعدُ مرتاحون، وكان المرء يرى في مقابل ذلك كثيراً من الأهداب والوجوه المرفوعة، التي كان يقرأ فيها: الى أين يريد هذا، وما هو واقع الحال هنا؟ وهل تراه ابتسم أو غمز بعينيه ليسم كلماته بسمة التعمية التي يلجأ اليها الفنانون، إذاً لكان هذا كله شيئاً لاغبار عليه ونحن بعد في منتصف الطريق غير أنه لم يفعل ذلك بل لبث قاعداً هنا في جدٍ شاحب وكان بعضهم ينظر إليّ في تساؤل عما يكون المقصود بهذا وكيف أزمعُ الإجابة عليه، وربما كان عليَّ أن أتقدم فأُفُضَّ المجلس - ولكن بأي تبرير؟ لم يكن هناك إلا تبرير يذهب بمكانة المرء ويضحي به، وكنت أشعر أنه لابد لي أن أدع الأمور تأخذ مجراها على أمل أن يشرع عما قريب في العزف من عمله الفني ويقدم ألحاناً بدلاً من الكلمات. ولم يسبق لي أبداً أن شعرت بفضل الموسيقا التي لاتقول شيئاً وتقول كل شيء على صراحة الكلمة شعوراً أشد من هذا، بل بكون الإنسان غير ملتزمٍ في الفن على وجه الإطلاق، وأقصد ذلك البُعد عن الالتزام الذي يقي ويحمي بالمقارنة مع فجاجة الاعتراف الفضّاح الذي لاسبيل الى نقله، غير أن مقاطعة هذا لم يكن

تتعارض عندي مع التهيب والوجل فحسب بل كان تقتضي من جُماع روحي أن أستمع وإن لم يكن بين أولئك الذين كانوا يستمعون معي إلاّ فئة جِدُ قليلة جديرةٍ بذلك، وكنت أقول في نفسي للآخرين تحمَّلوا واصبروا فحسب واسمعوا إذ دعاكم جميعاً على أنكم رفاقه في الإنسانية!.

وبعد وقفة للتفكير بدأ الصديق في الكلام مرةً أخرى:

لاتصدقوا: أيها الإخوة والأخوات الأعزاء، أنني كنت في حاجة من أجل الوعد وإنشاء العهد الى مفترق طريق والى كثير من الدوائر والاستحضار الفظّ، مادام القديس توما ذاته يعلمنا أن الارتداد لا يحتاج الى كلمات تحدث بها الاستغاثة، بل تكفي أية فعْلة، حتى من دون مبايعة صريحة، إذ لم يكن هناك سوى فراشة عادية وفراشة ملوَّنة، وكانت هيتيرا إزميرالدا هي التي فعلت ذلك لي بالملامسة، ساحرة اللبن، وتبعتها في ظلال الأحراش المعتمة التي يحبُّها عريُها الشفاف، وكلَّما أهوَيْتُ عليها تذوَّقْتُ معها، على الرغم من تحذيرها، وهذا ماحدث، لأنها مثلما صنعت ذلك لي فعلته، وصفحت عني في الحب، - وبدلك اطّلعت وعقدت الوعد».

واختلجت، إذ كان هناك صوت عارض من جانب الحاضرين - هو صوت الشاعر دانييل تسورهوهه في ثوبه الكهنوتي، الذي كان يضرب الأرض بقدميه، ويقول وهو يدقُّها:

«هذا جميل، إن له جماله، حقاً، حقاً، هذا شيء يمكن للمرء أن يقوله!»

وكان بعضهم يصدر صوتاً كالصفير، واتجهت أنا أيضاً استهجن

المتحدث، إذ كنت في سرِّي أنطوي على الامتنان له على كلمته، لأنه على الرغم من أنه كان سخيفاً بما يكفي، دفعت هذه بما كنا نسمع تحت زاوية نظر باعثة للاطمئنان ومعتَرف بها، أي زاوية النظر الجمالية، لأنها مهما يكن من عدم ملاءمتها، ومهما يكن من إزعاجها إيايّ، فقد حققت بالقياس إلي، أنا أيضاً، تخفيف وطأة معين إذ كان يُخيّل إليّ كأن عبارة كانت تسري بين الجماعة تقول، في مواساة: «ياللعجب!» ورأت سيدة، هي زوجة الناشر رادبْروخ في كلمات تسورهوهه مايشجعها على هذه الكلمة:

«إن المرء ليحسَب أنه يسمع شعراً»

ويلاه، لم يلبث القوم يحسبون ذلك وقتاً طويلاً، وذلك أن الإدراك بالروح الجمالي لم يكن ليصمد طويلاً، ولم يكن لهذا علاقة بكلام الشاعر تسورهوهه عن فكاهة الطاعة الصعبة والعنف والدم ونهب العالم، بل كان ذلك جداً هادئاً، شاحباً، وكان اعترافاً وحقيقة كان إنسان قد جمع، في محنة روحه الأخيرة، رفاقه في الإنسانية، للاستماع إليها، وهذا حدث ينمّ عن الثقة العبثية بلاريب، إذ ليس الرفاق في الإنسانية هم المقصودون والمُصطَنعون ليواجهوا مثل هذه الحقيقة بغير الخوف البارد والحسم الذي أصدروه في هذا الصدد واضحاً جلياً، في أجل جد قريب، حين ما عاد من المهمّ أن يُنظَر إليه على أنه شعر.

ولم يكن هناك مايدلّ على أن تلك الاعتراضات وجدت سبيلاً على وجه الإطلاق الى مضيفنا وكان تفكيره إذا ماتوقّف مستغلقاً دونها على مايبدو.

واستأنف كلمته من جديد، قائلاً: «أيها الأصدقاء الأعزاء

المحترمون على وجه الخصوص، أذكروا أنكم تتعاملون مع امرئ مطرود من رحمة الله ويائس منه، لايدخل جثمانه مكاناً مطهَّراً بين المسيحيين الأتقياء الذين قضوا نحبهم، بل يعود الى مكان جيف الحيوانات النافقة المنتنة، وعلى النعش، أقول لكم هذا سلفاً، ستجدونه دائماً مُكبِاً على وجهه، ولو قلبتموه خمس مرات لعاد مكبّاً على وجهه من جديد، لأنني قبل أن أتذوّق الفراش السام، بزمن طويل، كانت روحي في كبريائها وزهوها بنفسها، في طريقها الى الشيطان، وظل أجلي غير محسوم، لقد بتُّ أنزع إليه منذ أيام الصبا، مثلما لابدّ لكم أن تعرفوا أن الإنسان قدّر له النعيم أو الجحيم من قبل، وكنت قد ولدت للجحيم. ومن أجل ذلك غذيت كبريائي بأن درست اللاهوت في هاله، في الجامعة، ولكن لا من أجل الرب. بل من أجل الآخر، وكانت دراستي للاهوت، في السرّ، بداية التحالف وشد الرحال المستتر، لا الى الله، بل إليه، الى الورَعِ الكبير. ولكن من أراد الشيطان فلاسبيل الى وقفه، ولا منعه، وماهي إلاّ خطوة ضئيلة من كلية اللاهوت نحو لايبتسج، الى الموسيقا التي أسلمت نفسي إليها وحدها، فما عاد يعنيني من ذلك إلا الرموز والإشارات والتعاويذ، أو تلك الأسماء التي تنسب الى استحضار الأرواح والسحر، كائنة ما كانت.

والنقطة المهمة أن قلبي اليائس أفسد ذلك عليّ بجرأة، إذ كان له فكر ومواهب سريعة، فأفضى بذلك إليَّ من عَلٍ، متفضِّلاً، وأنا الذي كان في وسعي أن أكون ذا فائدة مع التواضع، غير أني كنت أشعر بأنني على مايرام تماماً: إنه الوقت الذي ما عاد من الممكن فيه أداء عمل بطريقة ورعة، صاحية من السكر، بوسائل مشروعة، وبات الفن فيه غير

ممكن من دون مساعدة الشيطان ونار الجحيم تحت المرجل... أجل، وأجل، أيها الرفاق الأعزاء. أمّا أن الفن يتعثر، وقد بات مفرطاً في العُسْر، وهو يسخر من نفسه، وأن كل شيء بات مفرطاً في العسر، وماعاد مخلوق الله البائس يعرف مايأتي ومايدع في محنته، فذلك بلاريب ذنب العصر. ولكن فليُدعُ أحدكم الشيطان ضيفاً لكي يتخطى هذا وليحقق الاختراق، فإذا هو يجرّر روحه ويحمل وزر العصر في عنقه حتى يغدو ملعوناً. دلك لأنه يقال: فلتكونوا صاحين أيقاظاً ولكن هذا ليس شأن فريق من الناس، ولكن بدلاً من العمل بذكاء على تدبير ماهو ضروري في الدنيالكي تغدو الأحوال أفضل هناك، والعمل برزانة، على أن يسود بين الناس مثل هذا النظام الذي يضع للعمل الجميل أساس حياة من جديد، وانسجاماً مخلصاً معه، يجري الإنسان وراء المدرسة. وينطلق جامحاً في سكر جهنمي: وبذلك يسلم روحه الى هذا، وينتهي الى مكان جيف الحيوانات النافقة.

وهكذا، أيها الإخوة والأخوات الأعزاء، الطيبون، نظرت الى المسألة وجعلت كل شغلي ورغبتي في السحر الأسود والتنبؤات والتعاويذ والشراب السحري وسوى ذلك من الأسماء والكلمات كائنة ماكانت. وسرعان ما انتهيت أيضاً الى الحديث مع ذاك الفظيع اللئيم، في قاعة الأجانب، وكان لي كثير من الحوار معه، ولم يكن له بدٌّ أن ينبئني عن الصفة الجلية والأساس والمادة، بالشيء الكثير، كما أنه باعني الزمن، أربعة وعشرين عاماً لايُعرف مداها وقطع على نفسه وعداً لي ونذراً مقابل هذا الأجل، ووعدني بشيء عظيم وبكثير من النار تحت المرجل بحيث أغدو قادراً على العمل على الرغم من أنه غدا بالغ الصعوبة وكان

دماغي مفرطاً في الذكاء والتهكم على ذلك، وعلى الرغم من هذا كان مقدراً لي بلاريب أن أعاني من آلام كحزّ السكاكين حتى في ذلك الوقت مثلما عانت منها عذراء البحر الصغيرة في ساقيها، إذ كانت هذه أختي وعروسي الحلوة، وكان اسمها هيفيالتا. لأنه ساقها الى سريري زوجةً حتى أخذت أحبها وأظفر بحبها على نحوٍ مطرد، سواء أجاءتني بذيل السمكة أم بالساقين، على أنها كانت تأتي في كثير من الأحيان بالذيل، لأن الآلام التي كانت تعاني منها كأنها حز السكاكين فيي ساقيها كانت ترجح على المتعة وكنت كثير الاهتمام بالكيفية التي كان يتحول بها جسدها الرقيق ليكتسب ذلك الذيل المكسوَّ بالحراشف، بهذا الجمال، غير أن ماكان أعلى من ذلك هو افتتاني بالقوام البشري الصرف وهكذا كنت أجد من جانبي متعة أكبر حين كانت تؤانسني وهي ذات ساقين».

وحدث اضطراب بعد هذه الكلمات في مكان الحضور، وانتفاضة، وذلك أن السيد شلاجنهاوفن وزوجته، المسنين نهضا عن مائدتهما وقاد الزوج زوجته من مرفقها بين المقاعد ليخرجا من الباب من دون أن ينظرا يُمنةَ أو يُسرة ولم تمض دقيقتان أيضاً حتى سمع القوم في المزرعة محرك سيارتهما ينطلق في كثيرٍ من الجلبة والفرقعة وفهموا أنهما انصرفا.

وكان هذا باعثاً للشعور بالحرج بالقياس الى فريق من الناس إذ خسروا بذلك السيارة التي كان الكثيرون يأملون أن يُعاد نقلهم بها. ولكن لم يلاحظ ميلٌ بين الضيوف لمتابعتهم في ذلك. كان القوم يقعدون كالمسحورين وحين عاد السكون في الخارج بعد انصراف السيارة سمع القوم من جديد تسورهوهه يقول عبارته الحاسمة: «جميل بالطبع، إنه

لجميل! »

وهممت أنا أيضاً أن افتح فمي وألتمس من الصديق أن يكتفي من التمهيد بهذا وأن يعزف لنا الآن من عمله الفني، حين واصل كلمته، غير متأثر بالحدث العارض، قائلاً:

«ثم أصبحت هيفيالتا ذات جسدٍ كجسد الحامل، وانجبت لي ولداً صغيراً تعلقت روحي كلها به، صبياً صغيراً مقدساً، مباركاً، فاتناً فوق كل ماهو مألوف وكأنه بطل البلاد البعيدة القديمة ولكن لما كان الولد من لحمٍ ودم، وكنت ملتزماً، بحكم العقد أن لا أحب مخلوقاً بشرياً فقد قتله من دون رحمة واستخدم من أجل ذلك عينيّ هاتين. ذلك لأنه لابد لكم أن تعلموا أنه عندما تكون الروح مدفوعةً الى الفساد بقوة تكون نظرتها سامة كالأفعى، بالقياس الى الأطفال على الأغلب وهكذا ولى عني هذا الولد الصغير المفعم بالأقوال الحلوة في شهر آب وكأنني كنت اعتقد أن مثل هذه الرقة مباحة لي كما أنني أحسب أيضاً، حتى من قبل، أنني، بحكم كوني راهب الشيطان يجوز لي أن أحب ماهو من لحم ودم، على أن لايكون أنثوياً، غير أنه اكتسب ثقتي التي لاحدود لها إلى أن أتحتها له. ومن أجل ذلك لم يكن لي بدُ أن أقتله وأرسله الى الموت حسب الإرغام والتوجيه لأن الأستاذ كان قد لاحظ أنني أفكر في الزواج المشروع واستبد به غضبٌ جامح لأنه كان يرى في الزواج الارتداد عنه وتسللاً في اتجاه المصالحة، ولذلك أرغمني على أن استخدم هذا المشروع على وجه الخصوص لأقتل أخا ثقتي بأعصابٍ باردة وأريد أن اعترف بذلك اليوم وهنا أمامكم جميعاً، أنا الذي أقعد أمامكم، أنني قاتل أيضاً».

وغادرت مجموعة أخرى من الضيوف في هذا الموضع القاعة، وهي: هلموت إنستيتوريس الضئيل الذي نهض في احتجاجٍ هادئ شاحباً وقد انشدت شفته السفلى الى أسنانه، وصديقاه، رسام الأشكال المسطحة نوتبوم الى جانب زوجته ذات الطابع البرجوازي المفرط والصدر العالي الذي دأبنا على تسميته بالصدر الأمومي. وإذاً فقد ابتعد هؤلاء في صمت. غير أنهم لم يلتزموا الصمت في الخارج إذ دخلت بعد خروجهم بلحظات قلائل السيدة شفايجشتل بهدوء، في صديريها وبجمجمتها ذات الشعر الأشيب المشدود ولبثت واقفة ويداها مضمومان بالقرب من الباب وكانت تسمع كيف كان أدريان يقول:

«ولكن أي خاطئ كنت أنا، أيها الأصدقاء، كنت قاتلاً عدواً للبشر، متفانياً في حب الشيطان، وهكذا كنت أجتهد بجدٍ ونشاط على نحو متصلٍ، على الرغم من ذلك، عاملاً، ولم أندم أبداً» (وبدا مرةً أخرى أنه يتفكر ويصحح الكلمة لتغدو «لم أسترح»، غير أنه عاد الى كلمته الأولى «لم أندم») «ولم أندم بل تركت الحياة تغدو مريرة وثقيلةً أمامي، كما تقول كلمة الرسول: من يلتمس الأشياء الثقيلة تثقل عليه الحياة. ذلك لأنه مثلما لايفعل الله الشيء العظيم عن طريقنا من دون جهدنا فإن الآخر لايفعل ذلك أيضاً، إلا أنه كان لايلتفت مني الى الخجل وتهكم الروح في هذا العصر معاكساً للعمل الفني أمّا ماتبقى فلم يكن لي بدٌّ أن أنهض به بنفسي، وإن كان ذلك أيضاً تبعاً لقوالب غريبة. فكثيراً ماكان يرتفع عندي صوت آلة محببة، من أورغنٍ، أو إيجابيٍ، ثم الجُنك، والأعواد، والكمنجات والأبواق والمزامير القصيرة والقيثارات الضئيلة، وكل ذي أربعة أصوات، حتى لقد كنت خليقاً أن أعتقد أنني

في الجنة لولا أنني كنت أعرف أن المسألة على غير هذه الصورة. ودوَّنت كثيراً من ذلك. وكثيراً ماكان في الحجرة معي أطفال معيّنون صبيان وبنات كانوا ينشدون لي من صحائف النوتة ترتيلةً جماعية، وكانوا يبتسمون لي ابتسامة ماكرة غريبة في أثناء ذلك ويتبادلون النظرات. وكانوا أطفالاً ذوي حسن فائق. وفي بعض الأحيان كان يرتفع شعرهم كأنما من جراء هواء ساخن، وكانوا يصقلونه من جديد بأيديهم الجميلة التي كان فيها نقرات وعليها أحجار ياقوت صغيرة، وكان يخرج من مناخيرهم في بعض الأحيان ديدان صفر في حلقات تجري منحدرة الى صدورهم وتتلاشى».

وكانت هذه الكلمات الآن، مرة أخرى، إشارة الى بعض المستمعين ليغادروا القاعة: وكان هؤلاء هم المثقفون: أونروهه وفوجلر وهولتسشوهر، الذين رأيت منهم عند الخروج معاصمهم تضغط على أصداغهم. ومع ذلك فقد ظل سكستوس كريدفيس، الذي كانوا يتناقشون فيه، في مكانه، وعليه ملامح الانفعال الشديد، كما ظل بعد حالات الخروج على الدوام بعض الحاضرين الذين يناهزون العشرين، وإن كانوا واقفين، بأشكال عديدة، ومستعدين للهرب، وكان ليوتسنك يظل رافعاً حاجبيه في توقّع شرير ويقول: «يايسوع، كلاّ!» كما دأب على ذلك كلما أريدَ منه أن يحكم على صورة أخرى. وكانت طائفة من النساء قد اجتمعن حول ليفركون كانما يحمينه: كونيجونده روزنشتيل، وميتا ناكيدي، وجانيت شورل، هؤلاء الثلاثة. أما إلزاشفايجشتل فظلت على مسافة منه.

وسمعنا:

«وهكذا أضفى الخبيث على كلماته القوة بالإخلاص على مدى أربعة وعشرين سنة. وانتهى كل شيء حتى آخر مافيه، وأتممت ذلك في معترك القتل والزنى، وربما أمكن أن يكون بدافع الرحمة ماتمّ عمله بنيّة خبيثة. فأنا لاأعرف ذلك. وربما رأى الله أنني التمس الصعب فجعله يغدو مريراً بالقياس إليّ، وربما، ربّما حُسِبَ لي، وكُتِب لصالحي، أنني اجتهدت كثيراً وأنجزت كل شيء في تماسكٍ وشدة مراس - لاأستطيع أن أقول ذلك، ولا جرأة عندي على الأمل فيه، فخطيئتي أكبر من أن تغتفر لي، ولقد تماديت فيها الى أقصى الحدود بأن دماغي كان يمارس التأمُّل والنظر، فليكن الكفر المنكسر بإمكانية الرحمة والمغفرة هو الأكثر جاذبية للفضيلة الأبدية، حيث يتبين لي بلاريب أن مثل هذا الحساب الوقح يجعل الرحمة مستحيلة كل الاستحالة. ولكن حين استندت الى ذلك مضيت في تأمُّلي وحسبت أن هذه الدناءة الأخيرة لابد أن تكون الحافز الأقصى للفضيلة، لكي تثبت لانهائيَّتها. وهكذا دواليك. أي أنني كنت أمارس مباراة منكرة مع الفضيلة هناك، الأمر الذي لاينضب معينه، هو، أو تأمُّلي، وهنا أنتم أولاء ترون أنني ملعون، ولارحمة لي لأنني أفسد كل رحمة سلفاً عن طريق التأمُّل، ولكن لما كان الوقت الذي اشتريته فيما سلف بروحي قد انقضى، فقد دعوتكم إليَّ قبل نهايتي، أيها الإخوة والأخوات الطيبون الأعزاء، ولكن أخفي عنكم رحيلي بالروح، وأرجو منكم بعدها أن تتكرّموا بذكري بالخير، وأن تحيّوا الآخرين الذين نسيت أن أدعوهم، عني تحية الأخوة وألاّ تحملوا الى جانب ذلك، شيئاً مني على محمل السوء، وبعد أن قلت هذا كله واعترفت به، أريد أن أعزف لكم، على سبيل الوداع، قليلاً من التركيب الذي سمعته من آلة

الشيطان العذبة، والتي كان الأطفال الماكرون ينشدون لي جزءاً منه».
ونهض قائماً، شاحباً كالموت.
وسمع في السكون صوت الدكتور كرانيش المتميز بوضوح مخارج الحروف وإن كان مشوباً بالربو، يقول: «هذا الرجل مجنون، ولايمكن أن يكون في هذا شك منذ عهد بعيد، وإنه لما يدعو الى الأسف الشديد أن علم طب المجانين ليس ممثَّلاً في محيطنا، وأنا، بحكم كوني مختصّاً في النُّميات أشعر أنني غير مختص هنا البتّة».
وبذلك خرج هو أيضاً.
وكان ليڤركون، الذي كانت تحيط به النساء المذكورات، وشيلدكناب وهيلين وأنا، أيضاً، قد جلس الى بيانو المائدة البنيّ، وجعل يسوّي بيمناه أوراق النوطة. ورأينا الدموع تجري على وجنتيه وتسقط على مفاتيح البيانو التي ضربها، على مافيها من البَلَل، في أشكال من التوافق (الأكورد) شديدة التنافر، وفتح فمه في أثناء ذلك، كأنما ليغنّي، ولكن صوتاً نُواحيّاً فحسب، ظل عالقاً في أذني الى الأبد، وانبثق من بين شفتيه، وبسط ذراعيه، راكعاً فوق الآلة، وكأنما كان يريد أن يحيط بها، وسقط فجأة، كأنما صُدِم، عن مقعده في اتجاه جانبيّ، الى الأرض.
وكانت السيدة شفايجشتل التي كانت تقف على مسافة أبعد، أسرع إليه منّا نحن الأقربين، الذين ترددنا ثانية قبل أن نتلقّاه، ولست أدري لماذا. ورفعت رأس الرجل فاقد الوعي وجذعه بين ذراعيها الأموميَّتين، وصاحت في اتجاه جانبي في داخل الحجرة، تجاه أولئك الذين كانوا مازالوا يحملقون:

«هيّا، تابعوا هذا، أنتم جميعاً! أنتم ليس لديكم فهم، ياأهل المدن، وهذا يحتاج الى فهم هنا! لقد تحدث كثيراً عن الرحمة الأبدية، هذا الرجل المسكين، وأنا لاأعرف هل يجدي هذا، ولكن الفهم الإنساني حقاً ينفع في كل شيء، صدقوني!».

محمد جديد

٢٠٠٠/٨/٢




محمد خطاب

توماس مان

نوبل ١٩٢٩

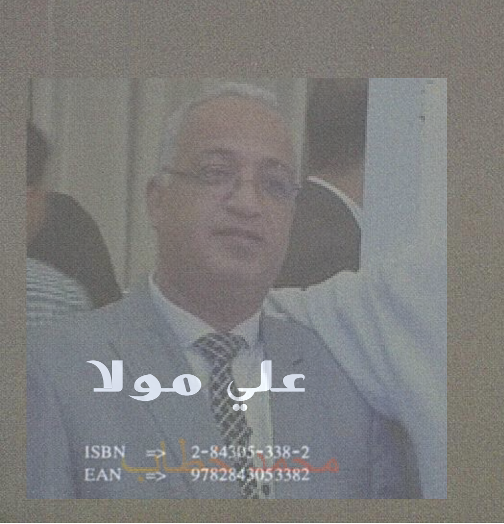
* عام ١٨٧٥ ولد توماس مان لإسرة عريقة،فالأب ينتمي الى أسرة ارتقت أعلى المناصب الإدارية، أما أمه فقد عشقت الفنون خلال حياتها الطويلة.

* عام ١٩٣٦ نزعت الحكومة النازية عنه الجنسية الألمانية، فعاش في سويسرا.

* بدأ حياته الأدبية بالقصة القصيرة من خلال مجموعته الأولى (منزل السيد فريد مان) اتجه بعدهاالى الرواية فكانت رائعته (آل بودنبروك)

* أهم أعماله (آل بودنبروك) ١٩٠١، (الجبل السحري) ١٩٢٤، ثلاثية (يوسف وأخواته) ١٩٤٠.

* عام ١٩٤٧ نشر روايته (دكتور فاوستوس)، إنها تحكي التاريخ الألماني المعاصر حتى اندلاع الحرب العالمية الثانية، وأبطال الرواية مهمومون وقلقون دائماً وبعضهم مستعد للتحالف مع الشيطان من أجل تحقيق أهدافه. فليس هناك اختلاف بين فاوستوس وأدولف هتلر، فكلاهما تعاقد مع إبليس وكلاهما يحمل جنونه الداخلي كي يصبّه على العالم من حوله.



علي مولا

ISBN => 2-84305-338-2
EAN => 9782843053382